إدوار الخراط

طريق النسر

رواية



طريق النسر
رواية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

إدوار الخراط

طريق النسر

روايـــة



الكتاب : طريق النسر
رواية

الكاتب : إدوار الخراط

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٣٠١٦/ ٢٠٠٢
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-367-4

لوحة الغلاف : للفنان سامى على
جرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد حرزاوى
تصحيح : زكريا منتصر

«أربعة لا أعرفها:

طريق نسر فى السماوات ،

وطريق حية على صخر ،

وطريق سفينة فى قلب البحر ،

وطريق رجلٍ بفتاة ،

كذلك طريق المرأة الزانية أكلت ومسحت فمها ،

وقالت: ما عملتُ إثماً»

التوراة - أمثال

٣٠/ ١٨ - ٢٠

الفصل الأول

كنت أعرف أنهم سيأتون

سيأتون الليلة، بلا شك

ولكن ماذا أفعل؟

ليس بوسعي أن أدبّر طريقةً للهرب، أو حتى أن أقضي الليلة عند صديقٍ مأمون الجانب، وغير معروفٍ لهم. لم أكن قد أعددت العدة للاختفاء فترة لا أعرف مداها، لا يمكن أن تكون يومين، ثلاثة، بل قد تطول أسابيع أو شهوراً، وربما سنواتٍ، من يدرى؟ فى كل الأحوال كيف يمكن لأمي وأخواتي أن يدبّرن أمر حياتهن - ولا عائل لهن غيرى ولا مورد عندنا غير مرتبى. ثم إن حلقتنا الثورية الصغيرة فقيرة إلى حدّ العدم، كنا نجمع نقودنا النزرة من بعضنا بعضاً ولا نكاد نلمّ الجنيه على بعضه، فكيف يمكن أن أسيّر أمر اختفاءٍ طويل؟ أو خروجٍ من البلد؟ أو -حتى - تغيير مقرّ إقامتى؟

هذه كلها فروض مستحيلة

لا مفرّ إذن

سيأتون ويأخذونني - لا بأس، لعل هذا أقلّ ثمن ممكن.

ومع ذلك فقد لا يأتون فى النهاية. قد تكون كل هذه الاحتمالات غير واردة على الإطلاق، ما يدرينى أنهم يعرفون مَنْ أنا - حتى - ماذا أفعل، وأين أُقيم؟

ما يدرينى أنهم وضعونى حقاً على القائمة؟

قد لا يحدث شيء.

على سبيل الاحتياط البحت، «نظفت» مكتبتى الصغيرة، وغرفتى، وبيتى كله، من أى شىء قد يرون فيه ما يؤيد شكوكهم، إن كان ثمت، أو ما قد يشكل أدلة اتهام ممكن. بل أكثر، لم أُعدّ مثلاً حقيبة صغيرة فيها غيارات، وعدّة الحلاقة، وبيجاما أو جلابيّة، كما كان المفروض أن أفعل، وكما اعتدت أن أفعل كثيراً فيما بعد.

بهذة القَدَريّة، أو مُغالبة القدريّة، التى لعلها تتنافى تماماً مع بُعد النظر، والحصافة الثوريّة، أويت إلى سريرى بعد منتصف الليل بقليل، جذبت البطانيّة الخفيفة علىّ، وغلبنى النوم.

استغرقت فعلاً فى نومٍ عميق، هل هو نوم العادلين أم نوم المحكوم عليهم بلا نقضٍ ولا استئناف ولا تعديل للأحكام؟

كنت أخذت ترام المَكْس بعد الظُهر، كان الحرّ قد هلّ علينا، وهواء البحر يهبّ، رائحة المدابغ الجافة اللاذعة المُنْتنة تفغم الحسّ، فى جيب جاكتتى الزرقاء الطويلة صفحتان بخطّى الصغير المنمنم جداً فى تصوّرٍ حارّ السذاجة وخالص النقاء عن حلّ مسألة فلسطين والدولة الديمقراطية العَلمانية المستقلة، دولة فى طريقها إلى اللادولة، إلى مجتمع لا طبقىّ ليس فيه حاكم ولا محكوم، بل لجانٌ حرّة مترابطة بفعل واقع الحب والمصلحة معاً، موحدة، غير منقسمة، ليس فيها استغلال ولا تدخل استعمارىّ من القُوى الإمبريالية، لا تُفيد منها الستالينية العالمية ولا تدعمها عن طريق معلَن أو خفيةً، فى صراعها مع الهيمنة الأمريكية الصاعدة، ليس فيها تفرقة ولا تميّز بين مسلم ويهودىّ ومسيحىّ، كلهم سواء، دولة على أية حال فى طريقها للزوال والاندثار- بالتآزر مع نُظم أمميّة جديدة بفعل زوال ضرورات القمع الطبقىّ.

هكذا كتبت.

أحقا كنتُ على هذا القَدْر المستحوذ من الإيمان المحرق؟ بصفاء قلوب الناس، وما يكاد يقرّبهم من الألوهيّة دون «استخدام» لألفاظ مطلقة؟

بل بمفردات ومصطلحات المادية التاريخية والصراع الطبقي، في مواجهة حيل الدول الكبرى المنتصرة بصلافة لا تُطاق، تلك القُوى العارمة الطاغية الخارجة لتوّها من غمار حربٍ مدمّرة، تتقاسم العالم على هواها، في يالتا أو واشنطُن أو الفيوم، وتتصارع على أشلائه؟

نزلت في آخر السكة، عبرتُ قضبان القطارات، ألقيت نظرة سريعة على الإعلان المكتوب بخط ثُلُث أبيض باهت «ثابت ثابت وشركاه، نترات الشيلي الأصلي»، على أرضيته الخشبية السوداء المشققة قليلاً بفعل هواء البحر المالح.

هبطت على دُحْديرة وعرة قليلاً من الرمل الجاف والحصى ونفايات جافة ثم ارتقيت عبر مرتفع مدكوك إلى كومة من البيوت الصغيرة الضيقة المتلاصقة، بينها ممرات ملتوية موحلة بمياه عكرة لها رائحة آسنة يلعب فيها الأطفال الصبيان والبنات حفاةً شبه عراة بجلاليبهم التي لا لون لها، واضحٌ أنها تقريباً على اللحم، تقف على مبعدة قليلة منهم، بلا حراك، بنتٌ لعلها في السادسة أو السابعة، في قدميها حذاء أسود لميع ناصع له مقدمة مدورة على شراب أبيض صغير، ترقبهم بعينين لامعتين، أمها ضفرت لها ضفيرتين تتدليان على ظهر فستانها المشجّر النظيف النازل توّاً من على حبل الغسيل، لا يمنعها عن النزول معهم إلا الشديد القويّ.

سلكتُ الطريق الذي أعرفه معرفة وثيقة إلى بيت سلامة البشلاوي من خلال المتاهة المتشابكة من الأزقة الأنيسة المُرحّبة - على كلّ خصاصتها - شبابيكها الصغيرة المعمولة مقاوْلة بأيدي ساكنيها، تطلّ منها زوجاتهم المرهقات: الشعر منكوش ملفوف تحت المدوّرة الزرقاء القديمة، لكن الصوت الحيّاني عالٍ وإن كانت فيه بحة من الصريخ طول النهار في العيال المعجونين بميّة العفاريت.

- أهلاً يا زميل. الحتة نوّرتْ.

كانت عايدة تقف على الباب المواجه لبيت سلامة.

تراخي جسمها المشدود عادة، واتقدت عيناها بنورٍ خاصٍ لا يبعث على راحة بل كان دائماً يثير عندى قلقاً.

اللمعة الحارة التى كنت أتوق بلهفةٍ مكتومة أن أراها تشتعل فى عينىْ زينب إذ تنظر إلىّ، هى التى أراها هنا، وترضينى، أو ترضى عندى غروراً ذكورياً أو لعله اعتزاز بأننى موضع وهدف هذه الاندفاعة من زميلة مرموقة لها دورها فى الحركة النقابية وهى فى الوقت نفسه امرأة فيها جاذبية لا نكران لها وأنثوية تتوهج من هذا الجسد القليل البض المتوفز، ومن سمرة عميقة أسيلة فى القسمات الحارة المسمسمة مع قوتها.

- اسم الله عليك يا زميل، نظبطوا عليك الساعة..!

ومع ذلك فهل كان فى العبارة الجارية المبذولة باسم الله ما يتنافى مع ما علّمته إياها، ساعاتٍ طوالاً وبالتدريج على هِينة ومهل، من دروس «المادية الجدلية»؟

أكملتْ، كأنما على مضض:

- سلامة بقى له مدة قاعد على الباب مستنّيك.

خطر بذهنى خطفاً أن عايدة فيها صلابة وقوة خاصة، هذه العاملة القديمة فى فاوريكة كرموز للغزل والنسيج، اشتغلت وهى فى الثالثة عشرة أو نحوها - مثل الكثيرات - بجمْع القطن السكَرته من تحت الأنوال، حتى وصلت رئيسة ورديّة. عرفت أنها كانت شغوفاً بقراءة «روايات الجيب» ومجلات «الاثنين وكل شيء» و«الكواكب» وتعرف شيئاً من التاريخ.

عايدة زميلة جمالات التى أحببت أختها مُنى حباً طفوليًا منذ سنوات عندما كنا نسكن حارة الجلّنار، وأترجم أشعار شيلى وكيتس وأنسخ ترجمات لأشعار طاغور وبودلير - كيف أمكننى الجمع بينهما؟ - على

شرائح ورق مستطيلة أقتطعها من كراسات المدرسة العباسية الثانوية.

سمعت من جمالات عن أسطى وردية البنات في الفاوريكة. اسمها عايدة تقرأ كثيراً وتدعو إلى إنشاء نقابة حُرة للعمال والعاملات. فأقنعت جمالات أن تدعوها لمقابلتي في بيت خالي سوريال. فقد كان مينا ابن خالي سوريال زميلاً لهما في الفاوريكة.

عندما التقينا في «غرفة الضيوف» في البيت الذى كان يقع في حارة وراء كركون غيط العنب مباشرة، كانت الغرفة حارّة وتفوح من كراسي الطقْم المنجّدة بقماش قطيفة مشجّرة رائحة تراب قديم.

انبثقت بيننا صداقةٌ فورية - مما يحدث لي نادراً - دون مقدمات وتوطّد بيننا نوعٌ من الألفة والحنان لا مبرر له، ربما، إلا حسٌ من جانبي بالأمن والونَس معها.

سرعان ما عرّفتني عايدة بزينب. أدهشني قليلاً أن زينب مثقفة قرأت كتب عبد الرحمن الرافعي وسلامة موسى، كانت نقابية مرموقة يحسب لها حساب في المصنع، واشتراكية بالمنزع قبل أن تكون اشتراكية بالتعقل والمنطق، وبعد أسابيع قلائل كانت حلقتنا الصغيرة - أو ما كنا نسميه «خليّة» - تتكون من عايدة وزينب وقاسم إسحاق وأنا.

وقع قاسم في حب زينب على الفور، حباً يتجاوز الجذابه المتكرر للنساء ويتجاوز المشتهَى الجنسيّ، وإن كان ذلك يكمن فيه. ولعل وجهها الذى يبدو كأنه تمثال فرعوني مستقيم الخطوط، وعينيها النفاذتين النجلاوين اللتين تتناقض خضرتهما المتألقة مع بشرتها الداكنة السمرة، إلى جانب حيوية جارفة، أسهمت كلها في أن يعرف قاسم - ربما لأول مرة - معنى الحب وسطوته.

هل كنتُ أكنّ لها - دون أن أعترف بذلك لنفسي لحظة واحدة - حُباً عميقاً؟

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب، سحابات رمادية ممزّقة

ومشعشة تنزلق على صفحة السماء التى أخذت تتضرج بالاحمرار المشتعل، وفى العلوّ الشاهق بين أطراف السحب، طائر وحيد عريض الجناحين، ينساب ببطء على موج السماء الساجي.

كان سلامة طويلاً ناحلاً وقوىّ الوجه، وفى بشرته التى لوحتها الشمس آثار جدرى قديم، ثَمَّ كومة صلبة من الشعر الأجعد تكاد تنبثق مباشرة فوق عينيه، من على جبهة ضيقة مدوّرة وعنيدة، وهو يقف يرحّب بى بحركة مفاجئة مشحونة بطاقة الاحتفاء.

تطايرت حول ساقيه دجاجات كانت تنقر الأرض المغروزة بحبات متناثرة من الذرة والغلّة والحلبة، بينما الديك الفخور بعرفه الأحمر ينطلق فجأة بأذان عالٍ من فوق الفرن الفلاحى المطفأ المعمول فى حوش البيت الصغير، عندما كنا نعبر الحوش أحسست بسخونة تفجّ من كانون صغير جنب الحائط، وسمعت زقاء ديكٍ آخر، من بعيد، يردّ على أذان الديك الفخور.

سلامة يسبقنى بخطوة ويتنحنح ويرفع ذيل جلابيته الكستور المقلّم، من بلل الأرض، يرفع صوته: اتفضل.. اتفضل يايوسف أفندى.. دستور ياهْل الدار.

قلتُ معاتباً من غير مرح حقيقى: دستور إيه يا سلامة؟ دستور ٢٣ ولاّ دستور الثورة؟

نظر إلىّ جاداً، لم يعجبه اللعب على الكلمات.

قبل أن ندخل الحوش معاً، لم تفتنى نظرة سلامة إلى عايدة، نظرة حبٍ وامقة ولكن صارمة، بخشونةٍ ظلّ يحتفظ بها، كأنما يعتز، دون إدراك واضح، بأنه يظلّ فلاحاً ابن فلاح مهما كان عمله فى مصنع الغزل والنسيج فى كرموز قد استغرق منه سنوات الصبا والشباب الباكر. قال لى إنه ترك قريته فى عزبة خورشيد عندما كان عمره عشرة أو إحدى

عشرة سنة واشتغل فى الفاوريكه، صبيًا على النول، كان ينام عند أحد بلدياته من أسطوات المصنع، على الأرض، حتى استطاع أن يوفّر قرشين من لحمه الحيّ، وجاء بأمه وأخواته البنات الثلاثة إلى هذا البيت الذى بناه بنفسه طوبة طوبة على أرض خراب، وكان عندئذ يسافر كل يوم من المكس إلى كرموز والعودة، لكنه - أَقَلّه - لا يدفع أجرة سكن، وكفاية عليه تكاليف كومبانيّة النور ووابور الميّة، تنكسر شهراً ويدفع شهرين وأهِى ماشية.

عندما دخلنا الفسحة - أو الصالة الصغيرة الوحيدة الصالحة للاستقبال والقعاد التى طالما حدثته فيها عن الثورة الدائمة ومبادئها وأهدافها- اتخذنا قعدتنا، برصانةٍ وإحساسٍ بالثقل ووطأة الأحوال، على الكنبة المغطاة بكليم معمول من بقايا قطع قماش متعددة الألوان متباينة النسيج.

كان قاسم إسحاق قد قال لى، بنوعٍ من الفرح والإحساس بالزهو، إن طالبًا بكلية الزراعة له اهتمام بالفلسفة اسمه عبد الفتاح خَلَف الله سمع بأننا نعمل فى الحركة الوطنية الثورية، ليس فقط تحت شعار الاشتراكية ومناهضة الاستعمار والاستغلال بل إننا نصرّ على أن تكون الحرية، حرية الفرد وحرية المجتمع معاً، هى القرين الحتمى للعدل، وإنّ ذلك قد استهواه جداً، وإنه طلب أن يلتقى بنا.

قال لى قاسم إسحاق:

- ياعمّ أنت أساساً مهتمّ بالفلسفة والأدب وأشياء من هذا النوع، هل تحب أن تلقاه؟

فقلت، مستشرفاً لقاءات حامية أنْ نعم بالتأكيد، وضرب لى موعداً فى قهوة الأكتع المزدحمة العالية أمام محطة مصر.

ومن اللحظة الأولى بهرتنى فيه وداعةٌ تبطّن حرارة عقلية وتفتحاً

روحياً، كان أكبر منى بسنوات قلائل، فى نظرته نضارة منعشة، ولم أجد عنده من يومها وحتى الآن، أدنى صلَف أو ادعاء، عرفت أنه ابن تاجر مَوَاشٍ مستور، يعنى على قدر من اليسار، من بلدة قريبة بجوار كفر الدوّار، وأن له أخوين أصغر منه أحدهما فى كلية الطب والآخر فى المعهد الدينى، سوف تتوثق بيننا صداقة حقيقية باقية عبر تقلبات الزمن، أما يومها فقد دعانى إلى تذوّق المهلبية بالمكسّرات التى يقدمها فى محلّ للألبان ومشتقاتها فى شارع محرم بيه، التقيت بعد ذلك بأيام، بسلامة فى هذا المحلّ الذى كان واسعاً ونظيفاً جداً وحسن الإضاءة، أرضيّته من البلاط المربعات الأبيض والأسود، له واجهة زجاجية عريضة على الشارع، من ورائها فترينة وضعت فيها برطمانات العسل الفلاحى الأصلى يطفو فيه الشَهْد الشمعى الأبيض وسط سلطانيات الزبادى المستدير من الفخّار بلونها البنّى المحروق، طعمها لذيذ خاص، بخيرها، فوقها طبقة سميكة من القشدة، وأطباق المهلبيّة، والرزّ باللبن، والهريسة الإسكندرانى، يغيّر ما تبقى منها كل يوم، فلم تكن الثلاجات الكهربائية العريضة شائعة عندئذ. وراقنى جداً أنه يمنحها بلا مقابل وفى كتمان إلى عائلات رقيقة الحال مستكنّة فى الحياء المأثور عن أدنى درجات الطبقة الوسطى.

توالت لقاءاتنا فى محلّ الألبان الذى كان يفتحه عبد الفتاح فى ساعات الفجر الأولى ليتلقى اللبن الطازج الوارد من الفلاحين على عربات الكارو، فى الأسطال المعدنية الكبيرة، ويتلقى رزقه من ورديات العُمال الراجعة من ورش السكة الحديد أو الذاهبة إلى كدحها الصباحىّ الباكر فى فبارك كرموز.

كان النور الكهربائى ينعكس لألاؤه على الواجهة الزجاجية الناصعة والموائد المستديرة، مغطاةً بطبقة لامعة من النحاس الأصفر المطروق، مرصوصة بنظام إلى جانب قيشانى الحائط الأبيض.

كنت في ذلك الفجر - هل كانت الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً؟ - مستغرقًا معه في حديثٍ مضطرم عن معنى العدالة وأنه لا قيمة لهذا المعنى من غير حرية الإنسان - كل إنسان - بينما كان يردّ عليّ بأن الحرية محكومة بقوانين وضعية وقوانين إلهية معاً، ومشروطة بأوضاع مادية واجتماعية لا فكاك منها، فأجيب - مثلاً - بأن توق الإنسان للحرية يتخطى كل حدود المواصفات الاجتماعية والميتافيزيقية. وانتبهت فإذا هذا الرجل الطويل ريفيّ المظهر في جلابيته الكستور المقلّم المقوّرة من غير ياقة افرنجي يقف بإزائنا ويصغي باهتمام بل بما هو أكثر من الاهتمام. كأنه مفتون أو مأخوذ أو مسحور بما لعله كان يدور في داخله دون أن يدركه أو دون أن يعطيه صوتاً وصيغة.

وبنوعٍ من اندفاع جرأة لا يملك أن يكبحها، مع خجل أو حرج من لا يعرف كيف يتكلم مع أفندية مشقفين، سأل: لكن ياأستاذ هوّ الإنسان مخيَّر أم مسيّر؟ حرّ أم مُجْبر؟ ربنا أعطانا العقل لكى نختار، أى نعم، لكنه فرض علينا إرادته لأن كل شيء يجرى بعلمه، يعنى هو عارف الواحد حيختار إيه، يبجى الإنسان مُخيَّر إزاى؟

وهكذا وضع سلامة - سألته عن اسمه - القضية التى حيّرت كثيراً من الفلاسفة ورجال الفقه وعلم الأصول، وعندما سألته عن عمله قال إنه جاء من الفلاحين واشتغل فى فاوريكة الغزل والنسيج فى كرموز، تعلّم الصنعة على يد أسطوات كبار، وعلّم نفسه القراءة والكتابة، ودخل النقابة، وكان نشطًا فى المطالبة بحقوق العمال فى الإجازات مدفوعة الأجر وفي التأمين الصحي ومكافآت نهاية الخدمة ويوم العمل ست ساعات بدلاً من وردية الثمانى ساعات، وبعد إضراب ٥ مارس طردوه من الفاوريكة، أعطوه أجر أسبوعين وقالوا له: «رُحْ رزقك على الله، عشان تبقوا تعلّوا صوتكم على أسيادكم» «الفلاح لما يتنجّر يجيب لنفسه وأهله مصيبة». وهكذا وجد سلامة نفسه على الرصيف، بعد أن

بنى بيتاً فى أرض خرابة المكس، كان يسدد ثمن الطوب والأسمنت واللوازم من أجرته الأسبوعية التى انقطعت فجأة، وهو الآن يكسب لقمته - هو وأمه ولا مؤاخذة أخواته البنات- كيفما استطاع، يوماً بيوم، مرة عند نجار دقّى، ومرة فى اصطبل حناطير، ومرة عند ميكانيكيّة العربات فى شارع الخديوى ومرة عتّالاً فى المينا، ولم يقل - عن حياءٍ ريفىّ راسخ - إنه يبيت هو وأمه وأخواته مرّة متعشين ومرّة من غير عشاء.

كنت أفرد له ساعتين صباحاً، من الساعة السادسة حتى الثامنة، يوم نعم ويوم لأ - كيف كنت أجد الطاقة والجهد؟ - نجلس معاً فى آخر محل الألبان وقد هدأت حركة البيع فى هذا الوقت من الصباح.

أقنعته بما كنت أومن به إيماناً عميقاً - ربما حتى الآن - أن الملكية سرقة أو ثمرة مسمومة لسرقة، وأنها غير مبررة بحال وغير مشروعة.

كم تبدو هذه العقيدة الآن غريبة، إما مضحكة إلى حدٍ ما، وإما جنونيّة، ومع ذلك فكم هى راسخة فى وجدانى، عميقة ولا عقلانية ربما ولكنها حتمية الصحة والدقة.

كنت ألقّنه - كما لو كنت ألقّن نفسى - أن العدالة صنو الحرية وقرينها ولا انفصال ممكناً بين تحرر أرض الوطن وتحرر الوطن من لوثة الاستغلال، وبينهما وتحرر النفس من لوثة خزعبلات النصوص القديمة.

كنت أحس أن هذا الشاب الفلاح طويل القامة خشن العود، الذى لعله يكبرنى بسنتين أو ثلاث، كأنما هو بمثابة ابنٍ لى أحببته كثيراً وأخلص لى الودّ والإكبار. فلماذا تركته يتصور أننى أنازعه حُبّه عايدة؟ بينما أنا أصغو بالهوى المكتوم غير المعترف به لغيرها؟ لماذا تركته يتخيل أن ثمّ صراعاً بين ذكريْن على أنثى؟

وعلى الفور سخرت من الفكرة بل رفضتها.

فهل كان ذلك لأننى ظننت فى صفّى أننى مثقف وقيادىّ وغير مدلّه

بحبها، لكن هاملتيّ في العمق، وفي صفه أنه قويّ الرجولة مستقيم واضح وكامن العنف ومثير؟

في ذلك اليوم، ١٥ مايو ١٩٤٨، بعد أن رجعت من المكس الساعة السابعة بالضبط، كان ميعادي مع عايدة التي أصرّت عليه بإلحاح نهائيّ، كأنما كانت تحدس بغموض أننا لن نلتقي أبداً بعدها، عند باب محطة مصر على أول شارع محرم بيه.

جئت متأخراً قليلاً، رأيتها واقفة على الباب الحديديّ الصغير، هي نفسها، صغيرة، أنيقة أناقة بنات البلد المعتادة: بلوزة من قماش البَرَاشوت الحريري من مخازن البحرية البريطانية كنت قد أهديتها إياه وصبغَتْه أصفر، فصّلتْه وخيّطتْه على مقاسها، البلوزة محبوكة على صدرها لا تكاد تشفّ عن القميص الداخلي بحمّالاته الرفيعة جداً، شريطين حريريّين من شرائط البراشوت نفسها، كانت قد صبغت شفتيها اللحيمتين بروج قانٍ عميق وكحلت عينيها السوداوين - نهائيتيّ السواد - بشرطة فرعونية نازلة قليلاً على أعلى الوجنتين، زوّقت نفسها كما لم أرها من قبل، وسحرني زواقها وهزّتني دلالته، كانت اليوم لا تضن عليّ بنفسها، لا بجسمها المدوّر الممشوق فقط، بل بكلّ ما هي: جسدانيتها وثوريتها، صلابتها في يقينها الوطنيّ والعمّاليّ ولدونتها في حبها واستسلامها الذى لم يكن تسليماً بل هِبة، ولم يكن خضوعاً بل تأكيداً للندّية.

وللمرة الأولى والأخيرة أخذتها إلى غرفة شارع الزهرة في محرم بيه، على سطح بيت من أربعة أدوار، استأجرتها باسم عبد العليم خاطر ولم يكن يملك مفتاحها غيري، وضعتُ فيها مكتبة اللجنة الثورية، ومخطوطاتنا، ومنشوراتنا، ومَكنة الطباعة المرتجلة البدائية على الإستنسل، وفيها أيضا كنت قد وضعت على جنب، في الركن، حقيبة قماش كاكي من مخلّفات الجيش البريطاني، فيها القنابل اليدوية الحيّة

الثلاث التى نقلتها ذات ليلة شتوية باردة من غرفة أحمد النمس وحلمى الريّس وشوقى محمود فى المنشية، ركبت الترام والقنابل فى جيب معطفى الكحلىّ الإنجليزىّ حتى هذه الغرفة، كنت أمسكها، ثلاثتها، بيدى اليسرى حتى لا تهتز باهتزاز الترام، أو تصطدم إحداها بالأخرى أو ينفك مسمار الأمان فيها.

كنت قد بعت السرير النقّالى القديم والمرتبة والدولاب لبائع روبابيكيا لكى أدفع بثمنها أجرة الغرفة التى حرصت ألا تنكسر علىّ شهراً واحداً، وعلى الحصيرة، تحت ضوء مصباح كهربائى واحد متدلٍ من السقف، وجنب مائدة عليها مخطوطة «الاشتراكية وسيكولوجية فرويد» وفازة كبيرة وحيدة فيها زهور أوشكت على الذبول، أخذت عايدة بوجهها الحبشىّ فى حضنى، وبرفقٍ خلعت عنها البلوزة الحريرية الصفراء والجيبة الخفيفة المسبوكة على ردفيها الوثيقين، ونضوت عنها الكومبين السمنىّ الساتان، بحمالاته الرفيعة جداً، ورأيت أن حافته العليا قد تآكلت قليلاً، ونزعت مشبك السوتيان البيج فانفك بصوت طلقة صغيرة. انهمر ثدياها اللذان فاجآنى أنهما وفيران على خصرها النحيل، ومتماسكان فى لدونة، وعندما أخذت شفتيها فى فمى تذوقت طعماً سكرياً إلى حدٍ ما.

شهقتْ شهقة فيها ألم اللذة عندما دخلت فى شقّها الطرىّ الندىّ. كان فعل الحب للمرة الأولى والأخيرة معها، على الحصيرة ونحن على الأرض مثيراً بشكل خاص.

غريبٌ - ولعله عندى ليس غريباً على الإطلاق فى النهاية - أن المرة الواحدة الوحيدة من فعل الحب تصنع أو تضع ميثاقاً دائماً وأبدياً وليس مجرد أمرٍ عارض أو عابر، ليس مجرد إطفاء لرغبة عادية، بل هو ختم ووشمٌ لا يزول. عقيدة الجسد.

عندما استرحنا تبادلنا قبلة حنان وسلام.

تمطت وهى تتنهد براحة، ذهلت إذ وجدت أن جسمها قد استطال وتمدد وامتشق، واستكنّت فى حضنى، طويلة الأوصال لدنة ومفكوكة.

قلت: الآن على أتم استعدادٍ لهم عندما يأتون.

فى طريقى إلى غرفتى فى شقة ابن زَهْر كان ترام راغب باشا يصلصل إذ يشق سكّته بين حشود الناس وباعة آخر النهار والأفندية الراجعين بيوتهم فى بنطلوناتهم الرثة المهدّلة. الحرّ فى منتصف مايو هذا العام قابض للأنفاس. عربات الحنطور تجرى بها الأحصنة المغمّاة وأجراسها تجلجل.

كنت أحلم فى قلب ضجيج نهاية اليوم بالتحليق.

مثل طائر فخور شاسع الجناحين يخوض عباب سماءٍ سامقة الارتفاع، يعبر البحر إلى أرض كوميونة باريس، أجثو مع الكوميونار وراء متاريسهم، ببنادقهم الطويلة قديمة الطراز معى إحداها، جنباً إلى جنب فى شوارع الباستيل التى انتزعت أحجار البازلت السوداء منها واتخذنا منها حصوناً واطئة، ومعى وراء المتاريس سلامة بجلبابه الفلاّحى الكستور بتقويرة مدوّرة، على كتفه بندقية بروحين، وقاسم إسحاق النوبىّ الأسوانلى داكن البشرة يمسك بمدفعه إلى جانب خده الأيسر الذى فيه شرْطتان لونهما أفتح من لون جلده المحروق، وأحمد النمس يهمّ بإلقاء قنبلته اليدوية، عَبْر الأرض الحرام، على صفين متراصّين من جندرمة حكومة فرسايْ.

نرفع رؤوسنا لحظة خاطفة فوق المتاريس لكى نطلق النار على جنود «تيير» بخوذاتهم النحاسية اللامعة وستراتهم الحمراء المحزّمة بسيور جلدية بيضاء إوعَ يا فندى حاسب إصحَ أمّال والحصان الضخم يمرق إلى جانبى يكاد يحتك بچاكتتى الزرقاء الطويلة الوحيدة، وعربة الحنطور تدور تكاد تمس ذراعى المحمّلة بلفة مدوّرة من صحيفة «لى ميليتان» تبدو من وراء غلاف اللفّة الممزق قليلاً شارة المنجل والمطرقة وعليها الرقم 4

كنت قد استلمتها من صندوق البريد الذى اشترته اللجنة بقروشها القليلة فى مبنى البوستة العمومية بالمنشية وعهدت إلىّ باستلام الصحف والمجلات التى طلبناها بالبريد العادىّ من باريس ونيويورك ولندن، معى مفتاح صندوق البريد أولجه فى ثقبه بين جموع الناس والموظفين فى الساحة الفسيحة أدلف إليها من البوابة الحجرية المقوّسة القديمة التى بناها السان سيمونيّون على عهد الخديوى إسماعيل والتى كنت أواعد أوديت عليها، فى تمام الساعة الثانية والنصف بعد الظهر فأجدها أنيقة أناقة خاصة فى الجيبة القصيرة المحبوكة على ردفيها الصغيرين وفخذيها المخروطتين بانسيابٍ سلس وناعم أعرف خصوبتهما ونحن فى سينما عدن على الكورنيش نرقب الفيلم الفرنسىّ وأنا أتابع بقدر ما أستطيع الحوار الرشيق بينما هى تسايره دون صعوبة ثم تمسك بيدى فجأة، بلهفة الرغبة والتمنّع معاً. إذ ترتفع فى تلمّسها الوثيق تحت جيبة التايير الخفيفة التى ارتفعت إلى منتصف الفخذين، أسندت حقيبتها الصغيرة عليها، وبصوت مستثار مبحوح وقد أصغت بوجهها قريبةً جداً منى، وهى تهمس كفاية بقى حبيبى، آهْ، كفاية..! حاسب حبيبى بسّ، بينما أنوار الفيلم تخطف تتلاحق وتخبو وتستضىء فى عتمة الصالة. وموسيقى الأغنية «تحت سماء باريس» والسينْ المترقرق الضيق يتدفق تحت عدسة الكاميرا التى تقترب جداً من سطحه المتموج فى الوقت نفسه الذى تلمع فيه عينا سيمون سينورييه الواسعتان بأمواجهما فى الكادر بالأسود والأبيض يقترب منها چان جابان ويقول بنبرة حنو أجش: كفاية، كفاية يا سيدتى، فننظر إلى أحدنا الآخر ونكاتم ضحكنا مع انسياب يدى على بشرة الفخذين الأسيلة وموسيقى «تحت سماء باريس» وطلقات المدافعين عن الكوميونة تدوّى فى داخلى بأصداء بعيدة مكتومة ياسيدنا لفندى ما قلنا إوعَ أمال وكرباج الحوذىّ يفرقع فوق ظهر الحصان المنطلق بأقصى سرعة يسابق ترام راغب باشا،

الحوذىّ قد لفّ طربوشه القصير المزيّت بقماشة صفراء كالحة من أقمشة الكَفَن، وقد فزّ على ساقيه مرتفعاً قليلاً عن مقعده، تيّاها مرحاً يكاد يطاول سنجة الترام.

لم أكن قد تغلبتُ تماماً على حسٍ بالإثم - فيه هبوةٌ من حسٍ بالانتصار البخس فى الوقت نفسه- بإزاء سلامة. لم أستطع أن أقاوم اندفاعة الحبّ والرغبة من جانب عايدة. أعرف أنه - هو سلامة - يموت فيها حباً، أما أنا فلا يستأثر بى إلا نوعٌ من الرضا بحبها، فيه بلاشك- أقول لنفسى - قدرٌ لا أقول من الانتهازية، تلك كلمة كبيرة، إنما هو نوعٌ من التسليم بعطية أو قبول لهبةٍ مبذولة عن طواعية دون اقتضاء مقابل، وقدرٌ من الصمت عن هذه الهِبَة ليس فيه تقصّ لتشابك العلاقات المضطربة بين أطرافها ولا محاولة جادّة لفكّ التباساتها ولا النظر فى تعقيداتها، ولا حتى مجرد السؤال عن «أخلاقيةٍ» لعلنى كنت - ومازلت - أراها مجرد نفاق سهل من تركيبة مواصفات الطبقة الوسطى بكل درجاتها، وما كنت أجد فى ذلك كله تناقضاً مع بيوريتانيةٍ مفترَضة، بل العكس

كانت عايدة تحدّث سلامة أمامى بذلك الصوت الأنثوىّ الدمث تناديه: تعال يا سُلُم. بنعومة لاشك تستفزّ ذكورته الريفية الوعرة، تدفعه برفق فى صدره بيدها عندما يصفو بالها بحركة بنات البلد، ثم تأتى إلىّ لتشكو من خشونته، وتقول:

- بيبصّ لى مش عارفة عايز منى إيه، أنا اللى مايهمنيش لا المباحث ولا البوليس السياسىّ ولكن بخاف من نظرته.

أو أنه عندما يأكل يسارع باللقمة وراء اللقمة، ويبلع الأكل بصوت مسموع.

ولا يدهشنى هذا التناقض الأنثوىّ الظاهرىَ وأعرف أنها لم تكن

تجيش روحها – وجسدها – بلهفة الحب نحو سلامة، لكنها لا ترفض حبه، فهل بذلك كنت أبرّر لنفسي أنني لا أرفض حبها؟ بل أستغلّ حسيّته؟ ومع ذلك ففي داخلي حسٌّ مخامر خافتٌ ومُلحٌّ معًا يشبه التورّط في خيانة غير مفهومة ولعلها أصلاً غير قائمة. بينما أحتضن بين يديّ وجهها الحبشيّ داكن السمرة. أدفن نفسي في عينيها المكحولتين بشرطتيْن فرعونيّتيْن نازلتين على وجنتين عظميّتين بارزتين، وهي في رداءٍ حريريّ طويل تنسحب أذياله على بلاطات عريضة باردة في قاعة تشبه بهو سينما عَدَن لكنها خاوية مصمتة ترنّ فيها أصداء صوتها «بس حبيبي، كفاية» وقد سُدتْ علينا أبواب ثقيلة موصدة لن تنفتح أبد الدهر، طلقات رصاص جنائزية تدوّى من وراء الأسوار العالية التي يقع الباب الضخم المغلق في وسطها، لا جدوى من صعود السلالم العريضة وعرة الدرجات إليها، لن تفضي إلا إلى صمت الباب الخشبي السميك وقد ارتدّ مصراعاه العريضان وانطبقا بصوت طلقة مدفع مكتومة وقاضية، بينما تتناقص نسمات الهواء المحبوس وتتسارع أنفاسنا، ليس ثم سواى وعايدة الشامخة الطويلة في زيها المنسدل على الأرضية الرخامية المثلوجة وكأنما تترامى إليّ من الأرض المرتفعة البعيدة وراء الباب أصداءُ موسيقى السلام الملكيّ ويهجس بي سؤال هل الساعة قد بلغت الحادية عشرة مساءً وقد انتهت الإذاعة أم هي الساعة الخامسة والعشرون وقد انقضى اليوم نهاره وليله لا فارق بينهما في هذه العتمة الخفيفة التي ينساب فيها سلسالٌ من المياه المترجرجة تحت رخام القبو العتيق؟

وجدت أنني مازلت أحلّق بجناحين شاسعين ثابتين في سماءٍ سامقة العلوّ، وأنا أحدّق بعينين أحسستهما ثاقبتين إليهما: إلى عايدة السوداء وإلى نفسي معاً – صغيريْن جداً في القبر الفسيح هو نفسه بهو سينما عَدَن، وقد تحرّرتُ من عبء شبهة خيانتي، حقيقيةً أم متوهَّمة.

وجدت أنني أضرب في غياهب سماء ساطعة السنا لا حدود لاتساعها، باحثاً في صمت كونيّ كامل عن أصداء موسيقى عدالة مهما بدت مستحيلة إلا أنها في متناول الوجود. مهما بدت مراوغة إلا أنها محيقة وقائمة، لم أكن وحيداً في هذه الحرية التي لا حدود تحصر آفاقها بل كانت الحرية معمورةً بكائنات لا عداد لها غير مرئيّة وغير محسوسة إلا أنها تضفي على هذا الضوء الذي لا نهاية لبراحه أنساً لا تزاحمَ ولا تكالبَ فيه، وقلت بلساني: «أنا الطائر المحلّق في سماء قبر باهر الحياة بُعث منه كل الموتى الذين لقوا حتوفهم منذ دهور سحيقة من جراء حيف بدا لي كونيّاً وعبثيّاً وقحْلاً لا معنى له ولا يمكن أن يكون له أدنى تبرير، بُعثوا بعد إيونات من القهر والاستغلال رسفوا في أصفاده تحت سياط جلاّدين ضربوهم بسلطة السيف المهنّد أو سلطة النصّ المقدس سواء، بُعثوا لا ليقتصّوا فما من القصاص من جدوى بل ليستعيدوا ما استُلب من فلذات أرواحهم ومن أحشاء أشواقهم التي لا تغيض نحو كرامة لا يملك أيٌّ كان أن يطردهم من جنان نعيمها بعد أن ذاقوا ثمرة المعرفة، كرامة هي حق ميراثهم الذي لا يمكن أن يُغتصب مهما أُهدر طوال حقب مضت وحقب تجيء، طريقي في قلب الحرية نحو حب مقدور لن يني عن أن يجيء».

الفصل الثانى

كنت أراها فى شظيّة مرآة مكسورة حادّة الأضلاع.

ظهرها الناعم المنسرح يدور به شريط عريض ينتهى من الأمام بكأسين محتشدين باللحم الحارّ، من حرير البراشوت الذى كنت قد لففته حول جسمي تحت القميص والجاكت الزرقاء والشورت الأبيض وخرجت به من مخزن رقم ٦ فى كفر عشرى.

أما هى فقد فصّلته وصبغته بالأصفر مثل عبّاد الشمس الذى ينجذب بلا حوِل إلى نور الشبق والشهوة الطاغية. نعومة حرير البراشوت تسبكان النهدين وتبرز تحتها حلمتان منتصبتان قويتان، وبين الكأسين عقدة مشرئبّة، زهرة شرسة متربّصة.

شظية المرآة تعكس بطنها الغلاميّ تحت النهدين المدوّرين المحبوكين بالحرير الأقحوانيّ. ذراعاى المتوترتان تدوران بخصرها الملفوف بشريط حريريّ عريض فى صُفرة زهور المرجريتا التى تكسو مروج كنجى مريوط، وعلى وهدة البطن السفليّة عقدة أخرى من الحرير متفتحة ومتواشجة الأطراف أعتى شراسةً، ضارية.

ساقاها الأملودان ناصعتان تحت نور الكهرباء المسدّد إليهما، تهتز عليهما ذؤابات من الحرير الأصفر مستطيلة مستدقّة متباينة الطول والسُمْك كأنها مِزق استبدّت بها عرامةُ نهْشٍ شهوىّ.

لم تكن قد خلعت حذاءها، سيوره الجلدية الرفيعة مغروزة على لحم القدمين، الكعب المرهف الدقيق قد سننته يد زميلنا على أبو الليل، نعّمته ومسّدته بحب الصنعة وحبّ المرأة معاً، وحوّلته من جلدٍ مصبوغ

مقصوص بفنّ قديم وملفوف بالتصاق الغراء ذى الفوْح النفّاذ حول خشب متين ورفيع منحوت بدقة، إلى سهم راسخ ومغروز.

كان العمود شامخاً فوق كهوف ومسارب دقلديانوس والمقابر المتناثرة حتى مدى البصر قد ازدهرت بحياة مكتومة، العمود الضارب في كبد سماء مبتلة بغَدَق رغبات لا ينتهى توقّدها.

أم أن هذه ساحة قصر الشتاء فى سان بطرسبرج، الجموع الهادرة قد انصبّت من كل الشوارع الجانبية وجاءت حشودها اقتحمت بوّابات فاوريكة كرموز ومضارب الأرز على المحمودية وتدفقت بها شوارع اللبّان والأنفوشي وشارع التتويج ومدارس النيل وجامعة فاروق الأول على ربوة العباسية عبرتْ كبارى النيڤا المتجمدة مياهه طلقات الرصاص تدوّى متناثرة في الأوّل ثم تتلاحق صفوف عساكر القوازق يتقهقرون أمام هجمة الجماهير الغاضبة المنتصرة وقد انفتح القصر الخاوى لها وغصتَ بها أبهاؤه وقاعاته وممراته الهتافات المشتعلة يسقط الطاغية يسقط ملك النساء والحفاء يسقط عميل الاستعمار يتفجّر بها صدرى أم تدوّى فى مسامعي. المحروسة وقد جهّزت بطاقم مدافع آر پى چى تستدير وتطلق زخّة على قصر المنتزه وينكّس العلم ذو التاج وحرف الفاء إلى الأبد، الهراوات تنهال من على صهوات الخيل ومن السيارات الفورد ينزل منها عساكر البيادة والاحتياط بالألاشين الرمادية تلتف حول سيقانهم الداكنة النحيلة، الأحذية الثقيلة تدق أسفلت الشوارع وتحفر ثقوباً بمساميرها الغليظة في جليد الساحة الأبيض الذى سالت عليه خيوط رفيعة حمراء سرعان ما تحولت إلى برك قانية تغطى وهدات فى الجليد وقد تهدلت جثث الصرعى ممدودة الأذرع. الأنين غير الواعى غير المحكوم يصّاعد من الجرحى كأنما على الرغم منهم فما بهم قدرة على كبحه حتى لو أرادوا. الهتاف القاطع بالأوامر: اضرب يا عسكرى اضرب في المليان..! من البكباشى على حصانه الأسود المتوفز الذى

هيّجته رائحة البارود والدماء. الأرض المثلوجة تميد بي وتهتزّ في تقبّضات متلاحقة.

كان حلمي الريّس يقف أمام سريري، في غرفتي، يهزّني برفق:

- إإإصحَ.. إصحِ يا زميل. الوقت فات. ميعادنا الساعة خمسة دلوقتي خمسة إلا ربع.

فتحت عيني. للحظة خاطفة كنت مازال في سان بطرسبرج كرموز عابدين العمود ودويّ الرصاص مازال في أذني.

كان حلمي الريّس، بجاكتته الرمادي الكاروهات الوحيدة التي ليس عنده غيرها وبنطلونه الواسع المتهدل، مازال يحمل طرداً مربعاً: علبة كرتون ملفوفة بورق جرائد ودوبارة محكمة وثيقة.

كنت قد أغفيت بالقميص والبنطلون والشراب، وعندما نهضت بجسمي قليلاً، ومازلت تحت سطوة ثورة ١٩٠٥ وثورات أخرى لم تحدث قط، رأيته يضع الطرد ببطء وحرص على المكتب في غرفتي، بجانب رصّة كتب سيجموند فرويد بالإنجليزية وكتاب «مَنْ نسيهم الله» لألبير قصيري بالفرنسية وكتاب عن باكونين بقلم ج.ب. ماكسيموف.

وعلى الفور كنت في كامل اليقظة. وضعت قدميّ في حذائي الأسود متآكل النعل قليلاً، وشددت البلوفر - كنا نقول عليه الجِرْس - على القميص، كنا في أوائل فبراير وفي الجو لذعة برد ندية، وهأنذا على أتم الاستعداد، لم يبق إلا أن أطسّ وجهي بالماء وأُطوِّع بالمشط كنديشة الشعر الهائش على رأسي.

كان حلمي الريّس، وأحمد النمس من كلية العلوم، وشوقي محمود من كلية الهندسة، يكوّنون خليّة ثوريّة إرهابيّة قبل أن نتعرف عليهم. كانوا يؤمنون، عن حق، أنه لا حلّ للقضية الوطنية إلا بالعنف. لكنهم، عن خطلٍ مبين، تصوروا أن العنف إنما يستهدف رموز الطغيان وجنود

الاحتلال، فرداً فرداً. تلك ذكريات جماعات «اليد السوداء» واغتيال السردار واستدراج عساكر الإنجليز إلى البارات ثم قتلهم مازال طرية حية في وجدانهم، هي التي كان منها تراثهم الثوري البريء في كل سذاجته: القتْل والاستشهاد.

حكى لي أحمد النمس بأسلوبه الفيّاض وصوته الأجش المنفعل باستمرار، كيف أنهم جمعوا قروشهم، الله أعلم كيف لمّوا الجنيهات التي اشتروا بها من بدو كنجي مريوط قنابل يدويّة إيطاليّة، وغدّارة بريطانيّة، ولما كانوا طلبة علوم وهندسة ميكانيكيّة فقد تصوروا أنهم ليسوا بحاجة إلى من يدربهم على استخدام السلاح.

تصوّرت، بقوة، ما حدث.

خرج الفرسان مشياً لغاية النزهة، استوقفوا سيارة نقل ازدحمت بهم جنب السوّاق ونزلوا في مفرق مرغم، اتجهوا غرباً في المدقّ الصحراوي المحاذي لشط الملاّحة مياهها تترقرق وتتألق بلمعة فضيّة محمرّة تحت وقدة ضحى ذلك اليوم في أواخر يناير. صحراء مريوط مازالت بكراً تتناثر فيها بضع مخازن مهجورة من مخلّفات الجيش البريطاني وحطام دبابات وسيارات مصفحة استحالت إلى هياكل مهشّمة من الحديد الذي أخذ يتآكل بالصدأ. كان الميعاد في آخر مخزن على الشمال من المدقّ. جوّه في الصحراء. لم يكن فيه إلا جدران متهاوية من غير سقف. كانوا أربعة من بدو مريوط ملفّعين بالتلافيح البيضاء التي تخفي نصف وجوههم، في سراويلهم القصيرة وصديرياتهم وشمَلهم. وبدون كلام تمتّ الصفقة التي كانت قد رُتّبت في سيدي جابر أول أمس عن طريق المعلم برشومي، ريّس أنفار ومعلّم تراحيل. لم يُحصِ الأعراب نقودهم - الرجل يرتبط بلسانه والمعلم برشومي حَكم، وانطلق الأولاد بغنيمتهم أربع قنابل يدوية إيطالية ومسدس إنجليزي وصندوق صغير من الذخيرة. ساروا نحو نصف ساعة

في اتجاه الغرب حريصين على ألا تغيب عن أنظارهم آخر معالم العَمَار من بعيد، وكان الأعراب قد طمأنوهم أن الناحية هنا خالية من الألغام.

تناوب الفرسان الثلاثة على سبيل التدريب إطلاق النار على هدف نصبوه في الرمل، حَجَرة كبيرة، وهم يتبادلون حمل القنابل الأربعة، واحداً بعد الآخر، حتى جاء الدور على آخِرهم. حلمي الريِّس، طالب علوم، كان يعرف نظرياً آليّة القنبلة اليدوية. القنبلة على هيئة كمثرى معدنيّة ثقيلة إلى حدٍ ما، سطحها الصلب محبّب ومقوّى بدعامات ناتئة تلفّ جسمها، مسمار الأمان مدوّر وبارز.

ابتعد أحمد النمس وشوقي محمود إلى الوراء، قبض حلمي الريِّس على جسم القنبلة بقوة، وفجأة انخلع مسمار الأمان، تأخر حلمي ثانية أو ثانيتين في إلقاء القنبلة وعندما طوّح بها انفجرت بدويٍّ مكتوم على الرمال غير بعيد منه، سطع بريق نارها في ضوء الظهر العالي برتقاليّاً باهتاً، وتناثرت شظاياها في كل اتجاه، وثبت شظية إلى إبهام حلمي الريِّس وإلى ما بين فخذيه، انبثق الدم وانسكب على يده اليُسرى، واحترق البنطلون بدائرة صغيرة من القماش فاحت رائحة شياطه مع رائحة الفتيلة الحريّفة، ووجد يده اليمنى ملوثة بالدماء عندما ابتدر، دون وعي، يخفي موضع الشظية عند ملتقى الفخذين، لكن الشظية كانت قد مسّت أعلى ساقه اليسرى فلو ارتفعت مقدار إصبعين لحدث ما لا يُحمد عُقباه، على أقل تقدير.

ساد صمتٌ تام في الصحراء الموحشة، بعد دوّي الانفجار، كأن لم يحدث شيء. ضمّد الزميلان جراح حلمي الريِّس - كيفما استطاعوا - بمزق من مناديلهم التي سرعان ما غرقت بالدم.

وفي المستشفى الأميري كان أصدقاؤهم من طلبة الطبّ - ومنهم طالب اسمه عبد القادر خَلَف الله- كفيلين بعلاج ناجع وكتوم بعيد عن السُلطات.

من ساعتها كان حلمي الريِّس يتهته قليلاً جداً عند بداية كلامه،

واعترته عنة لم يشف منها إلا بعدها بسنوات فلعلها لم تكن عضوية بقدر ما كانت صدمة المفاجأة التي كتمها على الفور بشجاعة وإصرار.

على الساعة الثانية والنصف زرت الغرفة الواسعة الرثة على سطح بيت متهالك في المنشية الصُغَيّرة، في حارة سدّ وراء كنيسة الروم الأرثوذكس.

صعدت السلّم الخشبيّ المعتم العتيق، أربعة أدوار، درجاته الخشبية تصدر تحت قدميّ صريراً منذراً، وخبطت على الباب الذى خيّل لى أنه لا يقفل أبداً فقد كان مائلاً قليلاً وإحدى مفصلاته واضح أنها مخلوعة.

وعلى سبيل الترحيب بى عمل لى حلمى الريّس الشاى الثقيل فى إبريق جديد، على سبرتاية متراقصة اللهب موضوعة على الأرض، أقعى أمامها على الحصيرة ورعَى الشاى حتى استوى. شربوا معى فى أربعة أكواب مختلفة الأحجام والأشكال، تحت جنب الحائط الوابور البريموس العتيد وعليه حلّة هبّت منها علىّ من تحت غطائها رائحة طبيخ بايت قُرديحى.

جلست إلى المائدة الوحيدة فى الغرفة، طويلة خشبها قديم متين الشكل، عليها ثلاث رصّات من الكتب والكشاكيل، ومسطرة خشب كبيرة ومثلّثات معدنيّة.

فى الجانب الآخر سريران نقّالى ومرتبة على الأرض عرفت أنهم يتناوبون النوم عليها، يوماً بعد يومين حسب نظامٍ معقّد ودقيق.

على الحائط مسامير علّقت عليها جلاليب وفوط وچاكتات.

جررنا المائدة الكبيرة ، بصعوبة شيئاً ما، جنب أحد السريرين، جلست على كرسى خيرزان متين جيّد الصنع، وجلس أحمد النمس متربعاً على السرير بينما احتل حلمى الريس وشوقى محمود الكرسيين الخيرزان الآخرين. وبدأنا حواراً لم نعرف أنه استغرق عدة ساعات إلا بعد أن أظلمت الدنيا وأضأنا المصباح الكهربائى الوحيد. وجاءتنى من

دورة المياه المشتركة، على بسطة السلم، رائحة العطن الخفيف والبلولة المألوفة التى تصدر عن دورات المياه القديمة.

هل أحتاج أن أقول كيف استفاض بى شرح آليّات الثورة، وتوضيح الفرق الأساسىّ بين «الإرهاب الفردىّ» و«العنف الجماعىّ الثورىّ» الذى لا يستهدف أفراداً - مهما كانوا رموزاً للاستعمار والاستغلال الطبقىّ - سرعان ما يحل غيرهم محلّهم، بل يستهدف تغيير بِنْية المجتمع بأسره.

- ليس للأفراد دورٌ حاسمٌ اجتماعياً، مهما كان دورهم فعّالاً بطبيعة الحال. لأن التغيير الثورىّ يجب أن يقع للمجتمع بأسره، بذلك وحده يمكن فى النهاية تطهير أرض الوطن من لوثة الاحتلال ومن الرأسمالية المستغلّة الوحشية معاً، عن طريق الفعل الشعبىّ الثورىّ لا عن طريق اغتيالات فرديّة أو حتى إلقاء قنابل على تجمعات العساكر الإنجليز كعمل من أعمال المقاومة ، ذلك كله لن يؤدى إلى نتيجة.

قاطعنى أحمد النمس، بحماسة متدفقة ترتفع رويداً رويداً بصوته المبحوح:

- ما تقول قد يستغرق سنوات طوالاً. كيف نطيق الذلّ والامتهان والفقر نحن وأبناء شعبنا حتى تنطلق هذه الثورة الشعبية التى تحلم بها؟ كيف نحتمل حتى تؤلّف النقابات، وتنمو اللجان الثوريّة وتتزايد وتتشابك، بينما الأعلام البريطانية ترفرف على بقاع الوطن ويرفل الملك وأذنابه فى النعيم بامتصاص دماء العمال الذين يقضى عليهم الدّرَن وتحصدهم الأمراض فى عزّ الشباب؟ والفلاحين الذين يموتون حفاةً عراة جائعين بالبلهارسيا وفقر الدم والبلاجرا؟ من يتحمّل مسئولية موتهم؟

تدخل حلمى الريّس، يتهته قليلاً، وقد احمرّ وجهه:

- أأىْ نعم إإإلى متى نترك المجرمين ينعمون بثمار جرائمهم اليوميّة؟ دون عقاب؟ لابد أن ننتقم، فوراً، لأهلينا وأبناء شعبنا. فوراً، دون إمهال. لابد أن نقتلهم جزاءً وفاقاً.

قلت، محاولاً أن أعود بالجدل إلى نغمة أهدأ، وأعقل:

– لعل الأخطر والأهمّ يا حلمي هو أن تقتل الطاغية الكامن في داخلك، وليس الطاغية الماثل أمامنا.

تدخّل النمس بشيء من الغضب، كأنما استشعر أن الكلام موجّه ضده:

– ماذا؟ ماذا تريد أن تقول؟ «الطاغية في داخلي». هذا كلام مثقّفين.

قلت، دون أن أسقط في استفزازٍ لعله غير مقصود:

– أبداً. بل هو كذلك بالفعل. في داخل كلٍ منا يا أحمد. هذه النزعة الغلاّبة نحو التسلُّط والسيادة ونفي ما هو غيرنا، يعني قتل الآخرين معنوياً في البداية، فإذا أُتيحت السلطة فهو القتل الفعليّ. هذا ما حدث دائماً، وما أصاب ثورة أكتوبر وثورات أخرى، في الصميم.

صمت أحمد، وبعد لحظة سكوت قال حلمي الريّس، وبدا لي أن شَفته السفلى أكثر ترهّلاً:

– ح ح حتى أنت تقول «القتل»!

– القتل بالمعنى المجازيّ طبعاً يا حلمي، القتل دون إراقة دماء أو تمزيق أشلاء، القتل بفعل العقل، لا، ليس العقل فقط، بل بفعلٍ روحيّ شامل.

استشاط أحمد، هتف:

– هذه لغة الشعر، لغة دينيّة في النهاية.

– بل هي لغة الواقع، الواقع الداخليّ يا عزيزي، الواقع النفسيّ إذا شئت، لا يمكن أن ننكره لأنه سوف يثبت نفسه في النهاية، هذا الواقع الداخليّ الذي لا يقل سطوةً وحضوراً عما نسميه «الواقع» ونقصد به كل ظواهر الحياة بالمعنى الحرفي لـ«ظواهر».

قال أحمد النمس، بنوعٍ من التربّص:

– أنت تناقض نفسك، «الفعْل الروحيّ» هذا عمل فرديّ في النهاية، ألا تقول إن المعوّل هو على العمل الجماعيّ؟

قلت : صحيح . لكن العمل الفردىّ جزءٌ أساسىّ من العمل الجماعىّ، وبدون الفرد لا معنى للجماعة . والعكس صحيح بالطبع . ليس العمل الجماعىّ أبداً أن نتحول إلى أرقام فى معادلة جبرية . السؤال هو : كيف نصل إلى أن نكون أنفسنا فى الوقت نفسه الذى نحن معاً . العمل الجماعىّ لا يمكن أن يلغى فرديتنا التى تظل قائمة ومتميّزة طول الوقت وإلا أنكرنا إنسانيّتنا نفسها ولكن المهم كيفيّة انسجام العمل الفردىّ مع الفِعل الجماعىّ .

قال : «إنسانيّتنا» كلمة شعرية أيضاً . قل لى «طبقتنا» أفهمك . أما الإنسانيّة فتضمّ أعداءنا أيضاً . هذا يُميّع كفاحنا المشروع، سواءً كان جماعيّاً أم فرديّاً .

قلت : صحيح أيضا . ولكنه صحيح بشكل محدود، الانتماء للطبقة لا يلغى الانتماء إلى الإنسان، مَنْ تسميهم أعداءنا - وهم فعلاً أعداؤنا - هم الذين أنكروا إنسانيّتهم .

قال : أنت تتعلق بأوهام جميلة .

كأنما ينهى هذه الدورة من المناقشة .

كم من ساعات قضيناها فى غرفة المنشيّة الصُغيّرة، والجدل الحامى سجال، أتذرّع بكل ما أملك من حجج عقلية وتاريخية وبكل ما يتّقد فى روحى من إيمانٍ بمن أسميهم «البسطاء» أبطال الحياة اليومية، ببطولتهم المنسيّة المأخوذة مأخذ المسلّمات، بينما أدرك فى عمقٍ مكتومٍ منى أن كراهيتى للعنف الفردىّ - بما فيه من صَلَف - إنما هى ميراث قبطيّتى، أخفيها وراء إيمان جديد بالعنف الجماعىّ الشعبىّ وهو وحده مبرَّر وبرىء وحتمىّ، فى مواجهة عنف الدولة الرأسمالية والاحتلال .

أما القنابل الثلاثة والمسدّس فقد ابتدعت الجماعة الصغيرة تقليداً سارت عليه اللجنة كلها بعد ذلك، وضعت العلبة المحتوية على المتفجرات فى معمل كلية العلوم، أكثر المواقع أماناً ونأياً عن الشبهات .

كان زميلنا فتحي أبو شادى مسئول هذا المعمل الآن، بينما كان يدرس للحصول على ليسانس الفلسفة وعلم الاجتماع من كلية الآداب.

لكننا الآن في منتصف فبراير ١٩٤٦، البلد تغلي، لم تكن غرفة المنشية الصغيّرة بعيدة عن أعين البوليس السياسى، وقد كثُر الكلام عن اعتصامات وإضرابات في الجامعة وعن احتمالات اقتحام البوليس - بل الجيش - حَرَمَ الجامعة، لذا كان الأصوب أن تُنقل القنابل والمسدس بعيداً عن الجامعة كلها، وبعيداً عن أى احتمال للانكشاف.

أعطيت نفسي الحقّ في التصرف دون الرجوع إلى اللجنة وظلت الخطة كلها سِرّيّة إلا مع فتحي أبو شادى وحلمي الريّس، مراعاةً لأقصى ما يمكن من اعتبارات الأمان.

كان حلمي الريّس من الشجاعة بحيث حمل الطرد ملفوفاً في ورق الجرائد ببراءة، تحت أعين المخبرين الذين لم يساورهم الشك في شيء، خرج به من معمل الكلية في محرم بيه إلى بيتي في راغب باشا. ولم يكن أحدٌ على الإطلاق - بما في ذلك حلمي الريّس - يعرف ما الخطوة التالية.

نظر إليّ حلمي الريّس مستطلعاً، وقد عُدت إلى غرفتي بعد أن طسست وجهي بالماء وسرّحت كَدَشة شعرى الأهوج.

كان وجهه مربعاً قليلاً، شعره أجعد فيه ذؤابة بيضاء، عيناه جاحظتان إلى حدٍ ما، باحثتان دائماً، وفيهما دائماً نظرة منكفئة إلى ذاتها كأنما لا تريد - أو لا تجرؤ - على الانطلاق بحريةٍ إلى الخارج، إلى الناس، مع كل شجاعته بل تهوّره أحياناً، وشفته السفلى بها ترهلٌ معيّن يعطي وجهه مسحةً كأنها من تخلّفٍ عقليّ تكذّبه العينان الذكيتان بمكر.

قال لي بعد أن وضع الطرد على المكتب، وهو يعاني، أكثر من المعتاد قليلاً، بداية الجملة:

- يا .. يا.. يا زميل عايزني دلوقتي في حاجة ثانية؟

قلت : لا يا حلمي أشكرك. مع السلامة أنت.

الآن أنهى حلمي الريّس مهمّته، ودّعني دون أن يسأل عن أيّ شيء، وترك الطرد عندى، ابتسم عن سنّته الكبيرة الناتئة وخرج يخبّ في مشيته، كان بنطلونه الرماديّ المتهدّل يكاد يعوق خطواته (عرفت أنه كان يضعه تحت مرتبة السرير كل ليلة - مثلي - حتى يحتفظ بشيء من التماسك).

وأقفل الباب وراءه.

كانت علاقتي به دائماً علاقةً حذرة تشوبها هواجس غير مبرَّرة. كنت أقبل الآن عمله معنا، بكلّ التحفّظ والتحوّط. ومع ذلك فقد كان لابدّ أن يعرف عنوان بيتي في شارع ابن زهر، لم يكن هذا العنوان مجهولاً من معظم أصدقائي في جماعتنا، إذ انعقدت فيه اجتماعات محدودة لما كنا نسميه «اللجنة التنفيذية» وبالرغم من ضخامة التسمية، وقلة العدد والعدّة، فقد كنا نرى لها قيمة كبيرة.

عهدت إليه بنقل الطرد إلى بيتي، من كلية العلوم، فقد كنت واثقاً - بشكلٍ ما - أنه سوف يلتزم الصمت عن هذه المسألة كلها، لغرضٍ ما في نفسه لم أتبيّنه.

لم أستطع قط حتى الآن، بعد مرور هذه السنوات الطوال، أن أحسم أمري بشأنه. كنت موقناً أنه مغامر بما فيه الكفاية، وربما أكثر من الكفاية، وبراجماتيّ مع ذلك قادر على تصريف الشئون العملية المباشرة، لا يبالي التنظيرات الفقهيّة والفروق الدقيقة المرهفة بين التصوّرات والمفاهيم، على عكس فتوح القفّاص، فهو إذن، كما تصورت، نافع ومستقيم الإرادة، كان يقوم بدوره كما يجب في المظاهرات وحشد وتعبئة طلبة كليّة الهندسة لها، وكان من حيله العملية، أو ما يسميه التكتيك المفيد، أن يجلس مع البوليس السياسيّ وحرس الجامعة على باب الكليّة، يثرثر معهم ببساطة، ومع أنه يتهته

قليلاً - أو بسبب ذلك - فقد اكتسب عندهم مصداقيّة فلا يعقل في ظنّهم أن يكون من عناصر «الشغب والإثارة». ولكن ذلك نفسه كان مدعاةً للقلق عندي. كنت أسميه مع ذلك رجل الأقباء السرية، الرجل الكريبتيّ، دكتور چيكل ومستر هايد.

الآن كان الطرد، بشحنته المدمّرة الكامنة، أمامي، في غرفتي، على مقربةٍ جداً من أمّي وأخواتي البنات.

لم يكن عندي أدنى إلمام بآليّة القنابل اليدويّة، إلاّ على نحوٍ غائمٍ جداً، ولم أكن قد رأيت في حياتي شيئاً يشبهها من قبل، إلاّ في أفلام الحرب في السينما.

انتظرت حتى حلّ ظلام آخر الشتاء المبكّر، ولبست معطفي الكحلي الواسع الواقي من المطر الذي كنت قد استلمته - بإيصالٍ مختومٍ موقّعٍ عليه - في أيام شُغلي في البحرية البريطانية، ثم عاش معي زمناً طويلاً وظللت كأنما اعتز به ولا أطيق أن أتخلى عنه، وكان له جيبان عميقان واسعان.

بعد أن أغلقت عليّ باب غرفتي، فككت الدوبارة المحيطة بالطرد، بحرص وبطء، وقشرت عنه ورق الجرائد الملفوف به. دون أن أرفعه، وفتحته بهدوء.

دهشت قليلاً إذ لم أجد المسدّس في الطرد، وحتى الآن لا أعرف ما حدث.

رفعتُ القنبلة الأولى من الطرد، فوجئت بوزنها الذي وجدته أخفّ مما توقّعت، وبصلابة القشرة المعدنيّة المحيطة بجسمها، وضعتها في جيب المعطف فاستقرت في عمقه بهدوء. وكأنما أكسبني ذلك عزماً أقوى فوضعت القنبلة الثانية بجانبها في جيب المعطف الواسع، كان لها صوت اصطدام خافت مفاجئ دقّ له قلبي ثم هدأ.

ترددت لحظة ثم حزمت أمرى، وبدا أن المعطف ثقل علىّ قليلاً، أمسكت القنبلة الثالثة والأخيرة وأودعتها هذا الجيب نفسه، فتدحرجت قليلاً في عمقه. تركت العلبة الكرتون كما هى، وقلت لأمي وأخواتى: أنا نازل، يمكن أتأخر ما تقلقوش علىّ.

ونزلت سلالم البيت الضيقة المعتمة بهدوء وشيء من الحذر.

انتظرت على محطة ترام راغب وعندما جاء يصلصل من ناحية غيط العنب وجدت أنه شبه فارغ. وقفت بجانب السائق، يدى فى جيبىْ المعطف، حريصاً على ألا يصدر عمّا أحمل أىّ صوت.

نزلت في شارع الخديوى، ولم يكن فى سيرى المتمهّل حتى محطة مصر تلهُّفٌ ولا توجّسٌ من أىّ نوع. خيّل إلىّ أننى سرحت أستعيد مناقشة الأمس الساخنة بيني وبين فتوح القفّاص عن الصراع فى «الدوليّة الأولى» بين ماركس وتحكّمه وإطلاقيّته ويقينه بأحقيّة ونهائيّة أطروحاته، وبين باكونين المتحرّر بأفقه المفتوح للاحتمالات وبراءة إيمانه بأن الدولة شرٌ مقيم لابدّ من إزالته، أياً كانت وأياً كان تكوينها ومنطلقها، وعندما جاء ترام محرم بيه صعدت بما يكاد يشفي على اللامبالاة، وكان عصف ريح فبراير قد اشتدّ قليلاً وفيه لذعة برد مبلولة. لم أدخل إلى دفء المقصورة المنيرة بضوءٍ قوىّ يسقط على الكراسى الخشبية اللامعة الخاوية، وقفتُ إلى جانب الباب، وإذا بضابط شابّ، تحت على كتفيه نجمتين، يصعد ورائى مباشرة ولا ينظر إلى داخل الترام بل يقف بجانبى تماماً.

تحرك الترام، نحن فى مقدمته، ضابط البوليس يبدو غير مهتمّ بشيءٍ محدّد، وأنا بحمولتى المدمّرة، والسائق يضغط على الجرس تحت قدميه فيصلصل فى شارع محرم بيه الخالى المظلل، بالليل، بأشجارٍ وارفة رأيت غصونها داكنة غامضة تهتز بفعل الريح.

هل يتتبّعنى هذا الضابط؟

هل كان يراقبنى ؟

ومع ذلك فقد كنت حريصاً على أن أستوثق من أن أحداً لم يكن يرصد حركتى منذ نزلت من البيت .

هل صعد معه مُخبران من الباب الخلفىّ للترام؟

كانت يداى كلتاهما فى عمق جيبىْ المعطف ، يدى اليسرى تمسك بالقنابل بحزم، مع اهتزاز الترام وقلقلة عجلاته ، رجل البوليس بجانبى ، يرمقنى أحياناً بما يبدو أنه غير اهتمام، تصوّرتُ مع ذلك أنه متوتّر فى وقفته ، غير مستريح ، كأنه متربّص .

جاءت محطّتى ، ترددت لحظة .

كنت قد قلّبت كل الاحتمالات فى ذهنى ، لو كان يراقبنى فهل أتركه يتبعنى ومعه المخبران حتى غرفة شارع الزهرة التىَ تحتوى وحدها على ما يكوّن ملفاً ضخماً للتحقيقات سوف ينتهى بإدانة مؤكّدة وبالأشغال الشاقّة بلا شك ، فضلاً عما أحمل من بلاوى؟

أم أترك محطّتى تمضى وأنزل بعدها وأرى ما سوف يحدث؟

أم أرجع بالترام نفسه وأحاول أن أضلّلهم فى شوارع وحوارى راغب باشا التى أعرفها حقّ المعرفة؟ ولكن إلى أىّ مدى؟ وكيف - ومتى - تنتهى هذه المطاردة المحتملة؟

وكعادتى وجدت أن ثمّ قراراً قد اتخذته فى لحظة خاطفة ، كأنّ قوةً ما لا أدركها قد دفعتنى إلى اتخاذه .

نزلت من الترام ، مغامراً ، فى اللحظة التى تحرك فيها مباشرةً ، هبطت بقوّةٍ على أرض الشارع ، يدى اليسرى على القنابل ويدى اليمنى أوازن بها نفسى ، كدت أفقد توازنى لكنى اعتدلت بسرعة ووجدت أن ضابط البوليس لم ينزل ورائى ، ولا أحد .

انطلق الترام ، مضيئاً فى ليل الشارع ، كنت وحدى تماماً ، تلك كانت لحظة سعادة حقيقيّة .

ابتسمت لنفسي من حماقتي وأوهامي.

مشيت متمهلاً، هادئ الروع، إلى شارع الزهرة المتفرع من عِرفان، كان شارعاً جانبياً هادئاً مظلّلاً بالشجر العريق.

صعدت السلّم الصامت إلى الغرفة.

كان بالغرفة - أيامها - سرير نقالي قديم، حديد، صدئ مُلّته هابطة ولكن المرتبة جيّدة والملاءات التي اشتريتها بنفسي من «أورزدي باك» نظيفة فلّ، ودولاب ملابس ضلفته غير ثابتة وغير محكمة (بعتها كلّها روبابيكيا بعد ذلك لأسدّد أجرة الغرفة).

وكان في الدولاب إلى جانب الكتب والدوريات والمخطوطات الثورية، رُصَص النسخ المرتجعة، بالمئات، من الكتب التي نشرناها على حسابنا، قصص لجوركي وتشيخوف، من ترجمة فوزي المُرّ، وشفيق راقم.

أودعت القنابل الثلاثة هذا الدولاب، في حقيبة قماش كاكي، خطر ببالي أن ذلك مصيرٌ غير متوقّع لعُدّة جماعة إرهابيّة صغيرة بزعامة أحمد النمس.

كان أحمد النمس إخوانياً في الأوّل، لكنه نقل كلّ إيمانه وحماسته إلى عقيدتنا الثورية التي ظلّ على ولائه لها طول عمره، دون أن يخفي ذلك، حتى بعد أن طوّحت به الأيام، يعلّم الرياضيات - الجَبْر والهندسة واللوغارتيمات - في مدارس الأقاليم ثم في السنغال. وانتقل بعدها إلى أوربّا يترجم وثائق منظمة الأمم المتحدة وهيئاتها في چنيف وپاريس وڤيينا، وكتب لي، قبل أن يموت بقليل، بطاقة بريدية فيها كل وحشة العالم ووحشيّته، بما يشفي على اليأس من كلّ شيء، والتعلقّ مع ذلك تعلّقاً عنيداً بالحياة.

كنت قد اشتريت ڤازة كبيرة اعتدت أن أضع فيها زهوراً يهديها إليّ جنايني في البلدية كنت أريد أن «أجنّده» في الحركة، أو أغصاناً رفيعة يابسة متلوّية أجمعها من على الرصيف، وأقصها على نسق خاص أرى

فيه جمالاً خاصاً، فقد كانت عقيدتي أنّ الثورة لا يمكن أنْ تستغني عن الجمال. وفي الوقت نفسه كانت الزهور والأغصان تنفع في التمويه على أعين الجيران المتلصصة فيظنّوا أنني رسّام أو غاوي فنّ.

وكان في الغرفة مع ذلك الصندوق الجستتنر البدائيّ الزجاجيّ وأسطوانته المطّاط، وكومودينو، وأباچورة. لم يكن فيها عندئذ لا كرسي ولا كليم ولا حصيرة ولا شيء. كانت عارية جداً، وعامرة مع ذلك بنَفَس حميمٍ شخصيّ جداً.

ماذا حدث للقنابل الثلاثة والكتب النادرة والمخطوطات والمنشورات وأعداد نشرة «الكفاح الثوري»؟ ومطبعة الاستنسل البدائية؟

هل عرفت صاحبة البيت العجوز الطيبة التي استأجرت منها هذه الغرفة كيف تتصرف بهذه المواد المتفجّرة فعلياً أو فكريّاً على السواء؟ وكيف تخلّصت منها؟

لم أسأل نفسي قط: هل كانت المسألة كلها تستحق المغامرة؟ لعل المغامرة وحدها تبرر نفسها بنفسها.

مغامرة بالذات وبالمستقبل وبالأسرة، من أجل حلمٍ بالعدالة وحلمٍ بالحرية وحلمٍ بالحب، أيقنت، من غير يقين نهائيّ، أنها كلها غير مستحيلة.

لم يكن أعضاء «الخليّة الإرهابيّة» السابقة بعيدين عن متناول البوليس السياسيّ، ولكن لم أسأل نفسي قط لماذا لم يُعتقلوا معنا؟

ولكنني ظللت أسأل نفسي: هل هناك معنى ميتافيزيقيّ في كلّ العمل الثوريّ الذي انخرطنا فيه؟

بالتأكيد لم يكن هناك عندي أو عند معظمنا على الأقل، إن لم نكن جميعاً، أيّ سعيٍ لمصلحة مهما مددنا من معنى ونطاق «المصلحة»، أو جريٍ وراء طموح شخصيّ، بالعكس تماماً، كان قبولاً بالأخطار والتضحيات.

لماذا؟

هل هذا هو الذى يعطى إنسانيّتنا معنىً فوق إنسانىّ؟

هل هذا هو ما يُسمّى بالمقدّس، بالإلهىّ؟

على الرغم من كل المفارقة الصارخة بين هذا وبين ما كنا نؤمن به (نؤمن؟) من قبيل «الماديّة» بكل أنواعها، وإنكار كل ما هو «فوق إنسانىّ»؟

أين المعنى؟

عندما عبرتُ بالعامرية، وتوغلت قليلاً فى صحراء كنجي مريوط الخالية الموحشة كانت أنقاض مخازن الجيش البريطانى قد تقوّضت تماماً، وتخطّف البدو، والزمن، ما بقى من أحجارها.

بين الأعشاب البرية الخشنة التي تنبثق من الرمال الشاسعة رأيت صخرةً ضخمةً ملساء السطح تماماً، كأنما أزمان وإيونات سحيقة من الشمس والرياح وصمت السماء قد صقلتها، وإن كانت حوافّها ناتئة وناعمة التدويرات.

انزلقت على الصخرة حيّةٌ رفيعة الجسد، رأسها ملتصق بالسطح الأملود، تتلوّى بسرعة وتنساب باندفاعةٍ هوجاء ولكنها محكومة، ثم سقطت ودفنت نفسها فى الرمال الساخنة.

جسدها المترع بالشهوة يرقص على أمواج الأشواق.

مازالت مشروعةً، ومبرَّرة.

الفصل الثالث

تختفي عايدة السوداء، على ترجيعات موسيقى فيردى والقبو الفسيح يتخذ مقاييس إنسانية، ويحلّ فى إهاب عايدة مثولٌ للمجدلية، ومن القبر تصعد تهليلات القيامة، وأنا أحيط بذراعىّ ظهْرها الشامخ العريض، أحيط بذراعىّ أنوثة العالم، أحيط جسم «عايدة» التى تهتز برفق، على أمواج المينا الشرقية الرقراقة، يهدر المحرك، يتقلّب زَبَد الموج على الجانبين، تَنْصبّ دفقة المدفع على المبنىَ العريق المنيع وتسرى فى الجسم رعشة مع انطلاق الضربة واصطفاق الموج وهتافات الآلاف المحتشدين على رصيف الميناء، «أورورا» تضرب فيشتعل سحاب سان بطرسبرج وتحترق سماء الإسكندرية الساجية. يتهاوى جدار «رأس التين» ويردّ المدفع الضخم من ربوة سيدى بشر ويتردد صدى القصف المدوّى فى صمت المدينة المطبق المفاجئ تتلوه رشاشات من أبراج المنتزه كابية الحمرة التى طالما أرهبت الناس، بزخّات متلاحقة ثاقبة تستجيب لها - فى تحدى مقاومةٍ تكاد تكون مستحيلة - طلقات بنادق قديمة من القنّاصة الثوريين الكامنين وراء رمل ربوات المندرة ومتاريس باريس، رأيت الجموع تحاصر قصر السلطان فؤاد فى ميدان الأزهار تهتف بسقوط الطغاة وسمعت أصداء إعلان الجمهورية فى أقاليم مصر الثائرة وتعود بى الأيام إلى قصر الخديوى الخائن توفيق إذ راودت الجمهورية أحلام العرابيين، هل قامت الجمهورية حقاً؟ جمهورية روبسبير، جمهورية الكوميون، جمهورية أكتوبر، أم جمهورية محمد نجيب؟ يهبّ بحارة «كرونستاد» فى فجر اليوم المشهود من أكتوبر بالتأريخ القديم وتنطلق صفارتها ثاقبة بأملٍ لا

يقبل الإسكات تردّ عليها صفارة «عايدة» ثم تصمت فجأة، وعلى الأرض أمام قصر الشتاء العتيد تهدر الجموع فى جموح الاقتحام ، أولاد أحمدات ينصبّون من حوارى بحرى والأنفوشى يتهاوى السور الحديدى تحت أقدامهم. ذئاب البحر تعوى، شِباك الصيادين المرفوعة على الرمال قد رتقت ثغراتها الأيدى الصبور الدؤوب، يجلجل هدير الحشود المنتصرة إذ تتدفق على ردهات السراى العتيقة آلاف الأقدام الحافية أو المنتعلة تُغرِق أرضياتها المفروشة بالسجّاد العجمى الثمين، تحيط بأعمدتها الرخامية أذرعٌ مفتولة صوّحتها شموسٌ لا عداد لها فى قلب البحر المفتوح، لا طلقات مدفع التكريم الإحدى والعشرون ولا اصطفاف الحرس ولا رفقة الثوار تصحب الخروج المشين للطاغية منتفخ الأوداج، مصفّد اليدين، انكسرت كبرياؤه، سترته البحرية البيضاء ملطخة بدماء الأبرياء الذين قضوا فى أورْدى المنتزه والمعمورة أو فقدوا أصابع أيديهم وبُترت أقدامهم بفؤوس السُخرة. كم كان يرودنا ويروعنا، ونحن فى معتقل «أبو قير»، هاجس الترحيل للشُغل قَسْراً فى أوردى مولانا لاستصلاح الأرض الرملية الصخرية وتحويلها إلى جناين وبساتين، من وراء الجسم الثقيل المترهل، فى الطريق إلى «عايدة» قافلة البنات فى فساتينهنّ الحريرية ملاصقات بعضهن ببعض من فَرَق المصير المجهول، ومعهن سيدة القصر البضة تحمل طفلها الوليد، وأما البنات فإن وجوههن الجميلة مازالت بريئة الشكل من غير أُبّهة البرنسيسات، أما السيدة فكأنما لا شأن لها بكل ما يجرى. جرس «أورورا» يصلصل فى بهجة تُنير آفاق الروح من غير نهاية، مآذن سيدى أبى العباس المرسى تعلو منها هتفات مليئة: الله أكبر الله أكبر النصر للشعب تغمر بيوت المدينة المتلاصقة تساند بعضها بعضا، زغاريد نسوان السيّالة وباب الكرسته تتفتح لها مغاليق القلوب وتبتلّ لها أرصفة الفحم والخشب فى الميناء.

ذرعتُ شوارع وسط البلد التى بدت فى الصباح الباكر موحشة

مهجورة، واجهات المحال التجارية الكبرى في شوارع شريف وطوسون وفؤاد قد أسدلت عليها السواتر الحديدية، توقفت الحركة في البنوك والشركات التي صرفت موظفيها وعمّالها إلى بيوتهم، حتى دكاكين البقالة والخردوات وصغار الحرفيين أنزلت مصاريعها إلى النصف أو واربت أبوابها أو أغلقتها بالضبّة والمفتاح.

في الجو كله توتّر كهربيّ، وفي صمتٍ مشحون بالترقُّب سمعت قلقلة عربات الترام في شارع سعيد.

صعدت سلالم البيت الهادئ في الشارع الصغير العريض خلف مبنى المحكمة، هبّ عليّ هواء البحر المبلول وسمعت صوت ارتطام الموج بسور المينا الشرقي من وراء البيوت التي خيل إليّ أنها ساكنة متوجسة.

طرقت باب شقة صديقي أنطوان خير الله. فتحت لي أخته آرليت، كان شعرها الأسود الطويل ينسدل في فوضى حول وجهها البيضاويّ الشمعيّ قليلا، لم تكن ترتاح إليّ كثيراً، رحّبت بي فيما يشبه البرود تقريباً. وقالت على الفور: أنطوان لسّه في الشركة، ماجاش. وصمتت قليلاً ثم قالت بتردّد: اتفضل. فشكرتها بسرعة ورجعت إلى شارع طوسون، أحسست أن جوّ وسط البلد مُنذر ومتربّص مما ألهمني بنوعٍ من النشوة وعلوّ القلب ودفْق الحماسة، كانت «الميساجيرى ماريتيم» مطفأة الأنوار موصدة الباب، لكني ضغطت على الجرس بقوةٍ وإصرار. فتح لي أنطوان محاذراً متوجساً فلما رآني قال لي: «ادخل بسرعة - بسرعة». كان وحده يراجع أوراقاً للشركة في غرفة خلفيّة قلت له: «استمر أنت في شغلك. هات لي ورقة حرير إستنسل». نظر إليّ بتساؤل لكنه لم يسأل، أعطاني الورقة والقلم المعدنيّ حادّ السنّ، بصمت.

كان أنطوان قد اشتغل معي في مخزن البحرية البريطانية فترة صيف قصيرة منذ سنتين، توثقت بيننا صداقة، حدثته طويلاً عما يشغلني، استطعت أن أعتبره قريباً من حلقتنا الثوريّة إن لم يكُن عضواً عاملاً

بالضبط. كان يسمح لي - وحدي - باستخدام مطبعة الإستنسل الضخمة المُعدة إعداداً جيداً، في «المساجيري ماريتيم» التي كان - على صغر سنّه - قد شغل بها وظيفة إداريّة مرموقة وبدأ يرقي درجاتٍ في مناصبها مما أتاح له أن يغضّ النظر عن أنني أفيد من معدّات الشركة التي اعتبرتها «مؤسّسة استعمارية».

كان قد تخرج حديثاً من الليسيه فرانسيه، لم يلتحق بالجامعة، لكنه كان شغوفاً بالأدب يقرأ روايات چورچ ديهاميل وأندريه موروا وأشعار هيجو ولامارتين، قرأ لي مخطوطاتٍ أولى لقصصٍ وأشعار كنت قد احتفظت بها وتكونتْ منها مادة خام وأحياناً نصوصٌ كاملة تقريباً لمجموعتي القصصية الأولى، ولعله كان يقدّر ما اعتبره منّي كفاحاً عنيداً متعدد الأوجه، إذ واصلت دراستي في كلية الحقوق مع شُغلي في المخزن ونشاطي المستميت في العمل الثوريّ مع قراءاتٍ لا تهن في الآداب والثقافات، ولعله كان يجد في ذلك كله شيئاً مما تمنّى أن يحققه لنفسه. وكنت أزورهم في بيتهم، تعرّفتُ على أُختيْه آرليت وأوديت التي كنت أحياناً أشرب معها كأساً في سكارابيه على الكورنيش، وأواعدها على سينما فؤاد أو سينما عدن، وأخلط بينها في فانتازيّاتي وبين دولت التي تسكن تحتنا في بيت ابن زهر وتكتب لي رسائل غرامية تبعث بها إليّ في طوايا «روايات الجيب».

كان أبوه يملك محلّ بقالة في شارع امبرواز رالّي في اسبورتنج، لبنانياً صرفاً حتى لو كان وُلد وتربَّى في مصر، مازال يتكلم باللهجة اللبنانية، وأمّه تنظر إليّ - على نحوٍ ما - مثل كل الأمهات على اعتبار أنني عريس محتمل لأوديت، مع حرصي البالغ، زيادة عن اللزوم، على ألاّ أتورّط ولو بكلمة واحدة في هذا السياق كلّه.

كنت ومازلت، أعتز بصداقة أنطوان، وعندما أصابته مسّةٌ من دَرن في الرئة أقمت معه أياماً في فندق «مون ريبو» في كنجي مريوط،

وعندما سافر للاستشفاء في بحمدون كتب لي رسائل بالفرنسية الكلاسيكية تفيض محبةً وشجناً وكآبة تذكرني بألفريد دى موسيه. وبعد أن مرّت سنوات، ولأنه كان ذكياً ودؤوباً وعلى إلمامٍ لا بأس به بأمور الثقافة والسياسة - هل كنت قد أسهمت في ذلك بنصيب؟ لا أدرى - وصل إلى أن عُهِد إليه بإدارة مكتب الإسكندرية - ثم مكتب القاهرة - لشركة «إير فرانس». ولكنه بعد أن تزوج «لبنانية مصرية» لا تكاد تعرف العربية ولا تكاد تعرف مصر، هاجر في ١٩٥٧ إلى بيروت واشتغل في شركة طيران تاروم الرومانيّة، في وظيفةٍ غير قياديّة، وخلّف ولداً وبنتاً كلاهما الآن في واشنطن، انقطعت صلته بي، فقدتُ عنوانه وشبّتْ الحرب في لبنان، ولم يعنَ من جانبه أن يصل ما انقطع إذ إن عنواني - أنا - لم يتغير.

عرفت بعد سنواتٍ طوال أن ابنه وبنته تركاه للدراسة في أمريكا، ثم قررا البقاء فيها، وتركاه في بيروت لنوباتٍ حادة وطويلة من الاكتئاب كانت تعتريه في غربته، فقد كان مصرياً حتى النخاع ولو كان يرفض ذلك، ومات في غمار إحدى هذه النوبات التي كان ينقطع فيها عن الكلام وعن الأكل وعن الحياة كلها.

كنت قد ألممت ببيروت قبل اندلاع الحرب الأهلية عندما زرته لآخر مرة، في شقته شِبْه الخاوية في «سنّ الفيل». كان إريك ابنه لبنانيّاً صغيراً صرفاً، يهتف بحياة الرئيس شمعون ويترنم بأناشيد فرنسية تمجد العَلَم اللبناني والأرْز وسان مارون، لا أذكر أنني في تلك الزيارة رأيت ولهلمينا بنته لكنها زارتني بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة عندما عرفت أنني أتقصّى أخبار أنطوان، ولم أكن قد عرفت بعد بنبأ موته، جاءت للقاهرة من واشنطن في مؤتمرٍ للمنظمة الدولية التي تعمل بها ولم يكن عندها إلا ساعات قلائل في مصر، هاتفتني وجاءت لمدة نصف ساعة ليلاً، وفوجئت وتزلزل قلبي إذ رأيت فيها وجه أنطوان الأثير

المألوف كما كنت أعرفه في تلك الأربعينيات الزاهرة، الخالق الناطق وجهه ينسدل حوله شعر عمّتها آرليت الأسود الناعم. كنت على سفر صباح الغداة ولم يأتني النوم ليلتها إلا غراراً.

ابتسمت لنفسي بقدرٍ من الأسى، وربما التفجّع، عندما تذكرت أنه كان يسخر منّي إذ كنت - قبل أن نؤسس حلقتنا الثورية - كلما مررت بجنديّ إنجليزيّ أو أستراليّ بصقت على الأرض بحركة رفضٍ واحتقار صبيانيّة. قال: هل سيخرج الإنجليز لأنك تبصق على الأرض كلما رأيتهم؟ وبعد سنوات قليلة وقبل أن يهاجر قال لي: على أية حال لن يذكرك التاريخ باعتبارك ثورياً عظيماً أو محرّراً للبلد، ربما يذكر اسمك بالبنط الصغير في هامش من هوامش كتب تاريخ الأدب.

فهل مازال ذلك يوجعني؟

يومها، على مسئوليتي وبمبادرةٍ فردية لعلها كانت مفوَّضةً لي من «اللجنة التنفيذية» بشكل مضمَر، كتبت بالقلم المعدنيّ على ورقة حرير الإستنسل صفحةً من «الكفاح الثوريّ» في صيغة منشور يدعو «الجماهير إلى الجهاد في سبيل الاستقلال والحرية» وأنهيت المنشور بالهتاف: تحيا مصر، يسقط الاستعمار، تسقط الملكية الفاشستيّة، تحيا الجمهوريّة، تحيا الاشتراكيّة، على الرغم من الاختلاف المحتدم في اللجنة حول ما كان قاسم إسحاق يسميه «الوثب على المراحل» وضرورة الالتزام بالتدرج في الدعوة للجمهوريّة والاشتراكيّة.

دخلت الغرفة الخلفيّة وأدرت مطبعة الإستنسل بحرص وفاحت رائحة الحبر وجاءت النُسخ الأولى ملتاثة بالسواد مضطربة الحوافّ وبعد فساد نحو عشر نسخ أو أكثر اتسق الجهاز واستطعت بسرعة أن أنهي نحو مائة نسخة لم أكد أصبر عليها حتى يجفّ حبرها الطريّ، أحرقت ورقة الحرير الإستنسل واستوثقت من أنها استحالت رماداً، جمعت النسخ الأولى الفاسدة من «الكفاح الثوريّ» في لفّةٍ مدوّرة وضعتها في

جيب معطفى الواقى من المطر الأزرق الداكن الواسع، أما المائة نسخة الصالحة فقد أودعتها ملفاً كبيراً استرقته من مخزن «المساچيرى ماريتيم». سلّمتُ على أنطوان الذى رَمَقَ ما أحمل ولم يسألنى مرةً أخرى عن شىء، أمسكت بالملف الكبير بعناية، كما يمسك أىّ موظَف أو طالب بملفّاته، وفى غمار نهار الثلاثاء ١٢ فبراير ١٩٤٦ وجدتْ «الكفاح الثورىّ» طريقها فى حشود المتظاهرين.

كان وابور الزلط فى شارع صفيّة زغلول يرصف قطاعاً من أسفلت الشارع، حوله ثلاثة عمال وضعوا على أجسامهم القضيفة شوالات خيش مقطوعة الأكمام تبدو منها أذرع نحيلة مفتولة العضل، النار تئزّ تحت قدر ضخم أسود مدبّب الفوّهة يغلى فيه الزفت برائحة نفاذة، يصبّون الزفت الذائب كثيف القوام على الأرض، يفرشونه، بما يشبه سكيناً عريضة مسطّحة، على أرض الشارع، إذ يتصاعد منه هَبْوٌ أبيض محرق فى شمس الظُهْر. ذهب قلبى إليهم، فى سذاجته.

بالأمس الاثنين ١١ فبراير ١٩٤٦ كان اجتماع اللجنة فى بيت عضويْها عبد القادر وعبد الفتاح خلف الله، ٧ شارع العباسى، محرم بيه، اجتماعاً عاصفاً وحاشداً.

كانت البلد تغلى بعد معركة كوبرى عباس يوم ٩ فبراير. جامعة فاروق الأول أعلنت الإضراب العامّ يومها، تلاطمت التيارات السياسيّة فى صفوف طلابها، انعقدت الاجتماعات الساخنة، علنيّة وسريّة.

أوفدت «المنظمة المصرية للتحرر الوطنىّ» و«منظمة الشرارة» والجماعات الأخرى مندوبيها للإسكندريّة، كنا على اتصالٍ بشكلٍ ما بهذه الجماعات التى قررنا، بأغلبيةٍ حرِجة، أن نقف معها فى العمل الوطنىّ مع احتفاظنا باستقلالنا وحرصنا باستمرار على تأكيد مواقفنا

ضد السطوة الستالينيّة، لم نكن على صلة «تنظيميّة» بأية جماعة في القاهرة، ومع ذلك لم تكن حلقتنا تحس بأى قدرٍ من العزلة أو الانفصال، بل كانت صِلاتنا بقيادات و«عناصر» عماليّة ونقابيّة قد بدأت تترسّخ، وكان لنا نفوذ معنوىّ، أو على الأقل سمعةٌ ومكانة - إن إيجاباً وإن سلباً - في الأوساط الجامعيّة والمراحل الأخيرة من بعض المدارس الثانويّة. وعلى صغَر عددنا، وافتقادنا صرامة التنظيم، وتباين أفكارنا بل اضطرابها، كان يملؤنا إحساس بالأمل والثقة وطموحٌ لا تكاد تحدّه حدود.

كنت قد كبتُّ كل هواجس السؤال كبتاً تاماً.

عندما اكتمل عقدنا، أو كاد، نقل إلينا قاسم إسحاق اعتذار كامل الصاوى عن تخلّفه، فقد كان مشغولاً بترجمة كتابٍ لم يَرَ النور قطّ، عن هيجل، كان كامل أرستقراطىّ السلوك تقريباً. زرته مرَّة أنا وقاسم إسحاق، صديقه وصفيّه الوحيد، في شقّته الفخمة بشارع الرصّافة، رحّب بنا ببرودٍ عزوتُه إلى سمات البورجوازيين المعتادة. وكان في الشقّة عَبَقٌ نسوىّ يتبدّى خاصةً في الستائر القطيفة ووراءها ستائر شفافة بيضاء ناصعة، ورائحة پارفان «سوار دى پارى» والبيانو الأسود اللامع الرابض في الردهة، والسجاجيد الوثيرة تحت أقدامنا.

كان كامل الصاوى يبدو لى مترفّعاً كأنه يحتقرنا إلى حدٍ ما، يرى فينا جماعة من الهَمَج الانفعاليين الذين جاءوا إلى الثوريّة بحافز من عواطف ومثاليّات الطبقة الوسطى الصغيرة في أدنى فئاتها، أما هو فقد قال لنا إنه اعتنق الماركسية لأسباب عقليّة صرفة وعمليّة أساساً، لا شأن له بمسائل مثل «العدالة» بمعناها الانفعالىّ، كما قال، أو المساواة بين مصائر الناس، وما شابه ذلك، إنما كان الأمر في يقينه حتميةً تاريخيّة يفرضها التحليل المنطقىّ والتاريخىّ الموضوعىّ، قال باستهانةٍ غير مضنونٍ بها: «وهو شيء بعيد عن جيشان القلوب ونوازع الأرواح».

كان كامل الصاوى طويلاً، له كرشٌ صغيرة، أنيق الملابس دائماً،

يعقد حول ياقة قميصه پابيون رشيقاً، ويضع نظارة مدوّرة بسلك رفيع، ويطلق سكسوكة مشذبةً بعناية تحت ذقنه حتى يزداد شبهاً بزعيمه الروحيّ يعني العقليّ على الأرجح، وكانت لهجته في الكلام حادةً مقطّعة مبتورة على طريقة الإنجليز.

سوف يتخرّج معنا من كلية الحقوق ويلتحق بسلك النيابة العموميّة ويموت محترقاً في فاجعةٍ لا يُعرف على وجه التحقيق إن كانت انتحاراً مقصوداً يحفزه اليأس أو الحسّ بخذلان المبدأ أو الشرخ الذى لا برء له بين عقيدته العقليّة وعمله في جهاز الدولة، ثم كان الحريق الذى التهم سريره ومات فيه جاء عن عقب سيجارة «قضاءً وقدراً» كما انتهت إليه تحقيقات زملائه في النيابة إذ طُوى ملفّه بسرعةٍ وكتمان.

ثم دخل فتوح القفّاص، وفي ركن فمه سيجارة «پول مول» متوهّجة ينفث دخانها، متأخّراً كعادته عن ميعاد الاجتماع بنحو عشرين دقيقة دعوتُ فيها إلى الانتظار ونجحت في الإقناع، في مواجهة اتجاهٍ غالبٍ إلى البدء رسميّاً دون انتظار لأحد، كما كان أحمد النمس يقول بعنفه واندفاعه الذى لم يكن يقلّ عن اندفاع فتوح القفّاص نفسه في احتداد المناقشات واتّقاد المنازع.

اتخذ فتوح القفّاص جلسته المعتادة، على الأرض، وفتح كتاب «الفوضوية» لهربرت ريد، بالإنجليزية، وتظاهر بالقراءة فيه، ونبّهه قاسم إسحاق بجدّية الرئاسة وأقدميّة الخبرة أنْ أغلقْ كتابك الآن يا زميل وخلّك معنا، فأغلق الكتاب بصوتٍ مسموع وقال: «طيّب أهُه، قولوا إذن ما تريدون، هل أنا أمنعكم».

كانت الغرفة المغلقة قد بدأت تعبّق بدخان السجائر وتوتُّر الأهواء. وبصبرٍ وبصوتٍ هادئ مكبوح الانفعال وبدعوةٍ من قاسم إسحاق عددت بنود جدول الأعمال:

١- تنظيم مظاهرة
٢- طبع عددٍ جديد من «الكفاح الثورىّ»
٣- الاتصال بالقيادات النقابيّة لتنسيق الإضراب معها
٤- توزيع المسئوليّات

تدخّل فتّوح القفّاص مقتحماً، من غير أن يمنحه رئيس الجلسة إذناً بالكلام، وقال إنه قبل كل شيء وقبل تناول التفاصيل العمليّة، علينا أن نوضّح الآن، على الفور، موقفنا المبدئىّ من مسألة الديمقراطيّة المركزيّة، وحريّة المواقف، ومسألة اضمحلال الدولة أو إلغائها.

ثارت ضجّة مختلطة الأصوات، كان صوت أحمد النمس، مع بحّته، أكثرها ارتفاعاً واحتداداً وبه نبرة دفاعٍ عن النفس فيما لم يكن ثمّ اتهام، أما احتجاج عبد القادر فقد كان هادئ الإيقاع بل بطيئاً، وكان صمت عبد الفتاح له دلالة واضحة على الاستياء والرفض.

أما على أبو الليل، وهو العامل- أو الحِرَفىّ- الوحيد من أعضاء ما كنا نسميه اللجنة التنفيذية، فقد جلس مطرقاً برأسه الضخم الأصلع، ووجهه الطويل داكن اللون دقيق التقاطيع، يحدّق فى الأرض كأنه يعكف على نحت كعبٍ عالٍ لحذاءٍ حريمىّ يرقّق صنعته ويرهف انسجام خَرْطته، لم يكن في العادة يتكلم أو يشارك فى الجدل أو فى التنظيم، بل كان يومئ برأسه موافقاً، أو ينفجر يقول «لأ» بصوت عالٍ أجش قاطع، عندما لا يؤيد موقفاً أو ينكر عبارةً ما، وما أندر ما كان يحدث ذلك، بل ما أندر ما كان يواظب على حضور اجتماعات اللجنة ويكتفى بأن يحضر ما كنا نسميه «المكتب السياسى» المكوّن من قاسم إسحاق رئيساً، ومنّى، وعلى أبو الليل، عضوين، وعندما كنا نستعرض خطةً أو نقرأ مسودة بيانٍ أو مشروع برنامج عمل كان أيضاً يصغو برأسة ويُنغضه موافقاً، أو يعدّل الكلمات أو الترتيبات باختصارٍ خشنٍ لعله مقصودٌ أن يكون فظاً على نحوٍ ما، لكى يؤكد أنه هو الطبقة العاملة

الكادحة بين المثقّفين البورجوازيين المنحازين للطبقة العاملة أمثالنا.

أخذ قاسم إسحاق يدقّ على المائدة الصغيرة أمامه بقلمه فلا يكاد يسمعه أحد حتى هدأت الضجّة. اقترحت أن نرجئ مناقشة ما أثاره فتوح القفّاص إلى أن ننتهى من جدول الأعمال، ووافق فتوح موافقةً ضمنية بأن لم يتكلم.

اقترح قاسم إسحاق، بشيء من المضض وربما الملل، أن يتولّى «السكرتير العام» شرح بنود جدول الأعمال.

سارت المناقشات بنعومة نسبيّة إذ فصّلت خطّ سير المظاهرة من ربوة العباسية الثانوية (التى أصبحت جامعة فاروق الأول) حتى شارع إيزيس، ثم راغب باشا، وبعد انضمام عمال المحالج والمطاحن تنعرج إلى شارع كرموز حيث تلتقى بالكتلة العماليّة الكبيرة، مع محاولة أن تسير المظاهرة فى مجموعات صغيرة متفرقة لكى لا تصطدم بالبوليس حتى التقائها بحشود عمال فاوريكة الغزل والنسيج فى كرموز.

وتطرقت بعد ذلك مباشرة إلى اقتراحٍ بتوزيع المسئوليات على أن يكون عبد القادر مسئولاً عن طلاب كلية الطبّ، ويتولى أحمد النمس ومجموعته تحريك طلاّب كلية العلوم وكلية الهندسة، وأن يوجه قاسم إسحاق الهتافات فى حدود المطالب الوطنية وعليه إحباط الهتافات الاستفزازية، وكانت مهمتى تنحصر أولاً فى طبع عدد خاص من «الكفاح الثورىّ» وثانياً فى الاتصال بقيادات عمّاليّة، ليست فى واقع الأمر أكثر من عنصرين لم أذكر اسميهما بطبيعة الحال هما سلامة البشلاوى وشاكر المريوطى. أما فتوح القفّاص فقد اقترحت أن يقوم باستخلاص النتائج وبيان الإيجابيات والسلبيات وعرض تقرير إجمالىّ على اللجنة فى اجتماعها القادم.

أما على أبو الليل فلم نعهد إليه بمسئولية محددة يومها إذ كان له تاريخ طويل معروف وكان البوليس السياسىّ يراقب تحركاته

واتصالاته، قُبض عليه بينما كان صبياً مرتين من قبل، مرة في مظاهرات ١٩٣٥ ومرة بعد معاهدة ١٩٣٦ إذ أعلنت مجموعة عُمّاليّة صغيرة بقيادته عن الاعتصام احتجاجاً على عدم تمثيل العمّال في وفد المفاوضات الذى أبرم هذه المعاهدة. وفى المرتين أودع سجن الحضرة لفترة طويلة فى قضايا لم يُقدم فيها للمحاكمة قط.

انفجرت العاصفة.

وقف فتوح القفّاص فجأة، منفعلاً مستثاراً إلى آخر مدى، هدّد بالانسحاب من اللجنة ومن الحركة كلها، وبفضح «ممارساتنا الديكتاتورية» ما لم نناقش على الفور مسألة الديمقراطيّة المركزيّة التى قال عنها من الآن إنها ليست ديمقراطيّة أبداً بل هى ديكتاتوريّة مُقنَّعة، واستفاض مباشرة فى الكلام عن مزاعم أنْ حرية المناقشة والإقناع أوالعكس مضمونة بلا حدود هى مجرد دعاوى لا أساس لها لأن الالتزام التزاماً صارماً برأى الأغلبية باعتباره أعلى درجات التوفيق بين الديمقراطية وفعالية العمل الثورىّ ليس إلا قناعاً لفرض رأىٍ واحد وإلزام من هو غير مقتنع به أصلاً باتباعه وتنفيذه، وهو ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية نفسها.

كان فى أثناء ذلك يروح ويجىء فى الغرفة الضيقة يصطدم بالكراسى وبالكنبة وبالمائدة، يتطاير من فمه المنهال بالكلام رذاذ الانفعال، وكان من المفروض عندئذ أن يكبح قاسم إسحاق، باعتباره الرئيس، جموح هذا السيل الانفعالى المنهمر، لكنى بادرت بالردّ.

كان قاسم إسحاق صديقى القديم من أيام أخميم - كنا نناديه أحيانا مصطفى، من نحو ست سنوات، حين كنا مازلنا صبياناً أكبر من أعمارنا وأكثر نضجاً، عندما اشتركنا فى حركة عمال أنوال النسيج ووقفنا إلى جانب الفلاحين فى معركتهم مع الإدارة والمقاول نجيب حسن دياب، فى نجع خور - كان أثناء هجمة فتوح القفّاص بالكلام يحس أن زعامته أو

رئاسته مهددة أو توضع موضع الشك، لكنه آثر ألا يعقّد الموقف بالدخول في صراع.

أحمد النمس لم يترك لي مهلة حتى أبدأ النقاش النظريّ الذي أريده هادئاً متعقلاً فأحاول أن أوجز بقدر المستطاع مسألة الاتساق النهائي بين حرية الآراء والسعي إلى البرهنة على صحة الموقف بالحجة والمنطق من ناحية، وبين كفاءة الأداء بعد استنفاد إمكانيات الجدل والحوار، قام أحمد النمس بعنف فسقط كرسيّه إلى الخلف بصوت ارتطام حادّ، وصاح أنه هو الذي سينسحب من الحركة ومن اللجنة ويعود إلى العمل الفرديّ إن لم توقف هذه المجادلة التي أسماها بيزنطيّة واستفزازيّة بينما البلد تشتعل بالثورة ويسقط الشهداء والجرحى كل يوم بالعشرات والمئات يقدمون حياتهم وحريتهم بالفعل قرباناً للوطن وبالفعل لا بشقشقة الكلام.

أحسست إن خطأ وإن صواباً، أنه على صحة موقف أحمد النمس نسبياً فيما يتعلق بمصداقية الجدل النظريّ في هذه الظروف وأولوية الفعل الثوريّ فإن هذا التهديد الجديد بالانسحاب - وهو خَطَلٌ كامل - إنما يخفي وراءه - أو لا يكاد يخفي - نوعاً من التحدي لكلينا: قاسم إسحاق وأنا، نوعاً من تأكيد الذات ومطاولة «القيادة» في اللجنة. لكني، مثل قاسم إسحاق، آثرت أن أُرجئ علاج هذا الموقف الذي اعتبرته تخريبياً في المحصّلة، مع تسليمي بصدق نوايا أحمد وإخلاصه التامّ (أو المشكوك فيه قليلاً؟) قال: أؤكد على العمل، على الفعل، مع ارتباطي واحترامي للقضية النظرية.

قلت: المنهج وليس القضية.

قال بشيء من الغضب، ولعله الغيظ:

- المنهج يا سيدي، المنهج، ما غلطناش في البخاري.

كنت پيوريتانياً وشديد الصرامة فرددت على الفور:

- يا زميل ليس في هذا مجالٌ للاستخفاف أو السخرية. هناك مسائل

جادة لا تحتمل الاستهانة أو المزاح.

قال على الفور بشجاعة الاعتراف بالخطأ، أو لعله ذكاء المناورة:

- آسف. لم أكن أقصد أبداً، هذا فقط ما يجرى على اللسان دون قصد إلى استهانة أو إساءة. آسف.

قلت: خلاص، حصل خير. أنا أيضا آسف لاحتدادى المفاجئ.

هل أستطيع أن أنكر أن شيئاً ما في حِسيّ، كان ينذرنى بأن المسألة لم تكن عدّتْ على خير.

مع جو العنف في اجتماعاتنا هذه، وانقلاب النظام فى تناوب الكلام، وانفجار المنازع الشخصية، فقد أحسست على نحوٍ ما بإحساس أتباع الدين الجديد فى أقباء كنائس الإسكندرية السرّية بعيداً عن أعين الرومان أو البيزنطيين سواءٍ، يلوذون بإيمان مطلق هم على استعداد تام للاستشهاد فى سبيله، على تنوع فهمهم للألوهية والتجسد ومكانة يسوع المصلوب فى الثالوث الإلهى، على غرار تنوع فهمنا للحرية والديمقراطية ومكانة الحزب الطليعى فى آليات الثورة والدولة.

مازالت نبرة أصوات قاسم وفتوح وأحمد تتردد فى مسامعى بعد أكثر من نصف قرن، الأصوات مهمّة، هل يمكن أن نفصل الصوت عن الإنسان؟ قد يحدث هذا فعلاً، شئنا أم لم نشأ. الإنسان الواحد أكثر من واحد، صوت الإنسان قد لا يكون هو كل الإنسان، وقد يشى بجوهره، عندما لا يأتى زائفاً ولا خارجياً. الصوت عندئذ نقيّ غير مَشُوب، قلت: ليس هذا مُقنعاً، أيمكن أن ينبثق النقاء من الردغة الموحلة؟ قلت: نعم، نعم، طبعاً. ألا تونع زهرة اللوتس من الطمى اللزج؟ ألا تتفتح الزهرة الطهُور من الطينة السبِخة؟.

قلت: أصواتهم أسقطت أقنعتهم.

عندما خرجت من بيت أنطوان خير الله، بعد الظُهر، كانت المدينة قد استعادت شيئاً من اعتياديّتها، رجع أصحاب الدكاكين الصغيرة، إلى

شُغْلهم وأكْل عيشهم، لكن شارع فؤاد كان أهدأ، وأنظف، فيما خيّل إليّ، من المعتاد.

كان صديقى الرسام أحمد قنديل فى مرسمه الذى يقع فى بدروم «الأتيليه» القديم.

كنت على غير علمٍ منه قد أودعت مرسمه مخطوطات ثورية وضعتُ فيها ما أسميته «فجر الحركة فى الإسكندرية» وسوف أعيد كتابتها بخطٌ ميكروسكوبىّ منمنم على ورق البافرا الشفاف، وسوف أصنع مما يكوّن كراسة متوسطة أسطوانةً صغيرةً أُغلق عليها علبة صفيح إغلاقاً محكماً، وأدفنها فى رمال معتقل أبو قير، تحوّطاً من وقوعها فى أيدى البوليس السياسىّ، وعندما نُقلنا فجأة إلى معتقل الطور لم يُتح لى أن أستنقذها. فهل ظلّ «فجر الحركة» كتاباً مخطوطاً مدفوناً فى الرمل حتى الآن؟ أم أننى - على أية حال - أخلط بين الوقائع والتواريخ وأصنع من الحقائق خيالات ومن الأوهام أحداثاً إذا لم تكن قد وقعت بالفعل فقد كان ينبغى أن تحدث؟

لا، بل حَدَث.

دخلت من باب «الأتيليه» القديم المشغول بحديدٍ مُصاغ على شكل أوراق ملتوية وأزهار متفتحة، درتُ حول المبنى راسخ الأحجار، على أرض ممشى الجنينة الصغيرة المخضوضرة بعشب غير معتنىً به تماماً، ولذلك فطرىّ ناضر غير مُدَجَّن.

لمحت أحمد قنديل من نصف النافذة الأرضية المطلّة على مَمشى الجنينة، أمام لوحة نصف منتهية.

أكملت دورتى حول المبنى ونزلت درجتين إلى قَبْو المرسم.

كان أحمد قنديل يملأ الفُرشة بألوانٍ بُنية محترقة ثم يُثَنّى عليها بخضرةٍ زاهية وكانت رائحة الزيت والترابنتين والجواشّ تنفذ إلىّ وتَهيج عندى حساً بالشبق، كانت كتب الفنّ النادرة الثمينة ملقاة على الأرض والكراسى والمائدة كيفما اتفق، وكانت فاطمة الموديل التى اعتاد أحمد

أن يستلهم منها عارياته، تقف عارية أمامه فى ذِرا ركن المرسم، تحت أشعة شمس بعد الظهر المائلة التى تنفذ من نصف النافذة تتخذ وضعها المألوف، كنت من نحو أسبوعين ثلاثة حاولت أن أرسمها بالقلم الفحم على ورق أبيض باعتبارى رساماً هاوياً يضع على الورق تصوّره لعارية إسكندرانية بنت بلد.

لم تكن فاطمة جميلة القسمات بالمعايير المتواضع عليها، كان وجهها مائلاً للسُمرة، وأنفها كبيراً إلى حدٍ ما، وشفتاها ضاربتين إلى لون اللَّمى الداكن، تعصب شعرها بعصابة حمراء عريضة، وتضع قرطاً طويلاً ذهبى المظهر يهتز عند أدنى حركة منها ولا تخلعه قط:

– والنبى يا بيه ده فاسوخه باتفاول بيه، ما نِسلْتوش أبداً من ودانى ولا بالطَبْل البلدى، يا حوستى..!

كانت عندما تأتى ترتزق برسم جسمها تلقى بملايتها اللفّ على جنْب، وتخلع فستانها الكستور المشجّر ثم قميصها الداخلى الفسدقىّ بتقويرة غير واسعة على الصدر من غير حمالات ومتهرّئ قليلاً تحت الإبطين، وتسلت بسرعة لباسها المكشكش الواصل إلى ما تحت الركبتين، عندئذ يبدو جسمها ممشوقاً بديع التكوين، نهداها السمراوان مشرئبّان إلى أعلى بتدويرة متماسكة وبطنها هضيم مسحوب، ردفاها مكتنزان فى غير ترهل، أسفل البطن أملس البشرة مربرب مقبّب قليلاً منتوف بعناية أو مُنعَّم بالحلاوة على الطريقة التى تُحسنها بنات البلد.

كانت ثمّ مدفأة كهربائية صغيرة تتقّد فى جانب المرسم بينما آخر أشعة الشمس تأتى من نافذة المرسم التى تطلّ على الممر المخضوضر تسقط على نهديها وبطنها وفخذيها تكسبها نضجاً ووهج اللون الحارّ.

كانت عندما يستثيرها شيء – وما أندر ما تُستثار – تضحك ضحكةً لها عمقٌ ممتلئ وأجش ذكورىٌ تقريباً، ولكنه أنثوى جداً وجنسىٌ ومثير.

عندما دخلت ارتعدت فجأة ثم قالت:

- بسم الله الرحمن الرحيم، زوّعتني يا سي يوسف، هوّ انت غريب؟ ما غريب الا الشيطان.

فرغ أحمد قنديل من عمله، أزاح الپاليت جانباً وقال إن عنده ميعاداً في الفريسكادور: لا تنسى أن تقفل الباب بالمفتاح.

كانت فاطمة ترتدى ملابسها ولم تكن تضع السوتيان على صدرها الفتيّ مع أنها كانت أُمّاً تجرى على أكل عيش ولدٍ وبنتين تربّيهم بطولها وتعلّمهم فى المدارس.

قالت لى مرّة إنها تضع وصفةً من العطار تجعل الصدر يقوم على حيله ولا يتهدل ولا يرتخي، وضحكت ضحكتها العميقة.

أدارت الملاية اللف بسرعة وحذق حول جسمها وقالت:

- والنبى يا سى يوسف تمشي معانا بس لغاية الجامع فى الأنفوشى لَحْسنْ العساكر الإنجليز ولاد القحبة ما بيسيبوش حدّ فى حاله، بيبهدلوا الواحدة منا وحياة المرسى أبو العباس، دول خطفوا واحدة لا بيها ولا عليها من حتتنا، ركبّوها الأتومبيل الحربى، وعاديك عملوا فيها اللى ما يتقال ولا يتسمّى وبعدين يا ضنايا رموها على الكورنيش رمية الكلاب. لوما ربنا ما ساق لها ولاد الحلال نجدوها ووصّلوها البيت، إيوه ياسى يوسف ربّنا ما يورّى عدو ولا حبيب، إحنا عايزين نروحوا بسّ بالسلامة نوصلوا لغاية البيت جنب الجامع ويا دار ما دخلك شرّ.

عندما اقتربت منى قليلاً فوجئت بأن عينيها خضراوان، بلون حقول قرية أمي فى الطرّانة، أو بلد أبى فى أخميم، لماذا تظل ترودنى هذه العيون الخضراء وأظل أعشقها حتى نهاية العمر؟

كانت الحارة معتمة وقد حلّ الليل، ولم تكن ثم مصابيح عندما وصلت معها إلى بيت قديم مبنى من الحجر الانترى الذى اغبرّ وحال لونه وذاب لحمه بين الحوافّ من فعل رطوبة البحر وقد جاءنى صوت ارتطامه بالشاطئ خافتاً ورتيبا وراء البيوت، تحت رجلين يقفان على قمة

الحارة في زيّ الأعراب الأبيض ينشغلان بما يشبه الحديث الجاد بينهما.

تساءلت: هل بلغ من ذكاء مخبري البوليس أن يتنكروا على هذا النحو، كما نرى في أفلام هوليوود مثلاً؟ أم كانا بالفعل عابريْ سبيل لا شأن لهما بما نفعل؟ وما شأن فاطمة على أية حال بما نفعل نحن الثوريين؟ أم أنهم كانوا يقتفون آثارنا منذ خرجنا من وسط البلد؟

سلّمت عليها دون لهوجة وخيل إليّ أنها مضطربة ومتوترة قليلاً: مع السلامة يا خويا ربنا يكتب لك في كل خطوة سلامة نشوفوا وشك على خير إنشالله.

أتت في أذني نبرة طفيفة تصوّرتُ أنها بدوية أو أعرابية في كلماتها.

طرحتُ المسألة كلها خارج ذهني، كنت مشغولاً بأشياء أخرى.

كانت لفّة الملاية السوداء ناعمة النسيج الملفوفة بوثاقة حول جسمها المدملج الأنيق تذكّرني بالملاية اللفّ السوداء التي كانت تحكم أمي دورانها حول جسمها في الثلاثينيات عندما كنت صبياً أنظر إليها في نوع من النفور وما يشبه الغيرة عليها من أنظار العابرين والحب الطفليّ لكل الأنوثة وملء الحنو في العالم.

تدفّق في قلبي حنانٌ لها لا يكاد يُطاق.

وعندما أحطتها بذراعي - وهي في الملاية اللفّ - لم تنأ بجانبها بل اقتربت مني أهون اقتراب، تركت لي جسدها أضمّه برفق، في ليل الحارَة الرفيق.

رفعتُ يديّ إلى وجهها الذي بدا لي فجأةً جميلاً وشهويّاً وضممته إلى صدري، وكأنما استندتْ به إليّ، نشقت رائحة حريفة من شعرها تحت المنديل أبو أوية الأزرق الباهت والعصابة العريضة الحمراء.

رفعتْ إليّ عينيها الخضراوين الواسعتين بصمتٍ وتوسُّل ثم ابتعدت قليلاً بهدوءٍ تام وسبقتني إلى الباب.

الفصل الرابع

كانت محطة الرمل غاية المظاهرة وبؤرة تجمّعها .

لكنها فى ذلك اليوم لم تصل قط إلى غايتها .

نزلت فى آخر محطة للترام وسرت فى الشارع المظلل بشجر وارف كثيف .

عبرت كوبرى النزهة الضيق الذى بدأت عتمته أول الليل تخفى معالمه ، أحسست جريان الماء البطئ تحت الكوبرى ، وصعدتْ منه رائحة عطنة قليلاً فى ركود هواء آخر الشتاء ، وانعكاس أنوار متراقصة على المياه المنسابة برقرقة هيّنة .

لم أكن أحمل ساعة قط ولكنى كنت أعرف الوقت تقريباً دقيقة بدقيقة ، كنت أعرف مواقع الساعات الكبيرة فى المحلات والساحات ولا أتردد فى سؤال العابرين وكان ميعادى الساعة السادسة تماما فى القهوة البلدى ، على جنب ، تحت كوبرى النزهة على الشاطئ الآخر . ومن فوق الجسر الترابى رأيت نور الكُلُوبّ الواحد يشع بضوئه الفضى بصوت أزيز متصل تطير حوله سحابة متموجة من الهاموش تصعد وتهبط بصمت ، والكراسى ذات المقاعد القش على مقربة من الماء وكركرة الشيشة تعلو وتخفت .

نزلت محاذراً أن أتدحرج على دحديرة الجسر ، لم يكن فى مظهرى الرثّ بشكل عام ما يختلف عن العمال والصنايعية الذين يأخذون لأنفسهم لحظة استرخاء مع الشاى الكوباية الثقيل والشيشة والمعسّل وربما الجوزة التى يفوح منها عبق الحشيش النفاذ المسكر قليلاً ، جاكتة

زرقاء تبدو ملبوسة من سنين وبنطلون رمادى خفيف صوف مترهّل مغضّن اختفت طيّته، وجزمة سوداء ضخمة، النظارة ذات الإطار الباغة البنّي السميك، قد تعطيني مظهر أفندى، كاتب في مخزن مثلاً - هو بالضبط شغلي- لكنها لا تجعلني إلا بالكاد من طبقة مغايرة. وعندما اندفعت نازلاً بآخر خطوة على منحدر الجسر الترابيّ الموحل قليلاً جاءتني دقات ساعة الجامعة من راديو القهوة الخشبي الضخم ماركة «باى» الموضوع على رفٍ عالٍ تُضيء عينه الواحدة المستديرة بنور أخضر ثابت التوهج.

كان شاكر المريوطي بوجهه النحيل العظميّ وقامته المسحوبة منحنى الظهر قليلاً جالساً على كرسيه القش، وأمامه ترابيزة معدنية مدورة لامعة السطح.

قام بشيءٍ من الصعوبة وسلّم عليّ وصفّق بيديه وزعق بصوت أجشّ مبحوح قليلاً، اتنين شاى بوسته ياجدع.

كان ماء المحمودية قريباً جداً من مجلسنا على الشطّ، وشَدَّة الشيشة حولنا وعَبَق المعسّل يُكسب المجلس المفترض أنه سرّى وثورى أُنساً لعله لا يتـــحـــقق قط إلا هنا، وبين ناسنا وأهلنا، رغم كل النظريات والتجريدات.

وفى جيب چاكتتى مشروع برنامج العمل الثوريّ الذى استلهمناه من بيانات طَلَبة جامعة فاروق الأول إذا أعلنوا الإضراب العام أول أمس، ومن هتافات المظاهرات الغاضبة التى شبّت فى مصر كلها من القاهرة إلى أسوان ومن الزقازيق إلى شبين الكوم ومن طنطا إلى سمالوط، وصباح اليوم عيد ميلاد الملك، إذ كنت أنا وعبد القادر خلف الله قد شاركنا فى مظاهرة شارع إيزيس وعلى مقربة من قهوة الاكتع وبعد المقلاة التى لم تغلق أبوابها اندفع ولد جدع من أولاد احْمَدات إسكندرية ووثب فأنزل صورة الملك فاروق الأول بالحجم الكبير المعلقة على المقهى ورماها فى

هبوطه العنيف على الأرض فتكسّر زجاجها بصوت بدا هشّا وصغيراً وانقطع الحبل المدلّى الذى علقت به كُـريَات الزينة المدوّرة والملوّنة بالأحمر والأزرق والأصفر، انطفأت الأنوار من غير صوت، بادر أحد الأفندية الصغار - واضحٌ أنه طالب في الجامعة معنا- فنزع العلم الأخضر بنجومه الثلاث من على حبل الزينة ولوح به وهو يهتف : تحيا مصر حرة مستقلة، تحيا مصر ويسقط الطغيان، يسقط ملك النساء والحفاء.

كنت قد استفضتُ في شرح وبيان مشروعنا لشاكر المريوطيّ، ونحن في القهوة البلدى، قلت : المشروع مبنى أساساً على برنامج اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلبة الذى انعقد في كلية طب قصر العينى في الصيف الماضى وعلى برنامج المؤتمر الوطنى لطلبة جامعة فاروق الأول المنعقد في ١٥ اكتوبر الماضى، إذ «كفر الطلبة بالزعماء واتجهوا إلى الشعب القوة الحقيقية» ولكننا أدخلنا على هذه البرامج تعديلاتنا الخاصة.

قلت مشروع برنامجنا يؤكد أن الكفاح بكل وسائل النضال وبخاصّة المقاومة المسلحة من أجل الاستقلال الوطنى ليس فقط ضد الاحتلال العسكرى ولكنه أساساً ضد السيطرة الاستعمارية الاقتصادية والسياسية والثقافية وضد الخضوع لأية اتجاهات أيديولوجية تتنافى مع الحرية التى هى حق للفرد بقدر ما هى حقّ للمجتمع.

(كان إدخال كلمة أساساً قبل الكفاح ضد الخضوع للأيديولوجية مثار نقاش حاد بين الاتجاه «المحافظ» إلى حد ما : قاسم إسحاق وعلى أبو الليل، وقد كان معارضاً لاعتباره أساسياً، وبين التيار «الفوضوى» الذى يمثله فتوح القفّاص وانضم إليه أحمد النمس، وكنت أميل إلى هذا التيار فى كل الأحوال وإن لم أنضوِ تحته تماماً. ولكنى لم أُدخل هذه التفاصيل وأنا أعرض - بكل سذاجتى وإخلاصى الخام - هذا المشروع).

قلتُ : أما النقطة الثانية من البرنامج فهى أنه يجب القضاء على

عملاء الاستعمار المحليين وكبار الماليين المرتبطين بالاحتكارات الأجنبية ـ وفي مقدمتهم الأسرة المالكة ـ والبورجوازيين الكبار والإقطاعيين. كانت هذه النقطة موضع الإجماع، وكان فتوح القفّاص يريد إدخال «الكفاح ضد عملاء الديكتاتورية الستالينية» ولكن اللجنة قررت إرجاء اتخاذ موقف كهذا إلى فترة لاحقة وكانت حجتها القوية أن المرحلة الآن هي أولاً مرحلة الكفاح ضد الاستعمار وعملائه وإن كان فتوح القفّاص يرى أنه كفاح متصل الجوانب ومتعدد الأطراف ولا يمكن ولا يجوز، بل من الخطأ الاستراتيجي فصل أحد جوانبه عن الجوانب الأخرى ولكنه كان أقلية مكوّنة من واحد إذ امتنعتُ عن التصويت وأقرّت الأغلبية صيغة المشروع الأول.

كان شاكر منذ سنوات قليلة من قادة الحركة النقابيّة في مصنع بولفارا للغزل والنسيج بالقرب من النزهة، وكان مشهوراً بصلابته وعناده في المطالبة بحقوق العمّال النقابيّة في العلاج والإجازة مدفوعة الأجر وتحديد ساعات العمل والتأمين ضد الفصل التعسفيّ، أسس لجنة نقابيّة صغيرة في المصنع ثم توسعت النقابة فضمت مصانع أخرى أهمها مصنع كرموز، اعتقل وضُرب وهدّدوه بالتشريد ولكن قوّته كانت في التفاف العمّال حوله ووقوفهم معه بعناد فلم تستطع إدارة المصنع ولا البوليس أن يشرّدوه، لكن نشاطه الدائب وجهده المستميت في العمل النقابيّ بعد ساعات العمل الشاقّة في المصنع انتهى إلى إصابته بدرن في الرئة اليسرى استعصى بطبيعة الحال على الشفاء، فما كان بمقدوره الاستشفاء في مصحّة حلوان لفترةٍ طويلةٍ مع ما كان متاحاً عندئذ من علاج بدائيّ، في الأربعينيات لم تكن المضادات الحيوية قد عُرفت على نطاق واسع، وكان الدرَن أو ما يسمى السلّ داءً عضالاً وقاتلاً في نهاية الأمر على سبيل الحتم. ما لم يتمّ تداركه بالراحة والغذاء الجيّد.

كان ذلك كلّه يشغل ذهني وأنا أشرح له نقاط مشروعنا، قلت:

أما النقطة الثالثة فقد استقر رأى اللجنة على أنها نقطة تتعلق بالتكتيك المرحليّ وليس بالإستراتيجية العامة وهي أن طريق الوحدة الوطنية للقوى المعارضة للاستعمار ولعملائه على أساس عمل جبهويّ طريق مرحليّ بطبيعته من أجل إلحاق الهزيمة بالنظام الاستعمارى.

قلت: تحت هذه المبادئ العامة كان مشروع برنامجنا ينطوى على المطالبة بخطوات محددة أوّلها بطبيعة الحال جلاء القوات البريطانية عن كل شبر من أرض الوطن بما في ذلك منطقة القنال ومنها - حتى في ذلك الوقت المبكر - تأميم قناة السويس وتأميم البنوك والشركات الصناعية الكبرى وأن تكون إدارتها من لجان العاملين مع عضوية استشارية بدون حقّ التصويت في اتخاذ القرارات للخبراء والمديرين السابقين، ومنها إسقاط معاهدة ١٩٣٦ ورفض المعاهدات التي تنطوى على تبعية للمشروعات الاستعمارية أو على إقامة قواعد أو نقاط ارتكاز عسكرية ضد المعسكر الاشتراكي الذى حددنا ضرورة الدفاع عنه مع ضرورة الدعوة إلى دعم الديمقراطية فيه وتطهيره من البيروقراطيّة الحزبية التي اغتصبت سلطة الشعب. ذلك كله تمهيداً لإسقاط طغيان الأسرة المالكة والقضاء على حكم الإقطاع المتحالف تحالفاً عضويا مع الاستعمار، وفي سبيل إعلان الجمهورية الاشتراكية وفتح الطريق أمام الثورة الدائمة.

كنت قد نسيت كوب الشاى الثقيل أمامي على الترابيزة المعدنية المقلقلة وأنا منهمك في شرح مشروع البرنامج تندفع بي الحماسة إلى أن أجد صوتي قد ارتفع، التفت إلينا أصحاب الكيف وقد نزعوا مباسم الشيشة من أفواههم يحاولون الإصغاء إلى كلمات وأفكار تبدو صعبة ومفاجئة ولكنهم يحسون بشكلٍ ما حرارتها وبساطتها. مضى بي الشرح:

آخر نقاط مشروع البرنامج ضرورة العمل على إنشاء وتنمية لجان شعبية في الأحياء والمصانع والقرى وحتى ثكنات الجيش والبوليس

كأساس لإرساء أسس الديمقراطية والاشتراكيّة (وليس الديمقراطيّة الاشتراكيّة فقد كان حرف العطف «الواو» مثار جدل حادّ انتهى بإقراره باعتبار أن الديمقراطية والاشتراكية مع أنهما صنوان ومقومان متساويان إلا أن الديمقراطية قد تحتمل تفسيرات بورجوازية وأنّ إدماج الاشتراكية بها قد يكون خدعة لتمييع محتواها الاشتراكى الذى يجب تأكيده بالتساوق والتكافؤ مع الديمقراطية - ولكن ذلك كله تجنباً للديمقراطية الاشتراكية التى وسمت بها «الدوليّة الثانية» وقد خانت الاشتراكية فى عقيدتنا كما خانتها «الدوليّة الثالثة» بعد انحسار عصرها المجيد أيام لينين وتروتسكى وأصبحت أداة فى أيدى الستالينيّة ومرة أخرى لم أذكر لشاكر المريوطى حكاية هذا الجَدَل).

لم يكن ذلك كله - كما يبدو الآن بعد نصف قرن - مجرد رطانة أو شقشقة لفظية، بل كانت حميمية وحرارة إيمانى بها تكشط عنها قشرة القالب المكرور لتكشف عن لحمها العضوىّ المنتفض بالحياة.

كنت قد قلت لهم: ليست هذه كلها، فى نهاية الأمر، إلا شعارات فخمة، تجريدات، عبارات تنمّ عن مفهومات صحيحة لكنها بحاجة إلى ملئها بالطاقة الثوريّة الحقيقيّة. لأن المسألة هى كيف نخرج بممارسة الفعل من أسر الشعارات، حتى لا يصبح الشعار مجرد ترضية جوفاء مجرد تعويض عن العمل فى قلب الواقع الاجتماعى والواقع الفردى على السواء، حتى يصبح للحرية معنى حقيقىّ.

كانت الورقة المنتزعة من كشكول الكليّة أمامى على الترابيزة ونسمة هواء تهبّ من ناحية المحمودية فوضعتها تحت قعر كوب الشاى عندما دخل القهوة فجأة مخبران «سرّيان» بملابسهما المميّزة التقليدية عندئذ: البالطو والعصا الخيرزان والجزمة الميرى الضخمة، وهما يهتفان: إوع يا جدع أنت وهوّه وسع لحضرة الظابط. ودخل بعدهما ضابط بملابسه السوداء وعلى كتفه تاج ووراءه ضابط آخر بنجمتين فقط.

كَبْسة.

كان معى ما يكفى للحكم علىّ بالسجن سنوات.

وضعت الورقة ببطء وما يشبه اللامبالاة فى جيب بنطلونى الخلفىّ وأشرت إلى شاكر أن يستمر فى جلسته كما هو بينما أخذت كوب الشاى بيدى وابتعدت بكرسىٍّ قليلاً وأدرت وجهى ناحية الترعة كأننى وحدى.

انتحيت جانباً، بأهون حركة، أوّلاً حتى إذا قُبض علىّ لا أورّط شاكر فى القضية، وثانياً، وهو الأهم ربما، لكى أتفادى تهمة التآمر مع عناصر عمّاليّة ونقابيّة، أى مع ما كان يُسمَّى بلغة صدقى باشا، عناصر الشغب والتخريب من الرعاع والدهماء، أو عناصر عميلة.

كان أَمَلى ألا يلفت مظهرى الانتباه وهو مظهرٌ رثّ على أية حال بما فيه الكفاية، لعل قلبى قد أسقط خفقةً واحدة وإن احتفظت، فيما يبدو، بالهدوء، فقد اتجهت الحملة مباشرة إلينا.

لكنها تجاوزتنا إلى آخر القهوة جَنْب النصْبة. أخذ أحد المخبرين بخناق زبون ضخم الجثة نزع من فمه مبسم الشيشة بعنف وحَمَلَ الشيشة كلّها، بينما أدخل المخبر الآخر يده بسرعة وخبرة إلى سيّالة جلبابه البلدى الذى يبدو غالى الشكل وأخرج منها كتلة رأيتها من بعيد بنيّة اللون ملفوفة بورق زبدة شفّاف وجافّ.

تأبّطه أحد المخبرَيْن وأمسك الآخر بذراعه الأخرى ووقف الضابطان لحظة ينظران إلى المشهد كله ببرود وما يشبه الروتين.

خرجت الحملة كلها إلى سيارة الفورد البوكس الواقفة على جسر الترعة من فوق وسمعت صوت اصطفاق الباب الخلفىّ وزئير انطلاق السيارة السريع.

لم أكد أصدّق ما حدث.

كنا على وشك السقوط فى فخّ مطبق.

ولكن الحملة لم تكن معنيّةً على الإطلاق بأىّ شىء فيما عدا ما جاءت به التحريات عن المعلّم الصغير الذى يروّج لبضاعته الصغيرة.

قال لى شاكر: إلحقْ بىّ فى البيت، بعد نُصّ ساعة

ونهض وحده، كانت حركته وهو يصعد الجسر الترابىّ صعبة إلى حد ما، ساقاه الطويلتان الرفيعتان فى بنطلونه القديم تتبادلان المواقع بتمهّل، وهو محنىّ الظهر قليلاً، توقف عند أعلى الجسر واعترتْهُ نوبة السعال الحادّ، جافاً صخرياً منحوتاً يهز جسمه الضاوى هزاتٍ متتابعة، أخرج منديله ومسح الدم النزر الذى تقطّر مع السعال على فمه، واتجه نحو محطة الترام.

كان شاكر يعرف أنه يموت.

لم يتوقف عن الحركة الثورية فى اتجاه العمل النقابىّ والوطنىّ على السواء، كان على أبو الليل هو الذى عرّفنى به، وعلى الفور تقريباً توثقت بينى - أنا طالب الحقوق فى التاسعة عشرة وهو القائد العمالىّ فى عقده الرابع - صداقة وطيدة واستقر بيننا نوعٌ من التفاهم يتجاوز المشاركة فى الثورة بل يصل إلى المشاركة على نحوٍ ما، فى تحدّى أقدارٍ غير مفهومة تماماً أياً كانت تحليلاتنا لأسبابها الموضوعية الاجتماعية.

فى الحوارى المتلوّية، بعد النزهة، وآخر محرم بيه، عدّيت على الكوبرى المظلّل المتأرجح فوق ترعة الفرخة، ودخلت شارع البهاء زهير الذى لم يكن إلا زقاقاً ضيقاً متربًا فى مواضع وموحلاً فى مواضع.

اندلق ماءٌ مسكوبٌ من نافذة مفتوحة وراء ظَهْرى مباشرة ونالنى منه رذاذ طفيف.

سمعت شهقة نسائية ناعمة ومرخَّمة، وبصوتٍ قوىّ ملؤه مع ذلك نوعٌ من الغنج الفطرىّ غير المصنوع:

- يوه يا سيدنا لفندى يقطعنى والنبى ما كان قصدى. دستورك يا خويا العتَب على النظر مش جتْ سليمة يا ضنايا؟ دحنا برضو ما

نرضوش ليكمْ بحاجة رديّة الشرّ برّه وبعيد..

أومأت لها برأسى شاكراً وأسرعت الخُطى نحو رقم ١٤ شارع البهاء زهير، سمعتها تضحك من ورائى ضحكة ناعمة ليس فيها أدنى قدرٍ من سخرية بل فيها مجرد استمتاع بالحياة.

دخلت من الحوش الصغير الذى وجدتُ فيه - هنا أيضاً - الفرن الفلاحى الصغير وصعدت سلالم خشبية درجاتها قلقة لها تحت قدمى أزيز، مفتوحة تحت السماء ودون درابزين تنتهى إلى فَسَحة معمولة من البلاط عليها أقفاص تنقّ منها دجاجات مقفل عليها إذ دخل علينا الليل، وعندما طرقت على الضلفة الوحيدة للباب الخشبى فتحت لى الست فايزة زوجة شاكر فى فستانها البيتى الذى لاحظت، كأنما رغماً عنى، أنه خفيف مع أننا فى فبراير وواسع التقويرة ومبلّلاً قليلاً ينهض خلفه صدرها القوى الوافر، قلت لعلها فى العشرينيات صبيّة وصبوح الوجه وعميقة العينين بنظرة حسّيّة، جففت يديها على جنبىْ فستانها بحركة تمسيد سريع لخصرها من الناحيتين ومدت إلىّ يداً رخصة كنت قد عرفت طراوتها ولدونتها من زياراتى السابقة للبيت الذى لم يكن إلا غرفة واحدة على سطح الدور الأول، يقوم فى جانبها سرير عريض عليه داير قديم من قماش أرجوانى مخملىّ الشكل وباهت اللون وعلى الجانب الآخر ترابيزة الطبيخ والأكل وهى التى كان شاكر يستعملها للكتابة أيضا ففى ركن منها عدة كتب تحت منها «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» و«الرأسمال» ترجمة راشد البراوى و«الحركة الوطنيّة» من تأليف شهدى عطية بجانب وابور الجاز وحَلّة كبيرة وعدة أطباق صينى وتحت الترابيزة طشت به كومة من ملابس قديمة وجنبها كرسى خيرزان واحد، جلستُ عليه بإلحاحٍ من شاكر بينما صعدت الست فايزة إلى آخر السرير وجلس شاكر أمامى، على حافته، وكتم نوبة سعال مفاجئة تركتْه يتصبّب عرقاً وقد شحب وجهه العظمىّ قليلاً.

فرغت من استكمال شرح مشروع البرنامج الثورى، وتناقشنا قليلاً في بعض تفصيلاته، كانت عينا شاكر تلمعان بحميا الترقُّب الذى لا أَمَل فى أن يتحقق وهو مُبْتغاه، عندما تكلمنا عن تشكيل اللجان الشعبية وهى ترجمة السوفْيَتّات بمعناها الأصلى كما أكدت له، وحُرية التسيير الذاتى للمصانع بالتساوق مع خطةٍ شاملة ومرنة وقابلة للتطوير، ارتفع إلى وجنتيه الضاويتين بقعتان من احمرار الانفعال فى وسط شحوب الوجه الجاف المندّى بعرق خفيف.

لم أكن أتخذ على سبيل الاحتياط أية وقاية من مرضه القاتل إلا أن أمسح يدىّ بكولونيا الشبراويشى عندما أعود إلى البيت واثقاً من أن حُميّا الانفعال ووهج الآمال فى أفقها غير المحدود هى وحدها الكفيلة بمنع الأخطار حقيقيةً كانت أم متوهَّمة.

ثم دخلنا فى تفصيلات تنظيم مظاهرة الغد ١٢ فبراير، وخطّ سير مظاهرة عمال بولڤارا من النزهة عبر محرم بيه حتى التقائها بمظاهرة جامعة فاروق الأول فى أول شارع الإسكندرانى، تلك كانت حدود مهمة شاكر أما بعد ذلك قد وُزّعت المسئوليات على أعضاء اللجنة.

جاءت الستّ فايزة تُقدّم لى كوب الشاى الثقيل.

لم أكن أملك إلا أن أتساءل ما الذى جمع بين هذه المرأة القوية الجميلة - بطريقتها - فى العشرينيات من عمرها وبين الرجل المتهدّم المصدور الذى بدا أكبر من سنّه بكثير، ما الذى يجعلها تنظر إليه بعينين ملؤهما الحب والحدب والإكبار والحنوّ والانصياع لسطوةٍ غير مرئيّة لكنها محسوسة.

لم يكن عندى أدنى شك فى إخلاصها لرجلها وتعلّقها به بل إجلالها وامتثالها له.

ما طريق رجلٍ بفتاة؟

هل كان الفعل الجنسيّ بينهما هو، من جانبه، حمّى التشبث بالحياة

فى تحدٍ لموتٍ قادم ومؤكد ولكنه مرفوض من الرجل ومن الفتاة معاً؟

كانت الست فايزة، فى تصورى، رفيقة دَرْب، واعيةً أم غير واعية، لم تكن مجرد امرأة سرير ومطبخ وستّ بيت لهذا الذى يواجه، بصلابة وقوة، عسف السلطات جميعاً، بما فى ذلك سلطة قَدَرٍ علوىّ لا رادّ له.

كان الحكم عليه بالموت قد صدر من سلطةٍ كنت أعزوها، بطريقة «علميّة» لا تخلو من السذاجة رغم صحتها المطلقة، إلى تردّى الظروف الصحيّة فى المصانع الضيّقة المكتظة بالعدد والناس والمفتقرة إلى التهوية السليمة، إلى سوء التغذية وتدنّى الأجور وطول ساعات العمل، وهى كلها من صنع البشر لا من صنع القَدَر، لكن لماذا هو؟ وليس غيره؟ لماذا تقع الإشارة القاتلة من إصبع مجهولة عليه هو دون زملاءٍ له يقاسمونه الظروف نفسها؟ السؤال الذى لا تكاد تكون له إجابة عن مغزى الظلم الكونىّ، عن غياب العدل الكونىّ، السؤال الذى يدفعنى إلى تحدّيه بالثورة الدائمة عليه.

«الثلاثاء ١٢ فبراير ثورة جامعة فاروق حمراء لا يقف أمامها طغيان طاغٍ. فى مظاهرة عاصفة اتجه الشباب من محرم بيه إلى كرموز الحىّ العمالى يستصرخ عمال المدينة أن هبّوا معنا نشارك العمال جهادهم»

كانت المظاهرة قد خرجت من الفابريكة فى آخر شارع كرموز.

أما الطلبة فكانوا قادمين من ناحية محرم بيه.

وكان طابور عساكر بلوك النظام قد اصطفوا فى مفترق الشارعين الكبيرين غير بعيد من الكنيسة الإنجيليّة المبنية بالطوب الأحمر، معلّقين فى أذرعهم الدروع الخشبية الخضراء وفى أيديهم البنادق قديمة الشكل طويلة الفوّهات.

كنت قد اشتغلت طول الليل، لم أنم إلا ساعتين أو ثلاثاً، أتحرك من باب سدره إلى شارع الهرامسة، ومن المحمودية إلى سيدى كريّم، ومن المكس إلى شارع البهاء زهير، أمرّ على زملائنا القلائل من عمال

الفاوريكة. وعليّ سلامة وشاكر، وعبد المنعم وحنا جريس وسليمان باخوم، في بيوتهم التي أقاموا في أحواشها أو في الشارع أمامها أفراناً صغيرة وكوانين فلاّحي، وتجري فيها الفراخ والبطّ، نقلوا إليها عيشة الفلاحين التي ما كادوا يغادرونها.

أما الطلبة فقد قلنا في اللجنة إنهم مسئولية قاسم إسحاق، ومعه أحمد النمس في كلية العلوم، وحلمي الريّس في كلية الهندسة، وعبد القادر خلف الله في كليتي الطب والصيدلة.

نزلت الشارع في الصباح الباكر، كان عليّ أن أرقب تحركات مظاهرة الفاوريكة فإذا جدّ ما هو غير متوقّع نفذت من عند دحديرة الفخرانيّة لكي أنسّق الموقف مع قاسم إسحاق الذي اتخذ موقعاً له على آخر ربوة العباسية الثانوية التي تحولت إلى جامعة فاروق الأول. كان هذا الترتيب صعباً ومُجهداً وغير كفء، لكنه كان كلّ ما في وسعنا من حيلة فليس عندنا كوادر كافية ولا وسائل اتصال، ولا حتى مجرد درّاجات مثلاً، أما استخدام تليفونات البقالين، إن وُجدت، فلم يكن يخلو – بالطبع – من مخاطرة غير مأمونة العواقب.

كانت الشوارع قد أقفرت فجأة، وخَلَت تقريباً من المارّة، توقّفت حركة الأوتوبيسات والتراموبات في محرم بيه وراغب باشا وكرموز، أقفلت الداكاكين أبوابها، وكان لأىّ صوتٍ في هذا الصمت المحيق صدى، وللأشجار حفيف مسموع، جماعات الطلبة قليلة العدد بدأت منذ هذا الصباح الباكر تطوف بالحي، تنشد «بلادي بلادي»، و«أماماً.. أماماً جنود الفِدا.. سيروا إلى النصر تحت العَلَم» ثم تقول «سلاما بلادي وعاش الوطن» بدلاً من «عاش الملك» وكان ذلك وحده جرأةً غير محسوبة العاقبة مما يشارف الثورة.

لكن ما حدث بالأمس من إنزال الزينات وإسقاط صورة فاروق الأول على الأرض وارتفاع الهتاف لأول مرة «لا مَلِك إلا الله!» يحفز هذا

التغير «الحاسم» فى النشيد الوطنىّ العتيد.

كان المتفق عليه، بعد جدلٍ صاخبٍ وطويل كالمعتاد، بين ممثلى اللجان والجماعات المتحالفة أن تتجنب المظاهرات الهتافات المباشرة الصريحة حتى لا تُستفزّ القوات التى كانت متكوّمة على المفارق فى لوريات بلوك النظام الحكومية، ولوريّات نقل البضاعة المؤجّرة من الأهالى.

ومع ذلك كانت بعض الجماعات القلائل تهتف: «الله أكبر..» «القرآن دستورنا والرسول زعيمنا».

أغلقت بعض الدكاكين الصغيرة، التى ظلت مفتوحة، أبوابها، أنزلت المصاريع الحديديّة، وعندما تحرك الترام تحت ضغط المتظاهرين الذين تكدسوا فيه واستثاروا الحمية الوطنية عند سائقه، كان يتأرجح مترنّحاً فى شارع راغب باشا، ليس فيه رُكّاب كل يوم بل احتله المتظاهرون وفى أيديهم الأعلام الخضراء بأهلّتها ونجومها الثلاث، ثم اضطربت الهتافات واختلطت: الجلاء الجلاء، الحكم حكم الشعب، يسقط الاستعمار، يسقط الاستغلال، من ناحية، ومن ناحية أخرى: يحيا اتحاد الطلبة مع العمال، لا مفاوضة إلا بعد الجلاء، الجلاء التام أو الموت الزؤام ومن ناحية ثالثة: الله أكبر والعزة لمصر الموت لأعداء الوطن.

الطلبة يحملون زعماءهم وهتّيفَهم على الأكتاف، وهم يجأرون بأعلى أصواتهم ويلوّحون، وقد تلاطمت الهتافات.

المظاهرة قد خرجت عن كل تخطيط وتدبير.

الجموع بدأت تُقبل من كرموز، تقترب من محرم بيه، عمال الفاوريكة قد انضم إليهم عامّة الناس، شباناً وصبيةً صغار السن بعضهم حفاة الأقدام، ورجالاً فى الجلاليب والعمم والبنطلونات والطرابيش، مُلتحمين، متكاتفين يهتفون: تحيا مصر، يسقط الاستعمار.

لمح فى وسط الجموع جمالات أخت مُنَى، بلوزتها ضيّقة حول صدرها الكبير وشعرها مشعّث قليلاً، وجهها مضرّج بدماء الانفعال،

تهتف وتلوّح، لا أسمع صوتها وسط هدير المظاهرة ،وقريباً منها عايدة النحيلة الرقيقة تشوّر بيديها وأراها تهتف أيضا، دون صوت. في الإيقاع المتصاعد للمظاهرة، ومعها زينب جمالها الفرعونيّ الجنوبيّ في وجهها المنحوت بعظامه المستقيمة وعيناها النجلاوان السوداوان تلمعان بوميض خاص وصلني من قلب المظاهرة كأنه يشعّ على البُعد. ووراءهن غير بعيد، سلامة، قامته شامخة.

ذهب قلبي إليهم.

جاءت الهتافات «لا جلاء إلاّ جلاء الإقطاع.. لا جلاء إلاّ جلاء الباشوات»

تلك كانت هتافات الأمل.

هل كنا نعرف - أو نتصوّر - أن يأتي زمنٌ كأنما تدين فيه البلد بالخضوع لسماسرة التوكيلات وناهبي البنوك وتهريب الثروة إلى الخارج باسم الخصخصة والعولمة، المرتشين وتجار السلاح والمزوّرين وأباطرة المخدرات، وحيتان الأعمال من كل نوع، الأبشع نهباً والأغلظ ذوقاً والأنكى جشعاً والأبعد جهلاً من باشوات «الإقطاع»؟

هل كنا نعرف أن الهوّة بين الطبقات تصل إلى أن ينفق أحدهم في ليلة واحدة على حفل زواج سبعة ملايين ونصف دولار أمريكي (أيا كان الرقم فهو بالملايين) بينما يسقط ثمانون في المائة من المصريين في هوّة الدخل الذي لا يزيد عن دولار واحد في اليوم، واحد وحيد؟

سمعت أوامر قصيرة غير واضحة، فجائية ونهائية.

تردّدت طلقات الرصاص، تناثرت أولاً كأنها غير مجدية، كأنها دقّات جافة لا خطر لها، تضيع في الهواء، ثم أصبحت متلاحقة، مكتومة، في الصميم.

رأيت في وسط الناس بجانبي اثنين، ثلاثة، يهتزّون ويسقطون بهدوء وكأنني لم أسمع أيّ صوت، وكأنّ السكون التام قد حلّ فجأة.

رأيت صفوف الناس تضطرب وتلتئم، تهتز وتتجمع، تنتشر وتحتشد، ثم تتبدّد ويتهاوى انتظامها.

كان العساكر راكعين على رُكَبهم الخشنة المكسوّة بالألشين الرماديّ الكابي. الضابط وراءهم، يرفع مسدسه في الهواء، على حصانه الذى يتوثّب على قائمتيه الأماميّتين بانفعال، وبنادق العساكر، طويلة الفوهات، مسدّدة إلى قلب الجموع.

رأيت الناس يحملون على أكتافهم وبين أذرعهم من يسقط على الأسفلت، ويجرون بهم فى اتجاه الحوارى الضيّقة المتفرعة من شارع ١٢ أو شارع إيزيس، أو فى اتجاه الجامعة عن طريق دُحْديرة الفخرانية.

رأيت جمالات تسقط على الأرض.

كان وجهها الجميل أبيض باهتاً كالشمع، ذراعها قد انطوت فى وضع غريب تحت جسمها الذى ارتطم بالأسفلت دون صوت كأنها دمية مخلوعة الأطراف، انحسرت جيبتها عن فخذيها، ورأيت أن فى قدمها فردة حذاء واحدة، قدمها الأخرى حافية ومكشوفة.

انحنيت عليها أحملها، كانت إلى جوارى عايدة، ومشى معنا سلامة حتى بيتها فى حارة الجلّنار.

كانت مفتوحة العينين، ثابتتين، بدهشة، وخيط رفيع من الدم ينسال من ركن فمها، وعلى صدرها الوثيق المحكم فى بلوزتها المشغولة بقعة دم تتسع ببطء.

مازلت حتى الآن أحس بين ذراعيّ جسمها السخن الهامد.

لم يكن الموت جميلاً.

حتى إن كان نبيلاً.

عندما وصلت إلى ربوة الجامعة عرفت أن أحد الطلبة الذين سقطوا قد حمله زملاؤه، وصعدوا به إلى ساحة الجامعة، كان مضروباً برصاص البوليس، ومات.

الفصل الخامس

عاد الطلبة إلى الجامعة يحملون جثمان الشهيد.

عرفنا أن اسمه هانى عبد العظيم، طالب في كليّة الصيدلة، جاء من قرية صغيرة بالقرب من طنطا، وليس له أهل في الإسكندرية.

كان يسكن في غرفة على السطح في شارع الإسكندرانى.

في مؤتمر حاشد ارتفعت الأصوات وقد أخذ ضوء النهار ينحسر.

وضعنا الجثمان على أرض الحديقة الصغيرة بين مبنى كلية الحقوق ومبنَى كلية الآداب، ملفوفاً بالعَلَم الأخضر بهلاله ونجومه الثلاثة.

انتخب مؤتمر الطلبة ثلاثة منا يمثّلوننا، وقف الثلاثة على هيئة وفد، تحت سلّم الجامعة، وبصوت مرتفع طلب الوفد مقابلة الضابط المسئول.

كانت قوات البوليس قد انتشرت في صفّين أحدهما وراء الآخر، بينهما مسافة تركت العساكر متباعدين قليلاً حول ربوة الجامعة.

كان عبد القادر خلف الله أحد الطلبة الثلاثة، ومعه طالب من يسار الوفد، وثالث أقرب إلى الاتجاه الإسلامى.

دخل وفد الطلبة في نقاش هادئ ولكنه صارم، من وراء الباب الحديدىّ في نهاية سلّم الجامعة، مع البكباشى الذى خرج إليهم، لحته ضخم الجثة، أكرش حول كرشه حزام عريض، يلتفّ حزام جلدى رفيع حول صدره بانحراف. بينما كانت جموعنا مصطفّة، متكتّلة، على أعلى السلّم بشكل منذر، وكانت هتافاتنا موحّدة ومنظمة: تحيا مصر حرةً مستقلة.

عاد الوفد يحمل رفض البوليس، رفضاً باتاً، اقتراحنا بأن نخرج في

جنازة سلميّة صامتة نشيّع الشهيد إلى مقابر العامود في كرموز.

وفي نوبة حاسمة جماعيّة ضمت كلّ تيارات الطلبة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار قرّر المؤتمر العفويّ الذى انعقد فوريّاً دفن الجثمان في ساحة الجامعة.

أتت المعاول والفؤوس من كشك الجنايني، وعندما هبط الليل أوقدت شموع طويلة مهتزة النور حول القبر الذى ارتفع من أرض الساحة المخضوضرة، والتففنا حوله بينما حلّ علينا مع الليل خشوع، وصمت الإجهاد، ورهبة الموقف.

ارتفع في الصمت صوت هادئ وعذب الإيقاع بترتيل القرآن.

بينما كانت صفوف عساكر البوليس قد تضاعف عددها، نراها تحت، ونحن فوق الربوة، في عتمة الليل لا تنيرها إلا مصابيح الشارع الذى أقفر تماماً من المارّة وإن كانت نوافذ البيوت المحيطة به مفتوحة تطلّ منها وجوه الناس في ترقّب حذر ولهفة.

وعند هبوط الليل سمعنا هدير عربات الجيش المصفّحة ودباباته الصفراء، وقفت كلها على مبعدة قليلة، عند مفارق الشوارع.

كانت أعواد الكبريت والبطاريات الكهربائية اليدوية الصغيرة تشتعل وتنطفئ، وجاء طلبة كلية العلوم بمصابيح غاز مرتجلة أوقدوها حول القبر الذى بدا في الليل ماثلاً بحضور متجاوز له وطأة فوق إنسانية كأنما اكتسب على الفور مهابة تشارف القداسة، كنا جميعاً لا نستطيع أن نقترب من القبر أكثر من خطوات معدودة وعلى نوع من الاتفاق الضمنيّ غير المعلن تركنا مسافة خالية بيننا وبينه لا نجرؤ على انتهاكها بينما تناوب زعماء الطلبة الخطابة والتكريم وتحليل الأحداث وإدانة الاستعمار وقوى القهر والطغيان.

نهض سعفان الأسيوطى، زعيم طلبة كلية الحقوق التى قضى فيها أربع سنوات وسوف تمر عليه أربع سنوات أخرى قبل أن يتخرّج،

وبصوته الجهوريّ وجسمهِ الضخم، وقد اعتلى منصةً جيء بها من أحد المدرجات، يهدر مُنشالاً بخطبةٍ طويلة عصماء جلجل فيها بكلمات ضخام عن التضحية من غير ضَنٍّ وعن بذل الدماء زهيدة فداءً لعزة مصر ورفعتها وعن أننا كلنا من هذه اللحظة المقدسة شهداء وهبنا حياتنا رخيصة من أجل مجد الوطن، وكانت الجماعة التى ظلت صامدة حول القبر ملتفة حوله - بعد أن انفض عنا كثيرون نزلوا بسلام من ربوة العباسية لم يعترضهم البوليس - لم يكن عددنا قليلاً مع ذلك. أهاب سعفان الأسيوطى بنا أن قد أعلنّا الاعتصام في حرم الجامعة المقدّس وأن نظل مستمسكين بالعروة الوثقى على أرضها حتى يتم جلاء قوات الاستعمار الغاشمة عن كل شبر من أرض البلاد وانسحاب قوات الجيش المصرى الذى عليه أن يقاتل العدو المحتلّ لا أن يحاصر أبناء الوطن البررة وطالَبَ بصوت مدوٍ برفع الحصار عن الجامعة على الفور.

ردد أنصاره على الفور: الاعتصام الاعتصام أو الموت الزؤام، الجلاء التام أو الموت الزؤام، انتحيت بعبد القادر وأحمد النمس وقاسم إسحاق جانباً بعيداً عن صخب الحماسة غير المحكومة وغير العقلانيّة، وقررنا أننا في اجتماع طارئ وعاجل للّجنة، وكانت حُجّة أحمد النمس أن نتصدّى للغوغائية بما يهزمها ولا يفلّ الحديد إلا الحديد، أما قاسم إسحاق فقد رأى أن فكرة الاعتصام جديرة بالاعتبار بغضّ النظر عن الشعارات الديماجوجية وانحزنا إلى هذا الرأى وقام أحمد النمس يعلن الموافقة على الاعتصام في داخل حرم الجامعة حتى يتم انسحاب البوليس والجيش بشرط ألا نترك طالباً واحداً من المعتصمين في قبضة البوليس السياسيّ وأن نقف صفّاً واحداً بكل حشود الطلبة دفاعاً عن أيّ طالب يتعرض للقبض عليه.

كان نور ما قبل الفجر قد بدأ يتسلل إلى أطراف السماء، ومعه لذعة البرد في هبّات الهواء، وقد خَبَت الشموع الطويلة حول القبر وذابت

في كتلٍ رمادية حول ذبالاتها، ونفد غاز مصابيح معمل كليّة العلوم.

تمدّد الكثيرون على أرض الحديقة وفي مبنى كليّة الحقوق متضامّين إلى بعضهم بعضاً وقد أحكموا الچاكتات حول صدورهم وظهرت مراتب وبطانيات قليلة من العيادة الملحقة بكلية الطب لم يضنّ بها أحد على زميله وبدا نوع من الهدوء القلق يسود الساحة التى ظلت طول اليوم تموج بالنشاط المحموم للطلبة وبصخب الخطب والهتافات.

عند أول ضوء وقبل انبلاج الفجر كانت العربات المصفّحة والدبّابات تصعد الطريق الذى يلتفّ حول ربوة الجامعة، بينما كان طابور العساكر، بقيادة ضابط شابّ يرفع مسدسه، يرتقى أول الطريق الدائرىّ الذى يصعد حول الربوة، بخطوات عسكريّة منتظمة لها وقع قوىّ في الصمت.

هبّ الطلبة النائمون باندفاع ومن غير انتظام، وتصدّوا جميعاً في كتلة متماسكة على آخر الطريق، من فوق.

تقدّم سعفان الأسيوطى ومعه الآن الوفد الثلاثىّ، ونزلوا بخطوات ثابتة حتى اقتربوا من ضابط الجيش الشابّ.

كان الصاغ قائد طابور الجيش ذكياً فأغمد مسدسه على الفور، وأشار إلى العساكر بالتوقّف، وهتف بوفد الطلبة إننا وطنيّون مثلكم وأكثر منكم ولا نريد إلا إقرار النظام وإنهاء هذا الوضع العصيب بما يحفظ لكم كرامتكم وما يصون حرمة الجامعة وحرمة الموت، إكرام الشهيد الآن هو أن يُودع مثواه الأخير في مقابر العامود بعد تغسيله وتكفينه وأداء الصلاة حسب قواعد الشرع والدين. لا نريد إلا أن نستلم الجثمان.

كنت قد رأيت من بين تحركاتى الصامتة بين الجماعات المتناثرة في ساحة الجامعة أن إرهاق الأمس قد بدأ يستأدى ثمنه، أخذت عزائم الصمود تتحلّل، وكان منطق الضابط الشاب من ناحية، ومنطق القوة

العسكريّة الواضح أنه لا يمكن ولا يصحّ مقاومتها، من الإقناع بحيث قبله الوفد، ومن ورائه جموع الطلبة - وقد تيقّظوا تماماً وبدوا مشعّثين مجهدين تورّمت عيونهم قليلاً من عنف مجالدة الأحداث ومناهضة النوم معاً.

على شرطٍ واحد، كان إصرارنا واضحاً وقويّاً: ألاّ يقبض البوليس السياسيّ الرابض تحت، على طالبٍ واحد.

لم يتوانّ ضابط الجيش عن أن يتعهّد بضمان ذلك، على مسئوليته وشرفه الوطنيّ والعسكريّ، بل ذهب إلى أبعد، وقال:

- سأتقدمكم، أقف إلى جانبكم تحت السلّم من الناحية الأخرى، أمام طابور البوليس، حتى يغادر آخر طالبٍ أرض الجامعة.

وهكذا بالضبط كان.

قرأنا في الصحف أن الدراسة في جامعة فاروق الأول قد عُطّلت إلى أجلٍ غير مسمًّى، وظللنا نترقب كل يوم عودة الدراسة، وكنت ألتقي بقاسم وأحمد وعبد القادر وأنطوان كل مساءٍ تقريباً، إما في لورانتوس أو في الفريسكادور.

حتى جاء يوم ٢٢ فبراير

عندما ارتقينا الطريق الصاعد حول الربوة ودخلنا مدرجاتنا، رأيت أن الدراسة وإن كانت قد دخلتْ إلى حدّ ما في سُننها المطروقة إلا أنها لم تنتظم حقاً.

كانت انطباعاتنا في اللجنة وفي خارجها تشير إلى أن استقالة وزارة النقراشي ومجيء وزارة صدقي تؤرّق جموع الطلبة وتستثير مشاعر الناس.

كانت التيّارات السياسيّة، كما هو متوقّع، قد أخذت تتبلور وتُستقطب، بين تيار الإخوان المسلمين وأشياعهم وبعض عناصر مصر الفتاة، وقد انحازوا إلى القصر وإلى وزارة صدقي، وبين التيار الوطنيّ

اليساريّ العريض الذى ضمّ الطليعة الوفدية والجماعات اليساريّة على اختلاف منازعها وبعض أنصار الحزب الوطنى القديم.

تواترت الأنباء عما يحدث في القاهرة، وقررت اللجنة أن يسافر قاسم إسحاق وخاصة أن له اتصالات قديمة بجماعة مجلة «أمّ درمان» التى كان يحررها مجموعة من السودانيّين والنوبيّين ولهم على نحوٍ ما علاقة بما يدور على الأخص في شبرا الخيمة، معقل الحركة العماليّة.

عاد قاسم إسحاق يحمل أخبار التطورات المثيرة.

وفي اجتماع طارئ للّجنة كان صوته يتهدّج بالانفعال، وهو يشعل سيجارة لا يكاد ينفث منها نَفَسين حتى يطأها بقدمه دون أن يدرك ذلك تماماً، على باركيه الأخوين خلف الله، وقد تندّى وجهه الأسمر الداكن بعرق خفيف، قال إنه يوم السبت ١٧ فبراير وفي ملاعب القصر العينى بالقاهرة، اجتمعت اللجنة الوطنيّة العليا للطلبة وأصدرت ميثاقاً طُرح في الليلة نفسها على اللجنة الوطنية العليا للعمّال التى كانت قد تكوّنت في شبرا الخيمة في أوائل الشهر. وفي مؤتمر مشترك ضمّ ممثلى الطلبة والعمّال أُتخذ قرار بتأليف اللجنة الوطنيّة العليا للطلبة والعمّال، وإن ظلت أسماء أعضائها محجوبة توقّياً عن عسف وزارة صدقى الجديدة ولعلها ستظل محجوبة أو متضاربة غير مؤكّدة إلى أمد بعيد، وحتى الآن، مهماتعددت التكهنات أو الادعاءات بالانتساب إلى هذه الهيئة الصغيرة العدد فيما افترض، والتى اكتسبت مكانةً أقرب إلى المهابة الأسطورية في سجلاّت التاريخ المغمورة، حتى بعد أن انفضّت أو فُضّت عقب حملة صدقى المعروفة في يوليو من ذلك العام، حين قرر حلّ الهيئات وإغلاق الصحف والمجلات المناهضة لحكمه وحكم القصر والإنجليز معاً، ومنها مؤتمر نقابات عمّال مصر الذى تكون في أول مايو ١٩٤٦، ودار الأبحاث العلمية، ولجنة نشر الثقافة الحديثة - وفي فرعها السكندرى كنت قد قرأت أولى قصصى القصيرة وسمعت أولى

سيمفونيّات بيتهوفن منذ ثلاث أو أربع سنوات - ورابطة فتيات الجامعة، واتحاد خريجي الجامعة، ومجلة الفجر الجديد والطليعة وأمّ درمان وصحيفة الوفد المصري التي ما لبثت أن صدرت تحت اسم «صوت الأمة».

في ذلك اليوم ١١ يوليو ١٩٤٦ سوف يُلقَى القبض على أبرز رموز الثقافة والنضال الوطني عندئذ، ومنهم: إبراهيم يوسف، أبو بكر نور الدين، أحمد شكري سالم، أحمد كامل قطب، أسعد حليم، أنور كامل، جمال الدين محمود غالي، رمسيس يد نان، سعد مكّاوي، سلامة موسى، سيف الغزالي، أحمد صادق سعد، عبد الله عبد الوهاب، عبد الرحمن الشرقاوي، عصام الدين حفني ناصف، علي الصيرفي، فتحي الرملي، لطف الله سليمان، محمد أبو الحسن، شهدي عطية الشافعي، محمد الليثي، محمد رشدي، محمد حسام الدين، كمال عبد الحليم، مصطفى عبد الحميد مندور، ناحوم منشّة، هنري كورييل، عبد العظيم أنيس، زكي نجيب محمود، إبراهيم دربال، أبو سيف يوسف، أحمد رشدي صالح، أحمد المصري، أنور عبد الملك، حسام مشرف، داوود ناحوم، رزق الله سليمان، سعد زغلول فؤاد، سعيد خيّال، صلاح أبو العلا، عباس إبراهيم، عبد المعبود الجبيلي، عبده دهب، عمر رشدي، فتحي أحمد المغربي، كمال أحمد شعبان، لبيب حنا جرجس، د. محمد الشحات، محمد أحمد عجلان، محمد عبد المنعم خربوش، د. محمد مندور، مصطفى كامل منيب، نعمان عاشور.

وهناك آخرون صدر الأمر بالقبض عليهم وفُتّشت منازلهم ولم يكونوا موجودين فيها.

أتساءل بصوتي الآن، بعد نصف قرن وأربع سنوات، هل أنني أنتهك مواضعات الفن القصصي - مثلاً - إذ أورد هذه التقريرات الجافة

دون تنميق؟ وهل من الجفاف الفنى أن تأتى أسماء محمد مندور ورمسيس يونان وهنرى كورييل وعبد العظيم أنيس وأنور عبد الملك ولطف الله سليمان وزكى نجيب محمود ونعمان عاشور وغيرهم بكل ما تحمل هذه الأسماء، بمجرد ذكرها، من وزنٍ وخطرٍ ومن إيحاءات عريضة ثريّة في تاريخنا، وما اتخذت حياتهم من مسارات وما آلت إليه من مصائر على تنوُّع بل تضارُب منازعها، أهذا خروج عن أصول فن الرواية؟ (إن كان لهذا الفن في النهاية ثمّ أصول؟).

أعود سريعاً إلي سياق السرد الذى يبدو طبيعياً ومألوفاً - وإن كنت لا أحبّه وسأظل دائماً أخترق حرمته المفترضة - إن كان ثمت - نعم، هذا صوتى الخالص غير الملتبس بصوت الراوى الذى يمزج خياله بواقعه وشطحه الفانتازىّ بصرامة ذكرياته، وله ملء الحق، كما أننى أتصور أن لى ملء الحق أن أقول - أيضاً - بصوتى الخالص غير الملتبس.

كنت أخطو محاذراً مسرعاً بين البيوت القديمة المتقاربة في حوارى بحرى، وأحس أحجارها العريقة ندية وروائح السمك الخام الزهمة تتسلّل من الأبواب المعتمة المفتوحة عن عتبات رخامية جلست عليها الستّات متربّعات في أوّل هذا الصبح من فبراير وقد جمعن أفخاذهن إلى إحداها الأخرى، ينقّين الرزّ في صوانى النحاس ويكشطن قشر السمك عن جسومه اللدنة ويثرثرن ببهجة ويتوقّفن لحظة لينظرن بتساؤلٍ قليلٍ غير مهتمٍ حقاً بهذا الوافد ضئيل الحجم في چاكتته الزرقاء الطويلة وبنطلونه المتهدّل، وهن يرضعن الأطفال من أثداء مليئة سمراء وخصيبة اللحم وأتوقّى أن أرمقهن بالنظر المسترق ولا أستطيع أن أردّ عينىّ النهمتين عن كلّ الأنوثة الملقاة على قارعة الطريق بكرم ودون احتفاء كأنها نَبْتٌ حوشىّ وفطرىّ من هذه الأزقة الريّانة بماء البحر المالح.

حتى وصلت إلى الربع القديم الذى استأجر فيه قاسم إسحاق غرفتين

بالعفشة في الدور الثاني على السطح المسوّر بسياج قليل الارتفاع، كنت أنا وقاسم إسحاق نطلّ منه في الليالى فنلمح أنوار الأنفوشى من ناحية وأنوار مراكب الصيد المهتزّة المتخايلة في نقط صغيرة على موج أسود لا يكاد يصل إلينا منه وشيش خفيض.

عبرت الباب الخشبى الكبير المفتوح باستمرار، اسودَّ خشبه العتيق المدقوق بمسامير صدئة غليظة الرءوس على خرطته التي تحجّر فوقها تراب السنين الطوال وإحدى ضلفتيه قد مالت قليلاً غاص طرفها السفليّ في تراب الحارة التاريخيّ، أما الضلفة الثانية فكانت مسنودة بثقل رازح على صخر الحائط العريق، وفاجأتنى - كما يحدث في كل مرة - رائحة الرطوبة القديمة التى ينفثها تراب مدخل البيت الواسع المعتم إذ يطلع منه السلم الخشبى العريض درجاته المخلخلة تهتزّ وتصيء تحت قدميّ وأنا أمسك بالدرابزين البلوط السميك المدوّر وقد مسّدته أيادٍ كثيرة لعله كان منها أيادى شيوخ الصيادين ورءوس أهل الكار من الحيّ في أيامٍ زاهرة وغابرة، عندما كانت تمسك بالسِبَح الكهرمان وتعدّ الجنيهات الذهب الحميدى.

قلت: زال هذا العزّ وبادت أيامه، هل تأتى وشيكا أيام مجد الشعب العامل الممسك بمقاليد أموره جميعاً بأيدٍ تعرف الحزم والعدالة كما تعرف صياغة الحرية؟

وإذ أضع قدمي على أول درجة خشبية من السلّم يخرج إليّ من جُحْره المأثور في أرض الفسحة الترابيّة الواسعة الثعبانُ الشيخ، شيخ الشعابين، ينساب ببطء وجلال على الأرض، بجسمه المدّور العريض الممسَّد والمرقّط، يرفع رأسه الملكيّ وعليه تاجه المفرود، ينظر إليّ بهدوء ودون شرّ، عيناه لامعتان بوميض ثابت، مدوّرتان وعارفتان حكمةً سوف يفوتنى دائما إدراكها، وفي لمح البصر كان الصلّ قد نشر جناحيه حول رأسه المنتصب المتصلّب. التفّ حول صخرة ناتئة من أرض المدخل

الترابى وعليها نقوش مطموسة بالحرف المقدّس العتيق فلم أكن أرى إلا ظهر الجسد المتلوى بطىء الانزلاق وللحظة خاطفة أبرق في ذهنى إيحاء من حركة حلمى الريّس المتمهلة التى تشى بقدرٍ من التحوّط والتحرّز وما يشبه التربُّص استعداداً لوثبة تنبثق فيها نفثةُ سمٍ زعاف أو وخزة لدغ مُضْمٍ.

صعدت السلم لا أحس شيئاً ولا أعى شيئاً إلا ثقل الصعود كأنما أرتقى حلماً.

طرقت الباب على السطح حسب الشفرة المعتادة ثلاث طرقات سراعاً وتلبُّثٌ وجيز ثم طرقة واحدة وبعدها بقليل طرقة أخيرة.

رحَّب بى قاسم إسحاق، كما يرحِّب دائماً بحرارةٍ وحيويةٍ متوفّزةٍ كأننى ألقاه لأول مرة بعد غياب طويل، وهتف وهو يشدّ نفساً قويا من سيجارته:

- يا ميت مرحب ادخل عوّجت عليّ ليه ماحنا اتّفجنا تاجى الساعة تسعة، دلوكيت تسعة فاتت من زمانات.

كان معى يسقط لهجته الإسكندرانية المتمدينة ويعود إلى اللهجة التى عرفته بها منذ خمس سنوات في أخميم، عندما كان أبوه الطبيب الشرعى في سوهاج وعندما اشتغلنا معاً في حماستنا الصبيانيّة مع عمال الأنوال والفلاحين في النجع.

كان من أصل نوبىّ وعلى جانب وجهه الأيمن التشريطان القَبَليّان التقليديّان، وأسيّين صغيريْن بلون أفتح قليلاً من لون جلده الداكن. خطفت في ذهنى صورة الطَقْس الصبيانىّ الذى تآخيْنا به أُخوّةَ الدم عندما شرّطنا معصمينا على شطّ الترعة الداخلة في وسط غيطان أخميم ومزجنا بين دمائنا. كان ينطق الجيم بالعمق والتعطيش الأسوانىّ النوبىّ، هو حتى في لهوجة الترحيب مشرق بابتسامة خفيفة تجعل وجهه الأسمر الوسيم مشرئباً للأمام، ولم أملك إلا أن ابتسمت لنفسى

إذ رأيت رأسه ملفوفاً بفوطة كبيرة متعددة الطيّات كأنها عمامة نسويّة قليلاً، وتفوح منها رائحة البريّانتين السكريّة العطريّة الخضراء يُغرق به حَرْشة شعره الجعد الخشن، وكنت أتعجب له – ولعلنى أحس بالاستياء المكبوح يخامرنى – إذ أجده يقضى ساعات طويلة في محاولة فرد هذه الكدشة من الشعر الحوشيّ الذى يقاوم جهوده في التنعيم، وأسرّ لنفسى في نوع من الطهرانيّة ألم يكن الأجدر أن يقضى هذا الوقت الضائع في أن يقرأ شيئاً مفيداً أو أن يسهم بنشاط إيجابىّ وكم ينتظرنا من مهمّات في سياق عملنا الثورىّ الذى يتطلب الكثير.

مازلت أعتز بأننى بعد أن خرجت من المعتقل في فبراير ١٩٥٠ كان قاسم إسحاق من أكثر الناس فرحاً بلقائي، ودعانى احتفالاً بالمناسبة إلى حفلة في سينما لاجيتيه الصيفية في الإبراهيمية، كانت أول وآخر مرة أرى فيها تحية كاريوكا جميلة نضرة ذكية الجسم ترقص، وأول وآخر مرة أسمع فيها وأرى مغنياً مجهولاً قيل لى إن اسمه عبد الحليم حافظ يشجى الناس بصوته الجميل الأسيان.

هل كانت تلك آخر مرة أرى فيها صديقى النوبى المناضل الجميل الذى لا أنساه قاسم إسحاق؟

ومع ذلك فقد كان قاسم إسحاق ثورياً صلباً وشديد الخلوص لثوريّته، حتى النهاية، بعد أن انفضت حلقتنا وانضم إلى «حدتو» وقضى فترة معتقلات الواحات كلها بشرف وعندما خرج في الستينيات اشتغل بالمحاماة في أسوان ثم مات بسرطان في المخ، ومازلت حتى الآن أذكره بإعزاز واهتزاز في القلب ولا أتصور أنه مات بل أفكر أننى عندما أذهب إلى أسوان سوف ألقاه ونستعيد كل ذكريات صداقة ومحبة ورفاقة في عمل ثورىّ اندثر أمره منذ ستين عاماً أو تزيد.

قعد أمامي ببساطة على الكليم وجلست على الكرسى الخيرزان الوحيد في الغرفة، ولمحت كتب المرافعات والقانون الجنائي ومذكرات

الدكتور رمزى سيف، وأنور سلطان، وبجانبها أعداداً من مجلة «أمّ درمان» و«الضمير» السورية و«كفاح العمال».

قال لي: أعمل لك شاى؟ عِندى شاى هندى معتبر جاىّ لي من جماعة صحابنا في الجمرك عاد.

وبينما هو يسخّن الماء في الأبريق الأزرق الجديد الذى طالته لوثات هباب الدخان اتفقنا بسرعة على ميعاد في الساعة السادسة في قهوة البرابرة (كان يغضب قليلاً من هذه التسمية) التى تقع في زقاق جانبىّ غير ملحوظ متفرع من شارع شريف يأوى إليها البوّابون والسُعاة العاملون بالشركات والبنوك والمكاتب في هذه المنطقة «الراقية» من وسط البلد.

كان عليه بوصفه رئيس اللجنة أن يلتقى بالبحار الفرنسىّ الذى وصل من يوميْن على متن الباخرة «كليمنصو» والذى كان عضواً بحزب العمال الثورىّ ومفوّضاً منه للتعرف على نشاطنا وإمدادنا بالكتب، وبمجلة الحزب ومطبوعاته.

كنت قد قابلت چان – هكذا اكتفينا باسمه المصغّر – وكنت أسمّى نفسى يوسف فكان يدعونى چو – في بيت صديقى أنطوان خير الله.

كل شئ حدث بالصدفة وانقضى بالصدفة.

أنطوان كان يتغدّى على كأس من النبيذ في بار «كِنْت» في آخر شارع النبى دانيال، وكان البار مزدحما في فترة الظهر بالموظفين والمدرّسين والعساكر الإنجليز وعلى طريقتهم جلس چان إلى مائدة أنطوان وكانت المكان الشاغر الوحيد، وعلى الغداء والنبيذ تعارفا وتكلما عن الحركة الوطنية في مصر والحركة العمالية الثورية في فرنسا وهى حركة متخمة بالآمال العريضة والإيمان العميق (الذى لا مبرّر له، ربما) بحتميّة انتصار الطبقة العاملة واندلاع الثورة.

فهل كان عجيباً جداً أن يكون چان هو أيضا ممن تقوم بيننا وبينهم

أواصر الزمالة الأمميّة والانخراط في حركة ثوريّة عالميّة - مهما كانت محدودة الحجم والقيمة والأثر ولكن بلا حدود لطموحها واستشرافها لآفاق مستقبل ساطع بالحلم؟

أم أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق؟ هل كنت قد كتبت أطلب الكتب والمطبوعات والمجلات؟ ولما كان صديقى أنطوان بعيداً عن أعين البوليس - كما تصوّرت - كان عنوانه هو موعد اللقاء؟

في بيت صديقى أنطوان رحبت بنا أوديت وقدمت لنا كأساً من الكونياك وبملاوة شامية، ورتّبنا ميعاداً في قهوة شارع شريف.

لكنى لم أذهب للميعاد، كان ثَمّ ما هجس في روحى أن هناك أمراً ما ليس على ما يُرام.

ولم يأت قاسم إسحاق أيضا ببساطة - كما عرفنا فيما بعد ولحسن حظّ أقدارنا - لأن امرأة طلعت له في غرفة «بحرى» ولم يستطع - كعادته - أن يقاوم ساعة حظّ. ولم نعرف قطّ مَنْ المرأة؟ هل كانت إحدى زميلاتنا، أم كانت غلبانة من بائعات الأجساد بثمنٍ زهيد، لعله كان أيامها عشرة صاغ أو ريال بالكثير.

وعندما انعقدت اللجنة اكتفت بلفت نظر «الرئيس والسكرتير العام» بعد أن كان أحمد النمس ثائراً عالي الصوت يهاجم بعنف الزميلين إذ أخلفا ميعاداً له أهميته الكبيرة، وكان فتوح القفّاص يرقب هذا الصراع الذى يوشك أن يكون سافراً، بنوع من الهدوء المتربّص، وسرعان ما انتابه الضَجَر على أية حال.

قلت إن الخطأ خطئى أنا إذ إن اختيار قهوة شعبية (لم أحدد موضعها) للاحتفاء ببحار أجنبيّ لابد أن يثير الشبهات.

قرأنا في «الأهرام» ثانى يوم إن بحاراً فرنسيا قُبض عليه في أحد مقاهى «البرابرة» (هكذا جاء في صفحة الحوادث) بالقرب من شارع شريف، ووُجدت معه مطبوعات تدعو للمبادئ الهدّامة، وفي التحقيق

معه قال إن من حقه ألا يحوز هذه المطبوعات فهى مشروعة ومسموح بها في فرنسا، واكتفت سلطات التحقيق بترحيله على الباخرة «كليمنصو».

وبعد أيام كانت الأزمة الصغيرة قد انقشعت.

كان من الممكن، لولا توافيق غير منظورة، أن تكون لهذه الحكاية عواقب وخيمة.

قلت لنفسي: أهذا تفكير علميّ وموضوعيّ كما ينبغي أن يكون التفكير؟ أم أن القَدَريّة الكامنة في أعماقي لها سطوة ماتزال؟

خطر ببالي - دون أن أتتبع الفكرة حتى مداها - أن حلمي الريّس هو الوحيد الذى كان يعرف أننا نلتقى أحياناً في قهوة البوابين والفرّاشين النوبيّين التى تظللها تعريشة عنب تكسبها مسحة ريفيّة، في زقاق متفرع من شارع شريف، وكنت قد ضربت له ميعاداً فيها منذ عدة أسابيع، وتحدثنا طويلاً.

لكننى طرحت هذا الخاطر جانباً، بسرعة.

الفصل السادس

استيقظت من نومٍ مضطرب على حُلمٍ قصير واضح كل الوضوح، بل ساطع.

كانت زينب المشراوى أمامى، هادئة جداً كأنها غائبة، أو مائتة، وجهها الفرعونيّ منحوتٌ من رخام أسود عريق الجمال، عيناها مفتوحتان ورموشها طويلة وكثيفة ومقوسة إلى أعلى بشكل مثير للدهشة إلى درجة أننى فى الأوْل اقتربت منها جداً بوجهى أتملّى هذه الظاهرة.

تراجعتْ إلى الوراء وقد أجفلت منى وقالت :

- إيه؟ فيه إيه؟

قلت نصف جادٍ نصف مداعب :

- أبداً، رمش عينك يفرش على فدّان.

ضحكت.

كان صوت ضحكتها أجشّ قليلاً، وينقطع فجأة.

خطر بذهنى - فى الحلم :

- على عكس ضحكة عايدة الناعمة الطويلة الأنثوية إلى حدٍ يشارف الغنج، أقرب إلى ضحكة فاطمة الموديل.

كأننى سمعت تلك الضحكة الناعمة الأخرى متراخية الأطراف، فى قلب ضجةٍ غير مستبينة لعلنى ظننت أنّ فيها أصداء طلقات نار.

استيقظت متلهفاً، عرفت أننى فى مطلع يومٍ له أهمية.

عندما ذهبت للكليّة وجدتها صاخبة مضطربة واندرجتُ فى دوّامات

من الطلبة تجتمع وتتفرّق؛ الحديقة بين كليتى الحقوق والآداب ضاقت بمن فيها، لها طنين من المناقشات والجدل والنداءات، وجموع من الطلبة تتدفق من كليّات العلوم والهندسة والصيدلة والطبّ، والأخبار قد أتت من القاهرة عبر الصحف والإذاعة وعبر التليفونات فى البيوت القريبة من الجامعة، تأتى المكالمة بشذرة من الخبر ثم تنقطع فجأة وتتعدد المطالبات لعاملات الترنك بمعاودة الاتصال بمصادر الأخبار - هى أساساً بين أعضاء منظمة حدتو والشرارة فى القاهرة وفى الجامعة وأبرزهم عباس وشوقى وحسين وبسيونى الذين يروحون ويجيئون من بيوتهم وإليها- وتأكدت الأنباء بأن اللجنة الوطنيّة العليا للطلبة والعمّال منذ فجر الأمس المبكّر قد حشدت صفوف جماهيرها فى شوارع القاهرة وأخذت تنظّم الإضراب العام.

عرفنا بعد ذلك أن كل المصانع والشركات قد أغلقت أبوابها، وأن الدراسة قد تعطلت بجامعة فؤاد الأول والمعاهد الفنيّة والمدارس الثانويّة والابتدائيّة، وأن الترام والأوتوبيس قد توقّف.

أحسست أن التوتر قد ارتفع فى ساحة الجامعة.

تواترت الأخبار عمّا حدث فى ميدان عابدين، أمام السراى، كان الميدان قد غصّ بالحشود الحاشدة من الجماهير الهاتفة بالجلاء والاستقلال، تدفّقت صفوف طلبة الجامعة والمعاهد والمدارس من ساحة الأزهر ومن ميدان الملكة فريدة تطوف شوارع العاصمة الخاوية ثم وصلت مظاهرة هائلة من عمّال شبرا الخيمة إلى قلب العاصمة، وفى ميدان المحطة التقت هذه الدفقة الجبارة من جماهير العمّال مع مظاهرات قادمة من العباسية ومصر الجديدة والزيتون والمطرية وتوحّدت الجماهير الصاخبة التى قُدِّر عددها بأكثر من أربعين ألفاً.

عرفنا أن الجماهير الغفيرة قد انتظمت حول تمثال إبراهيم باشا فى وسط ميدان الأوبرا الذى انفسحت ساحته للناس فلم تكن التراموايات

ولا الأتوبيسات قد خرجت من عنابرها منذ الفجر، بينما كانت الكازينوهات والمحلات صامتة موصدة الأبواب. انعقد مؤتمر شعبي ضخم من الجماعات والمنظمات الوطنيّة، وصدر عن المؤتمر، بيانٌ بالمطالب التي تدعو إلى كشف النقاب عن سير المباحثات البريطانيّة المصريّة، وتحقيق الجلاء التام لكل قوات الاحتلال عن كل أرض الوطن وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية السودان لعام ١٨٩٩، ورفع قضية الجلاء عن وادي النيل إلى مجلس الأمن الدوليّ.

قال لي شوقي محمود إن طلبة كلية طب قصر العيني قد تعلموا منا درساً، قلت: كيف؟ ماذا حدث؟ قال إن طالباً اسمه محمد علي أحمد وقع تحت عجلات عربة البوليس، أمام الجامعة في الجيزة، ومات.

هل قلت إن اسمه وحده له دلالة أخرى؟ لم يعد مهمّاً أن يكون فرداً متميّزاً - مع كل فرادته - بل كأنه شفرة مصريّة عامة، محمد .. علي .. جرجس .. أحمد .. أضف إلى الاسم عباس الأعسر أو عبد الحَكَم أو خميس أو شهدي عطية أو نقولا حداد أو مئات وآلاف بلا اسم، إذا شئت، ماذا يهمّ؟ كلّ من على أرض هذه البلد هو محمد أو علي أو شهدي أو إدوار.

هل قلت: يا للشهداء الذين سقطوا، بلا اسم، بلا نُصب، بلا ضريح..

قلت: هل سقطوا؟ ما معنى السقوط هنا؟

قلت: نعم، شهداء بلا عدد ولا نهاية سقطوا في هوّة النسيان.

فهل أنا الآن - ببساطة - أقيم لهم جميعاً نصُباً أصوغه من عمق الروح من غير أن أعرف أسماءهم ولا ضرورة أن أعرفها؟ أم أن هذا الذي أفعله كلّه، ليس إلا قليلا من دخان يصعد من احتراق داخلي، ويطير به الهواء؟

قال شوقي: أخذ زملاؤه جثمانه إلى الكلية، قالوا نشيّع جنازته

تشييع الشهداء، وأخفوا محمد علي أحمد في مكان لا يعرفه إلا واحد أو اثنان من اللجنة التنفيذيّة للطلبة والعمّال مع زميل لهم في السنة النهائيّة، واعتصموا في الكليّة ، عندما جاء فجر اليوم لم يكن قد بقي من الطلبة في الكليّة إلا القلائل.

قال شوقي: عندما اقتحم البوليس الكليّة بجحافله وسياراته وأسلحته وكلابه لم يكن أحد ممن بقي فيها يعرف مكان محمد علي أحمد. وداخت عشرات الكلاب البوليسية بحثاً عنه، البوليس قَلَبَ الكليّة رأساً على عقب، ولم يعثر عليه أحد، كانوا أذكى منا - يمكن - إذا لم يدفنوه في ضريح مرتجل كما فعلنا، بل وضعوه في المعمل الذى يحتفظون فيه بكلاب التجارب ومن ثمّ لم تستطع الكلاب البوليسية أن تتعرف عليه..

قلت: ربما كانوا أذكى، ضلّلوا البوليس قليلاً ولكننا كنا مع سذاجتنا ربما أحرص على كرامة شهيدنا.

رمقني شوقي محمود بنظرة لم أعرف معناها، كان عليل الجسم، حاذق العينين، قلت لنفسي إنه مَكّار وسفروت ولكنه خفيف الحركة يتنقّل بين طلبة كليّته والكليّات الأخرى سواء دون أن يلحظه أحد، ويتلقف الأخبار والحكايات والشائعات دون أن يحس أحد بأنه جهاز معلومات حيّ متنقل.

كتبت لطيفة الزيات:

وفي تلك الأيام عندما انتُخبت في كليّتي ضمن اللجنة التنفيذيّة العليا للعمّال والطلبة.. فجأة وجدت نفسي، أنا بنت الأسرة المحافظة مضطرة إلى كسر قيودي لأمتزج مع زملائي في المعركة أعتلي الأعناق لأخطب في الطلبة.. محرّضةً على الكفاح حتى الموت في سبيل الجلاء.. فإذا بحماسي يشعل الثورة في نفوس الرجال..

وما أكاد أعود إلى البيت بعد يوم مليء بالعمل الباهر والاجتماعات المتّصلة للإعداد لليوم العظيم.. يوم الجلاء والإضراب العام.. ٢١ فبراير.. حتى أفاجأ باجتماع من نوع آخر..

الأسرة بكامل هيئتها، تلتفّ في صمت حول المائدة.. تنتظر عودتي لمناقشتي الحساب.. بل لمحاكمتي.. بمعنى أدقّ..

لم يحدث من قبل أن تأخرت فتاة من الأسرة، خارج البيت، إلى هذا الوقت المتأخر من الليل بلا سبب..

يجب أن أشرح لهم جلال العمل الذى أخوضه.. فلا يفهمون من حديثي سوى أني كنت في بيت أحد زملائي أحضر اجتماعاً كلّ أعضائه من الشبان.. وأنا بينهم البنت الوحيدة.. ويصدر الأمر ضدي.. بالإجماع.. مادامت الجامعة في إضراب.. فلن أبرح البيت.

ويمرّ يومان.. وتقترب اللحظة التي أعددت لها مع زملائي.. يوم إعلان الإضراب العام والتظاهر لفرض إرادة الشعب..

لقد تحددت فرصتي اليوم في مجرد النظر من النافذة.. لمشاهدة ما أسهمت في الإعداد له يتحرك أمام عيني دون أن أكون في قلبه وسط الجموع.

وأهرب من البيت إلى الشارع وأدع نفسي لتدافُع الجموع.. وصوتي يعلو رقيقاً حاداً مردداً شعارات اللجنة التي اشتركت لليال في تكوينها.. أخيراً أجد نفسي في ميدان الإسماعيلية.. لكن الذى كان يحدث لحظتها هناك كان شيئاً يفوق كلّ تصوُّر وكل احتمال خطر لهم وهم يستعرضون جميع الاحتمالات داخل اجتماعات اللجنة التنفيذيّة..

هنا.. يكشف الاستعمار والحكّام عن وجوههم بصورة تقطع الطريق على كل متردد.. وتخطر لي فكرة غريبة.. تملؤني بالغيظ.. ليت أبي وأخي.. هنا الآن، ليعرفوا.. أنه لم يعد ثمة مجال لحرماني من حقّي في الغضب من أجل أرضي..

لحظتها أحسست .. أن المأساة.. عميقة تمتد إلى جذور حياتنا.. إلى داخل نفوسنا كأفراد.. وليس فقط إلى حدود حرية وطننا وأقواتنا..

وانتبهت إلى صوت مخنوق بالدموع يناديني..

كانت زميلتي في كلية الآداب.. ريّا أدهم..

أسرعت نحوها.. وأسرعت نحوي.. ثم توقفنا فجأة..

كان ثمة جسد صغير يئن على الأرض الدماء تنزف منه.. وانحنينا.. في حركة واحدة ولم نلبث أن رفعنا رأسينا مذعورين.. فالتقت عيوننا في نظرة.. مذهولة.. بينما كان صوت الرصاص والصيحات.. الفاجعة يصكّ الآذان».

قلت: في تلك الأيام - أين ذهبت تلك الأيام؟ - كان الشعب عفيّاً قوي العود غير مخصيّ بعد، كان يعرف - من علّمه؟ - معنى الحرية وعلى استعداد لبذل الحياة نفسها في سبيل الحرّية. كان عصيّاً على الانصياع لكلّ سلطات القمع العتيد أو سلطات النصّ العتيق، قلت: لم تكن تضلّله - كثيراً - غوايات تغييب الوعي من خلال أجهزة الإعلام كاسحة الانتشار، ولم تكن تظلّله وصاية أبوية ديكتاتورية فرضت عليه تحقيق مطالبه هو نفسه فرضاً من غير أن يسهم في الحصول عليها ومن ثم سرعان ما انهارت وجرفتها موجات الخصخصة العارمة وفحش العولمة والتبعية للرأسمالية المتوحشة.

أما يكفي هذا تفجّعاً، أو توجّعاً؟

على السور المحيط بمحطة مصر رأيت الشعارات بالبوية السوداء «أين الغذاء والكساء يا ملك النساء» وبخط آخر أكثر وضوحاً «الخبز والحرّية للعمّال والفلاحين».

قلت لشوقي: هذا شعارنا.

قال بغموض : نعم

ثم قال : بالأمس كتب المتظاهرون شعاراتهم «الجلاء أو الفناء، تحيا مصر حرة مستقلة» على مصفّحات الجيش في ميدان الأوبرا، اعتلى زعماء الطلبة والعمّال عربات الجيش وخطبوا من فوقها.

كان صدقي قد قرر للضباط ٤٠ قرشاً علاوة في اليوم، وللجنود عشرة قروش، أيام النزول للبلد لمواجهة المظاهرات.

قال لي : الأخبار مؤكّدة أن ٣٣ شهيداً – على الأقل سقطوا في ميدان الإسماعيلية.

قال لي : الأهرام نشرت أنهم ١٥ قتلى و٢٣ جرحى – على الأقل، طبعًا هم أكثر بكثير.

عادت إليّ صورة الميدان، ثكنات قصر النيل العتيقة من ثلاث أربع سنين، كئيبة قاتمة الحمرة بنوافذها الضيّقة المتجاورة تطلّ منها وجوه العساكر الإنجليز، صِبْيةٌ شقر عراة الصدور كانوا منذورين عندئذ للموت في العلمين وطبرق والسهول الإيطالية في حرب لا شأن لهم حقاً بها.

قال لي شوقي : طبعاً عرفت أن المظاهرات كانت قد اندلعت من ميدان باب الحديد وفي شارع لاظوغلي وفي ميدان الملكة فريدة العتبة الخضراء يعني، وظلت سلميّة حتى الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً.

قال : المظاهرة الضخمة التي كان فيها أكثر من ١٥٠ ألف شخص كانت متجهة من شارع قصر العيني إلى ميدان الإسماعيلية أمام الثكنات البريطانية.

انطلقت من داخل الثكنات أربع مصفّحات إنجليزيّة تقتحم كتل الحشود الحاشدة بسرعة خارقة، وفجأة تدفّق الرصاص من المدفع الرشّاش الصغير في إحداها وسقط أربعة قتلى حيث كانوا، وفي الوقت نفسه

جاءت سيارتان إنجليزيّتان من ناحية كوبرى الخديوى اسماعيل من تحت تمثالىْ الأسدين الرابضين، وقف المتظاهرون أمامهما، اندفع الناس، فتحوا أبوابها وأخرجوا السائقين وانهالوا عليهما بالضرب وتركوهما فى دمائهما على أرض الميدان وقلبوا السيارتين.

تقدم فؤاد أحمد الرزّ الطالب بالدواوين الثانويّة، كان أول من أشعلوا النار فى السيارات الإنجليزيّة، اندلعت كتلة المظاهرة فى حُمَيّا لا مقاومة أمامها إلى باب ثكنات قصر النيل، انهمر الرصاص من نوافذ الثكنات فرماها المتظاهرون بكرات من النار صنعوها من جلاليبهم وقمصانهم وقذفوا بها إلى أعلى، نفذت عدة كرات نارية مشتعلة إلى داخل نوافذ الثكنات، كان الميدان يبدو كأنه يحترق، سحابات الدخان وألسنة النيران المهتزّة ترتفع من احتراق السيارتين الإنجليزيتّين ونفثات الحريق من كرات النار التى سقط الكثير منها على جدران الثكنات، أطلقت امرأة إيطالية النار من مسدّسها على «الهمج أولاد العرب» فى شارع قصر النيل الأنيق الذى استحال نهراً متدفّقاً من الثائرين.

فى ٢٠ فبراير مات أحمد حسنين باشا وكان شخصية شبه أسطوريّة فى دهائها وبهائها معاً، كانت الإشاعات تروج بأنه عشيق الملكة نازلى الأمّ وهى الوِزّة اللى قبل الفرح مدبوحة والعطفة قبل النظام مفتوحة، وقد ضحًّى بحبها إذ كان يطمح إلى ما هو أكبر من منصب «عشيق الملكة» وكان يحب أسمهان وهى زوجة أحمد سالم وقد تبادلا الرصاص على حبها. و«كان يلازم مليكه المفَدى ملازمة الظل فى حياته العامة والخاصة».

كنت قد قرأت فى أهرام الأمس، قبل أن أذهب للكليّة، «مأساة الوادى» بطولة جريرجارسون وجريجورى بيك فيلم فى سينما مترو بالقاهرة، أول سينما بتكييف الهواء، ... أسراب الجراد تهجم على سيناء.. تمَّ تصدير أكبر شحنة من الموتسيكلات من لندن إلى مصر..

أنور وجدى وعقيلة راتب يؤكدان إصرارهما على «أنا وابن عمىَ» على حسين رياض.. هانم متولى الألفى فقدت ختمها فى المنصورة وليست مدينة لأحد.. صدقى باشا يؤكد أن نابلسى فاروق هو من أحسن أنواع الصابون، ويخرج فى السابعة صباحاً إلى مكتبه بوزارة الداخلية دون إفطار.. اليوم يوم إضراب يبدأ من الأزهر رمز المقاومة الشعبية.. محمد حسين باشا رئيس نادى التجديف وزَّعَ الدعوات لحضور مباريات سباق الزوارق.. الأمير فيصل آل سعود عاد من لندن بعد أن أصبحت صحته جيّدة وهو فى طريقه إلى بلده ... الأمير عبد الله حاكم الأردن فى ضيافة الملك فى لندن».

أما أهرام اليوم ٢٢ فبراير فقد جاءت تحقيقاته بنبرة محايدة ولكنها لا يعوزها حسٌ مُشايع لنزعات الجماهير الغلاَّبة، قالت إن المتظاهرين حملوا جثة أحد قتلى ميدان الإسماعيلية طافوا بها شوارع القاهرة، وهم يرفعون الأعلام الخضراء والقمصان البيضاء ممزّقة مخضّبة بدماء الشهداء والجرحَى.

قال لى شوقى، بهدوء جدير بجهاز المعلومات الذى يجسّده: بعض الإخوان المسلمين وشباب السعديين والأحرار الدستوريين وربما مصر الفتاة، كانوا ينادون بالذهاب إلى عابدين ليرفعوا إلى «سّدة المليك المفدَّى» مطالب الشعب وهتفوا «كان إسماعيل صدّيقاً وكان نبيّاً» ردَّت عليهم الحشود «تسقط سلطة الباشوات» هتفوا «نموت نموت ويحيا الملك» فبادرتهم جموع المتظاهرين «لا ملك إلا الله» ولم ينسرب إلى ساحة عابدين من غمار الآلاف المؤلّفة إلا النفر القليل.

قال لى شوقى، بتواضع العارفين بخفايا الأمور:

- الليلة الماضية اجتمعت اللجنة الوطنيّة للطلبة والعمّال وأصدرت بياناً معى نسخة منه.

قلت بتلهف: أين هو؟ أرنى..!

مدّ لي يده بورقة كتبها بخط يده الذى كنت أعرفه:

بيان من اللجنة الوطنية للطلبة والعمال:

«بصدد فتح القوات البريطانية النيران على الأبرياء والعزل نطالب بجلاء القوات البريطانيّة بصفة فوريّة من كلّ المدن الكبرى، ونطالب الحكومة بألا تعود إلى المفاوضات مع بريطانيا إلا بعد صدور إعلان صريح من بريطانيا تعترف فيه بالجلاء».

قلت: بيان شديد الاعتدال، شديد التعقّل لا يليق بالتضحيات التى بذلها الناس فى هذا اليوم ولا يبرئ دم الشهداء.

قال، بتمهُّل وحيطة: لا تنس أن اللجنة تضمّ عناصر مختلفة الاتجاهات، لعل هذا هو القاسم المشترك الأدنى، ثم إنهم اتخذوا قراراً بإصدار ميثاق وطنيّ يوقّع عليه كلّ القادة الوطنيين وقرروا منح الحكومة المصرية فرصة ١٥ يوماً لكى تتسلم الردّ من بريطانيا على مطلب الجلاء، هذا أيضا انتصار، وإنذار فى الوقت نفسه.

لم أجب، كان منطقه قوياً.

قلت: منذ متى كان المنطق هو المعيار فى الثورة أو فى الفن؟

قلت: لهما منطق، ليس هو منطق الاعتدال والتحوّط.

يوم الأحد وبينما كنا فى آخر محاضرة للشيخ أبو زهرة سمعت الهدير البهيج لحشود الطلبة المتدافعين المتزاحمين، كان مصطفى النحّاس قد جدّد الدعوة للمصرين جميعاً لمواصلة الجهاد، وكانت اللجنة الوطنيّة للطلبة والعمّال في اليوم نفسه قد طالبت القوات البريطانية بالانسحاب فوراً من كل المدن الكبرى، كان هذا النداء مرة أخرى نداءً أقرب إلى التنازل عن الكل للحصول على الجزء. أى أنه كان من قبيل المناورة «السياسية».

قلت: هل كانت المواقف الدبلوماسيّة أو «السياسيّة» هى الفخّ الذى سقطت فيه هذه اللجنة، واندثرت، بعد أن سطعت شهاباً متوهّجاً

وجيز الاشتعال؟ ألم يكن من «المنطقيّ» – مادمنا نلوذ بالمنطق – أن نرفع نداءات ثوريّة وليس فقط مطالبات سياسيّة؟ أم أن «الظروف الموضوعية» – كما قيل – لم تكن موائمة للمواقف الثوريّة؟

قلت: الثورة – في السياسة وفي الفن – اختراق وانتهاك وليس مُواءَمة ولا تكيّفاً مع الظروف.

ولكن أسعدنا مع ذلك – إلى حد ما – دعوة اللجنة أن يكون يوم الاثنين ٤ مارس «يوم حداد عام» بمناسبة أحداث فبراير الدامية.

التمساح انساب علي ثبج الماء ثم انزلق على الشطّ كان قاسم إسحاق يطعمه بيده أعواداً خضراً تبدو نضرة طازجة تشرّ بالطزاجة داكنة وطرية وتبدو مع ذلك وكأنها أعواد قطن ملوّز منوّر وكأنها في الوقت نفسه حزمة برسيم يلتقطها كأنه فرس البحر، وكانت عيناه مدركتين، مدوّرتين، مثل كُرتين عسليّتين من بللور عميق الصفاء.

كان التمساح يضرب تربة الأرض الرخوة المبللة بذيله الضخم القويّ وفجأة رأيته معلقاً على باب ٧ شارع العباسي، أسود محنّطاً، متصلّباً بلا حياة، لكن عينيه مازالتا عارفتين واعيتين بالذكرى وبالأمل.

حضرت، ومعي زملاؤنا، المؤتمر الثاني الذى انعقد في جامعة فاروق الأول في نهاية ذلك الأسبوع.

عندما ألقى سعفان الأسيوطي بالعلم البريطاني إلى الأرض وداسه بالحذاء وبلّل طرفه بقليل من البنزين ثم أشعله بعود كبريت، تصاعد هديرٌ مدوٍ ارتجّت له مباني الجامعة الراسخة: يسقط الاستعمار الجلاء الجلاء الموت للإنجليز مصر والسودان لنا وانجلترا إن أمكنا.

جرى فريق صغير من كليّة العلوم وجاءوا بكومة من الكتب والمراجع الإنجليزيّة لكي يرموا بها إلى النار.

تصدّى لهم فريقنا، متكاتفين بالأيدى متحلقين حول النار نهيب بهم

أنّ حرق الكتب جريمة لا تُغتفر ولا معنى لها فالعِلْم ليس له وطن وليس في كل الأحوال قريناً للاستعمار. كان أحمد النمس بقامته القصيرة المدكوكة نوعا ماً قد اعتلى كرسيّاً يخطب بصوته الأبحّ الأجش المؤثر يهدّئ من اندفاع الأولاد بتوع مصر الفتاة، يطعّم دعوته بالعبارات النارية المعتادة التي يحبّها الجميع.

قال: خسئتْ الحكومة المخادعة المهادنة الملاينة، لا تفريط في حقوق الوطن المقدّسة ولا امتهان أيضاً لقدسيّة العِلْم، لا نامت أعين الجبناء ولا أعين الجهلاء. وهكذا.

ولكن بعض الموسوعات كانت قد ارتفعت في الهواء، قذف بها الطلبة إلى المحرقة التي تصاعدت منها خيوط من الدخان برائحة شياط القماش واحتراق الورق ونفثات الجِلْد الحريّف من أغلفة الكتب.

ذهبت صيحاتنا هدراً في اندفاع الطلبة الأهوج الذى كان يستثيره طلبة مصر الفتاة والإخوان المسلمين بأصوات مشروخة كان فيها سُعار من الحُميّا ولمسة من الجنون، قلت: أهلا بالحميّا والجنون في القضايا الصحيحة وليس في مجرد هوس الحمق.

صحيفة السفير وعنوانها ٨ ميدان محمد على بالإسكندرية تليفون ٢٨٦٩٧ وثمن النسخة ٢٠ مليماً، قالت في عددها الخاص رقم ٣٨ مكرر لسنة ١٩٤٧ «كان يوماً رائعاً».

جاء في العدد نفسه منها حديث للأستاذ عبد العظيم أنيس، كليّة العلوم، رداً على سؤال محرّر الصحيفة: ما رأيكم في العلاقات القائمة بين الطلبة والطالبات في الجامعة، وكأنما يستبق لطيفة الزيات ويدين بحق كامل - دعوات «الإسلاميين» في آخر عقود القرن العشرين، قال:

« إن على الطلبة والطالبات أن يدركوا حقيقةً جوهريّةً اليوم، تلك أنه من المستحيل على المجتمع المصريّ أن يتقدم ما لم ننظر إلى المرأة والرجل على قدم المساواة وما لم يعترف الوضع الاجتماعيّ بهذه

الحقيقة، بل علينا أن ندرك أنه لن يتحقق لكفاحنا الوطني نجاحٌ تامٌ ما لم تشترك الطالبة مع الطالب في هذا الصراع الحاسم من أجل حرية شعبنا، ومن هنا ندرك كم تكون مجرمة هذه الدعوات التي تنادي بمنع اختلاط الطلبة والطالبات في الجامعة، إن هؤلاء الذين ينشرون هذه الدعوات لا يستطيعون أن يتصوّروا اختلاطاً نظيفاً شريفاً أساسه التعاون لمصلحة الجامعة والمجتمع المصريّ بأسره».

سوف أعرف عبد العظيم أنيس في معتقلات أبو قير والطور بعد ذلك.

وسوف أظل أكنّ له حتى الآن - مع اختلافي معه في عدة أمور - محبةً على البُعد، احتراماً كبيراً.

لم تكن زينب المشراوى طالبة في الجامعة، ولكنها كانت في تقديرى أثقف وأنضج فكراً من كثيرات من زميلاتنا اللائى كان بعضهن ينأين بجانبهن عنا في نوع من الخَفَر أو التوقّي لعله غريزيّ ولعله ضغطٌ وليد العرف الاجتماعي، كانت زينب بخطوتها الجسور وضحكتها الصافية عن أسنان عاجيّة ناصعة وصدرها الشامخ تذكّرنى قليلاً بنوريس فخرى التي سقطتُ صريعاً في حبها منذ ثلاث أربع سنوات عندما دخلت مدرّج كليّة الحقوق لأول مرة، على رغم سمرة زينب النوبيّة وشُقرة نوريس الشاميّة الأصل على الأرجح، في كلتيهما روح من التحرّر بل التمرّد هي التي جذبتني إليهما عن هوىً صبيانيّ مع زميلتي الحقوقية، وفي صداقة حقيقيّة مبنيّة على تفاهم ومودّة - هل أقول أيضاً محبة؟- مع زينب، كنت أعرف أن قاسم يموت فيها حباً، وأحترم صمته عن أن يبوح لي به، كان قد حكى لي في أخميم منذ خمس أو ست سنوات قصة حبّ صبيانيّة أخرى، لعل خبرات الحب الأولى قد أنضجت قلبينا.

عندما عرفتُ عَرَضاً - بعد ذلك بخمسة وخمسين عاماً، أن نوريس ماتت منذ شهور قلائل، أخفيتُ دمعةً فرّت من عيني غصباً عني.

في اجتماع اللجنة ليلة أول مارس، في ٧ شارع العباسى، اقترح

قاسم أن نضمّ إلى اللجنة عنصراً نسائياً وأفاض في شرح اقتراحه بضرورة الكفاح من أجل حقوق المرأة إذ تقمعها أعراف النظام الرأسماليّ والتقاليد العتيقة الموروثة عن المجتمعات الزراعيّة شبه الإقطاعيّة والتي مازالت تحكم مصائر النساء، وقال إن عضو اللجنة، ممثلةً للمرأة المصرية، يجب أن تكون من الطبقة البروليتاريّة الكادحة - هكذا بتعبيره - وليس من البورجوازيّات المثقّفات اللاتي لم يعرفن معنى القهر الاجتماعيّ.

تحمّس علي أبو الليل وقد خرج عن تحفّظه المعتاد، أحنى رأسه الضخم الأصلع وقال بصوته الخافت المعتاد الذي يخرج بالكاد من بين أسنانه وإن كانت نبرته أعلى قليلاً: إيوه أمّال، أنا موافق، الطبقة العاملة هي صاحبة الحق أولاً وأخيراً في عضويّة هذه اللجنة.

أحمد النمس بادر بلهجته الاستفزازيّة المهاجِمة بالسؤال عمن يرشحه بالتحديد وبالاسم.

قلت في نفسي: مازال الصراع الكامن محتدماً على زعامات موهومة.

كنت أتوقع هذا الاقتراح من قاسم ويخفق قلبي له بالتأييد ولكني إذ أعرف مدى حبّه زينب أتوجّس من عقابيل هذا الحبّ في العمل الثوريّ وما قد يثير من انشقاقات وصراعات لا شأن لها بالمواقف السياسيّة أو الأيديولوجيّة بل لها كلّ الشأن في علاقات عاطفيّة محتملة معقّدة وما قد يجرّه من أخطار وما قد يترتّب عليه من تكتّلات (إذ توجد جبهة صلبة دائمة من اثنين على الأقل) ذلك كلّه على صغر بل ضآلة عددنا، ولذلك آثرت أن أعدّ للأمر عدته فأحول دون أن يذكر اسم زينب صراحة، كما أحاول أن أسوّف في اتخاذ قرار من ذلك النوع.

سارعت بالتدخل وقلت محتدماً إن الزميل قاسم على حقّ تماماً في طرحه، ولكني أرى الوقت مبكّراً على اتخاذ مثل هذه الخطوة مع

التسليم بضرورتها، وقلت إن الزميل قاسم أعرف منّى بالقيود التى يمكن أن تعوق اشتراك أى عنصر نسائىّ (هكذا قلت) مهما كانت ثوريتها فى اجتماعات لجنة تنعقد فى بيتٍ يرحّب بنا أصحابه ولكننا نتجاوز حدّنا معهم إذ جاءت إليه معنا امرأة مهما كان اقتناع أهل البيت، ومنهم والدة زميلينا عبد القادر وعبد الفتاح بنقاء الأمر من كلّ شائبة وخاصّة إذا عرف والدهما التاجر الريفىّ فى البلد بالأمر، فالمسألة إذن تحتاج إلى وقت.

قلت: عندما يشتدّ ساعد اللجنة وترسخ أقدامها (هكذا قلت بفصاحة وتفاؤل ونبرةٍ حماسيةٍ دائما) ويكون لنا مقر سرىّ مستقلّ، عندئذ فقط يمكن أن ننظر ونقرّر فى الاقتراح السليم الذى تقدّم به قاسم.

وطأ فتوح القفّاص سيجارته فى المنفضة الزجاجيّة أمامه بغيظ أما عبد الفتاح وعبد القادر فقد كانا يحسّان بالحرج والتراوح بين المسئوليّة والنزاهة الثوريّة من ناحية والعادات الريفيّة -والحضريّة أيضاً- التى تستهجن بالتأكيد حضور امرأة إلى بيت غريب والسهر فيه مع سبعة أو ثمانية رجال، فالتزما الصمت عن حكمة مبكّرة، وكان من الواضح لى أنهما سوف يمتنعان عن التصويت لو انتهى الأمر بالاقتراع، وكنت على يقين من أن قاسم قد حسب حساب ذلك وأن الاقتراع سوف يهزم اقتراحه: اثنين أو ثلاثة على الأكثر معه، واثنين امتناع، واثنين ضدّه، فلن يحرز أغلبيّة الخمسة أصوات المطلوبة، فسكت دون تعليق.

قال أحمد النمس، بما يشبه نبرة انتصار: إذن أقترح تأجيل النظر فى المسألة.

ومرت الأزمة الصغيرة بسلام

قلت: أقترح أن نناقش مقالة د. محمد مندور فى «الوفد» اليوم، قرأت المقال ببطء بينما كان قاسم وعلى قد أخذا السجاير من علبة فتوح «پول مول» الصفيح السوداء الفاخرة وقام عبد القادر يفتح النافذة

الأرضية مواربة قليلاً، ويدعوني بإشارة من يده أن أخفض صوتي قليلاً:

«لقد بدت بمصر هذه الأيام ظاهرة تعتبر نقطة تحوّل خطيرة في تاريخنا الحديث.. ويظهر هذا التحوّل من المقارنة بين الحركة الوطنيّة في سنة ١٩١٩ والحركة الوطنيّة الآن.. ففي ١٩١٩ كانت الأمّة لا تتحرك إلا إذا طلب إليها الزعماء الحركة.. وأما اليوم.. فقد نضج التفكير السياسي حتى رأينا جموع الشباب من طلبة وعمّال يقررون بأنفسهم خطوات الجهاد العمليّ وينفّذونها وتستجيب لنداءاتهم.. وقد أصبح من الواضح أن الحركة القائمة لا تعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية النهائية التي يقف عندها الجهاد.. وذلك لأن الفرد قد أصبح يدرك إدراكاً واضحاً أنه لا خير في إلغاء الرقّ الخارجي مادام الرقّ الداخلي جاثماً على صدره وأنه لا جدوى من أن يصبح الوطن عزيزاً إذا ظل الفرد ذليلاً».

ما أن فرغت من القراءة حتى صرخ فتوح القفّاص يتناثر من فمه رذاذ خفيف في اندفاع حماسته دون تورّع:

- حيوان..! كلام فارغ.. وكلام عموميّ في الهواء يعني إيه «الرقّ الداخلي» إحنا مالنا ومال العبارات الإنشائية «ذليل» «رقّ».. عاوزين تحديد واضح.

دعاه عبد القادر بإشارة ملحّة أن يخفض صوته، وقام يغلق النافذة وفتوح مازال يهضب بالكلام:

- يقول لنا الرأسمالية والإقطاع والملك، هكذا بوضوح، بدلاً من كلام غائم عن الذلّ والرقّ..

انطلق الجدل القديم المعتاد من إساره، واستمر طويلاً حتى استنفد فتوح طاقته وأوشك على أبو الليل أن يأخذه النعاس، فهو قد بدأ الشغل في دكان الأحذية الحريمي من التاسعة صباحاً وعليه أن يقوم من النوم مبكّراً ليأتي من الورديان إلى شارع صفية زغلول، وكانت الساعة قد

تجاوزت الواحدة صباحاً.

على الرغم من هذه الصراعات والنزغات الصغيرة فقد كنت موقناً أنهم جميعاً - أننا جميعاً - على استعداد دون تردد لحظة واحدة، إذا اقتضى الأمر، أن نتلقّى الرصاص في صدورنا أو أن نقضى بقيّة حياتنا في السجون، دفاعاً عما نؤمن به.

خرجنا إلى الهواء الطَلْق في الشارع، كانت بيوت محرم بيه قد أطفأت أنوارها في الحيّ الساكن الخاوى مطويّة على أسرارها ومباهجها أو فواجعها الصغيرة التى يتكوّن منها - قلت لنفسى - نسيج هذا الوطن المحتدم بالشوق إلى التغيير والنزوع إلى الحرية والكرامة والعدالة. فهل قلت: مهما كنا قليلين لا أثر محسوساً لنا تقريباً فى هذا الخضمّ من الاحتدام والجيشان والثورة التى تكمن خلف هذه الجدران، فلعلنا نعيش أقوى وأجمل لحظات حياتنا وربما أكثر لحظات الوطن إشراقاً بالأمل.

هل قلت: ما القيمة الباقية من كل هذه الحيويّة عند جماهير مصر فى تلك الأيام؟ ولماذا خفتت، وانحسرت، وضاعت؟

بتفاؤل عنيد وغير مبرّر أقول لنفسي: قيمتها باقية، مهما ضلّلها الزيغ، وضرب الفساد فى نخاع البلد.

مصر خالدة، ليس ذلك مجرّد عبارة إنشائية ولا إيماناً أعمى، بل هو واقع التاريخ، وما وراء كل تاريخ.

أما القيمة الباقية عندى فلعلها ليست ذاتيةً فقط، لم يكن ذلك - فقط - كفاحاً فيه قدرٌ من الاستشهاد والتضحية بالذات فى سبيل «قضية الوطن» وحلم العدالة، بل كان أيضاً - وأساساً - علاقة حبٍ بديل، عشْقٍ مستغرقٍ أوّليّ.

الفصل السابع

في الثامنة صباحاً من يوم الاثنين ٤ مارس كانت ساحة الجامعة خالية تقريباً.

الحديقة الصغيرة أمام مبنى كليّة الحقوق - الذى قضيت فيه خمس سنوات من الدراسة الثانويّة وأربعة من الدراسة الجامعيّة- مزدهرة بأول زهور البانسيه البنفسجية المرقّشة والمرجريتا الصفراء والباتونيا ذات الكؤوس الشفّافة والفاولاكْس الدقيقة بألوانها الداكنة والدلفينا الزرقاء، كانت الحديقة بين كلية الحقوق وكليّة الآداب المواجهة لها قد سُويّتْ وزال كل أثر لضريح الشهيد الذى سهرت أمامه ليلة بطولها. وكانت السماء الإسكندرانيّة صافية لا مثيل لعمق زرقتها الهادئ.

كان كل شيء حول الجامعة ساكنا وصامتاً.

كالمتفق عليه وجدت حسن وأحمد وعزيز جالسين على العشب الأخضر أمام تربيعة الورد البلدى، كان باب السلّم الحديدىّ مغلقا فنزلنا على الطريق المتحدّر الذى يدور حول ربوة الجامعة.

مررنا بمحطة مصر وبالقرب من المطافئ أمام مبنى سجن الأجانب، وجدنا مجموعة من المتظاهرين يهاجمون ربوة كوم الدكة العالية التى كانت تطلّ على ساحة المحطة ويرفرف فوقها اليونيون چاك البريطانىّ، وطلقات رصاص في الهواء تنطلق منذرة متقطّعة، يتراجع الناس متزاحمين، رأيناهم يتجمّعون من جديد، ويندفعون من جديد ويتراجعون تحت زخّة طلقات الرصاص الجديدة، عدنا من شارع محرم بيه الصامت الخالى إلى شارع منشه، المكتبة البلدية، الكوبرى، ملعب الملك، الساحة

أمام الملعب الخضراء الفسيحة، شارع صغير تفوح من حديقته على الصبح رائحة الياسمين وتتناثر الأزهار الصغيرة البيضاء بين فروع الشجر المتهدّلة اللدنة، شارع فؤاد، المحلات الغالية الأنيقة مغلقة الأبواب، اللافتات المكتوبة بالإنجليزى أو الفرنسى قد لطّخها الشباب بالأسود وكتبوا فيها بالفرشة السوداء «تحيا مصر» بخطّ ليست فيه أدنى أناقة.

في صمت الصباح الخاوى كانت أصواتنا عالية لها صدى ونحن ننشد بلادى بلادى لكِ حبى وفؤادى ويحيا الوطن، نسير في عرض الشارع الذى انقطعت منه الرِجْل وكفّت السيارات القليلة على كل حال عن المرور.

من شارع صفيّة زغلول إلى محطّة الرمل، في الحديقة تحت تمثال سعد زغلول رأينا طابوراً، لعله من عشرين جندياً من الجيش المرابط يقفون ومعهم بندقياتهم الطويلة تاريخيّة الشكل، متراخين شكلهم مُرهق، رُكَبهم سوداء عظميّة وسوداء فوق ربطة ألشين السيقان الرمادية وأحذيتهم كأنهم لم يخلعوها من يومين ثلاثة، ضخمة ومتربة، حللهم العسكرية الكاكى باهتة، وإلى الوراء منهم في الظلّ، ضابطهم الشاب على كرسيّ لعله مستعار من التريانون المقابل يقرأ الأهرام ويغالب الملل، وعلى مقربة منهم كشك البوليس الحربيّ الإنجليزىّ من الخشب المخضرّ الباهت وعليه الحرفان M.P. واضحين كبيرين مرسومين بدقة آليّة بالبوية البيضاء، جماعات متفرّقة من الناس كأنهم يسيرون على غير هدى، محطّة الرمل صامتة. كشك الناظر بسقفه القرميد الأحمر، وصفّان من أشجار النخيل الملوكى يهتز سعفها.

الترامويات الزرقاء - ومنها الترمواى أبو دورين - واقفة وخالية.

يصلنا وشيش أمواج البحر ترتطم بأحجار المينا الشرقية عبر الكورنيش الذى لا تكاد تمرّ به سيارات، وأصداء «بلادى بلادى» في الفراغ الفسيح نسمعها صغيرةً وخافتة.

لم تصدر صحيفة واحدة اليوم، كان احتجاج مصر كلّها حداداً على شهداء ٢١ فبراير، شاملاً.

عبرنا الكورنيش إلى الرصيف المجاور للبحر.

رأينا قارباً صغيراً يبدو جميلاً رقيقاً هشّا، يتحرّك بالمجاديف، بسرعة، وسط الميناء الشرقية متجهاً إلى مركب عسكريّة إنجليزيّة يرفرف عليها العَلَم البريطاني.

كان القارب نحيلاً ضئيلاً وهو يقترب من تحت المركب الحربيّة الحديديّة، المجاديف الأربعة تضرب الماء بانتظام المحترفين العارفين بأصول البحر، لا يكاد يسمع صوت ارتطامها السريع بالماء الأزرق الساكن.

وصل القارب تحت المركب وصعد إليها أربعةٌ واضحٌ أنهم من أولاد البحر، تسلّقوا جدار المركب بخفّة، وصعد أحدهم إلى الساريّة، أنزل العلم وأسقطه في البحر، تركوا المركب، كان ذلك كله يجرى بسرعة لا تصدَّق، وابتعد القارب بينما كانت طلقات رصاص متناثرة تسقط على الموج في أثره وتنبثق المياه نوافير صغيرة مُزبدة في مواقع سقوطها.

فوجئنا، أمام «أتينيوس» بعربة چيب إنجليزيّة حربيّة مكشوفة تأتى مسرعة من ناحية ربوة معسكر مصطفى باشا، وتقف أمامنا، فيها عسكريّان إنجليزيّان يبدوان في مثل عمرنا أو أصغر، ضئيلين قليلى الجسم في الشورت الكاكى الواسع والسترة العسكرية المتهدّلة قليلاً، بلا تعبير على الوجهين الشاحبين في النور الصباحىّ الإسكندرانىّ ونسمة البحر البليلة في مارس تهبّ علينا، نرمقهم وقد ارتفعت أصواتنا بالنشيد وكأنما لا يعيروننا اهتماماً، أحدهم يمسك بالتليفون النقّالى الحربىّ ضخم الشكل ويتكلم فيه والآخر يمسك بالتومى جَنْ الخفيف، يبدو هذا المدفع الرشّاش في يده رقيقاً وهشّاً ولكنه منذر ويحمل طاقة القتل.

سمعنا هديراً خفيضاً على البعد من ناحية آخر شارع سعيد، ربّما من ناحية المنشية، دوىّ الهتافات الموقّعة بانتظام مازالت غير مستبينة

لكنها تهزّ القلب، سارعنا بالنفاذ من شارع جانبيّ بجوار القهوة التجاريّة، وفجأة وجدنا أنفسنا في غمار المظاهرة الحاشدة، التهمتنا الجموع وفقدنا أحدنا الآخر في وسط تموُّج الناس العارم المتدافع، وجدت نفسى وقد فنيت فيهم، لم تعد «بلادى بلادى» نشيداً بل هو نداء كشيف، ووجدت أننى أهتف وقد استأثرت بى نشوة الذوبان في هذا الكيان المتدفّق من الأجسام المتكاتفة، الجلاليب والطواقى والطرابيش والبنطلونات والعمم والقفاطين، الرجال والصبيان والشيوخ كلهم نهر واحد متلاطم الموج ومنسجم في نزوع لا يُغلَب.

الجلاء أو الفناء تحيا مصر حرة مستقلة يسقط الاستعمار نموت نموت ويحيا الوطن. لعلنى كنت لا أسمع صوتى، ولا صوتهم، بل هى أرض الوطن تميد تحت الأقدام بزلزال متقلّب ومنتظم الإيقاع.

لم يعد للزمن ولا للمكان ولا شيء آخر وجودٌ خارج هذا الكيان الهادر المدوّى من آلاف المصريين الضاربين على أبواب سماء الحريّة.

عندما كنا أمام مبنى الغرفة التجاريّة بطرازه الكلاسيكيّ وعلى يميننا المبانى الأنيقة العالية التى تنتهى بفندق سيسيل، سمعنا طقطقات متقطعة، هتافات «بيضربوا بالرصاص.. بالرصاص ولاد الكلب» وبنظرة غاضبة رأينا وجوهاً صغيرة تطلّ من النوافذ العالية ومسدّسات صغيرة، سمعت أزيزاً خاطفاً يمرق قريباً جداً من أذنى وأحسست حرارة كأنها خطفة برق ورأيت الولد الذى كان يهتف بجانبى، يترنّح وتنبثق دفقة حمراء على صدر جلابيته، مفتوح العينين بدهشة الموت، أخذ الدم على الفور ينزف من ركن فمه، وقبل أن يسقط على الأرض تلقّفته الأيدى ورفعته إلى أعلى «إلى جنّة الخلد يا شهيد - إلى جنّة الخلد.. نموت وتحيا مصر»، الهتافات مبحوحة تخنقها الدموع لكنها قويّة والناس تتلاطم جموعهم حولى، خطر ببالى، كالبرق أن الرصاصة أخطأتنى أنا بمقدار أصبع أو أقل ولولا حركة رأسى بالهتاف في تلك اللحظة بالذات لكنت

أنا الذى تحمله جموع الناس مخضّباً بالدماء.

في خضمّ الناس لمحت تحت مبنى سيسيل مباشرةً عربةً عسكرية مغلقة داكنة اللون، وبداخلها جنود الإشارة الإنجليز، ومن النافذة الأمامية رأينا الجندى يتحدّث في جهاز تليفونيّ متصلّ بسلك طويل يتدلى من عمود إيريال مثبّت على أعلى المبنى، انشقّت المظاهرة واتجّه أحد شقّيها نحو السيارة، رأينا شابّاً بقميص وبنطلون يتسلّق المبنى بسرعة وبراعة، الناس تهتف تحته بدوىً صاخب: الله أكبر الله أكبر. وخيل إلىّ بين تدافع الأكتاف أن عمود الإيريال قد ترنّح ومال إلى جنب وسقط، رأيت الكابل الأسود بالفعل يتهاوى متكوّماً ويسقط على السيارة التى دار محركّها وهى تطلق النار من مدفع رشاش مصوّب إلى الناس بزخّات سريعة وقصيرة، دارت إلى الخلف بسرعة وخرجت إلى الكورنيش، رأيت الشاب الذى يهبط من على شرفات المبنى متحسّساً الجدار بقدميه الحافيتين يتهاوى وتفلت يداه الجدار ويسقط على الأرض مضروباً بالرصاص.

أحسست هياج الناس قد بلغ المدى، لا يمكن لقوة على الأرض أن تكبح جماحه.

سمعت طلقات متناثرة قليلة من النوافذ العالية، ولكنها ضاعت كأنما لم تكن، واتجهت الجموع نحو كشك البوليس الحربى المغلق الذى غرق وسط الجماهير الغاضبة.

خلع أحد أولاد البلد جلبابه وظلّ بالصديرى والفانلة واللباس العَبَك الطويل، مزّق من جلبابه شريحة كبيرة، لحقه الناس فأخذوها منه وفتحوا سّدادات البنزين من السيارات الواقفة تحت المبانى وأمام التريانون وأغرقوها بالبنزين، فأخذها منهم، وانطلقت زخّة تومى جَنْ من نافذة كشك البوليس الحربى التى انفتحت فقذفها الولد بكرةٍ ملتهبةٍ من النار، وجدت فجأة كرات متلاحقة من القماش مشبّعة

بالبنزين ممزقة من القمصان والجلاليب تتوالى وتختفى داخل ظلام الكشك، سرعان ما طقطقت أخشابه واندلعت النار من النافذة المفتوحة، لم أر شيئاً بعد ذلك، جرفتنى الجماهير المتلاطمة إلى جنب، وعرفت أنهم اقتحموا الكشك وذبحوا جنديّْ البوليس الحربىّ اللذين كان مصيرهما أن يلقيا حتفهما ساعتها، هل ذبحوهما أم قتلوهما ضرباً وطعناً وركلاً؟ من يستطيع أن يوقف غضب الحشود العارمة.

وما أهمية أن يكون الضحيتان الإنجليزيتان اسمهما چون أو سميث وجاءا من ساسِكْس أو يوركشاير أو حتى جنوب لندن؟.

لم يعد لهما - ولا لرفقائهما - وجود فردىّ وشخصىّ، كان قدرهما - مثل الملايين الذين راحوا في حربٍ لا شأن لهم حقّاً بها - أن يكونا مجرد شفرة، مجرد رمز، مجرد رقم في معادلة قاسية ضارية لا رحمة فيها.

قلت: قضيّتنا كانت ومازالت عادلة ومبررّة.

قلت: نعم، بلاشك ولا تردُّد لحظة واحدة.

قلت: وما قضيّة الأم التى كانت تنتظره في يوركشاير ولن تراه قط، بل لن ترى جثته الممزقة؟

قلت: هل تريد عدالة كونيّة تعرف استحالتها وغوايتها؟

قلت: من يذكر الآن اسم سليمان أبو المجد الذى دفع حياته ثمناً لقطع شريان الاتصال بين عساكر الاحتلال وقيادتهم، أو مئات مثله لا أحد يعرف أسماءهم، أو فاروق حافظ الذى وصف نفسه بأنه عضو اللجنة الوطنيّة للطلبة والعمّال بالإسكندرية وقضى نصف عمره في السجن ثمناً لجندىٍ بريطانىّ - مَنْ يذكر اسمه هو أيضاً؟ - وقع محبوساً في كشك البوليس الحربى الذى أغرقه طوفان الغضب الشعبىّ؟

ألم يكونا هما أيضاً من رموزٍ وشفراتٍ بلا اسم، مثل الملايين من شهداء الإيمان؟

هل تريد أن يكون لكلٍ خصوصيّته وتميّزه وبقاؤه فرداً لا مثيل ولا ندّ

له، ولا يمكن أن يحل محلّه آخر أو حتى أن يشابهه آخر، بجانب دوره الرمزيّ الذى لا محالة هو دوره رغماً عنه أو بمشيئته.

وعلى سبيل الاستطراد - والتزيُّد ربما - فلا أنسى أبداً نظرة شابٍ على خزينة محلٍ لبيع المجلات والملابس الشبقيّة في برلين الغربيّة، كان الجليد يتكسّر في الشارع عندما دخلت إلى التكييف الدافئ في المحلّ. كان الولد حليق الرأس تماماً، كدِر الملامح، يرتدى قميصاً ملوّناً معقوص الأكمام عن ذراعين مفتولتين موشومتين بوشم بذىءٍ داكن الخضرة على بشرة بيضاء ملساء، عيناه ضيقتان نافذتان فيهما كلّ حقد العالم وغضبه واحتقانه بالإحباط، إذ يرى فيّ نموذج «البورجوازىّ» الشرقىّ الذى عنده أموال متلتلة (لم يكن عندى منها شىء) وعنده نزعات شبقية سهلة ينفق عليها نقوده، تحولتُ عنده إلى شفرة، رمز، موضوع، بملابسى، بنظّارتى، ومنظرى، بنقودى القليلة الكاش الجاهزة فوراً دون بطاقات ائتمان ولا دياولو.

كيف يُجرِّد الواحد من فرادته وشخصيّته فيتحول إلى رقم، أداة، حرف في معادلة جبريّة محلولة سلفاً.

قلت: أهذا ما يحدث لملايين الناس في الحرب وفي منعطفات التاريخ الكبرى؟

ومع ذلك يظل لكلٍ، أيّا كان ومهما استحال إلى تجريد، كثافته المتفرّدة التى لا نظير لها.

سوف أقول: وماذا عن الاستنساخ البشرىّ الوشيك؟ وصناعة «الوحدات» البشريّة على طريقة الإنتاج الجماعىّ الآلىّ؟

قلت: مستقبل مشرق جميل Brave new world.

كان طابور الجيش المرابط يقف الآن متوتّراً، لا يتحرّك، لم تأت الأوامر إلى قائده الشاب الذى ترك كرسىّ التريانون المستعار ووقف يرقب الموقف دون أن يجرؤ على اتخاذ أية مبادرة، هل كان قلبه مع غضبة الناس؟

فقدت أثر حسن وأحمد وعزيز، انطلق كلٌّ منا بلاشكّ في طريق لا أعرف كيف شقّقتُه وسط الجموع، كنت منهم وبهم وفقدت أيضاً نفسي في غمارهم، لم أعد أنا بل نحن.

عندما وصلت البيت ماشياً فيما يقارب غيبوبة النشوة التى تأتى بعد الذروة، وجدت أن صوتى مبحوح لا يكاد يخرج، كان الهتاف بأعلى صوتى الذى لم أكن أسمعه قد أضاع صوتى، قالت أمي: يالهوى، أنت فين يابنى؟ ادخل وقّعت قلبنا عليك.. مالك يا ضناى؟ مال صوتك؟ وشّك مزنهر حيْبُكّ منه الدمّ يا حبيبى، كَلْت حاجة؟ أعمل لك الغدا؟

من الراديو الضخم ذى العين الكهربائية الخضراء سمعنا القرآن، والمارش العسكرىّ، ثم أمْر الحاكم العسكرى العام بحظر التجول في القاهرة والإسكندرية وطنطا وأسيوط من الساعة السادسة مساء حتى الساعة السادسة صباحاً، وقوّات الجيش نزلت إلى الشوارع مع قوّات البوليس لحفظ الأمن والنظام، سوف تطلق النار فوراً دون إنذار على كلّ من يوجد في الشارع دون تصريح خاص، يُستثنى من ذلك رجال وسيارات الإسعاف والدفاع المدنى.

من غرفتى الدافئة في راغب باشا كانت تصلنى طلقات نار متفرّقة لها صدى قوىّ في الصمت التامّ الذى خيّم على الإسكندرية، وسمعت صفّارات المراكب في الميناء تنطلق ضخمة ممتلئة الحَلْق تأتى قوية عالية عبر أجواء المدينة كأنها تمرّ بالشارع تحت شرفة غرفتى.

«كانت نتيجة المصادمات بين متظاهرى الإسكندرية والبوليس والقوات الإنجليزية مقتل ٢٨ شخصاً وجرح ٢٤٢ من المتظاهرين»

ماذا تعنى الإحصاءات؟ ماذا تعنى الأرقام؟

دمُ شهيد واحد لا تمحوه كل الإحصائيات، لا يرقأه شيء، ولا يعوّضه شيء، يظل ينزف متدفّقاً حارّاً إلى الأبد.

ترتفع أمامى في سماء غائمة قمريّة غير محددة مبخرة هائلة

يتسرّب من خرومها المدوّرة الواسعة سحبٌ خفيفة بيضاء لها بخور عطر، تبدو لي كأنها مأذنة جامع القائد إبراهيم أو برج كنيسة العذراء، وتتخايل فوقها نجمة ساطعة وحيدة متوهّجة بإشعاعات تومض وتخبو بسرعة وكأنما سمعت من يقول، هل كنت أنا الذى أقول: أهذه الزهرة نجمة الحبّ أم الشعْرَى اليمانية نجمة غامضة المآل؟ عبق البخور الذى كان يذكّرنى ببخور قدّاسات طفولتى في الكنيسة أو في دير الملاك ميخائيل في أخميم له رائحة حريفة نفّاذة وخاصّة.

عندما نادتنى أمّى للعشاء كانت رائحة سمك البلطي المقلي تملأ فسحة البيت.

«في ١٠ مارس ١٩٤٦ أصدرت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال بياناً ضمنته ميثاقاً وطنياً وصدّرته بالمقدمة التالية:

«إن اللجنة يسرها أن تعلن ميثاقاً اعتمدته وأيّدته إرادة الشعب المصرىّ. إن هذا الميثاق يقف مع الشعب المصرىّ الذى يرفض هؤلاء القادة والزعماء الذين يتفاوضون مع الاستعمار وهم لا يعيرون المطالب الشعبية اهتماماً.. إن الجلاء هو الطريق الوحيد للدفاع عن استقلال وطننا. إن اللجنة لا تعترف بالمفاوضات غير المخطّطة التى تجريها حكومة صدقى باشا، وتعلم أن هذه المفاوضات لن تسفر إلا عن ما يريده الاستعمار في النهاية. وإن اللجنة سوف تواصل نضالها من أجل تحقيق الجلاء الكامل عن وادى النيل.. وعاشت مصر حرة مستقلة».

أما اجتماع لجنتنا في مساء اليوم التالى فقد أيّد هذه المقّدمة مع التحفظ، إذ وجدناها بالإجماع مازالت صياغة عامّة لم تحدّد ما هى المطالب الشعبية على وجه الدقّة، كما أن المقدّمة لم تأت فيها إشارة إلى استغلال الرأسماليين والإقطاعيين وحكم الباشوات التى كانت الصحف الوطنية مثل «الوفد المصرى» أو «الجماهير» تفيض بها، دون ذكر البيانات والمنشورات الثوريّة التى كانت البلد تغصّ بها.

اتفقنا على أن يُعهد إلى قاسم إسحاق وأحمد النمس وأنا بصياغة المقالة الافتتاحية للعدد الرابع من مجلتنا «الكفاح الثوريّ» بحيث تتضمّن هذا الموقف، كما عُهد إلى على أبو الليل بأن يجمع أخبار إضرابات العمال ومطالبهم في مصانع كرموز والمحمودية وبولڤارا ودرّة وكابو وأن يصوغها معه عبد القادر خلف الله للنشر في هذا العدد.

في تلك الليلة المقمرة من مارس كنت أسير مع قاسم إسحاق في ساحة محطة مصر وحدائقها ثم نقطع شارع محرم بيه إلى آخره حتى شارع الرصّافة ونعود أدراجنا من جنب الكوبرى أبو عين واحدة إلى ساحة ملعب الملك والشارع الصاعد حتى سور محطة مصر من جديد، ونحن نتحدث بحماسة وأمانة عن تحليله لما يدفعني للعمل الثوريّ، فقد كان يعرفني منذ كنت في أخميم سنة ١٩٤١، وكان يهزّني احترامه عندئذ لعقيدتي الأرثوذكسيّة التي كانت تهتزّ تحت وطأة قراءاتي لترجمات كثيرة عن أفكار ڤولتير وروسّو ومونتسكيو وفلاسفة التنوير وكتابات سلامة موسى وتلخيصاته لنظريات فرويد وأفكار الاشتراكيين الفابيّين.

قال لى: أنت - حتى الآن - ومع إيمانك الذى أثق في صدقه بالماديّة الجدليّة مازلت متدينًا عميق التديُّن، كأنك راهب منقطع في صحرائه للدفاع عن عقيدته الجديدة، حتى وأنت تغرق نفسك في العمل الثوريّ، كأنك مازلت تبشّر بدين جديد مضّطهد كما كانت المسيحيّة الأولى موضع مطاردة الأباطرة الرومان القدامى.

لم يكن ردّى مقنعاً عندما قلت «إن إيمانى بالدين الجديد - إذا صح وصفه كذلك وهو غير صحيح، لأنه منهج وليس عقيدة، دليل عمل وليس مجموعة يقينيات - هذا الإيمان إذن مبنيّ على نظر عقليّ بحت يرفض التسليم بغيبيّات مسبقة ويضع كل شيء موضع الشكّ أوّلاً ثم البرهنة بعد ذلك بالدليل العقليّ.

قال: هذا أقرب إلى الديكارتيّة وليس الماركسيّة، ثم إنك يا عزيزى

تغرق نفسك بلا أدنى تورّع في العمل دون نظر لأى اعتبار آخر، كأنك تريد أن تكون شهيداً من شهداء أقباط الصحراء.

يا عزيزى أنت ملحد كأنك قسيس ولست مناضلاً ثوريّاً عمليّاً يحسب حساباً للواقع العمليّ.

ثم قال: أنت تتخلّص - على هذا النحو - من مثاليّتك بمثاليّة جديدة، وتغالب انطوائيّتك الأصيلة وميلك للعزلة بالإغراق في الكفاح - هذا أمر يُحسب لك وليس عليك طبعاً - ولكن ألا ترى معى أنك تستبدل حلماً بحلم؟ أنك مازلت الحالم الشاعر الذى عرفته في أول سنوات الجامعة، وأن حلم الثورة والعدالة والحرية قد حلّ محل حلم الحبّ الرومانسيّ والخلوص للفنّ؟

قلت بانفعال أغالبه بالكاد: ربما.. ربما.. أعترف لك بأننى مازلت في الصميم الحالم الأبدىّ، الشاعر الذى لا يعرف رسالة له إلا في الفنّ، ولكنى عميق الاقتناع بأنّ الفترة الراهنة من حياة الوطن لا تحتمل ذلك، أن الكفاح من أجل الحرية الآن أهمّ من العمل لخلق فنّ مصرىّ لعله لم يُكتب حتى الآن، سوف أعمل معكم حتى يتحقّق الاستقلال الحقيقيّ، حتى تتطهّر أرض الوطن من لوثة الاحتلال، حتى تنفتح بداية الطريق المؤكّد نحو الاشتراكيّة والعدالة الاجتماعيّة ثم اضمحلال الدولة وزوال القهر، قهر كل السلطات بما فيها سلطة النصّ المقدس الموروث وسلطة طغيان حكم الملك والإقطاعيين.

قال باسماً بطريقته العذبة الطيبة: حيلك حيلك يا عزيزى، لا تبشّرنى أنا بما أومن به قبلك، على مهلك.. أنا أعرف تجربتك الأخيرة، أنت تخرج إلى طريق الثورة من تجربة حب يائس مراهق، إخفاق هذه التجربة الصبيانيّة - اسمح لى - هو الذى دفعك إلى التشبّث على هذا النحو من الاستماتة بحبّ الثورة..

لم أجبه لأننى فكرت أيضا في فترة الطفولة التى كنت بها موضع

حبٍ مغالى فيه إلى حدّ الحصار، لم يكن مسموحاً لى قط أن ألعب في الشارع ولا أن أركب عجلة ولا أن أعوم في البحر وحدى ولا أن ألعب الكرة الشراب أو غيرها، ولا أن أصاحب الأولاد «الوحشين» كانت مواعيد الذهاب من مدرسة النيل الابتدائية والعودة منها محسوبة بالدقيقة، ولكنني كنت أتمرّد على سجن الحبّ الأموميّ، وألعب البِلّي في الشارع وأكسب وأخسر وكنت أخرق الحصار كيفما استطعت.

قلت في نفسي: يا عزيزى قاسم لعل ما عندى أيضاً تمرد أوديبيّ؟

قلت له: ربما، ولكن إحساسي بالظلم والقهر حقيقيّ وليس فردياً فقط، ثم إن الموت وهو ظاهرة فيزيقيّة بحتة صحيح لكن له بعداً ميتافيزيقيا لا أستطيع حتى الآن أن أتبيّنه أو أن أحدّده، قد دخل حياتي بتواتر مستمر ومدمّر، أليس هذا ظلماً كونيّاً أيضاً؟ لعلنى أعرف استحالة العدالة المطلقة لكني لن أتخاذل طول حياتي - هذا عهدى لك - بأن أسعى إليها كلّما استطعت إلى ذلك سبيلاً، بالعمل الثوريّ الاجتماعيّ الآن وبالعمل الفنّي - كما أرجو وآمل - فيما بعد.

قال قاسم: ما يمنع أن تجمع بين الاثنين، العمل السياسيّ والعمل الفنّيّ؟

قلت: لا أستطيع أن أعبد إلهين في وقتٍ واحد... يمكن أن يكون عندى قلبان في صدرى، أو أكثر من قلبين تصغو كلّها بالهوى، لكنها جميعاً لابد أن تكون في عبادة إلهٍ واحد.

قال قاسم: هذا أنت، مولعٌ بالاستعارة والمجاز طول الوقت، أنت وشأنك.

كان قاسم بطبيعته ومع كل صدق إيمانه، متساهلاً، ولكنه كان يحبّ أن يشعر أنه هو «الرئيس». كان أقدمنا وأوّلنا وكان النضال الذى أسهم فيه معى - قام فيه بالدور المرموق - في أخميم منذ سنوات قليلة لا يبارح إحساسه، ولكنه أيضا يحبّ الجنس ولا مانع عنده أن يخلف أىّ

ميعاد أو يؤجّل أية مهمّةٍ معهودٍ بها إليه لو عرضت له امرأة حتى لو كانت عابرة أو قبيحة القسمات «كلهن جسم واحد يا عزيزى» كما حدث بالفعل، لحسن الحظ، مع البحار الفرنسيّ.

قلت: إخلاصه للعمل السياسى وانغماسه فيه «ينقّى» شخصيته.

قلت: هذا الطهرانيّ الذى هو أنا - رغم كلّ شيء - يتكلّم، لماذا «ينقّى»؟ لماذا الولع بالنقاء بل الهوس به؟ أهنا ميراث القبطيّ الأرثوزكسيّ القديم؟ أم هى سمة مصريّة؟ لم لا تكون «الشخصية» عدّة شرايين أو عدّة معادن متجاورة وربما متصاهرة متشابكة ولكن قائمة، موجودة، غير مصفّاة إلى جوهر نقيّ واحد طاهر ومصمت إلى أبد الآبدين؟

في غيامة الفجر رأيت عايدة تبدو رقيقة جميلة هشّة، تنطلق بأقصى سرعة وبضجيج القرقعة ودوّى العنف، في شارع محرم بيه ليلاً، تحت القمر، على موتوسيكل مثل موتوسيكلات الجيش وكأنما هو - بغموض - جيش الثورة.

هل هى عايدة أم ذلك الكيان الأسطوريّ رامة التى سوف تصاحبنى إلى آخر العمر، وما بعده ربما؟

رأسها الصغير تحميه خوذة حديديّة مرسوماً عليها المنجل والمطرقة وعليها رقم ٤، ولكنها عارية تماماً، عايدة رامة، تحت القمر، جسمها الأسمر الأسيل ممشوق وساقاها تحفزان محرّك الدّراجة البخاريّة بقوّة، وردفاها المتينان واثقان متمكّنان على السرج الجلدىّ بلونه البنىّ البيج الفاتح، وما بين ساقيها ملتصق بمقدمة الآلة المقذوف بها إلى الأمام، دون إمكانيةٍ للتوقف أبداً.

خيلَ إليّ أنها تندفع إلى صخرةٍ قامت فجأة عند مفترق شارع الإسكندرانى، وأنها لا تستطيع أن تحيد عن الاصطدام المحتوم، صرختُ..

ذهبت صرختى المدويّة دون إجابة في صمت آخر الفجر..

الفصل الثامن

كنا مع ذلك طلبة فى ليسانس الحقوق، وكان الامتحان وشيكاً.

أعددت لنفسى البرنامج المكثّف للمراجعة، بساعاته الطويلة المملة المرهقة.

هل توقّف نشاط الحلقة الثوريّة أم اتخذ مساره الخاص، مع سلامة وشاكر وزينب وعايدة، مع على أبو الليل وأحمد النمس وفريد اسكاروس وعزيز نسيم وفتحى أبو شادى؟

فى آخر يوم من أبريل صعدت ربوة الجامعة على الطريق الدائرى الصاعد الذى تحفّه الأعشاب النضرة الخضراء، كنت أصعده طيلة تسع سنوات مضت، وكانت سماء الإسكندرية صافية الزرقة خفيفة ونسمات الصبح تهبّ على روحى المكدودة بهموم كثيرة.

ولكنى وجدت ساحات الجامعة ومدرجاتها تغلى بالغضب والثورة. لم يكن أحد منا قد نسى الأيام التى صاحبت ٢١ فبراير و٤ مارس، وكانت الأخبار تأتى تترى بمفاوضات بين حكومة صدقى وبيفن، لقينى شوقى محمود، على آخر الطريق وأول الساحة، وقال لى وهو يكتم انفعالاً حاراً يحتقن له وجهه الطويل الشاحب الممصوص: سمعت يا سيدى هُم على وشك عقد معاهدة تكبّل البلد وتمتهن كرامتنا، تتيح امتلاك المطارات واحتلال ضفتى القنال، لا يمكن أن نقبل.. لا يمكن.. ماذا نفعل إذن؟ ليس هناك وقت.

رددت على الفور: وهل هناك إلا أن نأخذ زمام المبادرة، لا يجوز أن يفلت الموقف.

فهل كنت أفكر على نحو عمليّ براجماتيّ عندئذ، أم كنت أعنى فى حقيقة الأمر أن قضية الوطن لا تحتمل المهادنة؟

وعلى أية حال فما أن كدت أفرغ من حديثى حتى جاءنى الهدير والطنين الذى أصبح موسيقى معتادة، مجموعات من الطلبة قد انعقدت أواصرها، ومجموعات أخرى تسارع مهرولة ونشطة وفرحة بالانضمام إليها، كان على الوجوه استبشار وما يقارب السعادة أو النشوة بالخروج على روتين الدراسة اليوميّ المكرور، الذى لم يعد الآن يومياً ولا مكروراً فى خضم العمل الجماعىّ وفى حميّا الاستعداد للتضحية بالذات من أجل أشياء أعلى قد استأثرت بأرواحنا، «لا مطار ولا قنال، يسقط الاحتلال.. الجلاء الجلاء» الهتافات تصعد من صدور ملؤها الغضب وما يشبه فرحاً صبيانياً بالتمرد فى الوقت نفسه «الجلاء أو الفناء.. تحيا مصر».

الصفوف الطويلة المتزاحمة تنزل الآن على الطريق الدائرىّ حول ربوة الجامعة، والهتافات يرجّ لها الأفق تنفتح النوافذ على الجانب الآخر من شارع طنطاوى الجوهرى المحاذى للجامعة، وتطل رءوس الستّات والبنات والرجال، الأيدى تلوّح لنا بعلامة النصر التى تعلّمناها حديثاً والأذرع مرفوعة تشوّر لنا، الدعوات لا نسمعها ولكننا نعرفها: الله ينصركم ياولاد.. ربنا يحفظكم من كل شرّ.

ما أن قاربنا نهاية انحدار الطريق الدائرى والتقائه بالشارع حتى فوجئنا بعساكر البوليس بحللهم السوداء - لم يكونوا قد ارتدوا اللبس الصيفى الأبيض بعد - وخوذاتهم ودروعهم الخشبية الخضراء، يقف صفّان منهم على الرصيف المقابل.

وبطبيعة الحال اشتعل حماس مظاهرة الطلبة واحتدّت الهتافات «تحيا مصر حرة مستقلة، يسقط الاستعمار».

رصاصة دوّى صداها من خلال الهتافات التى كانت تبدو بعيدة فى

آخر الساحة، رأيت وأنا على الربوة، ضابط الشرطة قوىّ الجسم مكين البنيان يترنح فجأة، دون صوت، ويميل، ويسقط على أسفلت الشارع، أمام صفّ العساكر فى ملابسهم السوداء.

وفى لحظة كان حولى جمع محتشد متزاحم من الطلبة، وقد سكتت الهتافات، يتدافعون حتى نوشك أن نسقط جميعاً من على حافة الربوة المعشوشبة.

كان واضحاً من حركات العساكر وصفّ الضباط أن الضابط قد قتل.

لم نستطع أن نتبين شيئاً من بين زحمة العساكر تحت، حتى وصلت سيارة إسعاف يصلصل جرسها بصوت منذر ودؤوب، لا يتوقف.

سمعنا أمراً عسكرياً وصل إلينا خافتاً ولكن واضحاً شديد القطع والحسم:

- اضرب يا عسكرى .. اضرب فى المليان.

ركع الصف الأول من العساكر على ركبهم فى وضع إطلاق النار، ودوّى الرصاص متلاحقاً فى زخة وراء الأخرى، والبنادق مصوّبة إلينا، وإلى مبانى كلية الحقوق فى مقدمة الربوة، وتناثرت تحت أقدامنا المتسارعة المتدافعة إلى الخلف، فوارغ الطلقات النحاسية الساخنة.

سرعان ما احتمينا بجدران الكلية، وسرعان ما انعقدت حلقاتٌ للنقاش والجدل ومواجهة الموقف العصيب.

من أين انطلقت الرصاصة؟

من الذى أطلقها غيلةً ومن وراء ظهورنا؟

كان واضحاً أن وراء الرصاصة تراث الإرهاب الفردىّ، تصيّد عساكر الإنجليز خفيةً، وعلنا، ومقتل السردار ومحاولات اغتيال مصطفى النحاس.

خطف بذهنى سؤالٌ سرعان ما اختفى: أين ذهبت الغدّارة

الإنجليزية؟ كانت مع القنابل الثلاث التى حملتها إلى حلمى الريّس؟
لم أجد إجابة عن هذا السؤال حتى الآن.
سرعان ما عرفنا أن البوليس قبض على الأساتذة والمدرسين الذين خرجوا إلى الطريق لمحاولة تهدئة الموقف.
كان الحصار قد أحكم نطاقه حول ربوة الجامعة، وفى هذا الحصار اجتمع قادة الطلاب-اليساريين والماركسيين وطليعة الوفديين- وصاغوا بياناً بالاحتجاج على الحصار وعلى اعتقال الأساتذة ووقع على البيان معظم أعضاء هيئة التدريس، ومن أولهم عميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال وعميد كلية العلوم الدكتور حسين فوزى.
ووصل البيان عبر التليفون إلى صديق أرسله إلى صحيفة الوفد المصرى التى نشرته بتوقيع أعضاء هيئة التدريس عنهم عبد العظيم أنيس.
هل كان حصار الجامعة فى ذلك اليوم من أبريل أم بعد ذلك؟ وهل كانت مظاهرة محرم بيه بعدها؟ أم قبل ذلك فى تلك الأيام الحاشدة الباهرة؟
لم يتصدَّ البوليس للمظاهرة عندئذ، لعل الأوامر لم تكن قد صدرت بعد. لم يكن ذلك هو اليوم الذى سقط فيه ضابط البوليس. امتزجت تلك الأيام وانصهرت فى يومٍ واحدٍ متعدد بلا زمن.
عندما خرجت المظاهرة الحاشدة إلى شارع محرم بيه اتسع نطاقها وتكاثفت صفوفها بانضمام جماهير الشارع إليها.
- النظام يا إخوان.. النظام .. تحيا مصر
لكن النظام كان قد انفلت، ارتفعت طوبة إلى مصباح الشارع فسقط زجاجه مهشماً، وانهالت الأحجار والزلط على أبواب الدكاكين المغلقة وواجهات المقاهى، فجأة رأيت عربة الترام الصفراء يهاجمها المتظاهرون، معظمهم من صبيان الحرفيين الصغار وأولاد حوارى راغب

وكرموز ومحرم بيه وقد تدفّقوا منطلقين من جحورهم المعتمة الرطبة إلى رحباية التمرد الفسيحة المزدحمة بالوطنيّين، الأولاد والرجال المقهورون أطلقوا العنان للغضب المكبوت ونزعات التدمير الكامنة فى النفوس المسحوقة ضد تجليات السلطة الغاشمة كما يعرفونها: مصابيح النور والتراموايات والمحلات.

من وسط الجموع المتزاحمة رأيت جماعة كبيرة من العيال قد احتشدوا بجانب عربة الترام، أنزلوا سائقها بالقوة، شدّوه من حلّته الرسميّة الصفراء، وصاحوا بالركّاب أن ينزلوا، ولم يكُن هؤلاء بحاجة إلى هذا النداء فقد هرولت الستّات بالملاية اللفّ والمدوّرة حول رءوسهن وبنات العائلات السافرات فى فساتينهن الإفرنجى القصيرة على الركبة والشعر المقصوص ألاجارسون والرجال الكُبّارة فى حالٍ من الدهشة والخوف ومزيج من التعاطف والإدانة، سارعوا جميعاً بالنزول، وهيه.. هيه.. هيلا هوب ترنّحت عربة الترام وتقلقلت ومالت ثم سقطت على جانبها وصعدت صيحة واحدة هيبه واندلعت شعلة من النار صفراء فى نور الصبح متراقصة ولها نفث حرّيف نفّاذ، وفى اللحظة نفسها وصلت ثلاث من سيارات البوليس المفتوحة ونزل منها الجنود بأحذيتهم الغليظة واصطفّوا بسرعة وكان الأمر موجزاً وحاسماً: اضرب يا عسكرى، انطلق الرصاص من البنادق ثم هجم العساكر بعصيّهم الغليظة وانهالوا يضربون دون تمييز ودون تردد: «إمشِ يابن القحبة إنت وهُوَّه.. إمش يا خوَل.. إمشِ يابن الكلب».

تناثر عقد المظاهرة وتفتّتت الصفوف وجرى الأولاد حفاة لا يعوقهم شىء جلاليبهم فى أفواههم، وهجمت مجموعة صغيرة من الطلبة على سيارة البوكس لكنها قبل أن تصل إليها انطلقت زخّة من الرصاص، سقط صديقنا عمرو لاشين قتيلاً وسقط معه الجرحى على أسفلت شارع محرم بيه، بينما كانت النار تتأجّج الآن ولها فحيح خبيث وفوْح شياط

حادّ من عربة الترام المقلوبة وصلصلة جرس سيارة الإسعاف الحمراء تتلاحق وتجلجل فى الشارع الذى خلا فجأة من كل أحد، وتناثرت عليه الأحجار والزلط وهشيم الزجاج وأجسام الجرحى فى دمائهم النازفة.

«دوائر غير كاملة الاستدارة أبداً تئنّ شوقاً للنهاية البداية بلا بدء ولا انتهاء. الأحشاء مصوَّحة تحترق السمندر الذى لا تناله النار يتلوّى بما يشبه المتعة أو النشوة بين لهاليب اللظَى، الثعبان يمجّ اللبن من فمه المفتوح، ليس الآن مدعواً للمجىء، بل هو مقيم، ميتافيزيقا اللحم تتحدّى الحلول والإجابات».

كانت الساعة الثامنة صباحاً يوم جمعة شاتٍ.

بهذا التبكير، جئت أرى صديقى قاسم إسحاق فى بيت «بحري»، لم أجده. طرقت باب شقّته على السطح بشدّة بالطريقة الشفرية التى اتفقنا عليها، ولا ردّ، ووجف قلبى، وقلت هل قبض عليه البوليس أخيراً؟ ما العمل الآن؟

فتحت أمّ ميخائيل التى كانت تسكن الدور الأول، بابها، من تحت، ونادت علىّ:

– يافندى، يافندى، صاحبك مشى إمبارح.

– مشى إزّاىّ؟ كده؟ وحده؟

– ما تخافش أمّال، ديهدى، إحنا مايخلّصناش نسيبوه، الرجّالة برضو وصّلوه لحدّة أوّل شارع خمستاشر، وسى شنوده شال عنّه الشنطة لغاية المحطة. وقفوا معاه لغاية ما خَد التراموای.

تصورت مَدَى الضغوط التى وقعت على صاحب البيت، من ناحية أو أخرى، ربما، وأرغمته على العدول عن اتفاقه معنا، وعن الجنيهات الخمسة الغالية والمغالى فيها جداً أجرة الشقة الصغيرة على السطح.

– لا مؤاخذه يا سيدنا لفندى، بقى صلّى على كامل النور، صلّيتْ على النبى؟ بقى إحنا برضو ولاد بلد ونعرفوا الأصول. وإحنا نشيلكو

في عينينا من جوّه ياراجل، لكن بقى العين بصيرة.. وأنت كلّك نظر. برضو البيت فيه حريم. آه. وما يخلاش الأمر من كده ولاّ وكده. الحُرمة من دول تطلع، تنزل، تيجي هنا، تروح هنا برضو ما يِخْلاش. واحنا بقي ولاد عرب، ودمّنا حامي. ما نقبلوش على دمّنا إنه يبقى في البيت طُلَبَة.. شباب يعني لوحديهم في البيت مع الحريم، داحنا كلّ من حاله بيدوّر على المعايش. الجرى ورا المعايش صعب يا سيدنا لفندى، والشرف برضو صعب، ما تآخذنيش، إحنا ما نقولش حاجة لا سمح الله. أبداً والله العظيم موش مُونْكِن، دحنا رتّابينا سدّادة، وانتو أولاد أصول. آه ما هو الكتاب يتقرا من علوانه، أمال، لكينى بقى لحديّية العرض وما نقدروش. طبْ دا أهل الحتّة كلَتَ وشّنا، وحياة سيدى المرسي، بقى لغاية كده ولأ. إسمع بقى يا سيّدنا لفندى، إحنا رجاله برضو وحنوصلُوك لغيّية برّ الأمان.»

في تلك الليلة عقدنا اجتماعاً طارئاً حضره عبد القادر وعبد الفتاح وأحمد النمس وقاسم إسحاق، ولم يأتِ فتوح ولا أبو الليل. وافقنا بالإجماع من غير نقاش طويل على الانضمام إلى زملاء الجامعة الذين قرروا الاعتصام غداً في الحَرَم الجامعيّ.

كان من برنامجنا المطالبة بالاحتفال شعبياً ورسمياً بيوم أول مايو، ليس باعتباره اليوم الذى تحشد فيه بلاد «المعسكر الاشتراكى» قوّاتها، بل احتفاءً بمناضلين عماليين كاد «العالم الشيوعيّ» ينساهما هما ساكوّ وڤانزيتي الأمريكيّيْن من أصل إيطاليّ اللذين أُعدما ظلماً، عقاباً لهما وتحذيراً لزملائهما النقابيّين، لمجرد إصرارهما العنيد على حقوقٍ نقابيّةٍ بدائيّة، وحين ثبتت براءتهما كان يوم إعدامهما هو يوم العُمّال.

كنا نعرف أن الدعوة قائمة لعقد مؤتمر عام لنقابات مصر، غداً، أول مايو، في نادى الشرقيّة، على ناصية شارعىْ كريم الدولة والأنتكخانة، وكان شاكر المريوطى مدعواً للاجتماع بصفته النقابيّة.

وحكى لنا – بعد أيام – كيف وقفت صفوف البوليس أمام مقر نادى الشرقيّة، وكيف حاصروا المنطقة وحالوا دون دخول أحدٍ على الإطلاق للنادى الذى أصبح الآن مقرّ حزب التجمّع.

لم أكتب محضر الاجتماع – كالمعتاد – فقد كانت جلسة «غير رسمية».

قال شاكر المريوطي: وجدنا الحصار مُحكماً، ذهبنا إلى بيت زميل كان طالباً في كلية الطب اسمه محمد يوسف الجندى، في شارع معمل البارود أمام قصر العينى.

قال: عرفت أنه كانت تعقد فيه أحياناً اجتماعات اللجنة الوطنيّة للطلبة والعمّال، لم يكن أمامنا إلا حجرتان ازدحم بنا المكان، كنا نحو مائتى مندوب تمثّل نقابات مصر، وجلسنا القرفصاء على الأرض وعلى الكراسى التى أحضرناها من قهوة قريبة.

قال: كانت حماستنا تفوق الوصف، البيت امتلأ بأصواتنا ونقاشاتنا ودخان سجائرنا، في موجةٍ من التصميم والعزم الذى لا يمكن أن ينكسر..

تكسّر صوته بنوبة سعال حادّة، انتهى منها وهو ينهج ويمسح فمه بمنديله الذى ابتلّ ببقعة حمراء صغيرة، أخفاه عنا ووضعه فى جيب بنطلونه على الفور؛ واستأنف:

– أعلنّا تأسيس «مؤتمر نقابات عمّال مصر» وقرّرنا الاحتفال بأول مايو عيداً للعمّال كلّ عام، مهما كانت قرارات الحكومة بمنع الاحتفال.

ثم أكمل: وكان من أول موادّ برنامجنا، طبعاً، مطلب الجلاء الناجز الفوريّ عن وادى النيل والاستقلال التامّ على كل المستويات السياسيّة والاقتصاديّة، وانتخبنا اللجنة التنفيذيّة، أذكر الآن منهم أسماء حسين كاظم، ومحمود عبد الحليم، ومراد القليوبى، ويوسف المدرك، وطه سعد عثمان، ومحمود العسكرى، وعبده زهران وغيرهم طبعاً.

سأله أحمد النمس: هل كان في الاجتماع من يمثّل المرأة العاملة؟

خيّل إليّ أن في صوته نبرة مكر أو ضربة صغيرة تحت الحزام مسدّدة إلى قاسم إسحاق.

قال شاكر: نعم كان في الاجتماع عدد من الزميلات ربما خمسة أو سبعة، كان أبرزهن عاملة من مصنع كرموز هنا، اسمها زينب، وكان لها تأثير كبير.

قال أحمد: لماذا لم تُضمّ إلى اللجنة التنفيذيّة؟

ردّ شاكر بشيء من اللامبالاة فيما يخيّل إليّ:

- اعتذرت بمشغولياتها في إسكندرية وقالت إن الوقت لم يأت بعد لقبول امرأة في التنظيمات التي لها صفة سياسيّة فضلاً عن صفتها العماليّة، قالت ربما يثير ذلك تأويلات عن سوء النيّة أو سوء الفهم من الجهات المحافظة التي لاشك في وطنيتها مع ذلك.

ثم قال: وافق الاجتماع من غير حماسة.

سكت قاسم إسحاق وإن كان وجهه الداكن قد شحب قليلاً، لم يكن شاكر يعرف شيئاً عن زينب، فقد كان نظام الاتصالات العنقوديّة وشروط الأمان مراعاةً عندنا بشيء من المرونة ولكن بشيء من الدقّة والصرامة معاً.

كان ثمّ سؤالٌ لم يشأ أيٌّ منا أن يوجهه إلى شاكر المريوطي: «لماذا لم تُضمّ أنت إلى هذه اللجنة التنفيذيّة لمؤتمر عمال مصر؟»

وكأنما بحدْس المحتضرين أحسّ بالسؤال، فأكمل، وفي صوته نبرة من المرارة حاول إخفاءها بشجاعة:

- كلّهم أصدقاء أعزّاء، ولي منهم زملاء اشتركنا معاً في جولات من الكفاح، وعرفنا السجن معاً.

ثم سكت.

كان صمته عن هذا الجانب جديراً بالاحترام.

لكن فتوح القفّاص لم يسكت.
اندفع - كعادته - بصوت مفاجئ وعالٍ يوشك أن يكون ثاقباً:
- هل كان مطلب الاستقلال الذى أكدته اللجنة التنفيذيّة لمن تسمّيهم «مؤتمر عمّال مصر»، يعنى أيضا الاستقلال عن كل القوى الأجنبيّة، بما فيها دول ما يسمّى «المعسكر الاشتراكىّ»؟
نظر إليه شاكر المريوطى بشيء من الحزن، والعتب، قال بصوت خفيض: أنت تعرف يا زميل أن الوقت غير مناسب لمثل هذا المطلب بل ربما كان من الحكمة وحسن التكتيك ألا نعادى حليفاً مؤكداً ضد الاستعمار.
فهتف فتوح القفّاص منفعلاً، والرذاذ الخفيف يتطاير من فمه:
- الاستعمار الايديولوجىّ أفدح وأضلّ سبيلاً..
ردّ عليه قاسم:
- نعم، موافق يا فتوح، هذا صحيح بالنسبة لنا، وسنظل نطالب به، فقط ليس الآن وقته وليس فى اجتماع لتأسيس مؤتمر لعمّال مصر على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والسياسية.
صدر عن فتوح ذلك الصوت المعتاد عندما يفحمه أحد، صوت يقع ما بين أن يزوم أو أن يتهانف بضحك مكتوم ثم نهض واقفاً وخرج من الغرفة دون أن يستأذن، لكن لم يغادر البيت، بل وجد لنفسه كرسيّاً فى الفسحة، جَلَس وفَتَح كتاب «الفوضويّة» لهربرت ريد وقد بدأت صفحاته تتغضّن، وظهرت بُقع داكنة على غلافه.
بعدها بسنة كاملة كتب سعد التايه فى «السفير» العدد نفسه ٣٨ مكرر عام ١٩٤٧، باروديا يحاكى فيها كتابات أحمد الصاوى محمد فى عموده الشهير «ما قلّ ودلّ»، وفكرى أباظة فى «ملحوس المصوّر» وحسين فوزى فى السندباد البحرى، وتوفيق الحكيم بعنوان «**حمارى يحصل على الليسانس**»:

«عاد حماري بعد غيبة طالت أربع سنوات لم تغير الأيام منه سوى شارب متهدّل على ثغره ونظرة تائهة. جلست إليه كما يجلس الحواريّ إلى أستاذه، أسمع منه أحاديث الجامعة وقد بعد العهد بيني وبينها، فلم أدرك الجامعة الحديثة ولا الانقلاب الخطير، جلوس الطالبات والطلبة معاً إلى الدرس..

تأمّلت حماري فإذا به واجم صامت. فلعب الشكّ بنفسي. أتراه خاب فعاد، أم نجح، ولكنه حمار... قطعت حبل الصمت وسألته:

– أأستطيع الآن أن أناديك، بأستاذي الحمار؟

– نعم ولي الفخر.

– إذن فقد نجحت وحصلت على الليسانس؟

– ألا تراه معلّقا حول رقبتي؟

–عفواً ظننتها حلية البردعة، فعهدي بالشهادات تحفظ في العقول، لا للاستعمال من الظاهر..

– ولكنها بدعة اليوم، فالشهادات العالية أصبحت وسيلة النفخة الكذابة والثرثرة بالألفاظ الطنّانة.

– يا خسارة صرفي عليك، عدت كما ذهبت، رأس جامد وخلق عنيد. ألم تغيّر دراستك الجامعيّة من فلسفتك هذه؟

– دراستي الجامعيّة؟ أو تظن يا حكيم أن هذه المحاضرات التي تملى إملاء والتي ينجح الطالب إذا حفظها عن ظهر قلب تغيّر من طباعي؟

– إذن ماذا أفادتك دراستك طوال هذه السنين الأربع؟ لا أخالك إلا كسولاً قضيتها في ملء معدتك!

– مهلاً، مهلاً. لقد كنت في الجامعة صحفيّا وزعيما سياسيّاً.

– ويحك. زعيماً سياسيّا، أو ركبك الغرور؟

– لا والله يا حكيم، ما ركبني الغرور لم يركبني إلا المغرورون.

– وما خبر زعامتك؟

– هي بدعة البدع في الجامعة. ما من خطيب وما من مهرّج وما من

هتّاف إلا وأطلق على نفسه ألقاب الزعامة واتخذ سيماءها واختال متبختراً مزهوّاً بزعامته.

- أخزاك الله يا حمار، آه لو سمعك زملاؤك لرجموك.

- لا بل لاتهموني بأشنع التهم، عين السلاح، زعماء الأحزاب يتهمون بعضهم بعضاً وزعماء الطلبة يشنّعون عن بعضهم بعض».

ختم سعد التائه صفحته بباروديا أخرى:

محاضرات اليوم:

- يلقى صادق بك جوهر محاضرة عن مجانيّة التعليم وأثرها في فقر الأغنياء وذلك بسراى الأمير عمر طوسون.

- يلقى البكباشي.......... محاضرة موضوعها: كيف نحارب الطلبة الوطنيّين وذلك بسجن المحافظة.

حِكَم

- اكتبوا على أبواب الجامعة «للأغنياء فقط»

مناظر مؤذية:

- منظر البوليس السياسي المُعسكِر خارج أبواب الكليات

سعد التايه. عندما التقينا في القاهرة بعد ذلك بنحو تسع سنين، في عام ١٩٥٦، وكان عندئذ ينهض بعبء جسيم في إصدار صحيفة «الأهالي» الوليدة، سرَتْ بيننا تلك الومضة الكهربائيّة الفوريّة من المودّة والإعزاز والاحترام، كان موته بعد ذلك بسنوات طعنة نافذة في القلب لا تقلّ حدّتها عن طعنة موت خليل الآسي وإبراهيم عامر، وفيليب جلاب.

في صباح أول مايو ذهبت للجامعة مبكّراً جداً، كانت السماء الإسكندرانيّة مازالت على صفائها المضيء بزرقتها الخفيفة، ومازالت نسمات الربيع الصباحيّة تهبّ بنا، لم تتسرّب إليها حرارة مايو ولا حُميّا الغضب.

كان الشارع الذى تطلّ عليه ربوة الجامعة خالياً، محلاّت بيع الفول المدمّس والكراريس والمطابع اليدوية الصغيرة ومحلات تجليد الكتب وبيع الروايات والمراجع كلها مغلقة، والهواء يطير بأوراق جرائد قليلة على الأسفلت.

صعدت إلى الجامعة عن طريق السلّم الذى كان بابه يومها مفتوحاً، وحتى ضابط الحرس الجامعىّ، والعسكرى الذى يعاونه لم يكونا فى مرمى البصر.

كان ذلك منذراً، ومع الصمت التام كان ثمّ توتّر فى الشارع وفى ساحة الجامعة التى ارتقيت إليها وليس فيها إلا بضع طلبة قلائل يتحدّثون معاً بصوت خفيض.

وما مرت نصف ساعة أو أكثر قليلاً حتى ازدحمت الساحة والمدرّجات والحدائق بالطلبة الثائرين الغاضبين.

كانت الكلمة المفتاح التى تتردد على كل الألسنة: «الاعتصام الاعتصام حتى تتحقق المطالب الوطنية، ويتمّ الجلاء، وتسقط حكومة الخيانة».

اختلطت الهتافات الجماعية والصيحات الفردية: «تحيا مصر.. الله أكبر.. العزّة لمصر.. لا مفاوضه إلا بعد الجلاء.»

«عمرو يا لاشين إحنا وراك ماشيين.. يسقط الاحتلال والاستغلال، لن تذهب دماء الشهيد هدراً، الاعتصام حتى الموت أو الجلاء.»

جاءنى أحمد النمس، وشوقى محمود، على وجهيهما وفى سلوكهما ومشيتهما سمات من التوتّر والجديّة:

– وصلتنى أخبار مؤكّدة أن الجيش سوف يحاصر الجامعة ويمنع دخول أىّ أحد، ويأمر الطلبة بالخروج. فهل نقبل ذلك؟ ما العمل؟

قال أحمد النمس، هامساً وقد أخذ بذراعى إلى جنب:

– أعدك بشرفى الثورىّ أننى لن أقول لأحد أعطنى المفتاح، هاتُه وقل

لى فقط ما العنوان؟ ثق بى، أليس بيننا ثقة كاملة؟

قلت: نعم، بالتأكيد.

خطر ببالى على الفور أننا سنضطر إلى تغيير الغرفة، لا بأس، لافتات «للإيجار» كثيرة. ولكنى لم أكن مقتنعاً، لم أوافق على شيء، ولكنى لم أرفض، صراحةً.

تركانى وابتعدا بسرعة، وعندما عادا بعد نصف ساعة، فقدت أثرهما، لم أستطع أن أعثر عليهما فى خضمّ دوّامات من مجموعات الطلبة المتزاحمة التى تفترق وتتفكّك ثم تلتمّ سريعاً وتتكاثف.

خطر لى: أحمد عنصر لا يمكن الاستغناء عنه، وهو ليس زميلاً فقط، بل توثقت بينى وبينه صداقة تنمو كل يوم وتزداد رسوخاً.

قلت: صحيح أنه مندفع، ومسيطر، ومع إيمانه وصدقه وحسّه الحادّ بحتميّة الثورة على الظلم وحتميّة الكفاح من أجل العدالة فلعل نزعة السيطرة على الآخرين وتأكيد الذات مشتهاة وضرورية لتوازنه النفسى.

قلت فى نفسى: الوفاء للمبدأ والالتزام بالمسئوليّة - كما يراها ويتصوّرها بالطبع - قوّة حافزة تدعم نزعة السيطرة وإثبات الذات.

وتساءلت: ألعل هذا يترتب عليه أن يتزعزع أو يزول احترامه للآخرين - أو لمن يبسط عليهم جناح النفوذ وله معهم الكلمة الأخيرة - كأنهم ليسوا موجودين، هم، كأفراد وذوات وكيانات مستقلّة، بل موجودون، ربما، كأدوات.

كان شوقى محمود وحلمى الريّس كلاهما يعبده عبادة، هما مادّة خام صالحة لأن يسخّرها هو لما يريد.

قُلت: هل احتقاره للضعف وللضعفاء بحجّة الحفاظ على قوّة الكفاح مقدّمة ضروريّة لما يمكن أن يتحوّل إلى نوعٍ من الإبادة، هل سحق إرادة الآخرين تمهيد ضرورىّ لسحق وجودهم نفسه؟

تساءلت بمضض: هل نستطيع نحن جميعاً معاً أن نحول دون أن

يحدث ذلك في المستقبل؟ هل نحول دون أن يتحوّل أحمد النمس، وكلّ أحمد نمس آخر، على كلّ دعواه بالديمقراطيّة، إلى ستالين صغير أو زدانوف صغير آخر؟

قلت لنفسي: أليس هذا إغراقاً في التشاؤم والتكهّن بالغيب؟

هو الآن عزيز إليّ - منذ متى وقف الإعزاز حائلاً دون السيطرة بل دون القتل؟ - ميزاته لا تُعوَّض، فهو مع قاسم إسحاق خطيبنا المفوَّه القادر على انتزاع انتباه الناس وإسماعهم صوته وإقناعهم أحيانا كثيرة بما يريد. ولعله اكتسب ذلك من فترة انضمامه السابقة إلى الإخوان المسلمين وعلى التحديد إلى جناح إرهابيّ صاخب الصوت من أجنحتهم.

قلت: هل واقعيّته وسلوكه البراجماتيّ الواضح مفيد أم يجعله محدوداً ويقلل من فعاليته الثوريّة؟ ولم أستطع أن أقطع - هنا - بالنفي أو بالإيجاب.

قلت: أهذا الذى لم أعترض عليه بل تواطأت فيه يدخل فى نطاق العمل الثوريّ المشروع المحتّم فى حدود المقاومة التى تمليها وتبررها الظروف وتضطرنا إليها إذ نضرب قوى القمع؟ أم تأتى فى نطاق الإرهاب الفرديّ، أو المغامرة البلانكيّة غير محسوبة العواقب؟

كنا نتغدى فى مطعم صغير بالقرب من مقرّ اليونسكو فى باريس.

قال لي: أنت تثير فيّ بعد سنوات طوال جوانب وخواطر طالما تراءى لى أن أصرخ فى الناس معلناً إياها.

قلت: اصرخ يا أحمد اصرخ بأعلى صوتك.

قال: يبدو لى وأنا فى خريف عمرى أنى لا أقوى حتى على الصراخ. لم يبق إلا أن أستسلم لليأس الهادئ الحزين.

قلت له: ألا تذكر أننى فى آخر مرة التقيت بك فيها أنت سألتنى «هل تفهم أصل الحكاية»؟

قال: وأنت رفعت يديك الاثنتين فى حيرة، وقلت «أبداً». مازال هذا

اللغز يؤرقنى وعدم الفهم يزيدنى أرقاً.

قلت : سنظل مؤرَّقين.

قال : يظهر أنه لا جدوى على الإطلاق من محاولة الفهم ، معذرة عن التفلسف .. !

لكنه لم يكفّ عن محاولة الفهم - ومحاولة الحبّ - وقف صلباً يقاوم علّة القلب المنهك ومات واقفاً ، فى الغربة .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ، سمعنا من راديو معمل كلية العلوم دقّات ساعة جامعة فؤاد الأول . ساحة الجامعة وممرّاتها وحدائقها تموج بالطلبة تلتئم جموعهم وتنفضّ ، ويقوم بينهم خطيب وراء خطيب ، عندما جاءت سيارات الجيش المصفّحة والدبّابات وأطبقت على الجامعة ووقف عساكر الجيش يسدّون كل المنافذ وانتشرت صفوفهم حول الربوة من النواحي الأربعة ، رأيناهم يحولون دون دخول أىّ أحد إلى الجامعة .

رأيت أحد الطلبة يغافل العساكر على سبيل الشيطنة ويمرق بينهم ويتسلّق الربوة المعشوشبة بالنجيل النضير ، وهم يهتفون من تحت : «انزل ياولد .. انزل يابن الكلب» حتى وصل إلى أعلى وقفز من بين قضبان السور الحديدى واستقبله زملاؤه بصيحة انتصار واحدة «هيه - يحيا اتحاد الطلبة» .. وجاء الردّ من مجموعة صغيرة : «يحيا اتحاد الطلبة مع العمّال ، يحيا اتحاد الطلبة مع الجيش الوطنى .. تحيا مصر ..» .

عندما أخذ التعب بمجامع البعض ، على الساعة الرابعة أو بعدها وأخذوا يتسللون بهدوء على الطريق الدائرىّ تركهم الضباط يخرجون بسلام وعندما أخذت عتمة آخر العصر تحلّ لم يعد فى الجامعة إلا عدد ليس بالقليل ولكنه ليس بالكثير أيضًا .

كنا قد بدأنا نحس الجوع فلم نكن قد ذقنا شيئاً منذ الصباح .

هل كان يومها أن حفرنا للشهيد عمرو لاشين قبراً في ساحة الجامعة

وسهرنا حوله والشموع الكبيرة مضاءة حواليه أم كان ذلك منذ أيام؟

وهل مرت علينا أيام ثلاث فى نطاق الاعتصام والحصار؟ أم هو يوم طويل لا ينتهى؟

لم يكن الماء الذى شربناه مباشرة من الحنفيات إلا دافعاً لنا للإحساس بمزيد من تقلّصات الجوع.

كانت نوافذ البيوت عبر شارع طنطاوى جوهرى المحاذى لربوة الجامعة مفتوحة، ومازالت الرؤوس تطلّ علينا وعلى الدبّابات والمصفحات صفراء كابية اللون رابضة فى الشارع تحاصرنا. وكان فى النوافذ بنات وستّات بقمصان النوم وجلاليب البيت وكان حرّ مايو قد بدأ يثقل على الناس وفى حموة ما تصورنا أنه المعركة خلعنا الجاكتات وشوّرنا بالمناديل للنوافذ التى جاءت فيها الآن بوضوح نداءات ودعوات: ربنا معاكم يا ولاد.. ربنا ينصركم على من يعاديكم ويكتب لكم السلامة يا ضناى أنت واللى زيك.

جرؤ بعض من عضهم الجوع فأشار إلى فمه إشارات لا تحتاج إلى بيان، وعلى الفور أدرك الناس فى النوافذ ماذا يعنى الأولاد.

وما هى إلا دقائق معدودات حتى تطايرت عبر عرض الشارع وعبر انحدارة الربوة ربطات ملفوفة بالجرائد والفُوَط سقط بعضها على الأسفلت وعلى عشب الربوة ووصل بعضها إلى حافّة الساحة حيث تلقّيناها بصيحات الترحيب، وتدحرج الأولاد الجدعان عبر الدحديرة لاستنقاذ سندويتش اثنين ثلاثة، ونجحوا فى التقاطها وقد تمزقت أوراق الصحف التى أحاطتها. ولحقها تراب تناثر الأعشاب ولكن ماذا يهمّ؟ كان مرح المغامرة واستثارة الموقف كله بهيجاً وما عاد من المهم أن نأكل العيش بالجبنة البيضا بشىء من التراب أو حتة فرخة التصقت بها أعواد العشب أو حتى حلاوة طحينية ممتزجة بورق الجرنال، وعندما حلّ الظلام أخيراً ساد توجّس بالوحشة والعزلة وكان الصمت وقد ساد فجأة

بعد صيحات اللعب والمرح يأتينا بحسٍ كأنه الإحباط أو التثبيط.

في الفترة الحرجة التي تعقب حلول الظلام سمعنا أصوات هدير عجلات الدبّابات تتقدّم على الطريق الدائريّ وهدير محرّكاتها يختلط بهدير محرّكات المصفّحات.

كان الموقف عصيباً، القوات المتقدمة تحت جنح الظلام لن ترحم أحداً، سوف يزّج بنا جميعاً في السجون، تخشيبة المحافظة تتناثر عنها الأخبار الرهيبة، ماذا سوف يحدث لنا والامتحان قد أصبح وشيكاً وهل تضيع علينا السنة؟ لا تهم أية تضحية في سبيل الوطن، نعم، ولكن بكرامة واعتزاز، أما الامتهان والتحقير الذى سوف نلقاه فإننا نرفضه.

الدبّابات تتقدم ببطء.

سمعنا دوّى زخّات الرصاص المسدّدة عبر الربوة المنحدرة والمصفّحات صاعدة إلى أعلى.

ثم جاءت المفاجأة.

كان صوت ارتطام القنبلة بأسفلت الطريق، على بُعد أمتار من الدبّابة الأولى، مكتوماً.

تحت الوميض الناريّ الخاطف يبرق متشعّثًا وتتطاير منه شظايا دقيقة متناثرة في كلّ اتجاه.

توقّفت الدبّابة عن الحركة، لم تكن الشظايا قد لحقتها بسوء لكنها كانت علامة منذرة.

تتالت انفجارات مكتومة، ثلاثة انفجارات في نفس الموقع.

بعد قليل من الترقّب والصمت المشحون دوّى انفجارٌ رابع، صدر عنه ومضٌ صغير سريع ثمّ صوتٌ ثاقب، مختلف ومفاجئ.

قالت «السفير» في عددها التاريخيّ:

«أقبل الليل والإسكندرية تتلقف الأنباء عن أبنائها المحَاصرين وبدأت قوّات الجيش تتقدم لتقضى على الشباب في معقله».

«ألقيت القنبلة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة .. وكان دويّاً جبّاراً أدرك آذان الاستعمار ..»

«ألقيت القنبلة الأخيرة».

ارتدّت قوات الجيش خارج الجامعة ورُفع الحصار وخرج الشباب مرفوعي الرأس».

قلت: من أين جاءت القنبلة الرابعة؟

تراجع العساكر واصطفّوا على جنب الشارع، وهبط سعفان وحسين وسمير حنّا على السلّم الأماميّ، ومرة أخرى أقسم لهم البكباشي بشرفه العسكريّ أن الحصار قد رُفع وأن الأوامر قد جاءت بأن يُسمح للطلبة بالخروج دون عائق وبعد مفاوضة قصيرة وافق البكباشي على أن يقف مع وفد الزعماء معاً أمام السلّم، بحيث يراهم الجميع معاً وبحيث يضع نفسه - في حقيقة الأمر - تحت تصرفهم دون أن يعترف بذلك طبعاً وحفاظاً على كرامته.

قال لهم فيما يشبه الاعتذار إن الأوامر قد صدرت إليه وإنه باعتباره رجلاً عسكرياً كان عليه أن ينفّذها حتى إن لم يكن مقتنعاً بها أو موافقاً عليها، قال لهم يا أولادى أنا لست أقل وطنيّة منكم، نحن لا نطيق وجود قوات عسكرية أجنبية على أرض مصر، وقف إلى جانبهم، على بعد خطوات قليلة منهم، وبدأ الطلبة في النزول من السلّم، ومن على الطريق الدائريّ الذى بدا خالياً آمنا ومفتوحاً.

وفي دقائق كان مسرح المعركة قد خلا من الطلبة تماماً، صافح وفد الزعماء قائد القوّة وأشادوا بوطنيّته.

ساد صمت مطبق على القوات العسكريّة المحاصِرة.

الفصل التاسع

قرأنا تصريحات المسئولين أن حكومة جلالة الملك چورج السادس قد قرّرت أن تُجلى قوّاتها من المدن الكبرى، وأن وجودها بالقنال مرهون بالمفاوضات النهائية لعقد معاهدة تحدد العلاقة بين حكومة جلالة الملك فاروق الأول وحكومة جلالة الملك چورج السادس.

ولم نكن نعرف متى تجلو القوات الإنجليزية عن الإسكندرية، عن تلّة معسكر مصطفى باشا على البحر، وتلّة كوم الدكة المطلة على محطة مصر.

الآن ألاحظ فقط أن فتوح القفّاص لم يشترك معنا فى أية مظاهرة، لم يُسهم معنا فى أية مهمّة، كان صديقًا حميمًا لقاسم إسحاق، وكان هو الذى فاتحنى - مع زمالتى لقاسم إسحاق - فى شأن ما سمّاه جماعة الكفاح ضد الاستعمار والملكية والإقطاع، وفوجئت بأن قاسم إسحاق هو الذى «يرأس» هذه الجماعة، وعلى الرغم من أنه بادرنى بالموضوع، ربما لأن قاسم كان يعرف ميولى الشاعرية والفنية واستغراقى القديم فى الإيمان القبطى الأرثوذكسى ثم رومانسيتى وقد حدس دون أن يعرف تفاصيل حبى الأفلاطونى المعذّب لزميلتنا نوريس فخرى ولعله كان يتصور أننى لن أقبل الانضمام.

أما فتوح فكانت صداقته لى شيئًا آخر.

«عندما التقيت بفتوح القفّاص سحرنى منه على الفور، أنه بوهيميّ المظهر والسلوك، نسيج وحده، كما يقال. كان فريد الطراز، لا يقيم وزنًا لأىّ من التقاليد أو المواضعات المألوفة.

كان ـ مثلا ـ في عزّ الشتاء يمشي بجاكتة سپور، بقميص مفتوح من غير بلوڤر، شعره أجعد وأشعث داكن السواد وغزير. وفي يده ـ دائماً ـ كتاب عربي أو إنجليزي، غالي الثمن مما كان يستعصي علينا أن نقتني، نحن الذين في الجامعة بينما هو يعمل، بدبلوم التجارة المتوسطة، في شركة البيضا، بكفر الدوّار، يسافر إليها من الإسكندرية، ويعود، كل يوم. سرعان ما توثّقت بيننا الصداقة.

كان ـ ومازال ـ تستطيره الأفكار (أفكاره هو) فيستشيط ويشتعل حماسه ويقذف بنفسه في جدل حامٍ مع نفسه أو مع غيره يعلو فيه صوته، بطيبة قلب أو بشيء من السذاجة حتى، ويتناثر من فمه الكلام والرذاذ، ولم يكن عنده من كلمات السبّ أو الإدانة غير كلمة واحدة: «يا حيوان!» حتى لقّبناه بها، وكنا نحييه بها، ونرد على مجادلاته ومشاكساته بها : «يا حيوان!» وهو يبتسم عندئذ، أو يتهانف بضحك خافت متردد إذ يخفض عينيه كأنما هو سعيد بالمداعبة أو على الأقل راضٍ بها.

وكان من مرتّبه في «شركة البيضا» يعول أسرة أبيه ويعلّم إخوته في الثانوي والجامعة ويشتري الكتب الثمينة.

وبينما كان حذاؤه الضخم واضح الترقيع وواضح أنه أضيف إليه نصف نعل ربما عدّة مرات، وتشقق جلده، وعليه آثار طين ومطر قديم لا تزول، كان يشتري كل أسبوع تقريباً نصف دستة كتب إنجليزي غالية من مكتبة ڤيكتوريا في شارع سعد زغلول، وله فيها حساب جارٍ فتحوه عن طيب خاطر لهذا الزبون النادر، وكان لا يفلت من نهم قراءته كتابٌ في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو الشعر أو الاقتصاد على السواء.

قرأت منه، مثلاً «آلة الزمن» لـ هـ. ج. ويلز، في طبعة مجلّدة بغلاف بُنّي مذّهب الكعب، وترجمات بالإنجليزية لروايات أناتول فرانس،

و«دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية» لجورج برنارد شو، و«سندباد مصرى» لحسين فوزى يوم صدوره، وغيرها كثير.

هل كان ذلك فى ١٩٤٢؟ عرفت أنه اشترى «العالم الجديد الجرىء» و«بلا عينين فى غزّة»، و«نغمة ونغمة مضادّة» لألدس هكسلى ولمّا كانت تفتننى ـ حينئذ ـ كتابات هكسلى ألحت له أن أستعيرها منه، فقال ببساطة: «تعال معى خذها من البيت».

كان بيتهم فى شارع الإسكندرانى.

وأيامها لم نكن نتحرج من زيارة أصدقائنا فى أى وقت ظهراً أو ليلاً لا فرق.

كنا فى عز الظهر، مدخل البيت القديم العالى نظيف، رخامى، السلالم تلمع ناصعة النظافة وهادئة، أبواب الشقق مغلقة على ساكنيها، روائح طبيخ الغداء: نفث تقليّة الملوخية أو نفحة تسبيكة البامية تتسلل من سرّ البيوت المكنونة على أصحابها. كان محرم بيه أيامها فيه هبوة أرستقراطية باقية، غير بيتنا فى راغب باشا حيث أبواب الشقق ليست ضخمة ولا عالية محكمة، بل رقيقة الخشب وموارية فى الغالب تسمع من ورائها وأنت طالع السلم الضيّق المعتم كل ما يدور خلفها، لعب الأولاد وزعيق الأمهات ودعاءها على مقاصيف الرقبة المعجونين بمِيّة العفاريت وطشة الباذنجان المقلى أو نفحة السمك المشوى بالرضّة على وابور الجاز الذى لا تخطئ فحيحه القوى المنتظم.

وإذا كنا نصعد أنا وفتوح القفّاص سلالم بيتهم فى الإسكندرانى، تتعاقب الأدوار ولا نصل، لم يكن قد قال لى فى أى دور سُكناهم، وكنا منهمكين فى نقاش ـ أخذت أنفاسه تتقطّع قليلاً، على حموة الصبا ونشوة المجادلة ـ حول عدد سكان مصر عند الفتح الإسلامى، تقديراً على الجزية المفروضة على القبط، أى على سكان مصر كلهم، وهل كانوا أربعين ألف ألف أم عشرين ألف ألف، باحتساب قيمة الدينار

نسبة إلى الجنيه المصرى الآن، وكانت الحسبة كلها تكنيكية علىَّ جدًا، حتى وصلنا إلى الكات الخامس أو السادس، وإذا بنا أمام باب السطح، وإذا نحن على سطح البيت، فسيحًا، مبلطًا ببلاط ممسوح حديثًا، وإذا بيتهم هو بالضبط هذا: غرفة واسعة على السطح، فيها كل شيء.

وفيها قبل كل شيء مكتبة عامرة لم أكن قد رأيت مثلها فى أى بيت من بيوتنا، أرفف خشبية مفتوحة متعاقبة محمّلة بالكتب العربى والإنجليزى منها المجلّد النادر المنال، ومنها روايات الجيب، وعلى الأرض رصص المجلات الأسبوعية والشهرية: الرسالة والثقافة وأپولو والهلال والمقتطف والاثنين وكل شيء والدنيا.

على الأرض المبلّطة كليم وعليه مرتبة عريضة، وكرسى أو اثنان خيرزان ومائدة مثقلة بالكتب، وزجاجات الحبر، والرِيَش الخشبية مختلفة الألوان بعضها قد جفّ الحبر على سنّها الرفيع، فى الركن كرسى حمّام خشبى منخفض، وطبلية مدوّرة خشبها مشرب ببقع زيت لا تنجاب، وطشت كبير من نحاس أحمر مصقول، ووابور الجاز المختوم، وحلل الطبيخ جنب الحائط، وقصريّة غير بعيدة، وسائر عدد الحياة البيتيّة الحميمة مكشوفة عارية، جلاليب وفساتين معلّقة على تلك المشاجب القائمة ذات الفروع الملتوية المتعددة، كأنها قرون غزلان أو أغصان مقوّسة حسنة التدوير، ودولاب ضخم بمرآة بلچيكى عريضة تعكس الغرفة كلها، وتكرّرها فى داخلها، وتعطيها سعة أخرى، فى آخرها المكتبة العتيدة وكنوز الكتب البعيدة.

قابلتنا أخته بملابس البيت الكستور الواسعة، شعرها ملفوف بمدورة بيضاء مغضّنة، وراعتنى منها عينها الواحدة صفراء خضراء، مثل عينى فتوح نفسه، حادّة ونفّاذة البريق، فى وجه آسرٍ سَمْحٍ مع صلابة خطوط عظامه القوية.

كان واضحًا أنها هى التى تقوم بمهمّات ربّة البيت، ومسئولياته

الثقيلة، كل شيء كان مفاجئًا بمعنى ما، ومتوقعًا في الوقت نفسه.

هذه الغرفة، في مرآتي، ليست تكراراً ولا انعكاساً. ماثلة الآن، وبلا زمن، لها وجود فريد.

هذه الغرفة، وفتوح، والكتب، وأخته، وأدوات الحياة.

عندما زرته بعد ذلك - بسنين - وبعد زواجه بتلك البنت المغربية الأصل رقيقة الجسم حادّة الروح كالسكين (كان قد هجر أوديت بعد حكاية لقاءات - وغراميات؟ الله أعلم! - ذائعة الصيت) في شقّته الأنيقة بورجوازية الأثاث، تقليدية عادية، كانت المكتبة الخشبية الأرفف المفتوحة قوية العضل قد حلّت محلّها خزانة الموجني الغالي ولها واجهات بلّورية تخطف البصر حوافّها مشطوفة تعكس أضواء النجفة الكريستال الكبيرة بومضات زرقاء صفراء وفضية، وبينما جلست في فوتيّ الطقم المذهّب وغاصت قدماى في السجاد كثيف الوبر، لمحت بعضاً من الكتب القديمة التي أحببتها، هناك، وراء الزجاج السميك، أغلفتها شحبت ألوانها، حوافّها تآكلت قليلاً من القراءة وعرق اليدين والاستخدام العنيف، أثناء الأكل ربما وفي الترام وفي القهاوى، وفي التواليت، لم تعد زيّ زمان جديدة وبكراً ومقروءة أولاً بأول، يمكن، لكنها مازالت تراث الصبا المذخور.

لا أرثي لنفسي ولا أنكرها.

«الفؤاد صعبان عليه..» فقط.

صخور الأشياء - وما في داخلها - حادّة السنان، ماثلة الآن بقوّة، ليست ذكريات - كما لا أني أعيد وأزيد - بل هي بكر، حارّة الحضور، لم تتثلّم فيها حافّة واحدة، لم يخفت لها وقيد».

عقدنا اجتماعات مطوّلة غاب عنها فتوح القفّاص وعلى أبو الليل استقرّ فيها الرأى على تنظيم المظاهرة التى لابد سوف تخرج بعد جلاء الإنجليز، وعلى نوع الهتافات التى يتولّى عبدالقادر وأحمد وقاسم

سلامة وشوقى محمود ترديدها بأصواتهم الجهورية وبطريقة منظّمة.

وكان منها «لا رأسمالية بعد اليوم.. يسقط عبدالهادى وصديق عبدالهادى» (عبدالهادى رئيس الديوان الملكى) «لا استغلال بعد اليوم، يسقط حكم الباشوات. لا جلاء إلا جلاء الإقطاع».

وكان المتفق عليه أن نقطع الطريق أمام هتافات الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والسعديّين وأضرابهم وأن نرفع أصواتنا على أصواتهم وأن نشوّش عليهم ونقتحم هتافاتهم.

في الصباح الباكر، ذلك اليوم، خفق قلبى فرحًا، وطارت به لحظة سعادة فجائية وخيّل إلىّ أنه توقف لحظة عن النبض، من المفاجأة.

كان العَلَم البريطانى لا يرفرف فوق تلّة كوم الدكّة.

ولم يكن ثمة حرس بريطانى من البوليس الحربى يقف كالمعتاد شاكى السلاح أمام أول الطريق الأسفلت إلى الربوة.

كان بعض المارّة يتقدمون بشيء من الحذر إلى أول هذا الطريق، ويغامرون بالسير فيه قليلا، وبدأت جموع قليلة متناثرة من الناس يصعدون على أول الطريق بدافع الفول ربما أو بلهفة الرغبة في التحقّق من أن عساكر الاحتلال قد مضوا بالفعل.

دخلت فى غمار الناس الصاعدين فى بهجة كأنهم فى عيد، لا شيء، كلما صعدنا وتوغّلنا وجدنا الشكنات على الجانبين خاوية ليس فيها شيء على الإطلاق إلا قليل من بقايا القشّ الذى يستخدم فى تعبئة الصناديق وتغليف المعدات، وأوراق ممزّقة تدفعها نسمات الهواء الطليق بين أقدامنا.

لم يدهشنى أننى التقيت بعبدالقادر ثم أحمد وسلامة بقامته الشامخة وعوده المنصوب على جلابيّته الفلاّحى، وكان طنين الجموع قد بدأ يرتفع ودوّى اللّغط يدور حولنا، هتافات قليلة بدأت تُسمع: الله أكبر.. الجلاء الجلاء.. تجمّع الناس حول الذين بدأوا يهتفون، وبشكل

عفوىّ وتلقائىّ وسريع انتظمت صفوف الناس وراء زعماء للمظاهرة ارتفعوا فوق الأكتاف، وهم يردّدون الهتافات على نحو متقطع أولاً، ثم بشكل متصل ومنتظم.

تكوّنت على الفور مظاهرة حاشدة.

سمعت وهتفت مع قادة جماعتنا هتافاتنا المتفق عليها.

كان من الواضح أن جلاء القوات البريطانية تمّ فى الليلة الماضية، فجائيًا غير معلن، تصوّرتُ الشاحنات العسكرية الضخمة والدبّابات والمصفّحات تهدر فى ليل الإسكندرية الحارّ الرطب إلى غاية لعلها معسكر مصطفى باشا ومنها إلى القاهرة مباشرة عن طريق المعاهدة الصحراوى، ثم منها إلى معسكرات القنال الممتدة على طول الضفتين.

شارع النبى دانيال قد غص بالمظاهرة الصاخبة وهتافاتنا تزاحم العزة لمصر، الله أكبر، القرآن دستورنا والرسول زعيمنا.

«تسقط الملكية الفاشيستية».

ذكّرنى عبدالقادر بعد أكثر من نصف قرن بأن هذا الهتاف كان سببًا مباشراً فى القبض عليه يومها.

قال لى إن البكباشى أمر جنوده: هاتوا لى الواد ده... دَهُوه.. هاتوه.

جاءت شاحنات البوليس المحمّلة بالعساكر ودوّت رصاصات إنذار فى الهواء وانقضّ العساكر علينا بالهراوات الغليظة يضربون بغلظة وقسوة وعشوائية كل من يلقونه وأيًّا مَنْ يلقونه، شُقّت صفوف المظاهرة، اندفع الناس إلى الأمام فى الحوارى الجانبية الضيقة وشارع كنيسة الأقباط الواسع. وتحت مبنى شركة التأمين الأهلية القديم الذى أصبح مكتبة الأهرام ومنها إلى شوارع طوسون وشريف وفؤاد.

فى غمار المظاهرة والمطاردة لمحت رأس سلامة مرفوعًا غير هيّاب، فى جلابيته الفلاحى لم يغيرها، وبالطبع كان عبد القادر وأحمد النمس على أكتاف المتظاهرين ومنهم حلمى الريس وشوقى محمود، وكانوا

يهتفون ويشوّرون بالأيدى وتنشق الصدور تردد هتافًا حماسيًا وراءهم.

كان عسكرى البوليس قد التقطني بشكلٍ ما، وجرى من وراء المتظاهرين، يتجنب الاصطدام بهم ويدور حولهم لكي يلحقني.

أخذت أجرى مندفعًا كالقذيفة لا يوقفني شيء، رأيت فتى قليل الجسم، سفروت وعفريت، يقفز في الهواء بخفة، أمام البكباشي وفي مواجهته مباشرة، ويضغط بيده على طربوشه يكبسه على رأسه، ويجرى متفلّتًا محنيّ الرأس بين أقدام العساكر الذين تركوا كل شيء وتعقّبوه، وأشرت إليه بحركة تشجيع وتأييد عفويّة انطلقت منى كأنما بالرغم عنى.

عرفت فيما بعد أن الفتى طالب بالمدرسة العباسية وأن اسمه حمدى يوسف، وأنه قُبض عليه وأودع سجن الأجانب في غرفة واحدة مع عبدالقادر خلف الله، وسرعان ما كان حمدى أحد زملائنا النشيطين، كان عبدالقادر، بطبيعة الحال هو المسئول عنه وكان لحمدى كلمة مسموعة بين طلبة الثانوى في العباسية الثانوية وفي المرقسية أيضًا.

وكما هو متوقَّع ومألوف اعتُقلنا جميعًا ليلة ١٥ مايو ١٩٤٨، وفي المعتقل كنا أعضاء كوميونة واحدة، نتقاسم بالمساواة مع أعضاء الكوميونة كل ما يرسله لنا الأهل من مآكل وأطايب مهما كانت تافهة لها في الحبس مذاق خاص ونعمة مضاعفة.

كان حمدى متمردًا بالطبع، ولعل التحامه بنا - على نحو ما - إنما كان ثمرة هذا التمرد الكامن مع حيوية عقلية وذكاء فطرى حاد، لم يعن قط بأن يتعمّق النظريات ولا أن يعبّ من منهل الثقافة، تخصّص في الجغرافيا فيما بعد وتفوّق فيها، وسافر مع أحمد النمس إلى السنغال، ودرّس فيها الجغرافيا بعد أن علّم نفسه الفرنسية الضرورية لتدريسه للطلاب السنغاليين، وظل طيلة سنوات يسهر كل ليلة حتى الفجر يحضّر درسه بالفرنسية حتى تميّز واشتهر وسافر بعد ذلك إلى تونس

وعرف الرحلة إلى مغانى ـ وغانيات ـ أوربا ثم تزوج متأخراً وربّى ولداً وبنتاً حتى سنّ الأمان.

حكايات الأصدقاء من أيام الكبرياء القديمة لا تنتهى.

أما عبدالقادر فقد كانت له تركيبة نفسية وعقلية أخرى، كان هادئ المظهر ـ وإن كان بداخله فوران عقليّ وروحيّ ـ بطيء الحركة شديد الاتزان والعقلانية والاعتدال فيما يلوح لأول وهلة ولكنه عندما تستأثر به نزعة الثورة اندفاعى مغامر بنفسه بل لا يتورع عن المخاطرة.

تصورت في تلك الأيام أنه مثالىّ وطنىّ، ولاحظت أنه لا يحبّ الدخول فى مناقشات نظرية أو «فقهية» ولا يحب الجدل العنيف ويؤثر العمل على الكلام.

قال لى بعدها بسنين بنبرة تساؤل ولعلها نبرة ارتياب وتشكُّك إنه لم يفهم كيف قبض عليه يوم مظاهرة كوم الدكّة ولم يقبض على منظمي المظاهرة الرئيسيين، ولعلّه كان يقصدنى، فإننى إذ لاحظت أن ذلك العسكرى الطويل الأسمر، بهراوته، يلاحقنى فى نوع من الاستماتة، عقدت العزم ـ دون تفكير ودون تردد وكأنما بقرار داخلى اتخذه عنى أنا الآخر الكامن فى دخيلتى الذى طالما اتخذ لى قرارات مصيرية امتثلت لها ـ أننى لن أسمح بأن يقبض علىّ يومها.

لا أدرى كيف واتتنى القوة والسرعة إذ انطلقت باستماتةٍ لم أكن أعرف أننى قادر عليها أجرى وأراوغ وأفرّ من الملاحقة، كنت مصمّماً على أن أزوغ بأى شكل من المطاردة، وفى غمرة زحمةٍ من تجمُّع الناس تخلصت من العسكرى ودخلت دون تفكير باب بيتٍ جانبى على اليمين، صعدت السلالم الصامتة الخالية أربع درجات حتى وصلت إلى بسطة آخر دور.

كانت أنفاسى قد انقطعت تماماً، وأنا ألهث تلمّساً للهواء، أحسست أن رئتىّ قد انطبقتا علىّ، ومن صدرى سمعت صوت الشهيق الذى

يقترب من زفير متتابع كأنه حشرجة متلاحقة النوبات تندّ عن الصدر الذى كاد أن يتمزق وأنا أشهق وألهث.

انفتح باب الشقة وأطلت منها ستّ البيت بلا شك. كانت تلفّ رأسها بمنديل أسود وفستانها داكن بأكمام مقفول الرقبة، وجهها أبيض متهدل الطيات قليلاً، ونظرت إليّ بعينين ضيّقتين وطيّبتين، وقالت: يا ضناى، دانت مْفَرْهَدْ يا حبيبى ووِشَّك زى الكُرْكُم، الله يجازيهم يابنى.. نجيب لك كبّاية مَيّه يا ضناى.

أومأت برأسي ممتنًا وغير قادر على الكلام.

عندما عادت بكوب ماء بارد منعش قالت:

- ميّه ممستكة من القُلّة والنبى، طب ادخل يا ضناى خُد نَفَسك عندى فى البيت بدل ما انت على السلالم كده، دانت زىّ ولادى ربنا يحفظك إنت واللى زيّك من كل سوّ، ادخل يابْنى.

اعتذرت لها بهزّة بطيئة من رأسى، كانت أنفاسى قد انتظمت شيئًا ما، وأحسست أن ضجّة المظاهرة قد خفتت، سمعت صوت حركة سيارات البوليس تصفّر وتهدر، وساد الشارع تحت - فيما أحسست - هدوء وصمت.

لم أحك لعبد القادر، ليلتها، هذه القصة كلها، هل كنت أستشعر نوعًا من الخجل لما صمّمت عليه من تجنُّب القبض علىّ وهل كان فى صمتى عن الدفاع عن نفسى - حيث لا اتّهام فى الغالب - نوعٌ من الحسّ بالإثم على أية حال؟

قال لى عبدالقادر إنه فى السبعينيات كان رئيس قسم فى كلية طب بنى سويف، وكان يسكن فى الكامپاس - فى الحرم الجامعى - وفى أحد الأيام وهو راجع وجد تجمهراً حول أحد مبانى الكلية وصاح به أحد الطلبة: ممنوع يا دكتور ممنوع..!

أوشك أن ينحرف عن الطريق تلقائيًا ولكنه أدرك أن شيئًا ما على

غيـر ما يرام، عاد وشخط فى الطالب ـ كـان ملتحيًا ويلبس السـروال الباكستانى الأبيض القصير ـ «إيه يا ولد فيه إيه؟» ردّ عليه الطالب دون تورّع:

زملاؤنا مقبوض عليهم فى المنيا، نحن قبضنا على الطلبة النصارى، قيّدناهم بالسلاسل، وسنقتلهم واحداً بعد آخر إذا لم يُفرج عن زملائنا.

قال عبدالقادر: يا نهار أسود.. هذا يحدث فى الكلية؟ طلبت رئيس الجامعة بالتليفون فقال لى: أبداً، لا تصدّق، هذا غيـر صحيح، ليس هناك شىء، فطلبت وكيل الكلية قال لى: نعم، صحيح، وتكلمنا مع المحافظ، وأرسل لنا قوة وقفت على باب الكلية من الخارج.

قلت: وماذا حدث؟

قال: أبداً. أفرج بالفعل عن المقبـوض عليهم فى المنيا، والأولاد أطلقوا سراح زملائهم الأقباط.

قال: ولم يحدث لهم شىء، لما يعاقبوا بل لم يحاسبوا.. فماذا تريد أن يقع بعد ذلك؟ هل تستغرب أن يقتلوا السادات الذى كان هو نفسه يدعمهم بالسلاح؟

قال: جاءنى طالب منهم فى لجنة الامتحان يرتدى الجلباب القصير على السروال الباكستانى، شتمته، قلت له: إمشِ يابن الكلب لن تدخل الامتحان ولن ترى البكالوريوس أبداً إذا لم ترجع لى وأنت لابس مثل كلّ الناس، فعاد بالفعل وقد خلع الزىّ التنكرىّ، وامتحن، وإلا جاءنى كل الطلبة ثانى يوم بالزىّ الباكستانى، ألم نكن طلبة نحن، ونعرف الخطوط الحمراء التى لا يمكن أن نتجاوزها. كل شىء ممكن إلا عندما يتعلق الأمر بالامتحان والتخرّج، وهكذا كان.

فى لقائى بعدالقادر، بعد أيام المعتقل باثنين وخمسين سنة، قال لى:

ـ كانت لنا أخت..

قلت: فتحية، أعرفها رأيتها عندكم زمان.

قال : تحية .

قال : ماتت .

قلت : بم ؟ هل كانت مريضة ؟

قال بهدوئه وصوته الذى يبدو محايداً بلا لون وإن كانت فيه نبرة تهدّج وانفعال مكتوم : أبداً ، لا نعرف سببًا ، هكذا ، ماتت . حصلتُ على بكالوريوس الطب ، والماچستير ، ودرستُ وحصلتُ على الدكتوراه من أفضل جامعات أمريكا ، وتزوجت وخلفت أبناء وبنات كلهم ناجحون ولى أحفاد أحبّهم ، لكن الفرح لم يدخل قلبى طول هذه السنوات . كان الموت قد دخل حياتى .

سكتُّ . بم كان يمكن أن أجيب ؟

هل كنت قد تخرجت فى كلية الحقوق ، ومعى ليسانس لا أدرى ماذا أفعل به ، فلم أكن قد وجدت عملاً ، وكنت كل يوم أكتب خطابًا إلى الشركات والمصانع والهيئات أطلب العمل ، وكل يوم أتلقى ردوداً بالاعتذار المهذب بأن لا توجد وظائف خالية فى الوقت الراهن وسوف نتصل بك حالما تتاح فرصة تتناسب مع مؤهلاتك (كانوا أيامها يردّون على الخطابات باللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية ، ولا يلقون بها فى سلّة المهملات) .

حكى لى عبدالفتاح ، بعد ذلك بسنين ، أنه كان محبوسًا على ذمة قضية مختلقة لا أساس لها ـ كالمألوف فى مثل هذه الأوقات ـ مع أخيه الأكبر الذى أصبح فيما بعد أستاذاً للنحو واللغة ووكيل كلية دار العلوم ، بينما كان عبدالقادر معتقلاً فى أبو قير .

كان أبوهم عم عبد النبى تاجراً من تجار الماشية ومزارعًا له أطيان فى بلدة صغيرة اسمها سرنامة بالقرب من كفر الشيخ ، وكانت بنته الوحيدة قد ماتت بمرضٍ غامض قبل ذلك ، ووجد الرجل نفسه وقد أوشك أن يفقد أولاده جميعًا .

قال لى عبدالفتاح: كان وكيل النيابة الموكّل بالقضية من عائلة أصهارٍ لنا. ذهب إليه عم عبدالنبى ولم يستأذن بل دخل عليه مباشرة فى مكتبه الفخم الخالى فى طنطا، لم يسلّم ولم ينمّق مقدّمات الكلام، دخل فى الموضوع مرّةً واحدة، قال له اسمع يابن عبدالحفيظ، أنت تعرفنى وتعرف عائلتى وعِزوتى هم وأنسباءك ولا يخفى عليك أمرهم. عندى كما تعرف تمامًا ثلاثة أبناء هم الذين خرجت بهم من الدنيا، وأنت تحبسهم، لا تتكلّم لا تقل لى إنك لا شأن لك وإنها أوامر عليا، اسمع يابن عبدالحفيظ أريد أبنائى خارج السجن والمعتقل فى ظرف ثلاثة أسابيع على الأكثر، وإلا طارت فيها رقاب.

خرج عبدالنبى دون أن يسمع إجابة ودون أن يشرب قهوته التى حاول وكيل النيابة أن يطلبها له.

قال لى عبدالفتاح: خرجنا كلّنا بعد أسبوعين، لا أعرف حتى الآن السبب الحقيقى فى الإفراج المفاجئ عنا.

هل قلتُ إن حكايات أصدقاء تلك الأيام - أصدقاء العمر - لا تنتهى؟

الإسماعيلية فى ١٤ / ٩ / ١٩٤٦

حضرة الأخ الفاضل

أهدى حضرتكم والست الفاضلة امرأة خالنا، والمدموزيلات تحياتى، ونبلغكم تسليماتنا القلبية راجيًا لجميعكم الصحة والهناء، أهنئنكم بنوال الليسانس وفى الواقع نحن نعتبر أن عصاميتكم مفخرة العائلة جميعها ونرجو لكم حياة ملؤها السعادة وراحة الضمير حيث التقدم المستمر، عمتكم وقرينتنا يشاركاننى شعورى بالغبطة والسرور لنوالكم شهادة الليسانس ويتمنون لكم معى مستقبلاً زاهرًا فى الحياة الاجتماعية المقبلة.

أعتقد أنه إذا كانت الوظيفة الحكومية فى السلك النيابى (مساعد

نيابة أو وكيل نيابة . .) فهذا في اعتقادى مركز سامٍ والكادر النيابى سريع التقدم ولو أن الماهية الحكومية ضعيفة ولكن ليست المادة هى كل شىء فى الحياة وأما عدا ذلك من أنواع الوظائف فلا أوافق .

أما عن الشركات فيتوقف رأيى على نوع الشركة وهل من الشركات المحترمة من عدمه وعلى الماهية التى تعطيها فإذا كان كل هذا مناسبًا فلا بأس .

المكتب كويّس وباب للشهرة ولكن أعتقد أنه يلزم قبل فتح المكتب الالتحاق بمكتب محامٍ ذائع الصيت لأن التمرين مهم مثل أهمية الشهادات . وعلى كل حال فالمكتب لا يتطلب اقتناص فرصة أو خلافه فهو فى اليد فى كل حين .

ختامًا أرجو أن تتقبل تهنئتى مع تمنياتى باطراد التقدم .

سلامى للست امرأة خالنا والمدموازيلات الأخوات ، سلام عمتك ونبيل وأمه واخته لكم جميعًا .

بشارة

هل كنت على استعداد حقًا للعمل فى السلْك الحكومى ، وفى جهازه القمعىّ (كما كنت أقول) بينما أرفع خفيةً البانديرا روسّا - الراية الحمراء - كما يقول النشيد الثورى؟

على هذا النحو إذن كنت أحيا حياتى المزدوجة - أو متعدّدة الطبقات - حياة الثورى المنخرط حتى النخاع فى المروق على مواضعات المجتمع ، وحياة المُمْتَثِل لهذه المواضعات نفسها ، السائر على سُنَنها ، وحياة العاشق الشبِق المنغمس فى حمأةِ - ونشوةِ - الشهوات الجسدَية والروحيّة معًا ، والمحلّق معًا فى أوهامٍ ليست من هذه الأرض .

أية جدوى من سؤالى : أيها الحياة الحقيقية ؟

ما معنى الحقيقة هنا ؟

كلها - فى النهاية - حقيقية .

فى أيامـهـا كـانـت الأولوية للشـورى، بـلا شك، ولكن لم يكـن «أنا الآخـر» أو «أنواتى الأخـرى» قد اختـفـوا تمامًا. كـانوا ـ يعنى ـ كـامـنين فعّالين بالقوّة، بالإمكان، إن صح هذا التناقض، وهو صحيح.

فى تلك الأيام ـ عرفت فتوح القفّاص معرفة حقّة، فى خضمّ عـمل حلقتنا، بعد أن كانت صداقتنا، من قبل، صداقة عابرة.

«كانت قصة أوديت أخت أنطوان خير الله، مع فتوح القفّاص معروفة لنا جميعًا، ومقبولة، بل نجد فيها شيئًا من الطرافة والإنعاش والروْح عن النفس.

ولعل أوديت كـانت تكبـرنا بسنوات قلائل، يمكن سنتـين أو ثلاثة على الأكثر، وكان فى وجهها خطوط المعرفة والخبرة المكبوتة التى لم تكتمل.

كانا يتـواعدان، أحيـانًـا، فى الفـريسكادور، تأتى، أنيقة، محكمة الجسم، ورشيقة، على عينيها نظارة نظر حريمى مذهّبة الإطار، يداها فى قفّازين أسودين من الجلد الغالى، حذاؤها بكعبه العالى يرنّ بموسيقيّة متزنة فيها رصانة وفيها لمحة نزق على بلاط الفريسكادور الذى كانت مقـاعده على شكل مقاعد الترام أو القطار، متـقـابلة وثابتة ومنجّدة ومكسـوّة بالجلد الصناعى المريح. كـانا يشـربان، معنا أو وحـدهـمـا، فنجان الكابوتشينو الذى اشتهرت جودته ونكهته الطيبة، وعلى رغوته مسحوق القرفة أو الشيكولاته الناعم الذى يكسبه فى الفم طعمًا فريدًا، أو يأخذان كأسًا سريعًا من المارتينى الجافّ، ثم يذهبان إلى السينما مثلاً أو التريانون أو المونسينيور لعشاء حميم ولابدّ أن يكون فخيمًا. ومع ذلك، أو بعد ذلك بقليل، كنت أواعد أوديت، صديقين، نلتقى فى سكارابيه فى ستانلى بيه، أو سينما فؤاد لفيلم فرنسى من أفلام چان مارييه، رأيت معها «أورفيوس» و«تحت سماء باريس»، وكنت أمسك بيدها فقط، أحيانًا فى عتمة السينما الأنيسة، لم أقبّلها قط

- مثلاً - لم أعرف طعم شفتيها.

ذلك بينما كنت أخوض غمرات حبّ يائس يزلزلني ويبعث فيّ نشوات وعذابات، وربما نشوات العذابات كذلك، لنعمتى النضرة الحيّية منعشة الصبا صغيرة القد.

وبالتالى إذن لم تكن هناك بيني وبين فتوح القفّاص لا منافسة ولا غيرة ولا تقاتُل، كان مفهومًا - على الأقل عندى - أن ما بيني وبين أوديت صداقة لا أكثر، فهل كان هذا مفهومًا عندها؟ أم أننى فى نهاية التحليل اقترفت إثم الخيانة؟ هل كان مفهومًا أن ما بينها وبين فتوح القفّاص كان صداقة غرامية، أم كان غرامًا، أو أكثر؟».

لعلها كانت تطمح بشكل ما أن توقع أحدنا فى حبائل الزواج منها - وليسامحنى من يملك هذا الحق على أية حال - كان يلتقى بها إمّا فى الفريسكادور أو فى بيتها، وينطلقان معًا، قلت هو أيضًا محبّ معقّد لكنه كان يفوقنى بقدرته على سعة الإنفاق وطول الباع فى خبرات الحبّ، فقد كنت - ولعلنى مازلت - خامًا ساذجًا وأتصوّر أننى قليل الخبرة جدًا بالنساء وأقول إن هذا تصوّر غير صحيح وإننى أعرفهن معرفة حميمية وحارّة.

قلت: ولكن - من ناحية أخرى - هو الذى دعانى للانضمام، بل فى الواقع لتأسيس هذه الحلقة الثورية. فهل كان هذا من آليات البوليس؟ غير معقول طبعًا.. لماذا غير معقول؟ بل ممكن: هى طريقةٌ بين غيرها لحصر أو حصار الثوريين المحتملين.

«كانت أوديت تأتى للفريسكادور أحيانًا مع آرليت، أختها الطويلة التى لا أذكر منها إلا شعرها المنسدل الغزير ووجهًا بيضاويًا واسع الفم وقوامًا فارعًا وشهويًا، على عكس أختها التى كانت منمنمة الجسم «مثقفة» المظهر.

هل كان فى زواج فتوح بالأخرى الحادة القاطعة، مغربية الأصل، وفى

حبى لنعمتى، كلانا، في الوقت نفسه، خيانة مضمرة ـ أو سافرة ـ لأوديت؟

ربما».

كان تصورى لفتوح منذ البداية ـ مع إعزاز شخصيّ يتحدّى كل المبرّرات ـ أن ما أسميته نظامه العقلى مضطرب، مع قراءاته المتصلة وذكائه الحاد. وأن إيثاره أو نزوعه للحرية المطلقة إنما ينم عن خلل أساسي غير مدرَك في هذا النظام، فهو مستهتر، متحمّس ومتقلّب وأهوائى، ليست فوضويّته ـ على خلاف كل مزاعمه ـ هى فوضوية باكونين أو كروپتكين أو هربرت ريد المبنية أساسًا على فكر عقلانى وأشواق روحية متوهجة، بل هى فوضى النزعات والأفكار التى لا يجمعها نسق أيًا كان، وعلى رغم حافظة لاقطة تكاد تكون فوتوغرافية وذاكرة أمينة فقد كانت فيه ـ أيضًا ـ سذاجة فطرية أو متعمّلة مصنوعة لا أدرى على وجه التحقيق.

مازلت ـ بعد أكثر من نصف قرن ـ لا أجزم بشيء فى أمره. هل كان صادقًا ومخلصًا حقيقةً؟ لماذا لم يصبه أدنى سوء من جانب أية سلطة بوليسية؟ ولماذا لم يساهم معنا بأى عمل ثورى حقيقى؟

مازلت أحتفظ له ـ على رغم كل ذلك كله ـ بإعزاز ومودة بل صداقة حقّة، صداقة استمرت قوية مندفعة قبل الاعتقال وبعده بسنوات.

صحيح أن هذه الصداقة تقطّعت أواصرها بالتدريج حتى رثّت، وسمعت أنه أصيب بجلطة فى الدماغ أقعدته ردحًا من الزمن وأنْستْه الكثير عنّا وعنّى، ثم سمعت أنه تماثل وعاد طبيعًا أو شبْه طبيعى.

عندما خرجت من معتقل أبو قير كانت الحلقة قد انفضت وبادت وأمست أضغاث ذكريات، وكان فتوح رفيقًا دائمًا أو شبه دائم على طول فترة صعلكة ويأس وتخبُّط، وبحث مستميت عن لقمة عيش، فتوح يعهد إلىّ بترجمة براءات الاختراع ـ ميكانيكية وكيماوية

وهندسية معقدة وتكنيكية جداً ـ للمكتب الذى كان يعمل به الآن، ويملكه ماجرى أوفرند اليهودى المالطى الإسكندرانى، أكرش، أجشّ الصوت، طيّب القلب، الذى هاجر إلى استراليا بعد الثورة.

وعندما كان اليأس والسأم وعنف الضيق يطفح بى، فى أيّة ساعة من النهار أو الليل تقريباً، لم أكن أعدم أن أجد فتوح فى مكتب براءات الاختراع فى محطة الرمل، أو فى الفريسكادور ـ قهوتنا المأثورة التى حل محلها الآن «عمر أفندى» فى شارع سعد زغلول ـ أو حتى فى «قهوة الأشباح» فى الخندق ـ الممر الضيق المعتم تحت سفح عمارة أوريكو الشاهقة. ومنه عرفت كيف أدخن السجاير الإنجليزية الفاخرة: كرافن إيه، بول مول، أو پلايرز، فى علب معدنية رقيقة أنيقة مسطّحة كل علبة بخمسين سيجارة، ومعه، ومع أحمد قنديل الرسام الذى أحبه، ومع رضوان القفّاص، أخيه الذى كان يدرس الكلاسيكيّات فى كلية الآداب، وأنطوان ـ أخِ أوديت ـ الذى كان مازال يعمل عندئذ فى «الميساجيرى ماريتيم» كنا نذهب إلى سينما مترو، من تلاتة لستة، ومعنا زجاجة ويسكى بلاك آند وايت مبطّطة، وقَدَحين أم الخلول فى قرطاس ورق متين، وفى عتمة الظلام والأضواء المتناوبة، وبهدوءٍ وحرصٍ وكياسة، دون صوت تقريباً، وبينما الصور وأحلام هوليود الجاهزة المعلّلة تتخايل على الشاشة، تترى، نفتح أمّ الخلول ونمتص الهُلامَ الطرى الذى يحتفظ فى كِنّه بملح البحر ـ وكأنه يحتفظ فى سرّ لحمه الحرّيف بموجه المكتوم ـ ونمرّر زجاجة الويسكى نترشّف منها حسوةً بعد حسوة، جافة قراحاً، لم تكن السجاير ممنوعة حينئذ ولا كان أحد سمع بأنها ضارة جداً بالصحة، وكان طعم الكرافن إيه بأمّ الخلول والبلاك آند وايت له مذاق ونكهة خاصة جداً، وكان طعم اليأس من كل شىء طعم استماتة اللذة المندثرة بمجرد سنوحها».

فى الأيام الأولى كتبت عنه: «هو فى نهاية الأمر، سواء عن عمد أو

عن غيـر وعى، يدمّر التنظيم، هل يمكن أن نعتبره ضالعًا مع القوى المعـادية؟ على أية حـال هو مـخـرّب، ويندفع دون تورّع فى اقـتـحـام اجتماعاتنا بآراء وأفكار منقولة حرفيًا أوبتصرف من آخر قراءاته، دون اعتبار للسياق الذى نتناوله ولا بالموقف الذى نعالجه، إنما يؤكّد ذاته باستمرا على حساب أىّ شىء، شخص ملغّز، يتزايد استهتاره يومًا بعد يوم، ويتفاقم اتجاهه الواضح نحو التخريب».

أخذنا نقلّل من دعوته لحضور اجتماعاتنا حتى توقفت تقريبًا اتصالاتنا «الحركية» به، اكتفينا بلقائه فى «على كيفك» أو «الفريسكادور» حيث نشرب كأسًا أو قهوة كابوتشينو، ونتحدث فى الأمور العامة كما يتحدث الأصدقاء، واكتفى هو بذلك، ولم يبدِ غضبًا أو حنقًا أو حتى استياءً لتجاهلنا إياه، لم يسأل، ولم نكن نشير بشىء إلى ما نفعل.

أعود الآن فأكتشف أن كل صداقاتى ـ ومحبّاتى ـ لا تقوم على أسسٍ «أخلاقية». على العكس وجدت أن هناك جاذبية لا تُقاوم بينى وبين أصدقاء وصديقات فيهم وفيهن «عطبٌ» أخلاقى أو روحىّ يجعلهم جميعًا أثمن وأغلى عندى من كل المستقيمين «الأسوياء».

أعود الآن فأضع ذلك كله موضع سؤال، لماذا لا أصدقه أبدًا أن أحدًا ممن أحبّهم ارتكب إثم الخيانة، أو حتى عرف معنى الخيانة؟ لماذا يثور الآن عندى سؤال الخيانة؟

لعلنى كنت مسرفًا فى سوء الظن، هل كان ذلك فقط على سبيل التحوّط أم يعود لأسباب أعمق وأذهب غورًا فى دخائل النفوس؟

الفصل العاشر

كانت مكتبة شوارتز في شارع صفيّة زغلول، أمام سينما ريالتو.

وتظل عندى كذلك، في مكانها، مهما سوف تتقلب عليها الأحداث، وتصبح دكّاناً لبيع الأحذية أو شرائط الأغانى والموسيقى أو بيع أقراط وعقود وأكسسوار النسوان، أو وكالة سفر وسياحة.

في الواجهة الزجاجية للمكتبة كتب راشد البراوى وكارل ماركس ولينين وستالين، بالعربية والإنجليزية، كبيرة فخمة أو على هيئة كتيبات الواحد بقرشين، منسّقةً وجميلةً من وراء الزجاج المصقول الناعم، أو مطروحة، بنظامٍ وإغواء، على منضدة رئيسيّة وسط المكتبة.

كانت هذه المكتبة مكاناً نظيفاً وأنيقاً وحَسَن الإضاءة، وكانت موئلاً ومحطاً نلوذ به بعد مشقّة التجوال والتنطيط والمقابلات والاجتماعات.

كان أحمد النِمْس على الأخص، يتردد على المكتبة أكثر من أىّ أحد، يقول إنه يقرأ فيها مراجع الفيزيقا التى لا يستطيع أن يشتريها، ويسمح له شوارتز عن طيب خاطر، أن يقرأها وأن يأخذ منها مذكّراتٍ وملخّصات دون مقابل بالطبع، وإن كان أحمد يبدى له، دون تحرّج، آياتٍ من الإعجاب والتقدير والإعزاز.

كان شوارتز مصرياً إيطالياً يهودياً من أصل ألمانىّ، ولد بمصر ولم يعرف غيرها وطناً، وإن كان لا يجيد الكلام بالعربى الفصيح أو المصرى على السواء ولكنه يعرفه ويعرف كيف يُسلّك أمره به، شأن معظم المصريين الخواجات الذين كانوا في مصر في الأربعينيات. هو غير شوارتز الآخر الذى عاش في القاهرة وكان له دور ملحوظ في الحركة

الشيوعية المصرية وحوله أسئلة كثيرة.

كان شوارتز الإسكندراني يؤثر الكلام معنا بالإنجليزيّة التي يجيدها، دائم الابتسامة، مدوّر الوجه، أمْيَل إلي البدانة ولكنه خفيف الخطو وخفيف الروح وفيه مسحة طفوليّة (ليست صبيانيّة بل طفوليّة)، فيها قدر من البراءة ولا أقول السذاجة - من قال مثلاً إن الأطفال سذّج؟ - ولكنه كان حريطاً كحياطة الأطفال أيضا، يقول عن ستالين إنه جلف متخلّف من چورچيا ولصّ بنوك قديم وسفّاح ثم يبيع كتبه ويروّج لها عند زبائنه الدائمين أو العابرين، ويُشيد بتروتسكي ويراه ممثّل الثورة البلشفيّة الحقيقيّ ولكنه لا يروّج كتبه ولا يعرضها في واجهة المكتبة، ربما لأن خصوم «النبي المغدور» أقوياء لهم نفوذ واضح ولعلّهم يستطيعون أن يخربوا بيته ويوقفوا حاله، مهما كان صادقاً في تصوراته الفكريّة ومهما كان استعداده صادقاً للتضحية في سبيلها.

يقيم في مكتبته قطّ أسود يقبع في الركن الخلفيّ وراء الحائط بين صناديق الكتب غير المفضوضة، وفي هذا المأوى الدافئ المعتم بعيداً عن الأنوار الكهربائيّة، عيناه الصفراوان تبرقان بوميض ثابت مستدير.

دعاني شوارتز مرة إلي زيارته في بيته الذي وجدته فخماً عريق المبني، أمام المتحف اليونانيّ الرومانيّ وأهداني عندئذ كتاباً ضخماً عن تاريخ الثورة والدولية الرابعة.

الغرفة الواسعة عالية السقف تطل نافذتها العريضة على الشارع الهادئ وعلى أعمدة المتحف بطرازها اليونانيّ، والجدران ناعمة الطلاء بلون سمنيّ لم أكن أعرف من قبل دماثته وراحته للعينين، فلا وجود لها في بيوتنا الرّثة في غيط العنب أو راغب باشا أو حتى متوسطة الحال في محرم بيه.

وكما هو متوقَّع بالضبط أنوارها تتدفّق في غير اقتحام من نجفة متعددة المصابيح، من طراز النوڤوآر التجريديّ في تصميمها وألوانها.

قدّم لي الشاي - طبعاً - في سرڤيس من الصيني الغالي، فناجين

واسعة مفلطحة رخيمة الصنع وليست في الأكواب الزجاجية المخضرّة تقريباً التي كانت تنتجها لنا عندئذ مصانع ياسين.

دخلت علينا والدته وخاله - فيما يلوح لي - وتكلموا قليلاً بالفرنسيّة الإسكندرانيّة التي كنت أفهمها جيّداً ولا أجيد الحديث بها، عرفت أنهما يطلبان رأيه في شراء أسهم شركة الغزل والنسيج في كرموز، وأن سعرها يرتفع في البورصة كلّ يوم بعد استقرار الأحوال وانتهاء فترة الاضطرابات ومشاغبات «أولاد العرب» كما قالوا. انتابتني صدمة لعلني لم أبرأ منها أبداً - حتي وإن كنت أكنّ للرجل إعزازاً وتقديراً لعله مشوب بشيء من الاستهانة أو الاستخفاف، كما قد يحب المرء طفلاً كبيراً مشاغباً وبريئاً.

الشركة الرأسمالية الضارية التي طردت سلامة والتي تخوض زينب وعايدة ضدّها نضالاً صعباً لمجرد الحصول على حقوق أولية في يوم الستّ ساعات وإجازة أسبوعيّة مدفوعة الأجر وتأمين صحي محدود، الشركة التي أراها تقتل، بالفعل، زملاءنا ورفاق كفاحنا، يشتري هؤلاء الناس دماءهم ويبيعونها، دون وعي بما يدفعه «أولاد العرب» من أرواحهم ثمناً لأرباحهم التي يحصدونها في بيوتهم الجميلة الفخمة.

كان شوارتز لا يرى الصلة بين ذلك كله وبين ما يملكه ويشتريه ويبيعه من أوراق ماليّة أرى بكلّ حماسة وكلّ يقين وربما بكلّ سذاجة أنها على رغم حسن زخرفتها وصقال ورقها معجونة فعليّاً بعرق أصدقائي وزملائي وبالدم الذي ينزفه شاكر وزملاؤه من صدورهم الجريحة بلا أمل في الشفاء.

ومع ذلك فقد اعتقل شوارتز وقضى في الحبس شهوراً ورُحّل بالقوة إلى خارج الأرض التي لم يكن يعرف غيرها أرضاً له، ومع إيمانه النظريّ التجريديّ بأن الوطن هو الطبقة وليس الأرض، فقد قال لي فكْري نمر إن الدموع غلبته وهو يودّعهم، إذ يُطلق سراحه عارفاً أنه سوف يخرج من المعتقل

مباشرة إلى باخرة شركة البوستة الخديوية التى سوف تحمله إلى إيطاليا.

سوف أعرف بعد سنين طويلة أنه فتح مكتبة فى ميلانو، وأنه فقد إحدى ساقيه فى صدام عنيف مع بوليس ميلانو، إذ كان فى مظاهرة صاخبة أمام القنصلية الأمريكية دفاعاً عن ڤيتنام وأنه كان فى مجلس تحرير صحيفة تروتسكية إيطالية.

تركت أحمد النمس ينتحى جانباً من المكتبة يقرأ كتابه الضخم عن «فيزيقا الفلزّات» فى الركن، وبنظرة سريعة دون اقتحام رأيت القط الأسود يتمسح برجله فقد ألف وجوده فى هذا الركن واطمأنّ إليه، وخرجتُ إلى شارع صفيّة زغلول الهادئ شبه النائم قبل أن تغزوه جماهير حفلة الساعة ٩ فى سينما ريالتو، ودخلت إلى لورانتوس.

عبرت المدخل ورائحة الچيجو والچامبون تفوح من وراء المنصّة الرخاميّة بواجهتها الزجاجيّة اللامعة، لم أكن جائعاً.

ظل عبد الفتاح خلف الله يحكى طيلة سنوات أننى شديد الأنفة والتحنّف فى الأكل، كان يقترح علىّ أن نأخذ سندويتش فول وفلافل فاصرّ على سندويتش الچيجو والچامبون وقطعة المكرونة بالفرن مع كأس نبيذ ع الواقف.

عبرت إلى الحديقة بشجيراتها المقلّمة بعناية، على أشكال هندسية مربّعة منحوته من كُتل أغصانها القوية، متناثرةً بنظام بين مربّعات البلاط الأبيض الكبير، فى الفجوات الرفيعة بينها أعشاب صغيرة طريّة تبدو كأنها أعمدة منمنمة نحيلة جداً، كأنها مغسولة تحت أضواء مصابيح الكهرباء الزرقاء، وبين البلاطات ممرات سهلة يكسوها الحصى الكبير الذى أحسسته تحت قدمى يدغدغها عَبْر جِلْد الحذاء القديم.

كنت على موعد مع شفيق وفوزى لأتسلّم منهما مخطوطات ترجمة كتابين من قصص مكسيم جوركى وأنطوان تشيخوف اخترناها معاً، وعهدنا بها إليهما.

اتخذ شفيق لنفسه اسم شفيق راقم وفوزى اسم فوزى المرّ ولم يكونا بالضبط من جماعتنا لكنهما كانا، مع أحمد صبرى صديقى الرسّام، يفهموننا وهل أقول يتعاطفون معنا؟ ترجما الكتابين دون مقابل إلا بضع نسخ من ثمرات كدّهما، كنا قد جمعنا من بعضنا بالكاد تسعة جنيهات سوف أسلّمها غداً مع المخطوطات لصاحب المكتبة والمطبعة اليدويّة الصغيرة في شارع محرم بيه، ليطبع لنا ألف نسخة من الكتابين على أساس أن نسدّد له باقى التكاليف حين ميسرة ومن حصيلة بيع الكتابين، وكنت واثقاً أنه يعرف صعوبة إن لم يكن استحالة تسديد هذا الدين، ولكنى حدست أنه سيوافق عندما رأيت فى واجهة مكتبته كتاب «الإمبريالية أعلى مراحل الاستعمار» من ترجمة راشد البراوى، وكتب عبد الرحمن الرافعى جنباً إلى جنب مع كتب القانون الجنائي والتجارى والمرافعات، وافق الرجل على الفور، وعندما خرجتْ من عنده رُصص الكتابين بأغلفتهما الزرقاء تحت شعار «رفاقة الفكر الحر» ورسمٍ تجريدى يوحى من بعيد بشكل قوس المنجل وقضيب المطرقة، طرت بها فرحاً، واستأجرت عربة حنطور أنا وأحمد النمس وصّلتنا حتى مكتبة شوارتز حيث تركنا نصفها أمانة، لم يبع منها إلا بضعة عشرات قليلة من النسخ، ونزل أحمد النمس وواصلت مع الحنطور حتى شارع الزهرة وصعدت بخمسمائة نسخة من الكتابين، أربعة أدوار، حتى أودعتها غرفة أركان الحرب التى لم يكن يعرف عنوانها إلا قاسم إسحاق. لم تبق فى حوزتى نسخة واحدة من هذين الكتابين اللذين أذكر شكلهما بإعزاز خاص، بعد أن تكفّلت أمى وخالتى بإحراق كل كتبى الثمينة وبعضها نادر لم أستطع أولم أشأ أن أعوّضه، والأوراق التى وضعتها فى صندوق كرتون خاص أسلمته إلى خالتى فى ١٤ مايو.

رأيت القطّ الأسود الصغير يتململ ويتحرك، أرقبه غير مصدّق عينىّ، يكبر ويتضخّم ثم يثب فجأة من علبة سجاير كرافن إيه الحمراء

الصفيح المبطّطة التى يدخّن منها فتوح القفّاص والتى تعلّمت التدخين بها، بعد أن خرجت من المعتقل، أولاً على سبيل الدلع وتزجية الوقت وأساساً من قبيل الاستهتار بكل شىء بعد فقدان الإيمان.

عيناه تلمعان بوميض أصفر مستدير فيه بريق الغدر، ذهب إلى ركنه المعتم وقد انفتحت صناديق الكتب عن أعمال لينين الكاملة باللغة الإنجليزيّة طبعة موسكو أغلفتها من الورق المقوّى السوداء قد تقوست وتجعّدت عن أجسام الكتب السميكة وتداخلت حروف الكلمات، الحروف الكيريليّة تختلط بالحروف العربية النَسْخ القديمة واليونانيّة العريقة والهيروغليفية بكلّ قداستها، وبرسوم لم أعرف إن كانت صينية أم كوريّة، وقف القطّ على كومة الكتب المهوّشة العالية، تحت من بينها أغلفة زرقاء خفق قلبى لها، ثم كأنما صمتٌ، وكأنما هبّت بينها شعاليل نار صغيرة أخذت تلعق بألسنة رفيعة حادّة عناوين وأسماءً قرأت من بينها شفيق راقم وفوزى المرّ.

رفع القط إحدى ساقيه دون تعجُّل وكأنما دون أن يعنى بالنار المتراقصة تحته، رأيت أن ساقه الأخرى جامدة، متحجّرة، كأنها مشلولة، تمطّى جسمه الأسود الحالك حتى خيّل إلىّ أنه يتمدّد ويكتسب طولاً جديداً، مدّ رأسه إلى الأمام، وضعه داخل كوم الورق المتراكم المحترق، ثم رفعه وإذا بأشلاء أبنائه من القطيطات الصغيرة تتدلّى من فمه ويتقطّر منها دمٌ يسيرٌ وفتائل لحم متهتك محمرّ دفىء الشكل، ونَفَض رأسه يميناً ويساراً فتخلص من جذاذات فرائسه الحميمة واشرأبّ بجسمه كلّه إلى أعلى ينظر إلىّ بعينين كبيرتين مضيئتين بنور التربُّص والاستعداد للهجمة الآتية على الفور لا ريب فيها وقد أخذ يتضخّم ويكبر حتى صار قطّاً بريّاً جبليّاً يشبه فهداً أسود ضامراً وظامئا لأن يَلِغ فى دماء القلب، وقد خرجتْ أظفاره من سيقانه الثلاثة ناتئة، مدبّبة، مسنّنة، وتحمل نيّة القتل ومازالت الساق الرابعة متجمّدة.

صرخة الفجر المعتادة دوّت في نصف العتمة على سرير المعتقل لم يسمعها أحد.

أحمد النمس في نهاية أحد اجتماعاتنا العاصفة عندما جئنا إلى بند ما يستجدّ من أعمال فاجأنا باقتراح أن نضمّ شوارتز إلى اللجنة.

سمح له قاسم أن يشرح وجهة نظره باستفاضة، وكان يعرف مسبقاً موقفي وهو موقف على أبو الليل من رفض انضمامه إلينا على أساس أن انتماءه المصريّ غير عميق بما فيه الكفاية، لم تستطع الروح الأمميّة التي تسرى في عقيدتنا الثوريّة أن تنال من رسوخ الإيمان بمصر إلى حدٍ قد يكون مغالى فيه وهو بالضبط ما ركّز أحمد النمس على تأكيده، في خلال تقديمه المسهب لاقتراحه، قال وقد وقف منفعلاً مبحوح الصوت بحماسة الإرهابيّ القديم الكامن في إهابه:

- هذه شوفينية صريحة تتنافى مع المقولة الأساسية أن الوطن مفهوم بورجوازيّ في الأصل، وأن القوميّة من اختراع المفكّرين البورجوازيّين، أن الصلة بين عامل النسيج في كلكتّا بالهند وعامل النسيج في كرموز بالإسكندرية أقوى ألف مرة من الصلة بين أيّهما وصاحب المصنع في الوطن نفسه، هذه من البديهيّات المُقْنِعة التي يثبتها العقل كما يثبتها الاستقراء والواقع العمليّ، كما قال.

انضمّ فتوح القفّاص إلى أحمد النمس في إحدى المرات القلائل التي اتفق فيها موقفهما، على أساس أن التعصّب الوطنيّ يتناقض مع الحرية المطلقة وضرورة أن يكون لكلّ فرد موقفه الحرّ بغضّ النظر عن أصله وفصله أو عن انتمائه.

قلت له: يا فتوح أنت تحلم بيوتوبيا لا طبقيّة، ليس فيها حدود ولا بوليس، كلنا نوافق على الحلم، ولكننا نعرف استحالته.

قال: الحلم لا يمكن أن يكون مستحيلاً.

هبّ على أبو الليل في إحدى نوبات حماسته القليلة:

- والموقف نفسه يقول به زعماء الإخوان المسلمين، أليس كذلك؟ يقولون إن الوطن وإن الوطنيّة من الأفكار الغربيّة المستوردة المنافية لتراثنا وتقاليدنا وإن الدين هو الوطن الحقّ، هذا غير صحيح في الحالتين، لحم جسمي وصميم عقلي من تراب مصر التي نكافح معاً على شأن تحررُّها من الإنجليز ومن الباشوات، نعم، ولكن لا ننكرها، اسمحوا لي، ولا نُدخِل خواجات أيّاً كانوا في هذا الكفاح حتى ولو كانوا خواجات مصريّين.

كان قاسم إسحاق يرقب النقاش ويتتبّعه بعينين سوداوين يلتمع فيهما بريق الرضا عن موقف علي أبو الليل، هل هو أيضا بريق الصراع الكامن بيننا في سبيل أن تسود آراؤنا ومواقفنا، كما لو كنا نريد - في نهاية التحليل - أن نسود نحن، كما لو كنا نقع في الهوّة نفسها التي اجتذبت قياداتٍ ثوريّة أصيلة نحو التسلُّط والاستبداد والاستئثار بالحكم على الأشياء والحكم على الناس معاً؟

تدخلت في المناقشة وحكيت لهم عما سمعته في بيت شوارتز عن شراء وبيع أسهم شركة الغزل والنسيج في كرموز، أحسست كأنني أخون أمانةً أو أفشي سرّاً ليس لي الحقّ في البوح به، لكنّي تذرعت طبعاً بمبدأ الأخلاقية العليا التي تبرر انتهاك مواضعات أخلاقيةٍ صغرى، وإن ظللت أسائل نفسي في السرّ بصوت خفيض: أليست هذه هي الميكافيلية بعينها؟

كانت نتيجة التصويت متوقَّعة سلفاً: اثنان مع، وخمسة ضد انضمام شوارتز إلى الحلقة، مع التنويه بجهوده وعمله المساند للثورة، ومع ضرورة توجيه نظره إلى أن مسألة شرائه وبيعه لأوراق ماليّة يتناقض مع المبادئ التي نؤمن بها جميعاً.

وبينما هَمَّ فتوح بالخروج يدبدب بقدميه ويُتمتم لنفسه بما لا يُسمع ولا يُفهم وينفث دخان سيجارته الكرافن إيه، كان أحمد النمس قد

صمت، وقد تقبلّ نتيجة التصويت وفقا لقاعدة «المركزيّة الديمقراطيّة».

قبل أن يخرج فتوح تماماً من باب الغرفة التي كانت قد عبقت برائحة السجاير الهوليوود والبلمونت والكرافن إيه هتفتُ به أن ينتظر لحظة، واقترحت أن نسمع ما كتبته عن «سيكلوجية فرويد» غداً في بيتنا في شارع ابن زهر.

وافق الجميع في جوٍ من المصالحة والاسترضاء.

في غرفتي التي يشغل فيها مكتبي القديم جانباً أمام كنبة استامبولّي، ومن الجانب الأيسر سرير كبير، أحضرت كرسيين ثقيلين من طقم غرفة الصالون، لون قماشهما قد حال وذبل وتشعّثت أطرافه قليلاً، وخشبهما السميك الأرو منقوش بشغل الزخرفة الدمياطيّ الأصليّ. لم يأتِ كامل الصاوى ولا فتوح القفّاص، وكان على أبو الليل يصغي بانتباه وتركيز لا يملك أمرهما طول الوقت إذ ألمح وأنا أقرأ، ببطء ووضوح، عينيه تسرحان وتتوهان في مساراتٍ خاصّة لا وصول إليها.

وصلت إلى الفقرة التي تتحدث عن الـ «هُوَ» عند فرويد:

«في الـ «هُوَ» توجد النزعات الحيويّة العميقة دائماً متوفّزة بغرض إشباعها، وتوجد تلك المادة المكبوحة الموروثة من ذكريات الطفولة وتجاربها والتي تحاول دائماً أن تصل إلى التعبير الواعي، ذلك أن الـ «هُوَ» يحاول أن يحصل على إشباع حوافزه بدون تقدير لظروف المكان والمناسبات بل هو يتطلّب الإشباع العاجل بلا قيد ولذلك يصفه فرويد بأنه خاضع لقاعدة اللّذة، وعلى ذلك نستطيع أن نركّز مميزّاته الرئيسية فيما يلي:

١- أنه لا واعٍ، ٢- أنه غير منطقيّ أو غير عقليّ إذ إنه خاضع لا للاعتبارات الواقعيّة بل لقاعدة اللّذة الهادفة إلى الإشباع اللاشرطيّ،

٣- أنه مستودع ما يسمى باللّيبدو أى الطاقة أو القوة الدافعة خلف

كل الحوافز الغريزية ، ٤- أنه يحتوى كل المادة المكبوتة ، ٥- أنه يحتوى المميزات العرقيّة الموروثة ، ٦- وأنه لا أخلاقىّ إذ ليس لديه أية فكرة عن الخير أو الشرّ أو الصواب والخطأ ، فى توفّزه المستمر لإشباع مطالبه.»

كان على أبو الليل قد عاد إلينا من متاهته الداخلية ومدّ يده إلى علبة سجاير قاسم إسحاق الهوليوود ، سحب منها سيجارة ونفث دخانها من فمه دون أن يستوعبه بطريقة الهواة المبتدئين، كان نادراً ما يدخّن.

بينما انضمّ إليه قاسم إسحاق يدخّن بأسلوبه المنهجيّ المحنّك بخبرة طويلة.

وكنا قد شربنا الشاى الذى أعدته وقدمته لنا أمىّ، مُرحّبة بنا وداعية لنا بنجاح مقاصدنا وأن يحفظنا ربّنا من كل ردَى.

فتوقفت قليلاً، ثم واصلت القراءة من الورقة التى أعود إليها الآن وقد اصفرّت وذبلت وكادت تمّحى سطورها:

«يتضح إذن أن الـ «هُو» إذا تُرك له القياد فلابد أن يؤدّى ذلك إلى انهيار الكائن أو على الأقل وقوعه فى صعوبات لا حصر لها ، ذلك أن الاعتبارات الواقعيّة لا تخضع بسهولة لحوافزه ولا تتكيّف وفق رغباته ونزواته ، وإذن فإنه على الأقل يجب أن ينتظر قليلاً حتى تجاب مطالبه إن أجيبت ، وعلى ذلك يبتدئ جزء من الـ «هُو» فى الطفولة الباكرة يتأقلم ويتكيّف حسب الظروف الخارجيّة ، وهو ما يسمى بـ «الأنا».

«الأنا» و «الأنا العليا» كلتاهما تكبح وتراقب مطالب الـ «هو». «الأنا» ترمى إلى إشباع هذه المطالب أساساً ولكنها تتخذ فى ذلك الأسلوب المنطقىّ أو العقلىّ، أسلوب تقدير الظروف الخارجيّة والعمل على أساسها ، فهى تقوم فى الواقع على خدمة الـ «هو» وتلبية مطالبه ولكن على أساس واقعىّ عقلىّ.

يقول فرويد:

«على العموم تضطر الذات إلى تنفيذ أغراض الـ «هو» فهى تؤدّى واجبها إذا نجحت فى خلق الظروف التى تمكّنها من إشباع هذه الأغراض، ومن الممكن مقارنة العلاقة بين «الأنا» والـ «هو» بالعلاقة بين الفارس وجواده»

أو كما قلت «بين أشواق ومطالب الطبقة العاملة من ناحية وقيادتها الواعية من ناحية أخرى».

لم تكن المقارنة بين الـ «هُوَ» الفرويدىّ وبين «الطبقة العاملة» الماركسيّة، مقارنة دقيقة ولا صحيحة. لكننى لم أستطع - عندئذ - أن أقاوم غوايتها.

«مطالب الطبقة العاملة مشروعة ومبرّرة ويجب أن نعترف بها ولكن القيادة الواعية هى القادرة على تحقيقها بما يتفق مع الظروف التاريخيّة والاجتماعيّة، مع ضرورة الاحتفاظ بإمكانية الثورة الدائمة على هذه الظروف وإمكانيّة تغييرها أو تثويرها إشباعاً لمطالب الطبقات المقموعة مع الاحتفاظ بأهم خصائص الـ «هُوَ» - الطبقة المقموعة - وهى الثورة الدائمة والديناميكيّة المتصلة، فهى ليست طبقات منفصلة ومتدرجة بل هى علاقات موّارة وتشابكات مستمرة».

قلت مستكملاً هذا التصوّر الخاص:

«العناصر الثلاثة إذن، فى العقل الفرويدىّ أو النفس الفرويديّة: الـ «هو» والـ «أنا» والـ «أنا العليا» تتدافع ويؤثّر بعضها على بعض باستمرار، كما أن عناصر المجتمع: الطبقات المقموعة وقيادتها والطبقة الحاكمة، كلها أيضا تندرج فى ديناميكيّة صراع وجدل وحراك مستمّر».

قلت:

«نعم هذا تصوّر تبسيطىّ جّداً وتجريدىّ جّداً لكنه على أيّة حال مقاربة صحيحة لما يمكن أن نسميه واقع الأمر، فى كلتا الحالتين».

كنت فى ذلك الوقت - نوفمبر ١٩٤٧ - أحاول، ولعلنى مازلت

أحاول، أن أوفّق بين الـ «هو» والـ «أنا» والـ «أنا العليا» بالضرورة، وأريد أن أُدخل على كلّ عقائديّة أنفاسَ التحرّر، ولكن الفرويديّة كلّها، في آخر الأمر، تحوّلت إلى دوجما ولقيت مصير كلّ دوجما.

فما أسرع ما تتسلل بؤرة الفساد الدوجمائيّة إلى قلب نزعة الحريّة، وما أسهل أن يتحوّل الدافع الديناميكيّ نحو الحريّة إلى قالب دوجمائيّ.

قلت: حذار من أن تتحول الثورة إلى نظام.

في الحياة وفي الفنّ على السواء

وقلت: وهل ثَمّ مخرج من هذه الدورة الخبيثة؟ الثورة تستحيل إلى نظام، والنظام لابد أن تنقلب عليه الثورة، هذا درس التاريخ وكأنه قانون يتجاوز التاريخ أيضًا.

ولكن أيّ نظام؟ وأيّة ثورة؟

أكثر من ساعة استغرقتْها قراءة الورقة المكتوبة بخطٍ لا يكاد يختلف عن خطّي الآن، مع تعليقات وتوضيحات سريعة حتى اختتمتُها:

«وعلى هذا الضوء، ومع تقدير ظروف المجتمع الخارجيّة، يمكن أن نتفهّم تصرّفاتنا وأفكارنا ومشاعرنا، وعلى هذا الضوء يمكن أن نتوقّف لحظة لكي ندرك أهمية هذا المقدار الكبير من تجارب حياتنا وقد طغى عليه الكبت النفسيّ من ناحية، أو القهر الاجتماعيّ من ناحية أخرى، وقد دفعنا به بعيداً إلى أعماق اللاوعي وإلى قاع مجتمعنا، وعلى الأخص اللاوعي الاجتماعي الذى ترزح تحته الطبقات المقموعة، رغماً عنها، وبفعل الطبقة الحاكمة التي لعلها توازى الـ «أنا العليا»

«باستطاعتنا إذن أن نحاول تفسير كثير مما يعرض لنا، وأن نحاول تغييره، إذا تفهمنا سيكولوجيّة فرويد من ناحية، وتحليلات الماديّة الجدليّة والمادية التاريخيّة من ناحية أخرى، فندرك - مثلاً - أسباب القلق غير المعقول الذى يهاجمنا أحياناً، أو أسباب الاضطراب

الاجتماعيّ الذى يقع أمامنا وحولنا ، ونَعي أسباب تلك الآلام الفادحة التى تمر بنا أحياناً ، أو ذلك التردّد الذى يشوب الكثير من تصرّفاتنا بلا دافعٍ معقول ، أو نفهم علّة ذلك الكره ، أو الحب ، الذى يبدو غير منطقيّ ، كما ندرك أسباب خضوع الكثيرين لتقاليد بليت وتعفّنت وهي تتناقض مع أبسط قواعد التفكير السليم ، ندرك مغزى تسليم الكثيرين بالبشاعات والمظالم القاسية التى نراها كل يوم فى حياة وبنية المجتمع ، ورضى الكثيرين عن هذا الواقع المظلم المرّ ، وإحجامهم عن بناء مجتمع صالح جديدٍ وجديرٍ بالإنسان ، مجتمع الحريّة والعدالة ، وبذلك نستطيع ، على هَدْى السيكلوجيّة الجديدة ، وعلى ضوء النظرية والممارسة الاشتراكية ، أن ننظّم حياتنا ومجتمعنا ، على أساسٍ أكثر منطقيّةً واتفاقاً مع قاعدة الفعل والواقع وإن كان ذلك عن طريق الثورة الدائمة .»

وعلى نبرة التفاؤل والحماسة العالية التى أنهيت بها قراءتي ساد صمت في غرفة شارع ابن زهر المغلقة التى عبّقها الآن دخان السجاير ، وجهد المتابعة لأفكار بدتْ عندئذ غير مألوفة ، وإن كانت تُعدَّ تخطيطاً فيه قدرٌ كبير من التبسيط إن لم يكن السذاجة أو الخَطَل الصُراح .

كانت تتمطّى فى حضني ورأيت أنّ جسدها الطويل أسود ناعم ولامع ، وأنّ عينيها متقدتان ، نهداها الفتيّان المشرئبّان قد انتصبت فيهما نبقتان قويّتان وممتلئتان ولهما لون أشدّ سواداً ، وساقاها ممشوقتان مسحوبتان تنتهيان بأصابع مطليّة بمانيكير أبيض عاجيّ يتجاوب لونه مع أسنانها العاجيّة البيضاء إذ تبتسم ، شفتاها اللحيمتان تنفرجان عن نواجذها بحركةٍ لم أعرف إن كانت أمَارة نشوة ورضى أم إشارة غضب واستعداد للانقضاض .

وهي تئنّ وتموء تحت وطأة اندلاعٍ يبغى الريَ الآن ، فوراً ، تحت ثقل قَهْرٍ لا يُطاق .

أنثى فهد سوداء عارمة التطلُّب عصيّةٌ على التملُّك، مدّت ذراعيها النحيلتين تعانقني فإذا بقضبان حديديّة رفيعة تقوم بيني وبينها متينة صلبة لا فرجة ولا ثغرة يمكن النفاذ منها، لا أمل في ثنيها أو زحزحتها، هل كانت القضبان تحيط بي، تحبسني في إسارٍ لا فكاك منه؟

أم كانت نزعتي إلى التحرر تهزّ القضبان الصلبة فيتزلزل جسدي كأنما يتمزق؟

الفصل الحادى عشر

قرأت في الأهرام أن فتاةً تدعى فاطمة ميمون الزيتونى وُجدت قتيلة، عاريةً تماما، أمام عتبة بيتها فى شارع القاضى الفاضل بناحية بحرى بالإسكندرية.

رأيت أنها مذبوحة. رأسها - وقد انفرط شعرها الأجعد على جبهتها المدوّرة الناصعة - مفصول تماماً عن جسمها، ملقى بها على أرض الشارع الترابيّة التى ابتلّت ببقعة كبيرة منداحة من دمها.

كانت العينان، فى الرأس المفصول، مفتوحتين على سعتهما بنظرة تجمع بين القبول والتمرّد، بين مفاجأة الدهشة والتسليم بالمقدّر المكتوب، جسمها الجميل الممشوق يبدو كأنه ليس من هذا العالم، ناعماً متناسق الجوارح دون أدنى شائبة، ليست فيه طعنة واحدة ولا جرح واحد، ساقاها المخروطتان الأسيلتان منفرجتان عن ربوة فينوس كثيفة جعداء الشَعْر - قلت: نَمَتْ وتكاثفت..! - حركة انفتاح الساقين الجامدة النهائيّة ليس فيها أدنى بذاءة بل هو تخلٍ كاملٍ عن كلّ ما هو أرضيّ ومبتذل.

كانت نقيّةً في موتها وانفصال جسدها عن كلّ ما هو معتاد وكل ما هو مقبول.

كان الشيخ متولى إمام الزاوية فى طريقه إلى رفع أذان الفجر عندما فاجأته هذه الرؤيا فى ضوء الفجر الخايل وتحت نور عمود الكهرباء الذى ابتدأ يصفرّ ويبهت.

لم يصدّق - دعَكَ عينيه وهو يبسمل ويحوقل، بسم الله الرحمن

الرحيم، وعندما نظر مرة أخرى كانت الرؤيا أشد تجسُّداً وأقوى مثولاً.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ارتعد قليلاً من لذعة برد الفجر أو من اهتزازٍ اعترى كلّ بدنه برجفةٍ أنكرها وقمعها، خلع عباءته القديمة الناصلة قليلاً ورماها على الجثة وعلى الرأس المقطوع معاً، من غير أن يمسّهما، وهو يتمتم لنفسه: الله يرحمها ويرحمنا جميعاً، الرحمة تجوز على الأحياء والأموات.

خبط على باب البيت الذى كانت الجثة على عتبته خبطات متتالية وقد مرّ بذهنه أنه سيتأخر عن رفع الأذان، لكنه قال فى نفسه: كلّه بثوابه.

وفى الفجر المبلل بندى وطراوة البحر الملحية المبكرة اختلط أذان الفجر بصرخات نسوان الحارة بالصويت العالى وجاءت عربة البوليس وضابط مباحث الأنفوشى والعساكر وعربة الإسعاف تضرب جرسها لتحمل الجثة ورأسها إلى المشرحة. كان قرطها الطويل ذهبىّ الشكل مازال فى أذنيْها.

عندما ذهبت أزور قاسم إسحاق فى الشارع القريب من بيتها قلت: من باب العشم أحوّد أسأل.

فعرفت الحكاية من جاراتها.

وعرفت بعد ذلك أن القضية حُفظت، قُيّدت ضد مجهول.

هل الموديل التى كانت تخشى عساكر الإنجليز جاءها مصيرها على أيدى أهلها، ذوداً عن العرض والشرف؟

فى تلك الليلة نفسها كان معى ميعاد مع زينب المشراوى فى البيتى تريانون فى آخر شارع سعد زغلول.

كان لهذا الحلوانى «الراقى» جنينة داخلية هادئة تدخل إليها من قاعة فسيحة تنيرها أضواء محكومة بمكر وحذق لكى تعطى حسّاً بالراحة ويفوح منها عبق الجاتوه العطر بالسكّر والشيكولاته والڤانيليا والخبز

الفرنسيّ الساخن، مضفوراً وطويلاً ومدوّراً، وبرطمانات المربّى جسدانيّة الزجاج بما تحتوى من عجائن المشمش واللارنج والبرتقال وثمار التوت البّرىّ.

كنت أختار مثل هذه الأماكن في إسكندرية إذ أتصوّر أنها لابد أن تكون بعيدة عن أعين المباحث، في شارع سعد زغلول «ديليس» و«الپيتى تريانون»، فى محطة الرمل «أتينيوس» و«التريانون»، وفى شارع فؤاد «بودرو».

جئت متأخراً نحو عشرين دقيقة رغم حرصى التلقائيّ على دقّة المواعيد. خيّل إليّ أن شخصاً ما يتعقّبنى وكان بالزىّ الرسمى للمخبرين السرّيين: البالطو والجلباب والطربوش والعصا الخيزران والحذاء الأميرىّ الضخم الفضّاح. نفذت من الشارع الصغير الذى فيه البنك اليونانيّ ومطعم الأونيون، إلى ميدان المنشيّة ودرت حول الحديقة اليانعة بأشجار النخل السلطانىّ أمام الكاتدرائيّة الإنجليزيّة.

أبطات أمام واجهة مكتبة المعارف، ومحل نظّارات مارون آياك ووجدت أن المخبر قد اختفى، لم يكن يتعقّبنى فى النهاية ولا يحزنون.

وجدتها جالسة إلى مائدة منعزلة بعيدة فى ركن الحديقة، ولم يكن يبدو عليها أدنى تململ.

بادرتنى: عارفة، ظروف الأمان - أليس كذلك؟

ابتسمت شاكراً وطلبت اثنين شاى كومپليه، وتصورت أن الجرسون نظر إلينا نظرته إلى عاشقين صغيرين ساذجين ليسا من روّاد مثل هذه المغانى، لاشك أن هندامنا لم يكن فى نظره حسب الأصول.

حدثتنى طويلاً عن موقف إدارة المصنع من مطالب العاملات، وتهديدها بفصل العناصر المشاغبة ومن يعتنق أو يروّج للمبادئ الهدّامة، وعن صلابة البعض وتراجع البعض وصمت الكثيرات دون إعلان موقف حاسم انتظاراً لما تسفر عنه التطورات.

وعندما أثرت معها احتمال تنظيم إضراب يشارك فيه العمّال مع العاملات، ويقوم فيه زملاؤنا بالتنظيم وبالتحريض، قالت إن الوقت لم يكن ناضجاً بعد لمثل هذه الخطوة التي يلزم أن ندخّرها كإجراء أخير، وإن مطالب العاملات مازالت أمام الإدارة لم تقطع فيها بالقبول أو الرفض، وهو موقف يعتبر مشجّعاً ويفتح الباب أمام ضغط أكبر بالقدر المناسب.

كانت زينب المشراوى، وهى تتكلم بكل هذه الحكمة، تتّقد عيناها المزجّجتان بخطّ خفيف من الكُحل البلدى تبدوان عميقتين غائرتين فوق الوجنتين العظميّتين شديدتىْ الدُكنة واستقامة الخطوط، وجهها النوبىّ مضرّج بتدفق دم الحماسة، وكان جسمها النحيل الصغير، فى الفستان المشجّر اللامع بومض حريرى خافت، ثابتاً هادئ الروع فى المقعد المريح.

جاء الجرسون بصينيّة الشاى عليها الإبريق الخزفىّ، رفعه وصبّ السائل الكهرمانىّ فى فناجين واسعة مفلطحة، وعلى الصينية أطباق الكيك والسكريّة وإبريق اللبن، تركها ومضى وهو يلقى علينا نظرة خلفيّة مهذّبة لا تخلو مع ذلك من الفضول.

سألتنى عن أخبار قاسم إسحاق وقلت إنه مازال مختبئاً من تعقُّب البوليس فى غرفته التى استأجرتها له فى بحرى، ولم تسأل عن عنوانها وطلبت منى فقط أن أسلّم عليه وأن أقول له إن قلوبنا كلّنا معه.

ولما طلبت الحساب صمّمت زينب أن تفتح شنطة يدها، كففتها بهدوء، وضعت يدى على يدها وأحسست بدفء مفاجئ من اليد الخشنة القوية، ودفعت للجرسون المبلغ الفادح ٢٣ قرشاً وتركت له النصف فرنك بقشيش فشكرنى مُمتنّا وكأنه مُفاجأ: مرسى، مرسى يا بيه..!

استأذنت زينب وسبقتى على ميعاد نحدّده بعد ذلك عن طريق

سلامة أو عايدة عندما أذهب لواحد منهما فى المكس.

فى طريقى إلى التواليت مررت بنافذة صغيرة يهبّ منها هواء ساخن تطلّ على المطبخ والفرن.

فى الغرفة الضيّقة المشبعة ببخار ودخان وروائح مختلطة ثلاثة رجال يعملون بعنف أمام الأفران الكبيرة التى تفحّ نيرانها من فوّهات الغاز المفتوحة وفى جوف بطونها من وراء صاج الأبواب المطليّة بالمينا البيضاء الموصدة على جحيمها الصغير المتقد. والمواقد الجانبية تئزّ تحت أوعيةٍ كبيرةٍ ضخمةٍ وصلتنى روائح سكّر مذاب ممتزج بفوح احتراقٍ ثابت محكوم.

كان الرجال يعملون فى ضوء مختلطٍ غيِّر معالم وجوههم فبدتْ غير واضحة خيّل إلىّ أن عليها قشرة من هباب الأفران والعَرَق الذى يتفصّد غزيراً فى خيوط مغبرّة على الوجوه الجافّة قاتمة السواد، وكانوا هم أيضا لا يرتدون إلا شوالات قصيرة مقطوعة الأكمام تنبثق من أكتافها أذرع مفتولة ونحيلة وعَضِلة فى الوقت نفسه، وهم يتنقّلون بسرعة فى صوت الفحيح والفوران والأزيز بين النيران، تحت البخار والدخان الخفيف.

ذهب قلبى لهم وأحسست ما فى جوفى يوشك أن ينقلب علىّ.

قلت: أهذا التعذيب هو ثمن الرهافة والرقّة فى صالون الشاى الحلوانى الراقى الذى اتخذ لنفسه اسم أحد قصور عائلة البوربون البائدة؟

تمزقت روحى، من غير مجاز.

قلت: هل هذه سنتمنتاليّة فجّة وساذجة؟ أم أن هذه المشاعر حقيقيّة أيا كان معنى ذلك وليست زائفة. ليست فيها أدنى طرطشة أو ميوعة بل هى محتدمة ومحرقة؟

قلت: هل السنتمنتاليّة تظلّ على هذه الصفة أم تنقلب ضدها عندما تكون بهذه الحدّة، وعندما تُكِنّها الجوانح بهذه الصرامة، وعندما تجد

متنفساً لها لا في القصائد العصماء الجوفاء بل في الفعل، في العمل، وفي الفنّ الصارم الدقيق، مهما لاح ساذجاً ومستميتاً وكأنه عقيم؟

قلت: مازلت لا أفهم ولا أستطيع أن أقبل فداحة الثمن الذى يدفعه الشغّالون في الأفران والمطابخ والمصانع والغيطان والمناجم، مازالوا في بلادنا على الأقل، إن لم يكن حقاً في بلاد الشمال المُصَنَّعة، يدفعونه - هذا الثمن الفادح - ويدفعون حياتهم فيه؟

قلت: عندما أحكي لسلامة وزيدان وشاكر وعايدة عن حُلْمٍ، عن رؤيا تقوم فيه آلات ذكيّة بأعمالٍ ظل العبيد من كل نوع ينوءون بعبئها القاتل طوال القرون؟ هل أنا حقاً حالم أو شاعر؟

قلت: وحتى إذا تحقّق الحلم هل فيه تعويضٌ ما أو تكفيرٌ عن آلام ومعاناة وعذابات فيزيقيّة وروحيّة لملايين بعد ملايين من عبيد الأرض، في أثينا فردوس الديمقراطية، أو في الكونغو، في سهوب سيبريا، أو أحراش أفريقيا، في مانشستر ڤيكتوريا، أو بغداد الرشيد، في غيطان الصعيد أو جبال الأنديز..؟

قلت: أهذه أنشودتنا المكرورة نكرّ حباتها على السبْحة دون كلل؟

ومع ذلك خرج الأنا الآخر، أو أحد الأنوات الأخرى، على أيّة حال، يطلّ برأسه في خضمّ الأنشودة وفي قلب حلم اليوتوپيا، يضع قدميه على الأرض بكل طينها، بكل ما فيها من اتزان وتعقّل وتحوّط، وهأنذا، أنا الآخر، أتلقّى خطاباً من قريبنا الذى كان يشغل منصباً كبيراً في الحكومة، ينصح ويشير ويساعد على اختيار الطريق «الصحيح» بعد أن تخرّجت من كليّة الحقوق:

تحريراً في ٢٨ نوفمبر ١٩٤٦

ولدنا العزيز الأستاذ

بعد التحية

وصلنى خطابكم وأنا طريح الفراش لمرضى وسررت جداً لنجاحكم فى الليسانس فأهنئكم راجياً لكم كل توفيق ونجاح فى حياتكم المقبلة. أما ما يمكن أن أشير به عليكم حسب طلبكم فهو الالتحاق بأحد مكاتب المحامين بسوهاج وهم كثيرون ومعروفون لكم وخصوصاً أن بعضهم من الأقارب وهذا لا يمنعكم من الدراسات العليا التى ترغب فيها مثل التحضير للدكتوراه، أما الموضوعات التى يمكن أن تأخذها فى دراسة الحقوق فيمكن أن تكون أحد الموضوعات الآتية أذكرها لحضرتكم على سبيل المثال لا الحصر وهى: المجالس الملّية بالقطر المصرىّ، أحكامها وطرق تنفيذها ويشمل ذلك التضارب فى أحكامها مع المجالس الملّية الأخرى والمحاكم الشرعيّة، هذا موضوع واسع يمكن أن تستفيدوا بخبرة أحد حضرات المحامين بسوهاج الأعضاء فى المجالس الملّية مثل الأستاذ كامل زكى ونجيب ساويرس المحامين بسوهاج.

وإنى أرجو لكم التوفيق والنجاح فى هذه الدراسة

وتفضلوا بقبول فائق احترامى،

المخلص إسحاق تكلا

فلماذا كنت أنظر بشىءٍ من النفور إذ إن زميلنا كامل الصاوى قد التحق بسلك النيابة العمومية؟

وهل كنت حسن الحظ لأننى أخفقت فى كل تلك المشروعات التى أشار بها علىّ قريب العائلة، ولم أنخرط فى سياقها من الأصل؟ حَسَن الحظّ أم حَسَن الإرادة؟

قال لى فتوح القفّاص:

– صديقى إسماعيل عامر جاء من القاهرة أمس، وعنده اقتراح وليس عندنا وقت للمناقشة وطقّ الحنك، يعود غداً للقاهرة.

قلت : إيه الحكاية؟ ما الاقتراح ؟

قال ببساطة: نذهب الآن فى سيارته إلى كفر الدوار، وندخل معه إلى مصنع الغزل والنسيج بصحبة عامل قديم فيها، صاحبه من زمان، ونتكلم مع اثنين ثلاثة من النقابة.

قلت : الآن؟ هكذا؟ دون إعداد ؟

قال وهو يخبط بمودة على كتفى: يا حيوان .. بطّلْ هذا العقل كلّه، موافق تيجى أو غير موافق؟

قلت : موافق طبعاً، أين إسماعيل عامر ؟

قال : سوف يكون فى انتظارنا فى سيارته أمام باب الكرستة ع المينا الساعة اثنين ونصف.

تركته وخرجت مع زينب وعايدة، كنا يوم أحد وعندهما إجازة، اشتريت لهما أسطوانتين: النزوة الإيطالية وبحيرة البجع.

ثم بالكاد روّحت وأكلت لقمة وأخذت ترام الجمرك.

كنت قد عرفت إسماعيل عامر فى زيارتى للقاهرة فى أواخر صيف ١٩٤٦، موفداً من اللجنة للاتصال بأصدقائنا الذين لم نكن على أية علاقة بهم، أعطانى قاسم إسحاق عندئذ رقم تليفون عطا الله سليمان، وما أن نزلت من القطار فى باب الحديد حتى طلبته واتفقنا على ميعاد غداً صباحاً الساعة ٩ فى عنوان على شارع النيل فى العجوزة.

تعشيت فى اكسيلسيور، مكرونة بالفرن وسندويتشات چيجو وكبدة مع سينالكو، قضيت ليلتها فى فندق جراند أوتيل بجنيه مصرى واحد للّيلة، وفى الصبح كان يوم جمعة نزلت شارع سليمان وكان يبدو طويلاً وأنيقاً هادئاً شبه خاوٍ، عماراته بطرازها الإيطالى والفرنسى فيها نفحة عراقة، بعد أن أفطرت فى الأميريكين على قهوة باللبن وقطعة كيك.

وصلت إلى ميدان الإسماعيلية، وثكنات قصر النيل الحمراء قبيحة

الشكل سيئة السمعة تبدو مهجورة، عبرت كوبرى قصر النيل وانحرفت يميناً حتى وجدت العنوان، كانت الشقة فى دور أرضىّ، وفتح لى عطا الله سليمان نفسه. رحّب بى بصوته الأجش القوىّ فيه أثارة لا تكاد تلحظ من لكنةٍ شاميّة أو متمصرة، وقال دون مقدمات ودون حرج وبشتيمة التدليل لأصدقائنا:

- تعالَ، ولاد ... كلهم هنا ياسيدى مستنيين أخبار إسكندرية.

دخلت إلى الغرفة الأرضية الفسيحة المطلة على جنينة صغيرة يبدو من ورائها شارع النيل والنهر المتدفق فى أوائل موسم فيضانه يهدر من وراء النافذة المفتوحة على أرض معشوشبة بخضرة زاهية وفيها مربعات زهور البانسيه والمرجريت اليانعة.

كانوا جالسين على فوتيّات قش مشغول، عليها شِلَت مريحة، وأمامهم ترابيزة قشّ مدوّرة زجاجيّة السطح عليها كلّ جرائد ومجلات الصباح، وأحسست أن فى ذلك كله ترفاً ورفاهيةً لم أكن قد عرفت مثلها قطّ من قبل، كان شراء صحيفة واحدة كل يوم بقرش صاغ أمراً لا يستهان به عندى ويُحسب له حساب. وفى النهاية ربما كان ما تصوّرت رفاهية وترفاً ليس إلا من قبيل المألوف المتوسّط عند هذه الطبقة من مثقّفى البورجوازية الثوريين.

عرّفنى عطا الله سليمان بسرعة بهم واحداً بعد واحد، بنغمة التدليل التى صدمتنى أولاً ثم قبلتها كأنها بعد ذلك لا تصدمنى ولا تعنى عندى شيئاً «أهُمْ ولاد ...» إسماعيل عامر، أمجد كامل، حسن رشدى.

لكنهم كانوا فيما يبدو على شىء من الجديّة، وربما اللامبالاة قليلاً، لم يكن عندهم الكثير مما يقولون، كان واضحاً عندى من اللحظة الأولى أنهم جماعة من المثقّفين همّهم الأساسىّ هو الكتابة السياسيّة والاقتصاديّة، قال عطا الله سليمان إنه فى سبيل نشر كتيّب صغير عن

السوق الرأسماليّة المصريّة وأشار إسماعيل عامر بغموض إلى أن العمّال في شبرا الخيمة مازالوا يطالبون بالاعتراف بمؤتمر النقابات العمّالية العام وبحقوقهم النقابيّة ولم يتكلم حسن رشدى يومها بل أخذ يتفحّصنى بعينين فاتحتين وشعره الضارب إلى شقرة مع شيب خفيف، أما أمجد كامل فقد كان يصغى باهتمام محنيّ الرأس ومثقلاً بهموم كثيرة فيما تصوّرت وأنا أحكي باختصار ودون ذكر أسماء محددة أو مواقع بعينها عن نشاط اللجنة فى أوساط الطلبة والعمّال فى إسكندرية.

إسماعيل عامر هو الذى جاءت جلستى على الفوتييّ القشّ بجانبه مباشرة.

كان أميل إلى القصر والامتلاء متّقد العينين بسواد عميق نفّاذ، مشتعل الرأس بشعر أجعد أسود وكان متدفّقاً ودقيقاً، واثقاً تماما بنفسه وبعمله ومما يقول ولم أعرف ولا سألت عما يفعل على سبيل كسب العيش، لاهو ولا أحد من هذه الجماعة التى اتضّح لى أيضاً أنها غير متماسكة التنظيم وأنها تلتقى - كلها أو بعضها - بطريق الصدفة بين الحين والحين، أى أنها ليست «تنظيماً» كما كان يقال بل هى جماعة من الأصدقاء، لعل علاقتهم أحدهم بالأخر ليست حميمية ولا وثيقة الأواصر.

ومع أننا فى إسكندريّة لم نكن نعتبر أنفسنا تنظيماً بل لجنة أو حلقة على شيء من الانتظام ولكن دون صرامة التنظيمات الحديديّة إلا أننى أحسست بشيء من الإحباط وخيبة الأمل. كانت هذه فى معظمها أسماء كبيرة سمعنا عنها وعن تاريخها وها أنا أجدهم فى جوّ أبعد ما يكون عمّا تصوّرت أنه جوّ الكفاح «البروليتاريّ» الثوريّ.

مال عليّ إسماعيل عامر وسأل بصوت جهوريّ لم يُعن بأن يخفض من نبرته:

- هل تحبّ الموسيقى الكلاسيك؟

أجبت باندهاش قليل وعلى الفور: جداً، أحبّها جداً.

قال: إذن تعال بكره نسمع، هل تعرف البار الذى فى آخر شارع سليمان، اسمه الشرى بِلْز يعنى الأجراس الثلاثة بالإفرنجى، لماذا لا يقولونها بالعربى لا أعرف.. المهمّ.. تعال لى هناك الساعة أربعة ونصّ بكرة.

تردّدت قليلاً، فقال بسرعة:

- تعال يا أخى عازمك على بيرة على حسابى.

بشكلٍ ما كنت أنتظر أن يكون الميعاد فى إيزاييڤتش على ميدان الإسماعيلية ولكنى كنت أعرف أن هذا البار هو أيضاً موئل لليساريّين القاهريين.

كانوا ينظرون إلينا، وكأنه لا يهمّ فيما يفكرون.

قال عطا الله سليمان:

- أراك فى المكتبة أى وقت الصبح، من الساعة ١١ يعنى

قلت: آسف يا أستاذ عطا الله

قاطعنى: أستاذ إيه وبتاع إيه.. قل لى عطا الله على طول.

فضحكت بصوت عال دون أن أملك للضحكة ردّاً وقلت:

- طيب يا عطا الله بكره الصبح ليس عندى وقت، سأذهب لأرى رمسيس يونان فى القلعة.

قال: خلاص.. الليلة تبات عندى فى البيت، سيبك من الهوتيل.

قلت: اتفقنا.

كان الآخرون فى تلك الأثناء قد أخذوا يتبادلون قراءة الصحف والمجلاّت، ويشربون القهوة التى جاء بها، فى إبريق فضى كبير لامع مع سرڤيس شكله فضّة وفناجين كبيرة صينى أصلى وإبريق اللبن، جرسون نوبىّ فى جلباب أبيض وحزام أحمر حسب الأصول تماماً وكما نشاهد فى الأفلام المصرية.

أدهشني قليلاً مرة أخرى جوّ الراحة البورجوازيّة اللطيفة الذى ينعم فيه أصدقاؤنا الثوريّون.

قلت: معلش.. ليس فى هذا كله بأس مادامت مبادئ وممارسات العمل والفكر والتطبيق سليمة وقويّة.

ولم أكن مقتنعاً تماماً بما قلته لنفسى.

الأقرب إلى نفسى جوّ شارع العباسى المتواضع جداً، بالحصير والكَنَب الأسطمبولى والسجاير المطفأة المهروسة فى أغطية زجاجات السينالكو، وأكواب الشاى الزجاجيّة المخضرّة من مصانع ياسين.

فى اليوم التالى ذهبت إلى درب اللبّانة صباحاً وإلى غرفة موريس عوض فى شارع سليمان ظُهراً، قدّمنى إسماعيل عامر إلى موريس عوض الذى كان قد عاد حديثاً من إنجلترا بزوجة أيرلندية وكانت الغرفة فى هذا البنسيون يشغلها سرير كبير ومكتب صغير على جنب، وعدة كراسى وفوتيّيات. تربّع إسماعيل عامر أرضاً على السجّادة واقتعد الأرض جنبه اثنان ثلاثة خمّنت أنهم من طلبة موريس عوض وجلست أنا على كرسىّ خيرزان وأدار موريس أسطوانات الكلاسيك على جهاز كبير لامع الخشب، وسمعت كسارة البندق لتشايكوفسكى والتاسعة الكورالية لبيتهوفن وسوناتات لباخ، وجبة دسمة فى مناخ طقوسى يشبه التعبّد.

شرح موريس عوض بلهجة المعلّم الأستاذ شيئاً عن الخلفية التاريخيّة والبنية البوليفونية لما سمعت، بلكنة المثقفين الوافدين على الفور من بلاد برّة.

منذ اللحظة الأولى - كما يحدث معى - توطدت بينى وبين إسماعيل عامر صداقة تفاهم وإعزاز - هل فيها شىء من التحفظ أو الاحترام المتبادل أيضاً؟

تقطعت أواصر العلاقة بيننا، لا لسبب، ربما بحكم ما يسمى

«بالظـروف»، ربما لأن كـلاً منّا سـار فى طريق، وانشـعـبت الطـرق، على رأى المثل الشعبىّ: خالتى وخالتك وتفرقت الخالات..!

عمل بالصحافة وشغل فيها مكاناً بارزاً وكتب عن المسألة الزراعية فى مصر كتاباً صغيراً لكنه مازال لا غنى عنه، وتقلّبت بنا أمواج الليالى، عرفت أنه يشتغل فى بيروت مع جماعة أو جماعات من الثوريّين الفلسطينيّين إبّان الحرب الأهليّة، وأحسست عمق طعنة فى القلب عندما قرأت أن قنبلة أو صاروخاً سقط على مبنى الصحيفة التى كان يسهر فيها، وأن كلّ شىء قد انصهر فى بوتقة المحرقة التى اشتعلت فى المبنى كلّه، وأن إسماعيل عامر، المليء بالحياة المتفجّر بعرامتها وعنفها، قد استحال ذوباً منصهراً بين رصاص المطابع الملتهب والأنقاض المتهاوية.

قابلنى يومها، بالقميص والبنطلون، أمام باب الكراستة فى الجمرك، وهو فى سيّارته الفورد القديمة نُصّ عمر، أو لعل عمرها الافتراضى قد انقضى كلّه، خرج وأخذنى بالحضن الخشن القوىّ، كان عندى قميص كاكى قديم لبسته على البنطلون الرمادى المتهدّل. ولم يكن مدهشا لى - لم يعد يدهشنى منه شىء - أن فتوح القفّاص كان يلبس جلابية وعليها چاكتة، شكله مثل شكل أىّ عامل عريق.

وبعد ساعة بالسيارة وصلنا إلى كفر الدوّار. ركن إسماعيل عامر جنب محطة السكة الحديد حيث قابلنا هناك عامل عجوز مغضّن الوجه جداً ولكنه حادّ العينين وأعطى كلاً منا تصريح دخول للعمال بأسماء حقيقية.

قال لى: تسمح تخلع النضّارة يا فندى وتخلّيها معى.

أخذها ووضعها فى كيس قماش به ثلاثة أرغفة بلدى وخرطْة جبنة قريش وقال لنا: ندخل فى زحمة ورديّة الساعة أربعة.

تدافعنا مع عمال الورديّة المتزاحمين وعلى الباب لوّحنا بتصاريح

الدخول بين الأذرع الكثيرة التى ترفع بالكاد أوراق التصاريح المزيّتة ونفذنا بالجنب من الباب الضيّق الذى لا ينفذ منه إلا واحد واحد، والنوبتجى على الباب - لم تكن كلمة «الأمن» معروفة فى الأربعينيّات - لا يكاد يلمح أوراق الداخلين بالأكتاف والمناكب وقد اشتركنا معهم فى نداءات أحدنا الآخر كأننا زملاء عمل قدامى: يا حسن - يلاّ يافتوح... الله يفتح عليك... يا عمّ اسماعيل جايب لنا معاك حلاوة؟

تنفست بارتياح عندما دخلنا إلى الساحة المسَفْلَتة الفسيحة ومنها تسللنا نمشى بثقة وتثاقل وعدم اهتمام، كأننا نخرج من ورديّة الصبح ونذهب إلى عنابر النوم.

قادنا عمّ بيومى العجوز فى متاهةٍ من الممرات المتقاطعة بين مبانٍ كالحة متقاربة مظلمة الأبواب حتى وصلنا إلى عنبر نومه.

دفع الباب الخشبى ودخلنا أربعتنا إلى ما يشبه زنزانة معتمة ليس فيها نافذة ولا نور، فيها لمبة كهرباء مدغمشة متدلْية من حبلٍ تراكمت عليه مخلفّات الذباب السوداء ينزل من السقف الواطئ وعلى الحائط مسامير مدقوقة معلّق عليها عفريتة زرقاء باهتة وجلابيّة تحتها ما حدستُ أنه غيار، فانلة بأكمام ولباس طويل. إلى يسار الباب مصطبة حجريّة نائة من الحائط عليها مرتبة قشّ صفتانة، يجلس عليها بالفعل ثلاثة عمال شبّان واضحٌ من مجرد جلستهم الواثقة أنهم قياديّون.

وليس ثمّ شيء آخر أبداً إلا مجرد سبرتاية عليها كوز صفيح قديم بسلك مضفّر.

قال عم بيومى: صحيح ممنوع نعمل حاجة هنا لكن يعنى مافيش لا بوفيه ولا مطعم جوّه، والأمر ما يستغناش.

وفى أكواب صغيرة دار الشاى الثقيل علينا وقد اكتظّت بنا الغرفة - الزنزانة، ونحن نسمع أصوات العمال الراجعين إلى عنابرهم أو الخارجين إلى القهاوى بعد ثمانى ساعات شغل.

نظرت إلى إسماعيل بشيء من القلق فقال: لا تشغل بالك، هناك من يقف على ناصية الممرّ، ناضورجي يعني بلغة الحراميّة لكنه ناضورجي ليس هناك من هو أشرف منه، لن يفاجئنا ملاحظ ولا مباحث ولا أحد.

ماذا يهمّ الآن فيم انخرطنا من حديث طويل مستغرق ونحن نشفط الشاى بأصوات عالية؟

هل كنا ننظّم أو نحاول تنظيم إضرابٍ محتمل للمطالبة بالتأمين الصحي - وقد انتشر الدرن من غبار المحلج في صدور العمال وانعدام تنقية جوّ المصنع مع الآلات الحديثة الدوّارة بلا كلل - أم كنا نفكر في تكوين خلايا سريّة للنشاط الثوريّ؟

لعلنا كنا فقط نتعرف على أحوال العمّال في المصنع.

كان إسماعيل عامر يأخذ مذكّرات سريعة بقلم رصاص في نوتة جيب صغيرة فلعله كان يفكّر في فصل من كتابه القادم عن الفلاح من الغيط إلى المصنع، من بيئة زراعيّة إلى جوّ صناعيّ، ومدى انتقال ثقافته الريفيّة وتغلغلها أو تسلّلها إلى نمط حياته الجديدة.

هل طوّقني الحلم وتعثرت خلف الأخيلة وأنا خارج مع أصدقائي وسط العمّال الراجعين من ورديّة الليل، لوّحت بالتصريح في نصف العتمة على الباب، ولم يكن النوبتجي مهتماً، على أيّة حال، بمن يخرجون.

ذهبنا إلى قهوة على الترعة ذكّرتني قهوة المحمودية وعزمت على أن أزور شاكر المريوطي غداً.

بعد أن خرجنا سلّمني عمّ بيّومي نظّارتي التي حرص على إخفائها طول الوقت، وقد تغبّشت الآن، أخذت أنظّفها بقوّة بمنديلي الذى لم يكن نظيفاً تماماً، أما فتوح فكان مستريحاً تماماً في الجلابية والچاكتة عندما عدنا بسيارة إسماعيل عامر المتهالكة إلى إسكندرية النائمة بعد منتصف الليل.

خرجت زينب المشراوى من قلب الماء المتدفق بمويجات صغيرة متقطعة ضاربة إلى الحمرة، وكانت ترتدى ما يشبه زىّ راقصات الباليه باللون الأحمر الداكن، نعم، كانت بالفعل تتحرك راقصة على موسيقى «كسَّارة البندق» ومعها على أنغام تشايكوفسكى حوريّات النيل فى زىّ راقصات الباليه باللون الأصفر. طقوس الحركة الخاطفة الإيقاعيّة والانحناء والدوران ونزغات الصعود إلى أعلى باستماتة تعطينى معنى واضحاً لا أشك فيه من فرط قوّته معنى التضحية على مذبح قاسٍ. أُسرع إليها ملهوفاً، كمن يريد أن ينقذها من شرّ محيق مطبق لا فكاك منه، فأجد أنها أصبحت أخرى، مَنْ الأخرى؟ أوديت؟ أم دولت؟ أم عايدة؟ أم امرأة كأنها ليست من البشر غامضة الملامح ملتبسة الكيان، تتقدم إلىّ كأنما لتعزينى عن فقدانٍ لا يُعوَّض، هل فقدت زينب أم لعلنى فقدت نوريس فخرى التى كنت أهيم بها حباً وعذاباً من أربع سنوات، ولكنه قد مضى واندثر هذا الولع الذى ظننته شيئاً مراهقاً، وربما ساذجاً فى كل آلامه. ألمْ ينقضِ هذا الحب هذا العذاب؟

كأنما زينب - أو نوريس - قد ضُحّى بها قرباناً، على أىّ مذبح؟ تَقْدمةً لأىّ إله؟ ألم أكفر بكل الآلهة؟.

أحملها بين ذراعىّ وقد أصبحت طفلة صغيرة ولكنها تنظر إلىّ بهاتين العينين العميقتين الواسعتين، لكنهما ليست عينىْ زينب ولا عايدة ولا نوريس ولا حتى المرأة الغامضة المراودة القادمة فى قابل السنوات، هل هما عينا فاطمة المغدورتان، وهى طفلة ناضجة ناهدة الثديين، عزيزة إلىّ جداً، متدثّرة بمعطف داكن الحمرة، فى لون النبيذ أم فى لون دم الذبيحة المسفوك؟ ألفّفها به وأجرى أجرى فى شارع راغب باشا أعرف أن البوليس بخوذاته الحديدية وهراواته الغليظة يتعقّبنى وقد خلّفت ورائى أجواء مظاهرة عارمة مازلت أسمع هديرها، أجواء الثورة تتجمع من بعيد، وثمّ جماعة عند ناصية شارع إيزيس كأنها هيئة

ثوريّة أعرف أنها تتآمر عليّ، أستنجد برجل عجوز مضيء الوجه حادّ النظرة يفهمنى من غير كلام، لكنه يقودنى بنفسه إلى هذه الجماعة، قد غدر بى، أوقعنى فى فخّ، مَنْ هو؟ من أنا؟ تلمع خناجر وبنادق، كأنهم يتشاورون ليقرروا مصيرى المحتوم، أجرى مرة أخرى، وحدى الآن. اختفت طفلتى كأن لم تكن قط، أدخل إلى الإصطبل الذى كان أمام بيتنا فى غيط العنب، الخيول تحمحم ولكنها لا تصهل ولا تتوفز بسيقانها فهى تألف وجودى، أجرى بين أجسامها المتينة الضخمة، ليس هناك مخرج من الإصطبل، أصوات المطاردة تأتينى من بعيد، ثم تتضخّم وتقترب وتدوّى، تسلّقت عموداً خشبياً إلى سقف الإصطبل، ثم وثبت وثبة مستميتة ووجدت نفسى على السقف المغطّى بأكوام من التبن والبرسيم الأخضر وأسلاك شائكة وراء حائط مصمت ومنذرٍ من حجر رمادىّ وكأنما طلقات النار تنتظرنى من ورائه، احتميت بجزءٍ ضئيل جداً من حجر الحائط على شكل كوع متين وانبطحت ملتصقاً به وراء الأسلاك، وقد نجوت أخيراً وإن كنت مازلت محاصراً.

هل نجوت؟ أم أن الحلم مازال يحاصرنى؟

الفصل الثانى عشر

لا أذكر الملابسات التى أدّت إلى هذا المشهد.

أستطيع بالطبع أن ألفق الأسباب وأختلق الظروف - على نحوٍ مقنع وكلّ شيء - كما أفعل أحياناً فى غمار هذا النصّ المتقلّب الذى يجيش بأنصاف الوقائع وأشباه الذكريات كما يحتشد بصحيح الأحداث وتحليقات الخيال، ولكننى لن أفعل، الآن، على الأقل.

سئمت صنعة الروائيين والحكّائين.

فقط يسطع فى ذاكرتى المشهد الليلىّ فى شوارع محرم بيه النائمة.

معى منشورات تدعو المواطنين إلى شيءٍ أو آخر مما كنا ندعوه برنامجنا، هل كانت دعوة للإضراب أو الاعتصام أو التظاهر؟ هل كان الهدف إسقاط الوزارة وإدانة مفاوضات عقيمة؟ أم المطالبة بما كان يتجاوز الأحلام: تأميم قناة السويس وتكوين لجان شعبية فى المصانع والمزارع والمدارس والأحياء وحتّى الثكنات؟

ذلك كله ممكن ووارد.

لكن المشهد يقتصر علىّ وأنا أحمل كوزاً أو سطلاً صغير، وعاءً معدنيا على أية حال مليئاً بسائلٍ كثيف لاصق، غراء مخفّف أم صمغ ثقيل؟ وفُرْشة صغيرة مما يستخدمه عمال الطلاء، وكمية من المنشورات المطبوعة على الإستنسل، على رأس المنشور علامة المنجل والمطرقة ورقم ٤ ونداء: أيها المواطنون..

فى محطة الترام الخالية وقد انقطعت الرِجْل وفات ميعاد الترامويات من زمان ألصق المنشور على عمود المحطة، أبلل العمود بفرشة الصمغ

وأمرّ على ظهر الورق بالفرشة مراً سريعاً وألصق وأسوّى بيدىَ.

أتنقّل فى الشارع الموحش المنير إلى حيطان البيوت، أنتقى رقعة أتخيّرها بحيث تكون فى مستوى صالح للقراءة وأكرّر عمليّة اللصق والتسوية.

ومن بعيد أرى عسكرى الداوريّة، حلّته سوداء وحزامه الجلدىّ يلمع من بعيد، أسرع الخطى أدخل فى شارع جانبىّ والدم يتدفّق فى جسمى بقوّة، وأنفذ إلى حارة موازية، ثم أمشى ببطء، أتحيّن الفرصة للمعاودة.

هنا ينطفئ نور المشهد، وتسود ظلمة النسيان، لماذا كنت أنا بالذات أقوم بهذا العمل؟

أنا «المثقف» معى ليسانس الحقوق تخرّجت به منذ شهور ولا أدرى ماذا أفعل به.

أم هل كنت مازلت أذاكر لليّسانس وأنا فى مخازن كفر عشرى؟

هل كنت قد تركت العمل فيها، بانتهاء الحرب، وتلطّمت شهوراً بحثاً عن عمل، أكتب خطابات كل يوم باللغات الثلاث، وأتلقى ردوداً مهذّبة بالاعتذار أو بالتسويف؟

هل كنت قيّدت نفسى بالفعل فى نقابة المحامين، تحت التمرين؟

أم لعلنى قد تركت العمل مترجماً ومحرراً بجريدة «البصير» ثم نجحت فى امتحان الالتحاق بوظيفة «محترمة» فى البنك الأهلى، قلعة الرأسمالية والاستعمار الإنجليزى، بينما أواصل العمل السرّىّ الثورىّ بحميّا واستغراق، أحيا حياةً مزدوجة طول الوقت، لعلنى مازلت أحياها؟

والمفروض أننى «سكرتير عام» اللجنة، على أية حال..!

يا للدعاوى الضخمة..! ولست تحت الاختبار بل أنا – مع «الزملاء» بالطبع – الذى يقرر نتائج اختبارات الصلاحية للانضمام والعمل فى حلقتنا الثوريّة.

لعل المناسبة كانت من الإلحاح والأهميّة بحيث تحتّم عليّ أن أنفذ هذا العمل.

ولعلّ «الزملاء» كانوا مكلّفين بمثل هذه المهمّة في مناطق أخرى، أم لعله كان امتحاناً منّي لنفسي، مخاطرة - ربما لا ضرورة لها وربما حمقاء، على كل حال - لكي أثبت لنفسي شيئاً ما.

كنا نأخذ أصول هذه المنشورات بعد ساعات العمل الرسميّة إلى المخزن الخلفيّ بشركة «المساچيرى ماريتيم». يفتح لنا أنطوان الباب ويدعنا نمرّ إلى الخلف ومعنا ورق الإستنسل المخرّم بالآلة الكاتبة العربي - كتبتُها مع فتوح القفّاص في مكتب براءات الاختراع الذي كان يعمل فيه (هذه هي مهمّته معنا.!)- ثم نطبع المنشورات والأعداد الأربعة الوحيدة من مجلة «الكفاح الثوريّ»، في نصف العتمة حتى لا يفضحنا نور الشركة..

وبعد أن ننتهي أحمل نصفها إلى باخوم الذي أسميته زكي إبراهيم صدّوق ابن البلد اليهوديّ الإسكندراني القحّ، الذي يشتغل في فابريكة بولفارا. لم يكن زكي يعرف أنني على صلة بـ«أستاذه» وزعيمه القديم في الشركة شاكر المريوطي، كان يسكن في الدور الأول من بيت قديم جنب جامع في حارة بالعطّارين مع أهله: أخته مارسيل، وأمّه، كلتاهما أراهما بالجلابيّة والمدوّرة البلدي، ومع أبيه صغير الجسم الذي كان يشتغل بتصليح الكراسي من بيت إلى بيت.

كان زكي أعرج قليلاً، وذراعه اليسرى مشلولة، ولكنه لمّاح الذكاء شديد الإيمان بالثورة، وعدوّاً لدوداً للصهيونية ومناهضاً بقوّة لفكرة وممارسة قيام دولة إسرائيل، وكان قد اشتغل صبيّاً في دكاكين البقالة، وأسطبلات العربات الكارّو، وعند الحدّادين والسمكريّة، وفتح الله عليه أخيراً بشغلة سُقع، في الفابريكة. كان يلبس الجلابيّة والبالطو البلدي، ويعرف يكتب اسمه بالعربي بالكاد، ولا يعرف كلمة بأية لغة أخرى.

في ١٩٤٩ ، بينما كنا نحن في المعتقل ، وضعه بوليس الملك فاروق على مركب ، بالقوّة ، ورحّله إلى چنوا ربما المركب نفسها التي رُحّل عليها شوارتز - على غير معرفة بينهما - وكثيرون ، وانقطعت أخباره عني تماماً.

كنا نخرج من المساچيري ماريتيم وقد لففت الورق الإستنسل ونصف رزمة المنشورات تحت بالطو المطر الأزرق الغامق الذى كنت قد أخذته ، بإذن مكتوب وقع عليه وختمه مستر «لي» ، من مخازن البحريّة البريطانيّة في كفر عشرى ، وأخفيت في جيوبه ثلاث قنابل يدوية قديمة اشتراها صديقي أحمد النمس من عرب العامرية ، لعلهم هم أنفسهم الذين قتلوا فاطمة ميمون الزيتوني ، تطهيراً للعِرْض وحفاظاً على الشرف.

مشهد آخر يظل ساطعاً على رغم مرور السنوات الطوال: قهوة بلدى على شارع محرم بيه ، على الرصيف الآخر من المكتبة التي بها مطبعة يدويّة صغيرة اتفقنا مع صاحبها على نشر مجموعتيْ قصص مترجمة من جوركي وتشيخوف.

كان الميعاد الساعة الرابعة بعد الظهر ، ساعتين أو ثلاثاً قبل أن تزدحم القهوة بهواة الشيشه والشاي الثقيل من أهل الحيّ والعمال الحرفيّين يستروحون لحظة نسيان وراحة بعد رهق العمل.

سلامة في القهوة ، ومعه رجل ضخم الجثة كبير الرأس متين البنيان في زىّ رسميّ تعرفت فيه ، كما كنت أتوقّع ، بدلة كسمارية أو مفتّشي ترام الرمل.

كان سلامة قد قال لي ، آخر مرة رأيته فيها عند ذهابي إلى بيته في المكس ، إنه كان ذاهباً إلى باكوس وبينما هو في الترام صعد المفتّش يراجع تذاكر الركّاب ، اشتبك معه بالنقاش شاب أطلق لحيته وحفّ شاربه وفي يده مسبحة وهو يتمتم بما لا يُفهم تمتمات خافتة ، قال

المفتّش: تذكرة.. تذكرة.. فتظاهر الشاب بأنه لم يسمع، كرّر المفتّش: تذكرة يا أخينا.. تذكرة يا أستاذ، ولكزه بخفّة فى كتفه فزعم الشاب أنه يعود من نشوة التسبيح وقال: لا إله إلا اللّه الحمد للّه، نسيت أن آخذ تذكرة من الكمسارى بكم التذكرة يا عمّ؟

قال سلامة: غضب المفتش، وقال: يا ناس راعوا ربنا اللى بتقولوا إنكو بتعبدوه، يا أخى الإنجليز اللى كانوا كابسين على قلبنا ومحتلّين أرضنا غصباً وعدواناً أرحم منكو، ع الأقل بيراعوا الحق فى كلامهم.

تدخل الركاب - كالعادة - وصالحوا بينهما، وهدأوا الموقف.

قال سلامة للمفتّش: لا مؤاخذة.. ممكن نقعد شوية برّا الشغل، نتكلّم أنا وأنت، استريّحت لك كده ما اعرفش ليه.

قال إنه قعد معه على قهوة فى محرم بيه مرّة ومرّتين وفى الآخر فتح معه موضوع العمل معنا أو أقلّه التعرّف علينا.

قال إنه أخذ ميعاداً غداً الساعة أربعة دون أن يفصح له عن شخصية الأستاذ الذى سيقابله، قال: هل عندك مانع؟ أغيّر الميعاد؟

لعل هذا المشهد الساطع فى ذاكرتى مشهد مركّب من عدّة لقاءات لم ألبث أن أفضت معه فيها عن تاريخ ثورات ١٨٧٠ و١٩٠٥ و١٩١٧ و١٩١٩، وعن الكوميون وعن اللجان الشعبيّة وكيفيّة ممارساتها وانحرافات تطبيقها وعن فائض القيمة وبرنامج العمل الوطنىّ الشيوعىّ (لم أتحرج من استخدام الكلمة ولم أتوان عن تصحيح مفهومها الرائج).

كان يصغى إلىّ بعطش الراغب فى المعرفة وعطش المشتاق إلى الحريّة والعدل، ويطمئنّ إلى كرسيّه بكرشه الضخم وبنية جسمه الركينة الشاهقة، بينما أنا - صغير الجسم متوفّز الحركات - أتدفق بكلام أخفّف من اصطلاحاته قدر ما تلهمنى اللحظة من غير أن أخونها.

كان الرجل ديّنا حسن التدين، ودخلنا فى مناقشات طويلة ولكن

يسودها حسن النيّة والتسامح من الطرفين، وكنت أيّامها - في رد فعلٍ على أرثوذكسيّتي العريقة القديمة - شديد اللجج في ترويجي لما كان يُسمى «الماديّة الجدليّة»، وعنيف الشطط في دحض الأساطير الميثولوجيّة، وكان الرجل يجادلني بروحٍ لعلها مزيج من عطفٍ أبويّ بشكلٍ ما، وإعجابٍ وتقدير للحماسة الوطنيّة العقليّة التي أظنه يراها عندي.

لا تبرح ذهني صورة لقائي معه يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ فلعلّه كان آخر لقاءاتي في سياق العمل الثوريّ، حدثته بموقفنا من دولة إسرائيل التي قلت إنها دولة عنصريّة وعدوانيّة وإن تأييد الاتحاد السوفيتيّ لقيامها دليل آخر على انحرافه عن الاشتراكيّة الحقيقيّة، وقلت إنه لا حلّ لقضيّة فلسطين إلا «بقيام دولة لا دينيّة، علمانيّة، ديمقراطيّة تقودها الطبقة العاملة وحلفاؤها»(هكذا قلت في سذاجة الإيمان المطلق بما يشبه المستحيلات) ويندرج تحتها كلّ من يدينون بعقيدة دينية، أيّا كانت، ومن لا يدينون. كان المناخ السياسيّ ملبّداً ومنذراً وكنت أعرف أنهم هذه الليلة سيأتون إليّ.

على كوبيْ شاي ثقيل حكى لي أحمد النمس أنه في تلك الزيارة للعرب المقيمين في خيام من صوف الجمال مضروبة الأوتاد في داخل الصحراء وراء أطلال مخزن بريطانيّ قديم، عندما كان يفاوضهم في شراء القنابل والغدّارة، لمح بنتاً مخزومة الأنف تلف عصابةً زرقاء على رأسها تلمّ بها شعرها المجعّد الخشن، قال لي إن جسمها كان ممشوقاً في ثوبها البدويّ المزخرف بنقوش بارزة حمراء وصفراء باهتة.

قال لي: أحكي لك هذه الحكاية لأنني متأكّد الآن أنها البنت التي كانت في ملاية لفّ إسكندرانيّة ورأيتها معك في شوارع بحري ومشيت وراءكما من غير أن تأخذ بالك ورأيتك توصّلها إلى بيت في السيّالة.

قلت: صحيح، موديل تشتغل عند صديقي أحمد قنديل، وصّلتُها

بيتها، كانت خائفة من العساكر الإنجليز.

قال، بغير اقتناع، وبلهجة العارف ببواطن الأمور: آه.. طبعاً.

ثم أكمل، بعد لحظة تردّد:

- يا أخي خيّل إليّ أنني رأيت، على قمّة الشارع، الأعرابيّين اللذيْن باعا لي القنابل السنة التي فاتت، ولولا أنهما أسرعا بالدوران حول القمّة لتأكّدت منهما، لكن مع ذلك لا أعرف، لست متأكّداً من شيء.

فصمتُّ، ماذا كان بوسعي أن أقول؟

لكني قلت كأنما على الرغم منّي:

- راحت، على كل حال.

قال: راحت؟ أين؟ أين ذهبت؟

قلت: ألا تقرأ صفحة الحوادث في «الأهرام»، أو حتى في «صوت الأمة»؟

قال: لا، ماذا حدث؟

قلت: أبداً، قُتلت، وُجدت مذبوحة، أمام بيتها.

سأل: هل عرفوا الجُناة؟

قلت: طبعاً لا، ماذا يهمّ مِنْ مقتل بنت بدويّة «سيئة السلوك والسمعة» كما قيل في «الأهرام».

ثم بدا لي فاستدركت:

- لماذا قلت الجُناة، ولم تقل الجاني مثلاً؟ ألا يمكن أن يكون هناك قاتل واحد؟

قال: لا أعرف. طلعتْ هكذا منيّ.

ثم أكمل متفكّراً ومنكراً: تفتكر أنها جريمة شرف؟

قلت: أبداً كانت أشرف من كثيرين جداً، ومن ستّات بيوت لا حصر لهنّ، عملها موديل للرسّامين عمل شريف وجميل أيضاً.

قال بشيء من الكلبيّة:

- مين يقرا، ومين يسمع.. !

كنت - فيما أذكر بوضوح تامّ - قد اعتدت أن أمرّ كل يوم أو يومين على دكّان الأحذية الذى يعمل على أبو الليل فيه، صانع أحذية حريمى فائق الصنعة، تتهافت هوانم اسكندرية المرفّهات على أحذيةٍ من عمل يديه الحاذقتين بفنٍ رفيعٍ.

كانت ورشته الصغيرة الخاصّة به وحده تقع فى خلفيّة الدكّان المطلّة على الشارع الموازى من وراء شارع صفيّة زغلول.

لم تكن هذه الورشة أكثر من ثلاثة فى أربعة أمتار، مثلاً، ضيّقة مزدحمة بالعدد الحديدية والأدوات الخشبيّة والإبر والخارز التى يستعملها الإسكافيّة وصُنّاع الأحذية، وكان يصنع الغراء الخاصّ به بنفسه وبطريقته، وعندما أمرّ عليه أحياناً أجد وعاء الغراء الأصفر الداكن يتقلّب على وابور الجاز وتطفو على سطحه فقاقيع صغيرة تفوح منها رائحة نفّاذة جداً حرّيفة لا تكاد تطاق.

وأجده عاكفاً باستغراق كامل على كعب حذاء حريمى يسوّيه ويضبط مقاييسه، يدقق فى نعومة واستدارة خشبه ويمسك بالخراز الطويل قوىّ السنّ أو بالمقص الحديدىّ صدئ المقبض ولكن حادّ الشفرة جداً- يقطع الجلد الغالى بعناية على المقاس المطلوب، يُحنى عليه، بما يشبه الحنان الشبقىّ، رأسه الضخم الأصلع لامع الصلعة، وعلى الجانبين لُمّة من شعر مهوّش خالطه شىء قليل من الشيب.

كان يدقّ جلد حذاء رقيق على سندان مدبّب عالٍ مستوى السطح، بشاكوش رفيع، وهو يصغى إلىّ.

- ولاد قحبة.. !

هتف وهو يشدّ فتلةً مضفورة بعد أن غمسها فى عجينة لدنة من الكولاّ البيضاء فى كوز مطبّق واضحٌ أنه قديم، صاحَبه فى الكار عمراً طويلاً.

عندما هتف بالشتيمة التى لم أعرف بالضبط إلى منْ كان يسدّدها، كأنها طلقة رصاص، إلى الإنجليز، أم إلى الباشوات، أم إلى المتقاعسين المُؤْثرين السلامة والسائرين جَنْب الحائط، لاحظت ربما للمرة الأولى أن فمه واسع وإن كانت شفتاه رقيقتين جداً، مطبقتين دائماً على فك قوىّ بما يشبه خطًا حادًا بل قاطعاً.

كان صديقى.

صفاء قلبه وصدق ثوريّته وعنف تمرّده على أوضاع القمع الاجتماعىّ والسياسىّ مع إخلاصه العجيب لصنعته - أيّا كان مآل ما يصنع - كلّها كانت تفتننى وتخصّه عندى بمكانة لا نظير لها.

فى تلك الورشة الصغيرة - كأنها صومعته - كان يصغى إلى حديثى «المثقّف» عن النظريّة والممارسة والتاريخ الثورىّ والثورة الدائمة بانتباه لا يكلّ وشغف متوهجٍ بالمعرفة، نادراً ما يتكلم لكنه لم يكن يتردّد أن يشتم بصوت عالٍ بأقذع الشتائم كلّ من يراه جديراً بالاحتقار وكل ما يعتبره ظلماً أو عسفاً أو افتئاتاً على الحقوق، لا يتحرّج أن يسمعه المارّة، فقد كانت ورشته الصغيرة مفتوحة على الشارع يغلقها باب من الصاج المضلّع كنت أجده موصداً فى بعض الأيام فأحسّ فقداناً وإحباطاً كأنما لن يعوّضه شىء.

قضى على أبو الليل أسابيع أو شهوراً فى سجن الحضرة بعد أن مرّ بتخشيبة المحافظة المرهوبة، عدّة مرات، كان يعمل بنشاط وحميّة لتكوين نقابة لعمال الأحذية، تقابله الإدارة المختصة باعتراضات قانونيّة متعدّدة ويعاقبه البوليس بالقبض عليه وضربه كالمعتاد وإلقائه فى السجن دون اتهام ثم الإفراج عنه بعد تلفيق قضية لا تنتهى إلى شىء.

وكان من الغريب أنه مع إخلاصه اللانهائىّ للقضية الثوريّة كان، كما يقول الإسكندرانيّة: «يلعب فى السبَق». مع علمه الواضح بالخدعة التى تنطوى عليها ولا تنطلى عليه، كان يتابع سباقات الخيل فى نادى

اسبورتنج يوم الأحد، يدفع رسم الدخول أو يقف على الباب إذا لم يكن معه نقود، مع جمهره البوّابين والصنايعيّة الآخرين الذين يحلمون بالتغيير السريع السهل لحياة الضنك والعوز ويراهن ويخسر دون أن يسأم ودون أن يكفّ.

لم أعرف قط إذا كانت له أسرة، هل كان يعول أحد أم كان عزباً، وذئباً وحيداً؟ كتمانه وتحفُّظه يردع كل شبهة من التطفّل على ما يراه خاصّاً وشخصيّاً - وأحترم ما يراه - وكان عناده في الإصرار على ما يراه حقّاً يكاد يبلغ مبلغاً يستحيل معه الحوار أو النقاش، تصورت أن تلك سمة من سمات القياديّين الذين يرون طريقاً واحداً جليّاً مرسوماً بلا حوَل ولا حيود، على عكس المثقّفين الهاملتيّين من أمثالي الذين تناوشهم باستمرار رؤى البدائل والاحتمالات وخيالات الإمكانيات التي لا تكاد تنتهي.

قلت: لعلّ الرهان على ما هو غير معروف بالضبط لكنه قادم بلا محالة هو أحد مفاتيح هذه الشخصيّة، يراهن على الخيل الآن استشرافاً لرهانٍ آخر، على المستقبل، رهانٍ على التغيير..

لعلّ حلقتنا كلّها لم يكن يتجاوز عدد أعضائها و«رفاق طريقها» و«المتعاطفين» معها (بلغة تلك الأيام) أكثر من أربعين خمسين شخصاً.

ومع ذلك كنا واثقين أننا بنقائنا الثوريّ سنغيّر وجه مصر، إن لم يكن وجه العالم على نحوٍ أو آخر، فهل كان ذلك من قبيل السذاجة الكاملة؟

كان لكلٍ من على أبو الليل، وشاكر المريوطي، وسلامة البشلاوي مجموعة - أو خليّة - لا أعرف أعضاءها، ولعبد القادر في كليّة الطب، وأحمد النمس في كليّة العلوم، وشوقي محمود في كليّة الهندسة، مجموعةٌ لا يعرفها الآخرون.

بهذا كانت تقتضي قواعد التنظيم العنقوديّ، وشروط الأمان،

لكننى كنت مسئولاً عن أحمد النمس وعلى أبو الليل وسلامة وشاكر، ولى علاقة مع فريد اسكاروس وفتحى أبو شادى وأنطوان خير الله وزكى إبراهيم باخوم، ولعلنى كنت بذلك، معرضاً للانكشاف.

قاسم إسحاق مسئول عن عبد القادر وعبد الفتاح وله علاقة مع زينب المشراوى وعايدة أبو زهرة وفتوح القفاص (بشكلٍ ما) وونيس عزيز بشاى، واحسبها إنتَ كَمْ كُنّا...

من أمام محلّ الأحذية الذى كان يشتغل فيه على أبو الليل فى شارع صفيّة زغلول كانت مظاهرة البنات من مدرسة نبويّة موسى التى كانت قريبة، فى شارع السلطان حسين، قد تدفّقت وهنّ يهتفن بالأصوات البناتى الثاقبة: «يسقط بيڤن» «يسقط مشروع صدقى - بيڤن» «الجلاء التام»«يحيا الوطن» وفى دقائق كان طلبة مدرسة محرم بك الثانوية قد وصلوا من شارع منشّا، وطلبة مدرسة المرقسيّة الثانويّة قد وصلوا من شارع كنيسة الأقباط، وفى الوقت نفسه كان طلبة دون بوسكو فى شارع الخديوى، وعمّال الجمرك والمينا من الورديّان والقبّارى وباب الكرستة قد تجمّعت صفوفهم، كأنّ الهتافات لا تندّ عن صدورهم بل عن صدر مصر الجريح «الجلاء التام.. الاستقلال التام» «يسقط الاستعمار والاستغلال، بيڤن بيفن يسقط بيڤن.»

عربات البوليس تنزل من مبانى الشكنات من محطّة مصر، ومن مبنى المحافظة فى شارع الخديوى، ومن جحورهم الأخرى لا أعرف أين، محمّلة بالعساكر فى خوذاتهم الحديديّة ومعهم دروعهم الخشبيّة وهراواتهم.

فى ميدان محطّة مصر، وقد أتينا من مدرسة النيل الابتدائيّة والثانويّة وعبرنا شارع راغب وشارع إيزيس وتجمّعنا مع تلاميذ محرم بيه تحت قهوة الأكتع العالية أمام مبنى المحطّة، نهتف «تحيا فلسطين... يسقط وعد بلفور... نحن فداك يا فلسطين.»

من عربات الجيش المربّعة العموديّة الجوانب جنود بلوك النظام

ينزلون جرياً على سلالم قصيرة مثبتة فى مؤخَرة السيارات، ويطاردوننا، بقمصانهم الطويلة المهدلة، وسراويلهم تنزل إلى ما فوق الركبة بقليل، وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف الألشين الكاكى الرماديّة التى ترتفع إلى ما تحت الركبة بقليل. ونحن نجرى فى ميدان المحطّة الفسيح بين عربات الترام الصفراء اللون التى توقّفت، واحدة بعد الأخرى، على قضبانها، والناس ينظرون منها بفضول.

الصدام غير متكافئ بين قوّات منظّمة مدرّعة ومسلّحة وبين قلوب متدفّقة عفوياً بحبّ البلد وحبّ الحريّة، قلت:

هل طَلَب الحرية أقوى وأعظم منَعَة؟

قلت: نعم لقد تفطّرت قلوب مصر، جلا العساكر الإنجليز فى النهاية وجاءت عساكر غير مرئيّة من القروض والمعونات والخبراء، من وزارات الخارجيّة والتعاون وهيئات المال والتكنولوجيا، حلّ عساكر مدجّجون فى خوذات زرقاء تحت شعار خادع فى معسكرات نائية معزولة على قطعة من أرض الوطن لا يسمح لنا بأن نرسل إليها أحداً إلا إذا كانوا تحت أقنعة الخبراء.

«يسقط بيفن» «يسقط بلفور» كان تلاميذ المرقسيّة ورأس التين قد انضمّوا إلينا، وكنت أهتف ولا أسمع صوتى: «تحيا فلسطين، يسقط وعد بلفور. الاستقلال التام.. حملت العلم يا عبد الحَكَم...» الشمس حارّة فى دمائنا ونحن نجرى، والشتائم البذيئة من العساكر تلاحقنا، والعصىّ القصيرة فى أيديهم، وكانت الشتائم موجعة جداً، والغضب يلغى العالم.

حضر على أبو الليل اجتماع اللجنة ليلتها.

استمع بمزيج من الغضب والرضى عن تقرير موجز قدمه إسحاق

قاسم عن تطوّر الأحداث..

كان صدقي قد شنّ حملته الشهيرة ضد الوطنيّين واليساريّين والشيوعيّين ومَنْ عارضوا معاهدة الدفاع المشترك التى كانت تهدف - كما هو واضح - ربط مصر بالعجلة الخلفيّة للاستعمار الإنجليزى وتُقنّن وجود جنود الاحتلال على أرض مصر، فى القنال، وتُكسبه مشروعيّةً ومصداقيّة.

قال قاسم، بالأسلوب المعتاد في تلك الأيام وحتى الآن فى تلك الأوساط، قد أراه الآن مبتذلاً وسطحياً، أو لعلنى أراه بسيطاً وصحيحاً، قال:

- صحيح أن حزب الوفد هو فى نهاية التحليل حزب البورجوازيّة، لكن فيه طلائع تقدميّة تعكس أهدافها على قياداته التقليديّة، هذه الطلائع نعتبرها من حلفائنا المرحليّين، يهمّنا أن نحتفظ بها وإن لم تكن من صفوف الطبقة العاملة القادرة على تحقيق المطالب الوطنية والاجتماعية معاً للشعب كلّه.

ثم أكمل تقريره:

- صبرى أبو علم زعيم المعارضة الوفديّة قدم استجواباً في مجلس الشيوخ من أيّام قلائل، بالتحديد في يوم ١٥ يوليو الجارى، حول اعتداءات الحكومة على الديمقراطية وضد الصحف الوطنيّة والوطنيّين الشرفاء.

صدقى باشا ردّ عليه وذكر أن البلد تهددها موجة «المبادئ الهدامة والتخريب» وقال إنه على الحكومة بصفتها الأمينة على الاستقرار وحفظ النظام - كما قال - «أن توقف هذا المدّ المدمّر للمصالح الحقيقية فى البلد».

قال قاسم إسحاق: ثم أورد صدقى باشا مقتطفات مما نشر حديثاً فى الصحف والمجلاّت والمنشورات.

قال صدقى باشا إنهم كتبوا ما يلى:

- «الحكومة تزيد الأغنياء غنى، والفقراء فقراً، إن جانباً ضخماً من ثروة مصر تحتكرها أقلية من الناس لا تبغى لغالبية الشعب غير المرض والفقر والجهل، إن الباشوات الرأسماليين يشتركون فى مجالس إدارة عدة شركات، بلغ استغلالها للشعب حداً كبيراً، ولا هدف لها غير توفير الأرباح الفاحشة لحفنة من كبار الرأسماليين».

- «إن جموع الأمة عاقدة العزم على تغيير الأوضاع الاجتماعية».

- «إن القوانين فى معظمها لمصلحة الرأسمالية».

- «الناس سواسية كأسنان المشط».

- «يجب على الطبقات الشعبية أن تقوم اليوم بالدور الرئيسى فى الحركات الوطنية، لأن الطبقات الحاكمة الحالية تتعاون مع الاستعمار».

- «إن سوء توزيع الثروة القومية يتطلب إعادة توزيع الأرض، ومنحها للفلاحين فى شكل ملكيات صغيرة، وإنشاء نظام تعاونى».

- «إن الشرق يتحرر، لا بالمهادنة والاستجداء، ولكن بالعنف والثورة.. وفى مصر ثورة تأخذ نيرانها فى ازدياد كل يوم، بل كل ساعة».

أكمل قاسم تقريره بأن أورد أبياتا للشاعر كمال عبد الحليم استشهد بها صدقى ليبين خطورة الموقف، ومنها:

يا أخى تنعم الكلاب لدى القوم ونشقى، فيالها من مضحكاتِ
أطلقْ الثورة التى تسكن الصدر وجفِّفْ دموعَك الماضياتِ
هى حرب الحياة، إمــا حياة أو مماتٌ بكل معنى الحياةِ

سكت قاسم وقد نال من صوته شىءٌ من الإنهاك.

قال فتوح منفعلاً:

- حيوان.. ! هذا الشعر كلام فارغ، إنشا، تهريج، مَنْ هذا الشاعر؟ أليس من أنصار القمع الستالينى الذى يُمارَس حتى الآن فيما يسمونه

«المعسكر الاشتراكى». أنا أرفض الاستماع إلى شعر مزيف، وركيك أيضاً، وإلى شعارات جوفاء.

قلت، أكرر ما قلت من قبل:

- هذا كله عظيم، ولكنه تجريد وتعميم. كيف نحوّل هذه الشعارات إلى واقع فعليّ؟ كيف تصبح أعمالاً وليس مجرد نداءات وتقريرات مهما كانت صحتّها تظل كلمات وعبارات.

وهل كنا نعرف عندئذ أنه سوف يأتي يوم ترى فيه مصر هذه الشعارات (التي لم نكن نرضى بها تماماً لأننا نريدها فعّالة ونافذة ومتحقّقة) كأنها من بقايا عصور بائدة، وربما من تخاريف متهوّسين متطرّفين لا يعرفون معنى «الواقعيّة»، و«المصالح الحقيقيّة»، يومٌ نجد فيه أن أخبار البورصة تأتي قبل كل شيء آخر، وأن الشعارات السائدة قد أصبحت «أنت متميّز» «أنت من النخبة».. «أنت من الصفوة».. «أنت وحدك خاصّ» أما المساواة والعدالة والحرية فهي أضغاث كلام..

فى تلك الليلة هبّت العاصفة المعتادة من الجدل والصياح. ولكن أمكن كبح جماحها، تآزر على أبو الليل مع فتوح القفّاص فى ثورة صاخبة، لكن صوت الاتزان جاء من عبد القادر وعبد الفتاح، ولاذ أحمد النمس هذه المرة بصمتٍ حكيم.

كان قرار اللجنة ليلتها: العمل بكل الوسائل على تأييد الحركة الوطنيّة ومساندة الوطنيّين المسجونين على ذمة قضية ملفّقة لا تقف على ساقين.

لن تنتهى ثنائية - أو تعددية - الأنا المتقلّب فى داخلى. هأنذا فى القاهرة أكتب فى ١٠ يناير ١٩٤٧ إلى أمّى فى الإسكندرية، بكل

الإكليشيهات اللفظيّة والفكريّة وفى غير تحرّج من العاميّة والأخطاء اللغوية:

«والدتى المحبوبة

أرسل إليك سلاماً أعطر من الورد وشوقاً صادقاً، وأتمنى لكم جميعاً خير صحة وأحسن حال.

وصلنى خطابكم صباح اليوم، ووصلت النقود بكاملها.

قابلت الدكتور حمّاد أمس مرة ثانية أما صحته فحسنة على العموم بعد الحادثة التى مرّ بها والجرح بسيط، وهو يذهب لعمله كالعادة وكل شىء. ولكنه لم يذكر لى حكاية رئيس الوزراء ووعْده بأن يجد لى عملاً وإنما قال إن رئيس الوزراء مشغول جداً ونصحنى بالذهاب لجريدة «الكتلة» وغيرها. قابلت جماعة «الأهرام» فحوّلونى على مجلة ثانية اسمها مجلة «الدنيا الجديدة» ولكن قالوا لى إنهم لا يريدون محرّرين ولا حاجة فما فيش فايدة من ناحية «الأهرام».

وقابلت مدير جريدة «المصرى» فقابلنى مقابلة جيّدة وأخذ اسمى وعنوانى ووعدنى بأنه سيكتب لى فى الإسكندرية.

وذهبت أيضاً لجريدة «الكتلة» وكانوا معى أظرف والطف وأخذوا الاسم والعنوان ووعدونى بأنهم سيكتبون وقالوا إنهم بحاجة فعلاً لمحرّرين مثقّفين، أما الجرائد الأخرى «أخبار اليوم» و«آخر ساعة» كانوا أولاد كلب، ولا فائدة منهم، وذهبت لمجلات «الهلال» و«المقطم» وطلبوا أن أكتب طلبات وقد كتبتها وسأذهب لهم بها مرة ثانية صباح باكر.»

(ترى هل كنت سأصبح صحفياً يبيع قلمه أو يعيش على معارضة مدجّنة للنظام؟ أكان هذا متصوّراً؟ هل حدسوا أننى خامة لا تصلح؟)

«والمهم أنه لو كنت تقابلين الدكتور حماد فى إسكندرية فحاولى تقولى له أن يكلم واحد محامى ولا أكثر فى إسكندرية فأحسن حاجة أن

الواحد يتمرّن ولو بماهيّة بسيطة فى الأول فإذا كان هذا ممكناً فيبقى أفضل بكثير وسأذهب أنا من هنا لبعض المحامين بإذن الله .
وكذلك إذا وصلتنى خطابات لإسكندرية فحوليّها من هناك من غير ما تفتحيها يعنى بنفس ورقة البوستة القديمة لعنوان بشارة ، يعنى ما تستلموهاش وقولوا لساعى البوستة على العنوان الجديد ٢٨ شارع مراسينه السيدة زينب ، وعلى العموم لازم تكتبوا لى وتذكروا أحوالكم بالتفصيل .
أما قرايبى فكانوا فى مصر لأن زكى أفندى عنده مأمورية فى مصر ستنتهى غداً ويسافر إلى أسيوط أما شاكر أفندى فإنه انتقل فى فرع شركة بيع المصنوعات فى مصر ، وزاخر أفندى موجود هنا وهو بيشتغل مدرساً فى المدرسة الإلهاميّة الابتدائية للبنات ومستريح والحمد لله .
عمتى أرسلت لك سلامها فى الجوابات التى فاتت وهى على كل حال سألتنى كتير عنكم وشرحت لها كل حاجة وهى تدعو لنا باستمرار وصحتها جيدة وتهديكم أرق سلامها . بشارة أفندى وقرينته يهدونكم السلام ونبيل مريض شوية صغيرة وابتدأ يتحسن .
أما أنا ففى شوق شديد لكم وقلق كثير عليكم . ولن أنتظر هنا أكثر من يوم الاثنين القادم سأقوم فى قطر الساعة ٧ وأوصل الساعة ١١ مساءً ، لأننى لا أرى فايدة أكثر من هذا وأننى أقوم بكل جهد فى سبيل الحصول على عمل .
وقبلاتى لهناء ولويزة وإيزيس ولك يا والدتى العزيزة أرق سلام وتحياتى لستى وللجميع .

ولدك المحب

(إمضاء)

وأختي المحبوبة الست أم امرأة أخي المرحوم
أهديك تسليماتي القلبية وأشواقي الحارة راجية لك مع الآنسات المحبوبات كل صحة وسعادة وبعد :-
حضر طرفنا الابن العزيز وكم سررنا به جداً وكم كنا نكون سعداء لو كنت حضرت أنت والآنسات، وإننا ندعو له من الله أن يوفق له بمعيشة مناسبة له هنا في مصر حتى نحظى بقبولكم علينا والله يعمل له ما فيه الخير، ليتك تحضرى وتشرفينا ولو يومين قبل سفر الباشا ونرجوك عدم إزعاجه بالإلحاح عليه بالحضور إلى أن يتم له الله بالخير، من هنا بشارة أفندى وأنا والست رومة بخير وبلبل كان منحرف شوية ولكن متحسن شوية. رومة تتمنى لو تزورينا والآنسات المحبوبات ونهديكم أزكى السلام وكذا بشارة أفندى والجميع يهدوكم أزكى السلام وسلامى مع حار شوقى لك والآنسات ودمتو.

اختك
ام بشارة

عدت إلى البيت في شارع راغب، وفي الشارع سمعت آخر أغنيات أم كلثوم تصدح، وتصوّرت شدوها يتدفّق في فسحة بيتنا من الراديو الضخم ذى العين المستديرة الخضراء الذى اشترته أمي بالتقسيط كل شهر عشرين قرشاً.

ليه تلاوعيني وأنت نور عيني
إيه جرى بينك في الهوى وبيني
ليه تحاوريني والفؤاد سلّم
واحتمال بُعْدك أمر مش ممكن

كانت أمي وأخواتي البنات في سابع نومة، كما يقال، وقد تركت لى على المائدة الرخاميّة في الفسحة عشائي: سمكتين بلطي مقلي بارد

ورغيف عيش بلدى، في طبق واسع فيه شوكة وسكينة مُغطى بفوطة نظيفة. كانت تقول «لا أعرف كيف يأكل السمك بالشوكة والسكينة ولا يترك منه إلا شوك الضهر والديل وعضم الرأس بعد ما يمصمصه»، كان البلطى المقلى بنىّ اللون باهت الجلد بعد أن صُفّى زيته تمامًا، وخرزة العين سوداء محدّقة، على الرغيف الطرّى الغامق عليه هَبْوة من ذرور الرضّة يفتح النفس

الغرام أصله نظرة واتمكّن

والجمال يسحر والدلال يفتِن

الصوت شجىّ وحزين، وموسيقى القصبجى منسابة بشجن سهل يمسّ القلب بنوع من بساطة الأسى.

وجدت على مكتبى، بين الكتب الثوريّة وكشاكيل قانون المرافعات والقانون الجنائىّ، جذاذة مكتوبة بالآلة الكاتبة بالفرنسيّة كان عمرها عندئذ ثلاث سنوات فقط، هى دعوة لحفلة كونسير موسيقى مسجّلة فى مقرّ «جمعية الثقافة الحديثة» ٢٦ بوليفار سعد زغلول يوم الجمعة ٨ يوليو ١٩٤٣ حيث يتكوّن البرنامج من رقصة أورفيوس موسيقى جلوك وأمامها كلمة «جهنميّة» بخطّ يدى، والسيمفونية رقم ٣٥ مقام رى كبير، موسيقى موتسارت، وكلاهما من عزف أوركسترا نيويورك الفيلهارمونى بقيادة أ. توسكانينى، ثم سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن من عزف بادرينسكى على البيانو، وأمامها بخط يدى كلمة «بديعة.».

فما معنى أننى أجد هذه الجذاذة الآن، صفراء ذابلة، تحتفظ مع ذلك بعبق نضارة لا تبلى، بعد سبع وخمسين سنة كأنها لم تمض وكأننى أصغى الآن إلى الموسيقى الإلهيّة ويتزلزل قلبى بها لأوّل مرة؟

لماذا يتزلزل قلبى الآن، بعد كلّ هذه السنين؟

موسيقى تنسكب كالدم.

مازلت أسمع الموسيقى المسجّلة من أسطوانات تدور على قرص جهاز

الفونغراف الكبير القابع في وسط قاعة فسيحة منسّقة غير مزدحمة ولكنها مونقة بجمع أنيق حَسَن الهندام منمّق الكلام بالفرنسيّة والعربيّة.

مازلت أذكر كيف أن ذلك الفتى في السابعة عشرة من عمره، خاماً، بكراً بمعنىً ما، وموّاراً بقُوى لا يعرف تماماً مدى سطوتها، قرأ في هذه القاعة، علي عدد قليل من المثقّفين الشوام والمصريّين، مسودة قصّة كان عنوانها أولاً «الأحدب» ثُمّ «مخلوف» ونُشِرت بعد ذلك تحت عنوان آخَر في أول مجموعة قصصيّة له، وكيف أعجبوا بها، وأثنوا كثيراً على رؤيته للريف المصريّ، كما أثنوا على لغته العربيّة المتميّزة، كما قالوا..

فمهما أخلصتُ عندئذ أحلى سنوات الصبا للعمل الثوريّ، غير نادمٍ بل معتزّ به - فقد كنت أوقن، كما قلت لقاسم إسحاق، أن رسالتي الحقّة - إن كان ثمّتْ - هي في الفنّ.

هل أصنع فنّاً من جذاذات الحياة؟

أم أن الحياة منذورة للفنّ؟

الفصل الثالث عشر

فى ليلة ١٠ فبراير ١٩٤٧ توقعت أن البوليس سوف يهاجم البيت رقم ٧ شارع العباسى، محرّم بيه، بدأت ألاحظ أن المخبر السرّى بزيه الرسمى المعروف، لا يكاد يفارق ناصية الشارع، فى أى وقت من بعد الظهر حتى ما بعد منتصف الليل.

مازلت أعتزّ بذكرى هذا البيت تطوف بى صورٌ حية منه - مثل بيت شارع الزهرة، وبيت شارع ابن زهر، ثم بعد ذلك بيت الشعرى اليمانية الذى لا يُنسى.

كان البيت غاصّاً بأوراق وصحف وكتب متناثرة، على المكتب فى غرفة عبد القادر وعبد الفتاح التى كنا عادة نجتمع فيها، وفى الغرفة الأخرى الكبيرة التى تشغل جانباً منها كنبة اسطمبولى كبيرة تجلس عليها الست أم عبد الفتاح، هادئة ركينة فيها رسوخ أمّهات حقب طويلة من ستّات مصر اللائى يصعب أن تضعهن فى طبقة اجتماعية معينة لأنهن يتجاوزن الطبقات وكأنهن يتجاوزن التاريخ نفسه، وعلى هذه الكنبة نفسها كانت تحيّة أخت عبد الفتاح وعبد القادر تجلس إلى جانب أمها إذا فرغت من الترحيب بنا وتقديم الشاى لنا وأحياناً سندويتشات الجبنة أو سلطانيّات الزبادى بالقشدة السميكة على سطحه والرزّ بلبن الذى نجد فيه حبات الزبيب البنّى الطريّة أو الصنوبر العاجيّة هشّة الكسر، كانت تحية سمراء صافية السمرة وخفيفة الحركة مبتسمة وتشع منها روح الأخت الصافية. وكانت - ومازالت - تذكّرنى أختى عايدة.

ليلتها قررت أن «أطهّر» بيت العباسى من كل ورقة تحمل الإدانة أو حتى تثير شبهة.

لبست بالطو المطر الأزرق الداكن الواسع العتيد (لم أفترق عنه إلا بعد أن أوشك أن يتهرأ، كنت متعلقاً به كما يتعلق البدائى - ربما - بطوطم أو تعويذة.)

وعندما مررت بالمخبر الرسمى لم أعره أدنى اهتمام.

دخلت وبدأت عملية التنظيف.

لممت الكتب التى أخذناها من مكتبة شوارتز والكتيّبات العربى والإنجليزى من بين كتب الطب ومراجع الفلسفة وعلم الاجتماع وكشاكيل عبد الفتاح وعبد القادر. لم يكونا فى البيت، وأعطانى ذلك حريّة أكبر فى إتقان عملي.

خرجت إلى غرفة القُعاد أو غرفة المعيشة، استأذنت الستّ أم عبد الفتاح وتحيّة أن تسمحالى بالبحث، فلم تمانعا بقليلٍ من الدهشة وكثيرٍ من الثقة، فقد كانتا تعرفان مدى حبى للأخوين وحرصى على سلامتهما، وخاصّة بعد أن قُبض على عبد القادر وأودع سجن الأجانب أربعة أيام على ذمّة قضية المظاهرة التى حُفظت بعد ذلك على أيّة حال.

ركعت أمام الكنبة الاسطمبولي، وزحفت تحتها تقريباً، مددت ذراعىّ فى الفجوة بينها وبين الأرض، وأخرجتها بكومة من صحف «الديلى وركر» وكتيّبات لينين.

ألقيتُ نظرة فاحصة على غرفة السفرة، ودخلت المطبخ وبحثت فى الحمّام والتواليت، وجدت نسخاً شاردة من بياناتنا ومنشوراتنا الثورية، مع «الديلى وركر» و«صوت الأمة» و«الجماهير» و«أمّ درمان» جمعتها كلها، دسستها فى جيوب المعطف الأزرق الداكن التى طالما حملت الكثير، وخرجت فى برد ليلة فبراير وعبرت الشارع. كان المخبر السرى يراقبنى بعين متربِّصة، خطا نحوى خطوة واحدة ثم توقّف، لم ينادنى،

لم يستوقفني، وكنت أنا قد مررت به وتجاوزته إلى الشارع الجانبى المفضى إلى شارع محرم بيه.

وبعد ذلك كان طريقى سهلاً إلى غرفة شارع الزهرة. لم يكن يتبعنى أحد، وكانت الشوارع خالية وهادئة بل وموحية بنوع من الجمال، الأشجار الوارفة أنيسة ومُدفئة، والترام يتهادى بين الحين والحين منيراً وليس فيه إلاّ قلائل من المتعبين الذين يغالبون النوم فى طريقهم إلى بيوتهم.

فى الطريق إلى شارع الزهرة مررت أمام بيت كامل الصاوى.

طالما دخلنا في مناقشات وطرحنا أسئلة في بيت العباسي.

كان عبد الفتاح قد ترك كلية التجارة، وأغلق محل الألبان فى شارع محرم بيه، بعد أن ماتت تحيّة، فجأة، دون مقّدمات، كما كانت عايدة أختى التى لم أنسها قط قد ماتت في سنة ١٩٤١، ولما سألته بعد ذلك بسنوات طويلة، لماذا ترك كلية التجارة؟ لماذا أوّلاً وقبل كل شىء، انضمّ إلى جماعتنا؟ قال إن موت تحيّة هزّ قلبه هزاً - ألم أكن أعرف أنا معنى ذلك؟ - وإنه التحق بكلية الآداب، قسم الفلسفة بالذات، حتى يبحث عن إجابة لسؤال ما الموت؟ ولماذا؟ وما الشرّ؟ ولماذا؟ وانضمّ إلى جماعتنا لكى يحاول أن يجد معنى للظلم؟

الظلم هنا أكبر من مجرد التفاوت الطبقى الاجتماعى، الظلم - كما قال - له معنى أشمل وأعمق من هذا، هل هو معنى الظلم الميتافيزيقىّ؟

قلت له: وهل وجدت إجابة على الأسئلة؟

قال: وأسفاه.. لا.. لا أجد إجابة إنما قد أجد تبريرات.

قال: أما الموت، فلا أعرف ما يحدث فيه، أو بعده، لا أحد يعرف.

قلت: لا يحدث شىء.. خبرة الموت هى خبرة توقُّعه وانتظاره والرجم بالظنون حوله، خبرة الموت الفعليّة لا يعرفها أحد، لعلها تشبه خبرات لحظاتٍ من المرض المبرّح، حينما ينطوى الجسم والعقل على

الألم، خبرة مجالدة الألم، كلّ شيء آخر بلا معنى، الخوف من الموت طفليّ وغير جدير بالإنسان الناضج عقلياً، ما من أدلة في هذا السياق.. كلّ تخمين، كلّ تصوّر، هو ضربٌ في المجهول الذى يظلّ مجهولاً إلى ما لا نهاية.

قال: والإيمان؟

قلت: نعم. لاشك الإيمان مريح، الاستكانة إلى الإيمان والركون إلى ما يعد أو يتوعّد به، مريح، ولكن اسمح لى، أنا شخصياً مع احترامى الكامل للإيمان وأصحابه لا أعرفه ولا أطمئن إليه، أنا، كما يقول العقل، لا يروعنى القلق ولا يخيفنى المجهول. لكلّ دينه، على عينى ورأسى بلا شك، أما أنا فدينى هو ما يمليه العقل وحده، والفكر المستند إلى أدلة منطقيّة لا تُدحض أو إلى تجارب ثابتة لا تُنكر. دعنى إلى قلقى المستمرّ، خلّنى فى هذه الثورة الدائمة، لا أستطيع أن أستنيم إلى ما هو مريح وجميل. قلقى وسؤالى لا يريم..

قال: يا عزيزى أنت لم تفعل إلا أنك استبدلت إيمانا بإيمان.

قلت: لا، ليس إيماناً، بل منهج رؤية ومنهج عمل - أو منهج حياة - موضوع دائماً للنقاش والسؤال، وحتى الشكّ فيه مشروع أحياناً - بل دائماً - وضروريّ، وليكن شكّاً ديكارتيّاً أو شكّاً نهائيّاً لا حلّ له. لكن ذلك لا يعوق عن العمل، عن الفعل الثوريّ - وعن الفعل الفنيّ فيما بعد - لا لحظة ولا طرفة عين.

فى حوارٍ دار بعد كل تلك الحكاية بسنوات طويلة قال لى: أمازلت تؤمن إيماناً راسخاً بأن رأس المال سرقة متصلة وافتئات على العمل؟

قلت: نعم.

قال: تؤمن بأن رأى الناس جميعاً فى السياسة جدير بالاعتبار؟

قلت: نعم. حتىّ لو لم يكمل إعدادهم وتأهيلهم بالتثقيف

والإعلام، حتىّ لو تُركوا وفطنتهم الفطريّة، بل خصوصاً وأساساً إذا تُركوا يقرّرون بأنفسهم دون تضليل أو إغواء. حكمهم عندئذ سيكون صواباً، وقد صدر عن حرية أساسية لهم، على أية حال .

قال: ومازلت تدين الممارسات والجرائم القمعيّة الكبرى التي اقترفت في أوّل دولة تطبّق النظريّة؟

قلت: بل ثبت ما كنت أتنبأ به - وبناءً على استقراءٍ موضوعيّ - كما تعرف، الانحرافات الجسيمة، البيروقراطية العلويّة، ديكتاتوريّة القلّة أو عبادة الفرد، كان ذلك، كما كنت أقول منذ أكثر من خمسين عاماً، هو ما أدى إلى انهيار الدولة وليس انهيار النظرية أو أساساً ليس انهيار الشوق إلى العدالة وإلى الحرية.

قال: نعم، مازلت أذكر أنك على رغم إيمانك بالنظريّة وحماستك لها، كنت دائماً تقدّر آراء الآخرين.

ضحكت وقلت: هل تذكر فتوح؟

قال: طبعاً، كيف يمكن أن أنساه؟

قلت، متذكّراً بنوعٍ من الحنين: كان ينحاز لباكونين وللفوضوية التي تنتفي فيها كلّ قطعيّة وكّل سلطة فوقيّة، وكان يحمل على ماركس المستبدّ برأيه الدوجماطيقيّ القاطع في حتميّته. ولكنني لم أكن أضيق به، بل ربما كنت أميل إليه قليلاً، كنت - كما تذكر - أفضّل أن تدور اهتماماتنا، في حينها، حول تنظيم مظاهرة أو كتابة بيان لتأييد مظاهرة أو إضرابٍ في مصنع.

سرح عبد الفتاح ببصره قليلاً.

قال بنوع من النوستالچيا: في مقتبل العمر كنت ثائراً لا تهدأ ولا تبالي بالمخاطر الجسيمة التي تتعرض لها أنت وأسرتك.

قلت: أظنني مازلت ذلك الثائر القديم نفسه وإن تغيرت الطرق والمسالك.

قال : كنت أخاف عليك وعلى أسرتك ، ألم تكن أنت العائل الوحيد لأمّك وأخواتك بعد وفاة والدك أثناء دراستك ؟ كثيراً ما تحدّثت معك فى هذا الشأن .

قلت : كنت أُغيّر مجرى الحديث .

قال : أو تلوذ بالصمت كعادتك دائماً عندما لا يروق لك الحديث ، وكأنك تقول لى فى صمت ، «هناك ما هو أهم بكثير من الحياة ومن الدراسة الجامعية ، ومن لقمة العيش للأسرة . هناك كرامة الإنسان ، وهناك كرامة الوطن .»

قلت : مازلت ذلك الطفل الذى «كم بكى طول عمره ، تحت غطائه بنفس حسّ افتقادِ العدالة له ولوطنه وناسه ، وللفقراء والمساجين والمضطهدين والصامتين وللآخرين... وكم دفع فادحاً ثمن الأحلام» .

نظر إلىّ عبد الفتاح نظرة حُبٍ يمكن معه أن يتسامح إلى أبعد حد مع نزواتى العقليّة .

كان عبد الفتاح قد أودع السجن فى قضية لا تقوم على ساقين ، وأفرج عنه بلا محاكمة ، كتب لى ذات مرة يذكّرنى بما قلت له من أنه ظلّ يعيش سنين طوالاً ينتظر شيئاً مجهولاً يغيّر مجرى حياته : كشفاً أو إلهاماً قال : ذلك حدث .

عرف وأحب المرأة التي سوف تشاركه عمق الحياة بمسراتها وآلامها .

كتب لى : الحبّ حلْو حلْو حلْو وأنا سعيدٌ جداً وفرحان ، من زمنٍ بعيد لم أكن قد عرفت الفرح ، هى حلوة جداً وجميلة جداً وأحبّها .

سافر إلى فرنسا وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من السوربون وعندما عاد كان فى مجرد نظرته وطريقة كلامه ما ينمّ عن تغيُّر أساسىّ - بذرته كانت كامنة بالتأكيد حتى ازدهرت في مناخ الفكر والدَرْس العميق - وجهه الأسمر الوسيم اكتسب مسحةً من التحضُّر والتأمُّل وشيئاً من الحزن مع إقبالٍ على الحياة غلاّبٍ كأنما استوعب وتمثَّل - حتى

دون أن يدرك ذلك بوضوح كامل - ما فى مصر العريقة من تراثٍ لا حدّ لثرائه وتطلُّع إلى آفاق لا حدّ لاتساعها - وتقلّبت به صروف العمل - كما تتقلّب بنا - درّس الفلسفة اليونانية ورأس أقسامها وشغل مناصب أكاديميّة قياديّة فى جامعات الإسكندرية ودمشق والرباط، حكى لى حكايات عن عمله فى محاربة الفساد والتزوير فى الجامعة ومحاباة العشيقات أو العشيقات المُحْتملات وبيع أطروحات الماجستير والدكتوراه لطلبة الخليج مقابل المبلغ المرقوم المعلوم، كلها أفعال يقترفها - دون أن تطرف لهم عين - أساتذة لهم أسماء مرموقة وشهرةٌ مستطيرة، ولهم أيضاً إسهامات علميّة مذكورة أيا كانت قيمتها.

حكى لى أيضا حكايات عن غراميّاته الصبيانيّة فى القرية، دفع به أبوه إلى الإسكندرية لينأى عن حبيبته البنت الفلاحة الجميلة، كان فى صوته بعد أن جاوز السبعين نبرة تهدُّج وحرارة ابن العشرين وهو يستعيد حبّ صباه التى تزوّجت وخلّفت وعندما عاد إلى القرية سأل عنها ورحبّ به ابنها الفلاّح الذى استأجر منه أرضه من الباطن وقام بزراعتها له طيلة سنين من غير أن يراه وجها لوجه.

عزم عليه الرجل الفحل ابن حبيبته القديمة بالشاى والغدا ودخل معه إلى غرفة البيت الكبيرة حيث كانت أمّه تجلس على الشلتة، سيّدة ممتلئة الجسم تصبغ شعرها صبغة ذكية، ووجهها مازال مثل القمر مثل لهطة القشطة، انحنى عليها عبد الفتاح وفعل ما لا يفعله أحد فى ريفنا، قبلّها فى جبينها وقلبه يخفق كما لو كان مازال فى عزّ الصبا، وعندما سمع صوتها وهى تقول الحمد الله ع السلامة يا عبده، عاش من شافك، اختفى الزمن، لم تكن قد انقضت تلك السنوات، لم تكن قد جاءت أصلاً، عاد إليه حسّ جسمها الصبىّ الفتىّ وهو يحتضنها وراء الطاحونة التى تدقّ دقّاتها الرتيبة فى عتمة أول المساء، وثَمَّ كلاب تنبح من بعيد، وأصوات الفلاحين العائدين بماشيتهم قد خفتت، وضعت قفّة الطحين

على الأرض، ومازال على طرحتها ذروره الأبيض، وشمّ، من جديد، كأنه لم يفارقه لحظة واحدة، فَوْحَ دقيق الذُرة والحِلْبة النفّاذ الذى ظل طول عمره كلما هبّت عليه رائحة الحلبة، يهيجه ويدفع الدم فوراً إلى قلبه.

قال لى: لا، لم أجد معنى للعدل قط، العدل بالمعنى المطلق الذى تبحث عنه وتريده أنت، لم أجده، لا فى موت تحيّة، ولا فى حرمانى من حبّ الصبا الذى لا يُعوّض، العدل نسبىّ شأن كلّ شىء فى حياتنا، نحن نتوق لمطلق الأمور لكن لن نجد إلا نسبيّتها.

قلت: من غير نشداننا مطلقها لنْ نجد معنى حتى لنسبيّتها.

ومع هذه النسبيّة لماذا الشرّ؟ لماذا الألم؟ لماذا يتوجّع طفل لم يقترف ذنباً أوجاعَ المرضِ والجاعة والموت؟ لماذا يقوم هذا الوحش، وَحْش الألم، وَحْش الظلم، وَحْش الموت، يلقى بظله الأسود على حياتنا؟ سوف نقهر هذا الوَحْش يا عبد الفتاح سوف نقهره.

فهل كان ذلك الإيمان بعض ميراثى من صراعى مع الأرثوذكسيّة القبطيّة التى أظن أننى رغم جحودى بها لم أبرأ منها قط.

قضيت أياماً فى بيت عمتى ديماريس بالقاهرة، فى مناخ مسيحىٍ كان ثقيل الوطأة على الفتى الذى أسقطَ عنه - فيما ظَنّ - شرنقة الإيمان بالموروث.

أما فى بيتنا فى الإسكندرية فقد كانت هذه السحب الرازحة قد خفَّت وشفَّتْ كثيراً، لم تكن عائلتى الصغيرة قط قويّة التمسُّك بالعقيدة ولا بتصوُّراتها وطقوسها.

أما فى بيت عمّتى فقد كانت امرأة ابنها بشارة تنتمى إلى الإصلاحيين البروتستانت المتشدّدين، على عكس ما كان فى بيتنا من تسامح بل تراخٍ فى الممارسات الدينيّة، إلا فى مناسبات الأعياد، وعيد الملاك ميخائيل، حيث البهجة بالحياة تأتى قبل الانصياع للعقيدة.

تلقيّتُ بعد عودتى من رحلة القاهرة - بحثاً عن مورد للرزق - رسالةً

من الست رومة زوجة بشارة أفندى ابن عمّتى، عندما أقرأها الآن أعرف الفرق بين المناخين. وأعرف ازدواجيّة أظنّ أننى لم أتحرّر منها قطّ.

١٩٤٧/١/٢٧

حضرة المحترمة والفاضلة الست امرأة عمى دامت بخير

أبعث إلى شخصك المحبوب عاطر سلامى وعظيم شوقى وأرق تحية راجية لك مع أفراد الأسرة الكريمة كلّ صحة جسدية وبركة روحية وبعد أعرّف حضرتك يا ست امرأة عمى إنه منذ أسبوع أو أكثر وأنا أشعر بصوت الربّ يأمرنى ليلاً ونهاراً بأن أرسل لك حوالة مالية مثل التى طيّه ولكنى أهمل هذا الصوت وأعتقد أنما هذا إلا مجرد مشاعر تجول بخاطرى ولكن اشتد الصوت علىّ بإلحاح قائلاً لا تعصى لا تهملى حتى أنه من كثرة نداء الصوت بقيت مرتبكة ولا أنام الليل ولا النهار علماً بأنه نسبة لتعبى فى عمل المنزل حالما أضع رأسى ليلاً حالاً يهجم علىّ النعاس بالرغم من أن أكون غير مستريحة فى النوم بالنسبة لترضيع سهير أو أكون مكشوفة فأنام إلى الصباح أو يوقظنى بكاء سهير فلما وجدت هذا القلق الشديد لم أجد بدّاً من أن أكون مطيعة لهذا الصوت الرقيق اللحوح وإنى لا أدرى سرّاً لهذا ولكنى واثقة تماماً أنك أنت تعرفين السبب فى ذلك ومما كان يؤخّرنى فى تنفيذ هذا الطلب أننى لم أكن أتعود أن أكتب أية رسالة سرّاً ولا حتى لوالدى، والسبب الثانى هو أنى لم أكن متأكدة أن هذا الصوت من الله ولكن وضعت أمامى عدة اختبارات لأعلم إذا كان منه أم لا فكانت جميعها بالإيجاب، فلذا أنا فعلت ما أمرت به وأرجوك كل رجاء بأن تكتمى هذا السرّ تمام الكتمان وأن لا يتعدانى وحضرتك و........ أفندى الذى الخطاب باسمه، وإنى ياست امرأة عمى أرجوك كل رجاء أن تلحّى على الأخ .... أفندى بأن يقترب إلى الله ويقدم له شكراً على مساعدته له فى كل الماضى وعلى مساعدته فى إتمام مراحله

الدراسية على أحسن حال وعرّفيه أنه بقربه لله لا يحس شيئاً مطلقاً ولكن يملك السلام ويشعر بفرح دائم ولذة تفوق كل لذة وأن قربه لله وصلاته له بإيمان تقضي كل أمر عسر، وعرّفيه أنه ليس عدم إدراك العقل أمراً هو الدليل على عدمه أو أنه محال، فالله موجود وعظيم جداً جداً، ولا تقتصر يا .... أفندي أن تنظر إليه من أعالي بنائه من بعد بعيد فتجد عليه عز وجلّ اعتراضات كثيرة لجهلك أصوله العميقة وأسسه الوطيدة الراسخة وتعجب من نفسك ظاناً أنك حزت الغلبة حال كونك مغلوباً، بل تعمّق في الدين واختبرْ الله ومواعيده الحلوة وسلّم له قلبك تسليماً كلياً وجزئياً وكذا أمورك كلها وهو يتولاّها. وأسرع يا أخي ولا تتأخر، جرّبه، صَلّ له بإيمان كاف واطرح أمامه كل شيء وهو يقول اسألوا تعطوا اطلبزا تجدوا اقرعوا يُفتح لكم من آمن بي لا أخرجه خارجاً. اليوم يوم خلاص إن سمعتم صوته لا تَقْسُ قلوبكم واعلم يا أخي إنه لو لم يكن الرب جلّ وعــزّ حيّ وموجود لكان نسخ كتابه ولا يخفى عليك أن هذا الكتاب الإلهيّ الأقدم من كل ما كُتب في العالم موجود بأيدي العبرانيين اليهود باللغة التي أُنزل بها طبق ما هو بيد النصارى بلغات مختلفة الأسماء ومع كونه باعتبار نبواته يضادّ اليهود في إنكارهم المسيح وكفرهم به ويضادّ كثيراً من فرائض وطقوس أكثر المذاهب النصرانية مع ذلك لم يُقدم هؤلاء ولا أولئك على تغيير أو تبديل شيء من نصوصه بحيث يكون على نوع ما موافقاً لآرائهم واصطلاحات عباداتهم فلا جرم أن ذلك من أقطع الأدلة على كونه محفوظاً أبداً بيد من أنزله تعالى من التلاعب فيه رغماً عن كل مقاوميه ومضاديه، فإذا كان كتابه محفوظاً إلى هذا الحد البعيد في كل المقاومات والاضطهادات والعصور والأزمنة مما يثبت قوة صاحبه فاستيقظ يا أخي وتسلح بسلاح الله الكامل لكي تغلب واعلم أن محاربتنا ليست مع دم أو لحم بل مع قوات وسلاطين أي مع إبليس وجنوده، فالله القادر على كل شيء

يضمك إلى حظيرته وليمجّد اسمه فيك وبك ، يسرّنى كثيراً جداً لو كنت ترسل وتستعير منا كتاب «الباكورة الشهيّة فى الروايات الدينيّة» الذى لدينا وقد كنت عرضته عليك وأن يكون هذا من رغبة داخلية فيك أنت لأنى أرى أنه خير مرشد لك والله يتولاّك وحده .

يهمنى جداً أن أطمئن على وصول هذه الرسالة فأرجو أنه إذا وصلت الحوالة والخطاب يكتب .... أفندى خطاباً لبشارة أفندى ويقول له إنه فاتنى أن أسأل عن صحة بلبل فى الخطاب السابق فأعلم من ذلك أنه وصل ووصلت ما بداخله وإن لا سمح الله لم تصل ما به أرجوه أن يكتب خطاباً فيه يقول أرجو إذا كان وصلت لديكم خطابات باسمى إرسالها ، فمن ذلك أعلم بعدم وصول الحوالة وأرسل لكم نمرتها وقسيمة الحوالة. من هنا الست امرأة عمى وبشارة أفندى وبلبل وأنا وسهير وزاخر أفندى وأسرته بخير نهديكم جميعاً أذكى السلام والشوق ودمتم.

ابنتك المخلصة

روضة فخرى .

لا مؤاخذة لرداءة الخط لأنه كتب بسرعة

أرجو تمزيق هذا الخطاب وأكون شاكرة وممنونة جداً ثم أرجو أيضا كتم هذا الخطاب نهائياً وشكراً.

ملحوظة: الرجاء مراعاة الحرص فى ألاّ يعلم بشارة أننى قد كتبت لكم دون معرفته وطبعاً يتألم أننى كتبت رسالة دون علمه لأى أحد بل يكون الرد مثل ما عرّفتكم وشكراً

كم يسرّنى أن تزوروا كنيسة نهضة القداسة (الإصلاح) حيث دائماً مملوئين بالنعمة والبركة والسلام الروحى.

لماذا لم يمزق هذا الخطاب ؟ كيف وجد طريقه إلى هذه الحكاية كلها ؟

مازلت أرانى أسير فى الصباح الباكر الساكن، تحت سماء لؤلؤيّة، إلى البيت القديم، أسير إليه، وأنا أحمل فى داخلى شوقاً عميقاً، وحساً بانتماءٍ لا ينفصم إلى هذا البيت، ولوعةً لفقدانه.

أعرف أننى لن أسير إليه أبداً، لن أدخله مرة أخرى، أبداً.

خطواتى - فى هدوء الحوش، بعد أن أغلق خلفى باب الشارع الكبير، تحت الجمّيزة العتيقة - لن تحدث.

أخطوها، مع ذلك، على الدوام، من غير وصول.

أعبر عتبة الباب الرخاميّة، حافّتها الناعمة غاصت فى الأرض، عليها نقوش كتابات هيروغليفيّة كادت تَمّحِى، ماثلة مع ذلك تستجلب البركة تستصرخ الذكريات.

أعرف أنه على هذه العتبة الخفية مرَّ من قبلى بيبى مارتان ومحمد ناجى، راغب عياد، وكامل التلمسانى، أنور كامل وجورج حنين وفؤاد كامل، موسكاتيلى وسَنَد بسطا، كاترين سُرْسُق وپولا العلايلى، خديجة رياض وإنجى أفلاطون وغيرهم ممن لا اسم لهم، هؤلاء الذين عذبتهم أرواحهم وطوّحت بجسومهم النزوات والمعاشق، ومفازع مجرّد الوجود، وأنه هنا حُسمت مصائر أو عُلّقت إلى الأبد دون قرار، رُسمت أقدار وتجسّدت شطحاتِ شعْر هذا البلد.

لكننى الآن أذهب للقاء نادر وعزيز، لقاء رمسيس يونان.

الحوش كان دائماً خالياً، من غير وحشة، مكنوناً داخل الحيطان السميكة السامقة، بأحجارها التى تضرب إلى الرماديّ الفاتح، لون قديم، نظيف، تظلّله أشجار كافور وجزورينا عفيّة وارفة، تنفى عنه فجأة كل ضجة القاهرة، وتضفى عليه سكوناً وسلاماً لم أجده فى أى مكان آخر، ربما لأنه كان يعدّنى لكشفٍ ومعرفة وبصيرة لم أجدها فى أى مكانٍ آخر.

أحجار السلالم عالية الدرجات، محصورة بين حائطين فى بئر السلم

الضيقة، تبشّرني، كأنني أسمع من ورائها طنين حياة مليئة بالقوّة والوعود.

وعندما ينفتح الباب المحكم الوثاق، أخيراً، تهبّ عليّ أنفاس البيت الهادئ حميمةً وصافية.

زرته في الأربعينيات، الدور الثالث من البيت القديم، (٥) درب اللبّانة، الغرفة التي كان يقيم فيها رمسيس يونان عندئذ، كانت فسيحة، خافتة الضوء، لكنها كانت عِبقة بحضورٍ غريبٍ من الأشواق والأهواء والصبوات التي لم تكن قد بادت بعد، شطحات العشق التي كأنها لن تندثر، المشربيّة المنمنمة، مثل مشربيّة بيتٍ في شارع الشِعْرى اليمانية، أو أصغر قليلاً، والمشكاوات القديمة من النحاس والزجاج مدلاة بسلاسل حديدية تهتز قليلاً من عوارض السقف الخشبية السوداء بين النقوش التي كادت تنطمس ألوانها، والشِلت الطَرية ناعمة القطن على الحصير المفروش، وزوايا أركان الحيطان العريقة لها مهابة تومئ إلى جلال من أقاموا هنا، أحبوا وصنعوا الحب هنا، غامروا بالروح، ثم غادروا البلد وإن لم يتخلوا عن روحها - أو هكذا أظنّ.

هل وصلوا قطّ مع كل حرارة قلوبهم إلى روح هذه البلد؟

يومها، لا أنساه، لم ألتقِ به قط من قبل، ولكنه كان صديقي، منحوت الوجه، ضاوي الجسم، زيتونيّ المسحة من سمرة صعيدية لا تَحُول، ومتأجّج العينين السوداوين، يكلّمني، ببطء، وعناية عن ضرورة مراجعة الماركسية - كنا في أواخر ١٩٤٦، وكنت منخرطاً حتى عمق كياني في حركةٍ ثوريّة بالإسكندرية - حدّثني رمسيس يونان يومها عن ضرورة النظر بعمقٍ أكثر في وَجْهيْ الماركسية المتناقضين: التحرري والإطلاقي، وقال، بحزن، إنه سيغادر البلد هو أيضا، بعد أسابيع قلائل، كان إسماعيل صدقي قد سجنه أيامها مع جمهرة من أبرز وألمع المثقفين والكُتّاب، كان منهم محمد مندور وسلامة موسى.

هُوجة لم تستمر ولم تسفر عن شيء.

عاد مع ذلك إلى القاهرة بعد أن ضربت الطائرات الفرنسيّة والإنجليزيّة والإسرائيليّة بورسعيد والقاهرة، رفض أن يذيع من باريس ما رآه إهانةً لبلده، واستقال من مورد رزقه هو وعائلته في الإذاعة الفرنسيّة، ترك بيته ومعاشه ومكانته، وأخذ بنتيْه وزوجته الفرنسيّة بولنديّة الأصل، ولوحاته - لحسن الحظ - ورجع خاوى الوفاض كما يقال، إلا من إيمانٍ - ساذج ربما وحارّ - بوطنه، أعطاه الناصريون ما يقيم الأوَد من أحاديث إذاعية ثم ألحقوه بوظيفة مدير الشئون التقنية في منظمة الشعوب الأفريقية الآسيوية، ثم منحوه تفرّغاً لعدة سنوات، كانت أخصب سنوات عمره، أبدع فيها لوحاتٍ تحترق بلهيب الصعيد ولهب صخور روحه - أين ذهبت الآن هذه اللوحات؟ - ثم سحبوا منه التفرغ، وهو أحد أعظم الرسّامين المصوّرين المصريين، وقالوا له، وهو الفنان الملهم والمثقف النادر: «ترجمْ أندريه مالرو صفحة بصفحة لكي تأكل خبزك يوما بيوم»، فمات، قتلوه وهو في عز النضج، قتلوه، ببساطة، هكذا.

هل الفنان الرهيف والمفكر الثاقب، يسقط الآن في هوّة النسيان المصريّ الذى لا يرحم.

أين لوحاته؟ أين هذا الكنز الروحيّ الآن؟

لماذا يحتفي الآخرون بكُتّابهم وشعرائهم وفنّانيهم، ولا ينسوهم؟ لماذا مصر تهدر أبناءها بلا حساب؟ ألأنها ولُود خصيب، معطاء تثمر كل يوم عبقريات بلا حساب، فلا يهمّها إن ضاع منها هذا أو ذاك، مهما كان نادراً ولا يعوّض؟ هل الخصب يعني الهَدْر أيضاً، بالضرورة؟

كان من تصاريف القدر أنني حللت في وظيفته تلك في التضامن الأفريقي الآسيوى.

في تلك السنة نفسها ١٩٤٧، كتب رمسيس يونان:

«بعد ثلاثين سنة من ثورة أكتوبر، وبرغم تأسيس وانتشار الأحزاب المسماه ثوريّة في كلّ العالم، لا تكف السبل الإنسانية عن ازدياد توغّلها في الظلمة، ويخيّم على المستقبل ظلٌّ أكثر شراً، وفي هذا يحكمنا اليأس، لكن لا يجب أن يميت هذا اليأس طبيعة الإنسان نفسها.

وبانتظار أن يسبق وعي الإنسان رفضه لحياة الكلاب هذه، لا نزال نستمد من اليأس ما يكفي لتغذية نار التمرّد في أنفسنا، إننا نصرّح بأننا مجانين، التجارب لم تعلّمنا شيئاً، نحن لا نتغذّى سوى من هذياننا، وهذا لا يحرمنا من بصيص ضوء، وإذا كنا نرفض أن نرى في الفشل الحالي للحركات العماليّة نهاية أحلامنا، فإننا لانزال مفجوعين بثقل هذا الاضطهاد المتشعّب الذي لا يفتأ يتزايد يوماً بعد يوم.

إن الصراع الطبقيّ لم يعد يجاوب على حاجاتنا، إن غايتنا التي لم يسبقنا إليها أحد في التاريخ، مع استمرار نضالنا من أجل مجتمع لا طبقي، هي في رفض الانتماء إلى أية طبقة. إن الانتماء الطبقيّ في نظرنا هو خيانة، وحدهم المتمرّدون على طبقاتهم لهم الحقّ في الكلام عن المستقبل. إن حالات أشخاص مثل ماركس، إنجلز، ساد، لينين، تروتسكي تؤكد ذلك. وهكذا نستبدل الصراع الطبقيّ بالصراع ضد الطبقات، أيْ صراع الذين خارج التصنيف الطبقي ضد المصنَّفين طبقيّاً، إن أبناء العمّال، مدعوّون، مثل أبناء البورجوازيّة، إلى رفض واحد لطبقتهم، يجب أن يجمعهم قاسم واحد مشترك، النضال ضد آبائهم، هذا عمل جنونيّ ربما، لكن الحريّة تستحق هذا الثمن، فلا يمكن العمل في خدمة المجتمع والعمل على سحقه في وقت واحد.

لندعم صفوف الخارجين على طبقاتهم ولينتشر جنوننا حتى يشلّ كلّ وظائف هذا المجتمع المجرم.

يا شبّان العالم، سفّهوا آباءكم!

ابصقوا في وجوه عسكريّيكم!»

فى الألفـيـة الثـالثـة مـازال هذا كله قـائـمـاً وقـائمـاً ، فـانظرْ مـدى صـدق استشرافه المستقبل.

لكننا فى ذلك الصبـاح من أوائل أبريل من ١٩٤٨ لم نبـصـق فى وجوههم.

عندمـا نزلت من البـيـت فى شـارع ابن زهر وجـدت الشـوارع غـيـر مألوفة على أى وجه.

الدكاكين والمحلات مغلقة، السيارات والترامـوايات تسير وحدها دون أن تأبه لشـارات المرور التى ظلت مطفأة لا ينيرها أحد، حلقات صـغيـرة من العيال، حفاة بجلاليبهم عليها چاكتات كـاكى قديمة من مخلفات «أورنس» الجـيش الإنجليـزى، ومـجـمـوعـات من العـمـال والمتسكعين يسيرون فى عرض الشارع دون أن يعترضهم أحد.

رأيت صـفـاً غـيـر منتظم من عـسـاكـر البـوليس يسـيـرون فى شـارع الخديوى رافعين بنادقهم فى الهواء وقد رشقوا فى كل سـونكى رغيف خبز.

أول يوم فى إضراب عساكر البوليس.

على السـاعـة العاشرة رأيت من نافذة البنك الأهلى فى شارع طوسون جمـاعات من حـرافيش الإسكندرية وزعـمـائهـا وجدعانها يهجـمون على محل ليون جاتى الفخم بالشواكيش والعصى والشُوَم الضـخام يحطمون الواجـهـة الحـديدية التى نزلت إلى الأرض فـجـأة بصـوت انهـيـار مـعـدنى مجلجل فى الشـارع وقد خلا من السيـارات وسـاد فـيـه نوع من الصـمـت الغريب لا تقطعه إلا أصـوات صـفـيـر ثاقب ونداءات خاطفة: ياللاّ يا ولَّه تعالوا هنا يا جدعان. وعلى النـاحـيـة المقابلة وقـفت جماعة من عـسـاكـر البوليس ترقب مشهد الاقتحام والنهب بلا مبالاة.

تحطم زجـاج البـاب والواجـهـات السـميكة الصـافـيـة وسـقط الـفُـتـات والشظايا على الأسـفلت، ورأيت العـيـال والجـدعـان يخـرجـون من المحل

يحملون على أكتافهم لِفّات الصوف الغالى، القمصان من الحرير والبدل الفاخرة تحت آباطهم، والعيال تزاحمت تخطف ما تصل إليه أيديهم ويجرون جميعاً خارجين من شارع شريف ويختفون لا أحد يصدّق منهم أنه نجا بغنيمته.

فى آخر شارع شريف الذى كان أرستقراطياً وغالياً، وفى الهدوء الذى ساد بعد توقّف السيارات تماماً، أصوات جرى العيال والشبّان ووقع الأقدام الحافية على الأسفلت وضحكات خشنة - على الصبح - كأنها مِن أثر الحشيش والسلْطنة.

- ما فيش حكومة يا جدعان.. كل واحد يعمل ما بدا له.. اللى عايز يشلّح النهاردة يشلّح على كيفه.. واللى عايز يشخ على كيف كيفه.. هيه..

من أين خرجت الطبلة وكيف انعقدت حلقة الرقص البلدى فى عرض شارع فؤاد والجدعان يصفقون للراقصين أولاد البلد على واحدة ونُص.

أغلقت البنوك والشركات أبوابها وصرفت موظفيها.

الشوارع الفخمة النظيفة فى وسط البلد تناثرت على الأسفلت والأرصفة فيها قطع ممزقة من ملابس داخلية حريمى أنيقة وقطع جاتوه شيكولاته وميل فيىّ مهروسة تحت الأقدام وشظايا معدنية وزجاجية وزجاجات سينالكو وكوكاكولا نصف فارغة.

قال فتوح القفّاص: بُصّ.. عندما أحس الناس بأنه لا توجد حكومة رقصوا من الفرح، لم يسرقوا أحداً مِن الغلابة الذين طفحوا الكوته، لم ينهبوا دكانة صغيرة بل أخذوا - مرةً فى حياتهم - ما حرموا منه طول حياتهم، هجموا فقط على المحلات «الراقية» مِلْك الخواجات والأغنياء، كأنهم يستردون حقوقهم.

فى أول شارع النبى دانيال فوجئت بصفوف منتظمة من عساكر

البوليس بحللهم السوداء الكابية وأحذيتهم الميرى تسير فى صمت تام وقد رفعت البنادق إلى أعلى، أرغفة الخبز مرشوقة فى السونكى الذى تلمع شفرته فى أشعة شمس الصباح الإسكندرانى المنعش، ودقات الأحذية الثقيلة على أسفلت الشارع الهادئ الخاوى لها وقع رتيب.

سمعت من الراديو الضخم ماركة پاىْ فى فسحة بيتنا إعلان حظر التجول من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى السابعة صباحاً.

وفى الصمت الموحش الذى حطّ على المدينة كانت ثم طلقات رصاص تدوّى من بعيد.

كان الجيش قد نزل المدينة.

ساد الصمت فى النهاية.

كتب لى عبد الفتاح خلف الله بعد السنوات الطوال:

وهل تعتقد أن وحش الألم، وكل ما يلاقيه الإنسان من شرور يمكن أن يبدّد من نفسك النور الغامر البهيج الذى سطع فى عينيك فى المعموديّة وملأ قلبك، وبدت الدنيا أمامك واسعة، واسعة؟

أنا أعرفك، وأعرف أنك عانيت كثيراً من آلام الحياة وشرورها، ومع ذلك لم أجدك يوماً شاكياً ولا متبّرماً ولا يائساً، ولكنك كنت على الدوام متجاوزاً، عزيز النفس، شامخاً كالجبل.

لا يمكن أن يكون الشرّ فى الدنيا غلاّباً، لأن معنى ذلك فناء العالم. ولكنى أقول مع ابن سينا إن الشر كثير ولكنه ليس بأكثرىّ، الوجود فى جوهره خير والشرّ يدخل فى الوجود بالعَرَض. وجود النار خيرٌ لأنها تنضج لنا الطعام ولكنها قد تمتد لتحرق ثوب رجلٍ فاضلٍ فقير.

دعنى أذكّرك بأنك القائل بأن الوجود والحياة دحضٌ نهائىٌّ للشرّ وإدانة للوحش، أنت قلت: «مجرد أن أشمّ رائحة بخور وعطارة مع دقّات النزار فى بيت أم فكرى وأن أسمع صلصلة الترام فى شارع راغب ونداءات الباعة: المانجا، روبابيكيا، حَمار وحلاوة، والانغمار

فى وجود الناس المصمّمين دون وعى وربما دون فلسفة، على البقاء على الحياة، وعلى المتعة بها رغم كل شىء، هو إنكار للوحش».

قلت: نعم هو إنكار للوحش، لكن الإنكار لا يعنى إلغاء وجوده، ولا يعنى كلام ابن سينا تبريراً لاحتراق ثوب الرجل الفاضل، وربما احتراقه هو نفسه وأطفاله وامرأته. لا تهمنى الإحصاءات، الملايين من المحترقين والمطعونين والجوعى والمنصهرين فى وقدة النار النوويّة الأكّالة، أى واحد منهم فقط لا يمكن قبوله، لا يمكن تسويغه. لا معنى ولا ضرورة للشرّ ولا للألم، ولا لافتقاد العدالة ولا لانتهاك حريّة شخص واحد فما بالك بالملايين؟

فى أيام الكبرياء القديمة كما وصفتها يا عبد الفتاح كنا نؤمن بأن القضاء على الوحش ممكن بل فى متناول اليد، كان الأفق مشرقاً واعداً بآمال لا حدود لها.

فماذا حدث؟

قلت: حتى إذا كان، قتل التنّين مستحيلاً، فلن نُسقط رماحنا أبداً - نحن جماعة الحالمين الخائبين - سوف نظل نضرب حراشيفه الصلبة، سوف نظل نناوشه ونصارعه ونجالده، بما لا نهاية، لا نهاية.

الفصل الرابع عشر

كنت أعرف أنهم الليلة سوف يأتون.

بعد الظهر عند عودتي من البنك الأهلي ومبنى البوستة العمومية حيث التقطت آخر ما وصل إلى صندوق البريد ٧٧ باسم يوسف قلادة، فتحته بالمفتاح الصغير الذى ليس مع أحد غيرى، واستخرجت آخر أعداد الديلي ووركر ولافيريتيه وعدت مشياً في الحرّ والغبار والضجة المعتادة. زحمة الناس في شارع راغب باشا تضيّق صدرى وأكوام طوب وزبالة وريش طيور وبقاياها على الرصيف أمام البيت.

«لافريتيه» الحقيقة، برافدا، تحملني على أجنحة مُحلِّقة إلى سماء باريسيّة لم أكن قد رأيتها قطّ، أنطوان خير الله قال لي: أتمنى أن تراها معي، لقد وقعت في حبها من أول لحظة وسوف تقع أنت في هواها بالتأكيد بل سوف تتدله بها حباً. لم أكن أعرف في ظهر ذلك اليوم الحار أن نبوءته ستصدق تماماً، لكن باريس يومها كانت باريس الكوميونة، باريس التي تقف وراء متاريس الحرية، مدينة نور الكرامة والعقل، طريق نسر في السماوات، أصحيحٌ أنه لم يبق له أَثَر؟

أحمد صبرى كتب لي بعد ذلك بسنتين أنها مظلمة لأن الحرب ضربتها، والكهرباء تنقطع من شرايينها، لم يهمّني ذلك، كانت وتظل منيرة ساطعة سطوع سان بطرسبرج، ذئبة مقاتلة عن شرف ثورة دائمة..

وسيحدث.

ستُقاتل باريس سنة ١٩٦٨ بعد عشرين عاماً بالضبط من يومها،

منافحةً عن إيمانٍ بالعدل لن يتهاوى حتى لو وطأته جحافل بعد جحافل من فكر التـتـار والكاوبوى المعـاصـرين أو بضـائعـهم العـقليـة والاستهلاكية.

ذهبت إلى غيط العنب، ومعى حقيبة سفر صغيرة، تقليد الجلد، ملأتها بالكتب والمجلات والأوراق التى تصوّرت أنها دليل إدانة ومنها «الحقيقة» و«العامل اليومية»، ونزلت فى آخر محطة أمام الكركون، وحوّدت إلى اليسار، رحّبت بى امرأة خالى سوريال، بنصف قلب، وقلت لها باختصار إننى أرغب أن أترك هذه الحقيبة عندها أمانة، لمدة قصيرة إن شاء الله، هل يمكن؟

ولم أشرح لها ما فى الحقيبة، ولا لماذا أتركها عندها، قلت، من باب العشم.

فقالت بعد تردّد وجيز: حاضر من عينى، لما يجى خالك حاقّوله طبعاً.

على الساعة العاشرة التقيت بقاسم إسحاق أمام الباب الرئيسىّ فى محطّة مصر، كان على سجيّته من الانفعال والتوتّر، يلقى بسيجارته قبل أن ينتهى من تدخينها ليشعل أخرى، فى يده حقيبة سفر صغيرة أو لعلّها متوسطة.

قال: عندى نصف ساعة قبل ميعاد القطار، تعال نسير فى حدائق المحطّة، لا أحتمل الجلوس فى البوفية. هأنت ترى كم أنا متوتّر.

قلت: كلنا ذلك الرجل ولكن علينا أن نكتم هذا القلق، ماذا يجدى؟

قال: يجدى؟ يجدى؟ هل أستطيع التحكّم فى شعورى، أنا؟ أنا يا أخى لا أستطيع، الليلة سيعلنون الأحكام العرفية بالتأكيد فى منتصف الليل تماماً، الليلة ستتحرك جيوشهم إلى أرض فلسطين. هل عندها سلاح كافٍ، هل عندها تدريب كافٍ؟ هل هناك إعداد فكرى ونفسى

للعساكر الذين يروحون ربما لكي لا يعودوا؟ أبداً، أبداً.. ليس هناك شيء من هذا كلّه، تريدني أن أكتم القلق؟ طيّب كيف؟

قلت: يا سيدى اقلق على كيفك.. لكن قل لى لماذا تسافر للصعيد الآن؟

قال: فرصة مثل غيرها لأرى والدى بعد أن أحيل للمعاش وأساساً طبعاً لكي لا أقع فى قبضتهم، مائة فى المائة سيعتقلوننى لو مكثت فى إسكندرية، مهما اختفيت عن أنظارهم، وحتى فى الصعيد لن أبقى فى بيتنا فى سوهاج طويلاً أو قليلاً، سأذهب إلى أقارب لى فى أخميم أو فى نجع الخور، آمل ألا يعرفوا طريقى.

قلت بشيء من الحنوّ والخشونة معاً:

- الا ترى فى هذا نوعاً من الهرب؟

رد بشيء من العنف: الهروب؟ والوقوع فى أيديهم، أليس استسلاماً لهم؟ أليس نوعاً من التخلّى عن المسئولية؟

قلت، متحيّراً قليلاً ومتراجعاً قليلاً: ما أصعب الاختيار.

قال: عيبك يا عزيزى أنك لا تستطيع الحسم، لا يمكن أن تقطع بشيء. ربما كانت هذه ميزة عند المثقّف، أو الشاعر، لكن المناضل الثورىّ لابدّ أن يختار، لابدّ أن يتخذ القرارات الصعبة.. أنت طول عمرك تعانى هذا التناقض بين ما ترسّب فيك من قراءات فى الأدب الأوربىّ والفلسفة الغربيّة..

هممت أن أقاطعه فقال:

- والشرقيّة يا سيدى، لم أغلط فى البخارى، أعود فأقول ما قد لا يتاح لنا وقت أن نقوله، ربما لا نلتقى بعد الآن أبداً.. لا تحتجّ.. دعنا نكن واقعيّين.. دعنا نواجه واقع الحال..

قلت: قل ياسيدى وخلّصنى.

قال: التناقض عندك قائم وغير محلول بين أصولك المصريّة الشعبيّة

وثقافتك العقليّة الغربيّة أو الغريبة عنا.

قلت: ليست غريبة طبعاً، هي وريثة ثقافتنا نحن.

قال: أسلّم لك بهذا، لكن التناقض قائم أيضاً يا عزيزى بين التقاليد الدينيّة الراسخة فى داخلك للأقلية القبطيّة...

قاطعته بسرعة: ليست أقليّة، نعم قد تكون عددياً كذلك لكن مفهوم «الأقليّة» لا ينطبق على أقباط مصر، علمياً وموضوعيّاً، مفهوم «الأقليّة» يحمل فى طيّاته معنىً للغربة والنشوز والانفصال.. التحليل العلميّ ينتهى بعكس ذلك.

قال مسلِّماً: مرة ثانية موافق، ولكن هذه التقاليد أو الطقوس أو الرموز القبطيّة تتناقض بالتأكيد مع ما تثيره أنت الآن بالضبط عن التحليل العقلى «العلميّ» أو الموضوعيّ أو الماركسيّ..

قلت: ليس بالضرورة، مادامت فى غير نطاق العقيدة أو الدوجمائيّة بل فى سياق ثقافيٍ حضاريّ ولغويّ.

قال: أليس فى هذا تناقض آخر؟ أعنى عشقك للّغة العربية هذه، عشقاً أجد أنه مغالىً فيه وغير مبرَّر، وانحيازك أيضا لتراث الثقافة الإسلاميّة الذى تقول عنه إنه قد تجذّر فى حياتنا؟

كنا قد درنا حول حدائق محطة مصر مرتين، وكان التعب قد اعترانى، فقد مللت هذا النوع من الجدال. على معرفتى بحسن النيّة الكامن وراءه.

فى تلك الليلة، فى ١٥ مايو ١٩٤٨ اعتقلتنى حكومة النقراشى، عشيّة حرب فلسطين الأولى، مع مئاتٍ من كلّ أصناف «الخطرين» أو «المشبوهين» سياسياً، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وجاء للمعتقل بعد ذلك من جماعتنا حمدى محمد يوسف، وفريد اسكاروس وعبد القادر خلف الله، وشوارتز. قاسم إسحاق، لم يعتقل ولا كامل الصاوى، ولا فتوح القفّاص، ولا أحمد النمس، أفرج عن زملائنا كلهم

بالترتيب، بعد فترات متراوحة، وبقيت وحدى، ذهبت إلى معتقلات هاكستيب والطور ثم عدت إلى أبو قير وكنت من أواخر الذين خرجوا فى فبراير ١٩٥٠. استيقظت ذات صباح ووجدت أن المعتقل خاوٍ تقريباً، مفتوح الأبواب على الصحراء والغيطان، الطريق المسفلت كان أمامى ليس فيه أحد، وركبت الأتوبيس، بتلاتة تعريفه، إلى المنشيّة ومنها بالترام إلى بيتنا، بستة مليم، ومعى شنطة ورق مقوًى على شكل الجلد مربوطة بحزام، رافقتنى طول التنقّلات بين أبو قير والطور، وبنظّارة مكسورة مربوطة بسلك، وكانت الجزمة بوزها مفتوح وواسعة، قضيت فترة الاعتقال كلّها إمّا بالصندل أو بالجزمة الكاوتش.

كان الناس فى الشوارع وفى الأوتوبيس والترام لا يكادون يلتفتون إلىّ، وأنا أتحرك بحرية لأول مرة منذ عشرين شهراً، وكأنه ليس للحرية طعم ولكنى كنت أملأ صدرى بهواءٍ مفتوح، ليس عليه حَرَس.

فى ١٩٤٦ تخرج كامل الصاوى، معنا، وبينما ظللت سنة تقريباً بلا عمل، غرقت خلالها فى النشاط الثورىّ حتى استبدّ بكل لحظة من يومى وبشطر كبير من الليل أيضا، وأنا مع ذلك أواصل إرسال خطابات طلبات العمل وأتلقى جوابات الاعتذار المهذّب، عرفت أنه عُيِّن معاون نيابة فى الجمرك، فور تخرجه بترتيب «جيّد» فقط، أصبح إذن جزءاً من السلطة، من «أجهزة القمع القانونىّ أو المقنّن» كما نقول، هل نسى هيجل، وتروتسكى، والفلسفة الثوريّة؟ كان هذا هو المنتظر، طبعاً، وتم الانقطاع.

بعد سنة أخرى فقط، قبيل أن أعتقل مباشرة، قرأت فى «الأهرام» أن

«الأستاذ كامل الصاوى، معاون نيابة الجمرك بالإسكندرية، قد لقى ربّه إثر حادث أليم، فقد غلبته سِنة من النوم وهو يدخّن سيجارة، واتضح من التحقيقات أن السيجارة المشتعلة سقطت على السرير، وتوفّى سيادته محترقاً فى شرخ الشباب بينما المستقبل الزاهر ينتظره، رحمه الله رحمة واسعة.»

صدمنى الخبر، وهزنى، رغم كل شيء.

راودتنى أفكار شاردة عن احتمالات موتٍ متعمَّد، مقصود عن وعى أو غير وعى، أهى فضيحة جنسيّة؟ هل كانت بطلتها الأمّ الأرملة المتحررة، أم الخادمة التى تضخّم بطنها؟ أم هو شقّ عميق لم يبرأ بين الثوريّ القديم وبين رجل السلطة، خَطَر لى أن حسَّه الخلقيّ الكامن ربما تيقّظ فجأة، تغلّب على «موضوعيّته» العلميّة، ودفعه إلى حافّة النار، فتردّى، سقط، أم لعله قد علا؟ هل كان النوم (أو الموت) قد غافله فعلاً؟

ظل سريره المشتعل يؤرّقنى شيئاً ما، ويحيّرنى.

قربان الموت، الأخير على شاطئ «الجانج» أو «الستايكس» سواء، هل لقيته نمْفيّة النهر العارم الذى لا غلاب له والذى يصبّ فى غيابات الظلمة، قاطنة الغرب النائى. على حوافّ الليل فى مأواها المظلّل بجبال معتمة شامخة، سريره المرتفع وأحطاب الوقود عطريّ الرائحة وأعواد البخور وترانيم التعبّد والتذكّر بأصوات رتيبة النغم فى الحَرّ الذى يسحق الحسّ ويعطّل الفكر.

ألسنة اللهب متطايرة تصعد إلى العنان والدخان والعَبَق الأبيض به شرائح دسمة سوداء، يفلت من بين النيران صوت أجيج الاشتعال وفحيح اللظى لا يكاد يخفى طقطقة العظام المهيضة التى تتقوّض فى الحريق ولا لزوجة الأوصال التى تذوب فى حنوطها تحت هرم الكومة المتقدة.

سرير كامل الصاوى فى غرفة نومه البورجوازيّة الضيّقة فى محرم بيه قد احترق به بصمت، دون نجدة، دون ترانيم، وانطفأ من تلقاء نفسه، وترك البقايا وسط الرماد وجذاذات متفحّمة من القطن والقماش والأسلاك المتلويّة، تحت المصباح الكهربائى الذى ظل مضيئاً فى نور النهار. تدحرجت نظّارته ذهبيّة الإطار وسقطت على الأرض وبقيت

سليمة وصافية. مات وحده، دون حبّ، دون مجد.

قالت: لو كنا فى الهند فلن أكون أنا الذى أحترق معك على سرير موتك. ليس مكانى على سريرك الأخير المشتعل.

قلت: مكانك اشتعال آخر، حيّ أبداً، ليس له انطفاء.

قلت فى سرّى: ومع ذلك مكانى معهم، أشاركهم أحلامهم، قد لا أعتنق أيديولوجيّتهم تماماً، لكننى لن أتردّد فى العمل معهم، فى الانخراط فى صفوفهم، سأظل أنا نفسى، محتفظاً بجوهر نفسى، لكننى أيضاً سأجد نفسى معهم، ومعهم سيكون لجوهر ذاتى معنى وقيمة. لا أستطيع ولا أريد ولا أطيق أن أنكر جماهير الشهداء والضحايا، عن طواعية أو عن عسف سواءً، فى سبيل هذا الحلم، لَكَمْ يبدو مستحيلاً لكنه عنيد لا يموت جيلاً وراء جيل وألف عام وراء ألف عام، هذا الحلم هو الإله الذى لا يشبع من تقدمة القرابين، يتزيّا مرةً بزىّ أسطورىّ أو شعرىّ ومرة بزى علمىّ عقلانىّ، لكنه يظل هو لا يريم، نعم، نعم، أنا حالم، أحلم هذا الحلم الذى يظل ساطعاً حينا أو مراوداً وخفيا ومكبوتاً حيناً أو أحياناً كثيرة، يظل هائماً غير متجسّد وغير مصوغ فى حياة الملايين المسحوقين من الناس، يدركون ذلك أو لا يدركونه سواء. يحيون حياتهم بلا مبالاة بالحلم، فيما يبدو، حياة عاكفة على استدامة ذاتها، مليئة بالكدّ والسعى للمتعة، مليئة بالحبّ والأحقاد، مليئة بتحرّك الأحشاء، من يقول إن هذا الحلم غائب كل الغيبة عنها؟

قلت لقاسم إسحاق ليلتها: يا عزيزى ألم نتعلّم من هيجل وتلاميذه أن التناقضات يمكن بل ضرورىّ أن تقوم معاً؟ وأنها تجد حلاً منطقيّاً فى «القضيّة المركّبة»؟ ألم نتعلّم من فرويد أن التناقض هو قانون الحياة الداخليّة فى اللاوعى أو فيما هو تحت الوعى؟ وأن الذات أو الأنا مهمّتها الأساسيّة هى التوفيق بين هذه التناقضات؟ العمل الثورى نفسه يحمل

تناقضه لكنه يُغفل أحد جانبى التناقض لمصلحة جانب آخر .

مازلت أسأل : هل الفنّ وحده هو سيّد التناقضات ؟

أجد المرأة كمنجة ذائبة على تاج عمودٍ من رخام النخيل المضفور وهى تحتضن شعر الخيْل الأشعث المخايل بالشطح فى سهوب سيبريا المثقلة بعرق لينين وديستويفسكى والديسمبريّين. الجواد القنطور يدير رأسه الإنسانىّ إليها فتشدّ اللجام الحديدىّ حول فكّيه المطبقين. لا يستطيع أن يتكلّم بما رآه فى حلمه الطويل وعلى صهوة سفينة تمخر عُبَابَ وجنة امرأةٍ تتلاطم أمواج الغضب تحت عينيها المفتوحتين فى سهومٍ لا نهاية له، ترسو السفينة بأشرعتها الذاهبة إلى قلب السماء فوق صخرة لها أنف أقنى وفم مطبق مستقرٍ على قاع المحيط الشاسع وجه المرأة. أصابع أنثوية مصبوغة بطلاء عاجىٍ تسند «الصخرة - الوجه» بينما تَميع أعجاز النساء الزرقاء وتذوب حواشيها، أعضاؤهنّ الجنسيّة داكنة وناتئة تحت البطون المخسوفة من الجوع. هوائيّات الإرسال والاستقبال رفيعة متشابكة قد تقطّعت وتهدّلت فوق رءوس عساكر صبية حمر الوجوه بقاماتهم النحيلة المنذورة للموت تحت شجرة دهريّة عريقة هائلة الجذع نهودها الكثيرة متضخمة ولها بروزات صلبة وفروعها السحريّة تهتزّ ممتدّة فوق سطح الصوامع ومخازن الغلال الرومانيّة. أجسام الفلاحين محنيّة على أعواد القطن تنقى الدودة وترشّ المبيد المغشوش فى أبعاديات الباشا، فينتفخ الخدّ بنفث دخان السيجار الكوبىّ ويتجشأ. الصخرة المدوّرة مشعثة الحوافّ تخبطها رياح قوية خبطاً متوالياً عالياً معلّقة فوق حاجب العين المفتوحة على حلمٍ مضطربٍ لا ينتهى.

دقّات على باب الشقة فى شارع ابن زهر، لم أكن قد خلعت القميص والبنطلون، نمت بالشراب والحذاء، الدقّات على الباب متوالية عالية، قمت من النوم عارفاً هادئ الروع.

ها هم قد جاءوا.

عندما نظرت بسرعة إلى ساعة الحائط قديمة الطراز ذات البندول النحاس رأيت أنها لم تكن قد جاوزت الواحدة.

جاءت أمّي من غرفة النوم الأخرى، تضيّق بيدها فتحة فستانها وخلفها هناء التي تصغرني بأربع سنوات، أما أختاى الأخريان فقد كانتا نائمتين، لم تستيقظا على ضجّة الخبط على الباب.

فتحت فدخل على الفور ضابط بوليس شاب على كتفه نجمتان ووراءه اثنان عساكر بالزىّ الرسمىّ الأسود واثنان مخبران بالبالطو والجلابيّة والعصا.

سألنى عن اسمى فأجبت.

قال بأدبٍ وتّحفظ: تفضل معنا.

قالت أمّي بلهفة وخوف: إيه.. فيه إيه؟

قال: خير إن شاء الله لا تخافى يا ستّ.. مشوار بسيط لغاية القسم.

قلت: تسمح لى آخذ كتاب شعر إنجليزى معى؟

تردّد لحظة ثم قال: لا مانع.

لم يلقِ نظرة على مكتبى ولا على كتبى أو أوراقى.

قلت في سرّى: مهمته فقط أن يأخذنى.

قلت: أين نذهب؟

قال: لا شيء.. مشوار بسيط.

لم يقل لى: خذ معك جلابيّة، بيجاما، فوطة، أى حاجة.

ربما لأنه لم يشأ أن يفزع أسرتى. خطف في ذهنى سراب مخادع: ربما هى ليلة فقط أو ليلتان، ثم نعود. لكننى لم أتعلّق به على أية حال.

أخذ أحد المخبريْن بذراعى، ونزلنا السلّم الضيّق متزاحمين، وراء أحدنا الآخر، أمام باب الشارع وجدنا التاكسى الذى احتملنا جميعاً ستة أشخاص والسائق، وقطع شوارع راغب وكرموز الخالية بالليل حتى

وقف أمام مبنى كنت قد دخلته من قبل عرفت فيه قسم كرموز.

صعدنا سلّمتين ودخلنا إلى قاعة القسم، أشار لى الضابط على كرسى خيرزان، وقال: اتفضل اقعد.

جلست صامتاً، لم أسأل، فقد كنت أعرف أن الإجابة ستكون مراوغة على كل حال.

جلس الضابط الشاب إلى مكتبه المحمّل بسجّلات ضخمة وفتح أحدها وكتب فيه كلمتين.

رفع سمّاعة التليفون وأخذ يتكلّم بصوت خافت، لكنى فهمت بصعوبة أنه يأخذ توجيهات معيّنة لم تكن واضحة.

إلى جانب الجدار كانت هناك دكّة خشبية طويلة جلس عليها ثلاثة أشخاص وعلى يمينهم ويسارهم اثنان عساكر بوليس ومخبران أيضاً.

سوف أعرفهم - فيما بعد طيلة ما يقرب من سنتين - معرفة وثيقة وحميمة، وسوف أعرف ولا أنسى أبداً أسماءهم.

صابر محفوظ

محمود شبارة

وحسين شكوكو

معهم، ومع سلامة البشلاوى، وشاكر المريوطى، وزينب المشراوى وعايدة، وفاطمة ميمون الزيتونى، معهم ومع قاسم إسحاق، وأحمد النمس، وفتوح القفّاص، وأنطوان خير الله، وعبدالفتاح وعبد القادر خلف الله وزكى باخوم وعلى أبو الليل، وشوارتز، وفريد اسكاروس، وفتحى أبو شادى، وحمدى محمد يوسف ونيس شنودة، مع أوديت ووجدى حبيب ولطفى مدكور وفكرى نمر وإسماعيل عامر، مَنْ لا أنسى أسماءهم، عرفت ديمقراطية وأخوّة أبناء القبيلة الأولى البدائية التى وقفتْ وعملتْ وقاتلتْ فى وجه العسف ومن أجل الحلم، قبيلة الإخوة التى ضربت الديناصورات والكوابيس ونقشت الرُقى والتصاوير

على جدران كهوفها الصخرية، ولكنها الآن مترجمة إلى مضمون عصريّ في أربعينيات القرن العشرين.

قلت: وحتى الآن؟

معهم وبهم - مهما اختلفت انتماءاتهم - عرفت كيف أقبل قيود الواقع، لا، لا أقبلها ولا أنصاع لها، بل أفهمها، وأتأقلم معها مع رفضي لها وتمرّدي عليها.

معهم وبهم - وبمعاشقي الكبرى وهي حبٌ واحدٌ - عرفت كيف أفلت من اليأس الذاتيّ المحيق بل المدمّر، من جنون الانعزال والانفصام، إلى ساحة الأمل.

وعرفت كيف أنه لا خلاص، لا هنا ولا هناك.

ولا استسلام لليأس.

معهم وبهم - وبالمرأة الواحدة المتعددة التي أُكنّها في أعزّ مكان من قلبي، وبأصدقاء أثروا الحياة في مساراتها القديمة والحديثة على السواء، أحمد مرسي، سامي علي، بدر الديب، مصطفى بدوي، عدلي رزق الله، والبنات اللاتي أحببتهن، بهم ومعهم جميعاً عرفت شجاعة أنْ أواجه المخاوف التي كأنها ميتافيزيقيّة.

فإذا كان أحمد النمس قد التمس معذرة عن التفلسف فلعلني ألتمس هنا معذرة عن النبرة الشعريّة العالية، أو هي نبرة رومانسيّة؟ أو هي خبرة سنتمنتاليّة؟ ألم نقل إن السنتمنتاليّة إذا كانت حارّة لم تعد كذلك؟

على أيّة حال كل ما أرجوه على فرض أنها رومانسيّة أن تكون رومانسيّة صلبة بل خشنة نازلة في الأرض طالعة مِ الطين.

قلت عن نفسي إنني أتحدّى المخاطر والمخاوف مع الحذر الواجب، فهل غلب التحدّي كلّ الحذر وكلّ المحاذير؟

عندما نظرت وجدت أن عندي إيماناً مصرياً قدرياً مصوغاً صياغة خاصة وطول عمري أغلّب القدريّة أو أسلّم بها، طالما وَجَدْتُ أنْ ليس

بيدى ما يمكن فعله.

أما إذا كان الفعل متاحاً أو ضرورياً، فإليه المآل.

متعصّب فى كراهة التعصب، نعم.

عنيف في كراهة العنف، نعم.

لكنه العُنْفَ الفرديَّ المندفعَ غيرَ المحكومِ ما أكره.

أما العنف الثوريّ - عند ضرورته - فهو المحرّك للتاريخ وهو الردّ الذى لا مفر منه على العنف القمعيّ المتصل أو المقنن.

كأنما كنت أنحدر فى طريق اللا مقاومة الغانديّة، فى داخل تيار كاسح من المقاومة.

كان صابر جالساً أمامى على دكّة قسم كرموز، جسمه الكبير مستريح فى إهابه، وجهه الأسمر البيضاوىّ تحدّق منه عينان واسعتان جاحظتان قليلاً، لا يتكلّم بل لا يكاد يتململ أو يتحرك.

فى طيّ هدوئه العجيب ثورة لا تهدأ، وحكمة عريقة عراقة أرض هذا الوطن.

محمود، عفريت صغير الجسم، يشبه جسم صبىّ صغير، سفروت، متوفّز ومتوهّج، نحيل الوجه، طويل الأنف، فمه رقيق وحادّ، سيكون شعلة من نشاط وحيويّة طوال سنتين من أغرب السنوات.

أما حسين فلا يكاد يلمّ بعضه على بعض، طلب الذهاب إلى الحمّام ثلاث مرات فى نصف ساعة، أومأ الضابط الشاب برأسه موافقاً كلّ مرة، وفى المرة الرابعة شخط فيه: إحنا حنلعب ولا إيه يا ولَه.. اقعد مطرحك بلاش دلع.

سمعته يتمتم بصوت خافت ولكنه اعتاد المواجهة:

- اسمى حسين، مش ولَه.. احنا ما بندلّعوش يا بيه.

- طب اسكت يا سى حسين، خلاص دى آخر مرة اعمل حسابك.

وسوف يكون حسين عزاءً متصلاً من قسوة الوحشة وينبوعاً قادراً

على ابتعاث البهجة من خلال تهريج صريح خفيف الظل دوماً فى ظروف الحَبْس القاسية.

فتحت كتاب «التنّين الذهبى» الذى لم يكد يفارقنى أبداً، وقرأت شعر بايرون فى قسم كرموز.

عندما أوشك ضوء الفجر أن ينبلج – أو على الأصح أن يحيط بنا – أنهى ضابط البوليس الشابّ مكالماته التليفونيّة، وضع السمّاعة بحسم وصوت عالٍ موضعها وقام.

أشار إلىّ وإلى عساكره.

نهضت وأخذنى المخبر من ذراعى مرة أخرى، ونزلنا السلّمتين إلى الشارع الذى بدت معالمه تخايلنا فى غبشة نورٍ مضطرب غير مستبين، وجدنا التاكسى ينتظر.

دفعنى المخبر بشئٍ من الخشونة إلى وسط المقعد الخلفىّ، وجلس إلى جانبى، وجاء المخبر الثانى من الناحية الأخرى، يحيطان بى، ومازال ذراعه فى ذراعى.

جلس الضابط إلى جانب السائق، وأشار اليه:

– اطلع يا سْطَى.

كانت شوارع الإسكندرية خالية وبيوتها فى كرموز ومحرم بيه تبدو واطئة، مغلقة على ما فيها من حياة مكدودة وصامتة، عبرنا شوارع وسط البلد، أصوات أذان الفجر خافتة وبعيدة من جوامع قليلة، حتى شارع أبو قير، فى طريق الرمل.

اقتربنا من محطّة سيدى جابر.

الهواجس لا تكفُّ عن مهاجمتى، وخيالاتى لا تتوقّف عن المجىء والذهاب.

المحطّة؟ إلى أين يأخذوننى بالقطار؟

لكننا مررنا بها بسرعة، ودخلنا فى الشارع الطويل، وعلى أن

التاكسي كان يجرى فقد أحسسته لا يسير على الإطلاق، البيوت المغلقة نائمة وراء نوافذها، قلت لنفسي تركنا المحافظة، وسجن الأجانب من زمان، يبقى لازم سجن الحضرة؟

كان التاكسي الآن يقطع طريقاً وسط الحقول والزروع العالية وأشجار النخل تبدو إلى جانبيْ الطريق، وتتعاقب غيطان المعمورة والمنتزة، وقف قلبي لحظة، هل يذهبون بي إلى أوردى المعمورة الرهيب، حيث يقطع عتاة المجرمين أيديهم حتى يفلتوا من عذاب السخرة بالعمل الشاقّ طول ما نور الشمس موجود، في استصلاح واستزراع أراضي الملك الغمقة المالحة؟ الحكايات المرعبة تتناقلها الألسن، بأصوات مكبوتة، عن أوردى المعمورة والمنتزة.

سيارات أجرة وسيارات حكوميّة سوداء وسيارات بوكس فورد كبيرة تسابقنا وتصاحبنا ونسبقها على الطريق.

الحصى يتطاير من تحت عجلات السيارة وكأنما تخبط، في رشاش منتظم، جدران القصر الأسطوريّ المهيب، تضرب سوره المشيّد بأحجار يميل لونها إلى الحمرة في هذا الفجر المنبثق بين الغيطان، السور الذى لم يكن أحد يجرؤ أن يقترب منه، جنود الحرس الملكي رابضون متربّصون في أبراجهم وبأيديهم مدافع رشاشة مصوّبة إلينا.

على الأرض الصلبة الرمليّة التى تنبت فيها أحراش صغيرة شرسة من نباتات بريّة شائكة، خيوط من دم قانٍ ضارب إلى السواد وأشلاء أيدٍ مبتورة مفتوحة الأصابع، وعيون مفقوءة ومفتوحة تحدّق بقسوة من بين الأعشاب الخشبية وهيشات الحلفاء المتشابكة.

السيارات الأجرة والعساكر كلها صامتة تذرع طريقاً غير ممهّد وغير مسفلت بين الغيطان، تتأرجح وتميل وتعتدل على نتوءات الأرض غير المسوّاة وتمضي إلى غاية لا أعرفها.

إلى أين تمضي؟

الفصل الخامس عشر

على أوّل نور الفجر دخلت سيارة الأجرة إلى طريق فرعيّ بين غيطان الذُرة.

كانت الأنوار الكهربائية قد شحبت واصفرّت قليلاً على البوّابة الحديدية التي توقفت عندها السيارة، قال الضابط وهو يلوح بورقة رسمية دون اهتمام.

- واحد قسم كرموز.

ردّ التحية العسكرية على الجندي الواقف بالباب، وعلى كتفه مدفع رشاش صغير.

الساحة الكبيرة تسقط عليها أنوار مختلطة من الفجر الذي يستضيء ومن مصابيح كهربائية عاكسة قوية، تناثرت عليها سيارات حكومية سوداء وسيارات أجرة وسيارات البوكس فورد المربعة الكبيرة، جنود الجيش بملابسهم العسكرية الكاكي وأسلحتهم الخفيفة يقفون هنا وهناك، كمن لا يعرفون ماذا يفعلون وإلى يمين الداخل مبنى مستطيل سقفه من القرميد الأحمر. له نوافذ صغيرة عليها قضبان حديدية رفيعة، وفيها أنوار قوية ونحن نقف أمامه سمعنا لغط الكلام ورنين التليفون وحركة الأقدام، تركنا الضابط في سيارة الأجرة أنا والمخبريْن السرّيين، ودخل ثم خرج بعد قليل وعليه سيماء من خلص من مهمة أخرى ليست صعبة ولكنها ليست أيضاً خفيفة الظل، وأشار للمخبرين الذين سلّماني بشيء غير قليل من الخشونة لعسكري جيش، أخذني بدوره إلى باب المكتب حيث وجدت ضابطاً كبيراً - صاغ أو بكباشي

ربّما - ومعه ضابطان صغيران - ملازم أوّل ويوزباشي - وثالث بملابس مدنية أنيقة جداً من قماش فاتح فيه خيط حريرى.

قلت فى نفسى: ضابط مباحث لاشك.

أخذ ينظر إلىّ نظرة صائد وقع على طريدة، لكنى كنت فى مزاج التحدى، قال: أهلا شرّفت، فلم أردّ ولم أخفض عينى عنه، قال لى القومندان بصوت أبوىّ وحازم: تعال يابنى، امض هنا. وقّعت فى سجلّ كبير، دقّ جرساً ودخل عسكرى الجيش نفسه وأخذنى من ذراعى إلى باب عنبر ضخم عال.

على باب العنبر الواسع اصطفت سرّية من عساكر الجيش. دفعنى العسكرى بحركة عنيفة مفاجئة، بلا كلام، إلى الداخل.

العنبر يموج بالناس الذين يتحركون ويتكلمون وينقلون أشياء لم أتبينها فى وسط الزحمة واللغط الذى تتردد له أصداء فى العنبر الفسيح مرتفع السقف، لم أكن أعرف منهم أحداً، ولم يهتم أحد بى للوهلة الأولى.

فى جانب بعيد ومن وراء الأكتاف المتلاصقة وتحركات القامات المتدافعة تحت جماعة تبدو كما لو كانت من رجال الأعمال أو عملاء البنوك الأجانب أو المتمصرين الذين عرفت أمثالهم فى أثناء عملى فى البنك الأهلى.

وقفت متحيراً لا أدرى ماذا أفعل.

كان شعورى بالوحدة الكاملة ممضاً، فى وسط هذا الضجيج الحارّ لا أحد يعرفنى ولا أعرف أحداً، ناسٌ من كل الأشكال يتجمعون معاً فى حلقات ويتهامسون أو يتكلمون بصوت عال بلغات ولهجات إسكندرانية، تبينت منها الفرنسية وعربية الشوام وعربية أولاد البلد ولغات أخرى حدست بغموض أنها ألمانية أو سلافية.

كان منهم شابٌ أطلق لحيته أسمر شرقى الملامح مفتول العضلات

نَضَا عنه القميص والفانلّة وبقى عارى الصدر، بالشورت الكاكى وصندل جلدىّ، وحوله جماعة واضح على الفور أنهم من يهود الإسكندرية المستغربين بعضهم رقيق الجسم ذابل وبعضهم بدين مترهل يتحدثون بالفرنسية فيها كلمات استنتجت أن فيها عبرية.

غير بعيد لم يكن من الصعب علىّ أن أعرف مجموعة من الإخوان المسلمين، كنت قد لمحت بعضهم فى الجامعة وبعضهم فى غمار مظاهرات ١٩٤٦، كانت على وجوههم سيماء النظرة المغلقة على ذاتها لا تخطئها العين الفاحصة، وهم ينأون بجانبهم عن مجموعة كبيرة ممن لم أتردد فى أن أنسبهم إلى اليسار، بل وتعرفت على وجوه كنت قد رأيتها عَرَضاً فى تجمعات الجامعة، يفيضون حيوية ويلوح عليهم نوعٌ من العزم على المواجهة بتفاؤل حذر.

قلت: هأنذا بعد قلعة الرأسمالية البريطانية فى البنك الأهلى فى معتقل كان عنبر الطيران البريطانى الحربى.

تركوه لنا، بعد أن هجروه، لكى تحوّله حكومة النقراشى «الوطنية» إلى معتقل.

اقترب منّى السفروت صغير الجسم الذى رأيته فى قسم كرموز أوّل الليل، وقال ببساطة وحيوية وشىء من المرح وهو يسلّم علىّ بيد متوترة عصبية:

- أهلاً. رأينا أحدنا الآخر فى الكركون، وها نحن وصلنا، اسمى محمود شبارة، وزميلى صابر محفوظ، وزميلى حسين شكوكو.

مد صابر يده الكبيرة السمراء بحركة بطيئة واثقة دون أن يتكلم وقد سقطت على وجهه طيّب القسمات خصلة كثيفة من شعره الأسود الناعم الثقيل، أما حسين فقد فعل ما لم أكن أتوقعه: أخذنى بالحضن بحركة عفوية وهو يقول: شرفت يا أستاذ.

على غير معرفة، وعلى غير انتماء ضيّق توثقت بينى وبين الثلاثة

صداقة سأظل أعتز بها دائماً حتى بعد أن انقطعت أواصرها تماماً بعد نحو سنتين فقط.

قال حسين: اللوكاندة هنا آخر السطة. خُدْ لك مرتبة اتنين تلاتة زىّ ما أنت عاوز.

وأخذنى من يدى إلى كومة عالية فى جانب العنبر رُصّت فوقها مراتب محشوة بالقشّ، وإلى جانبها كومة مضطربة من المخدات المحشوة أيضاً بالقش، عندما حملت مرتبة ومخدة كان القش داخلها خشناً يخشخش بصوت جاف، وكان غطاؤها من قماش عَبَكْ جديد لَنْج.

قال لى حسين: خد واحدة تانية وتعال.

فرشت مرقدى مرتبتين ومخدة بجانب الحائط الحجرى المطلىّ بوية صفراء قديمة واكتشفت أن جيرانى هم فرسان كرموز الثلاثة.

بعد يوم واحد كتبت لأمى خطاباً ثانيا، يبدو أن الخطاب الأوّل ضاع، أو لم يصل، وكان من الجلىّ فيه أننى أحاول تهدئة روعها، لم أتجاوز الواقع كثيراً، لم أكتب لها عن الواقع المرير بأننا مسجونون أسْرَى، مهانون فى الصميم بحرماننا من أوّل مقوّمات الحياة: الحرية. لكنى ركّزت على ما تصورت أنه سيُدخل على قلبها شيئاً من الراحة.

أبو قير ١٦/٥/١٩٤٨

والدتى العزيزة

أهديك أرق تحية وأرجو أن تطمئنى ولا تقلقى كثيراً خاصة وأن التفكير لن يفيد شيئاً بل سيضر صحتك وهى ضعيفة على أية حال ويجب أن نتقبل الأمر الواقع. ونعتبر أن المسألة خارجه عن أيدينا الآن.

أما أنا فلولا أننى بعيد عنكم فإننى مرتاح تماماً وهم يعاملوننا كضيوف. نفطر شايا ولبناً وبيضاً ونتغدى غداء مطبوخاً وعشاء

محترماً ويسمحون لنا بحرية التنقل والراحة فى مكان فسيح وفيه شمس وأشجار وهواء طلق وحرية تامة فى الكلام والجرى والغناء ومعنا كثير جداً من الأجانب الراقيين وننظم حفلات ونقضى الوقت فى تسلية تامة ولا يشغلنى غيركم أما أنا فإننى فى الحقيقة فى شبه إجازة أو فسحه طيبة (!!)

أرجو أن تهتموا بمسألة الأشياء التى طلبتها فى خطابى أمس، وهى ملابس للغيار وبيجامة وعدّة حلاقة وكتب وفوطة وبطانيتين ضرورى، كما كتبت لكم، لدينا هنا مرتبة - ونستعمل عدة مراتب ومخدات - والظاهر أننا سنظل هنا لمدة لا نعرفها. وعلى كل حال حريتنا مكفولة تماماً (!!) وأرجو من ناحيتكم ألا تشغلوا بالكم ووكلّوا الأمر لله وليكن عندكم ثقة بالمستقبل فكل شىء سيتحسن ويُسوّى (!!)

الكتب وملابس الغيار وعدة الحلاقة والفوطة وبطانيتين ضرورىّ أما السرير فليس ضرورياً إذا لم تستطيعوا شراءه.

مع تحياتى الحارة وقبلاتى لهناء وإيزيس ولويزة وفوفو.

ابنك المحب

(إمضاء)

هذه الصورة الورديّة ما حقيقتها؟

كانت الأسلاك الشائكة قد ضربت حول المعسكر وأقيمت على أركانه الأربعة أبراج خشبية يقبع فيها عسكرى جيش بمدفع رشاش، يتغير كل ١٢ ساعة ويبدو ناحلاً وداكناً فى اللبس العسكرى الكاكى، بالشورت الذى يصل إلى الرُكبتين، يقف بمدفعه الرشاش القصير فى برج خشبى علوى ضيق على كل ركن من أركان سور السلك الشائك المزدوج الذى يحيط بنا، النور الكشاف القوى يطوف ببطء على السور، فتدور بقعته المستديرة الساطعة دورة متمهلة متربصة.

قلتُ: أهذه صورة من أفلام الأربعينيات عن معتقلات النازى؟ أهذا مشهد من صنع هوليود، أم هو من صنع ذاكرة امتزجت فيها الوقائع بالأوهام؟ كلها مع ذلك حقائق أكبر من كل واقع.

قلت: لا، هذا العسكرى الأسمر بالشورت الكاكى والبدلة المتهدلة نوعاً ما، ولفّات الألشين الخشنة الرمادية تلف ساقيه الرفيعتين ليس كما تأتى به أفلام معتقلات الأسرى فى الحرب العالمية الثانية، ليس من الجنس الآرى المتعجرف الفخور، ولا هو يابانىّ تحركه وطنية أتوماتيّة مبرمجة عمياء - كأنه كائن آلىّ من كوكب آخر - بل هو من أبناء بلدنا. هذه صورة تظل - وحدها - باقية. ليست ورديّة بالتأكيد ولكنها ليست كاملة السواد ولا أحاديّة النغمة فهو طبعاً عسكرى مجنّد غلبان بيومية عشرة قروش على الأكثر، هذه صورة ليست من أفلام هوليود.

كيف قضينا ذلك اليوم الأول فى أسر العسف والأحلام؟

هل قُدم لنا الإفطار شاى ولبن وبيض مقلى أيضاً؟ فى أكواب وأطباق معدنية؟

كيف انتظم أمر هذه الجموع من المعتقلين فى ذلك العنبر الفسيح الذى ضاق بهم - أما المعتقلات «البنات» فقد كنّ فى مبنى مجاور ولم نرهن إلا بعد أيام.

جماعات جماعات من الماركسيين واليساريين وطليعة الوفديين، من كل جنس ولون، من الجريج والأرمن إلى المصريين الأقحاح، العمال والصنايعية والتلامذة وأساتذة الجامعة، من اليهود متمركسين- كما كان يقال - إلى صهاينة صرحاء الانتماء إلى الماكابى والماپاى، من اليوغسلاف الهاربين من حكم تيتو الذى انتصر حديثاً على النازى وانشقَ حديثاً عن الستالينية، إلى الروس البيض الذين فرّوا من وجه الثورة الشيوعية البلشفية فى العشرينيات ووجدوا أنفسهم مع الشيوعيّين المصريين.

فهل كانت هذه المجموعة متناقضة المنازع والمناحى تصويراً مجسّماً لما كان قد حدث منذ سنوات، وأنا فى سنة ثالثة ثانوى، عندما قلت، بصوتٍ عالٍ، وسط تلامذة العباسية الثانوية، إن لكل واحد الحقّ فى آرائه ومعتقداته أيا كانت، وإن الواحد إذا كان ملحداً فله كل الحق فى أن يكون – وأن يقول – وإن «ڤولتير وروسّو كانا ملحدين وكانا من أعظم الفلاسفة والمفكّرين».. «لكل أحد الحقّ المطلق فى أن يكون ملحداً، إذا شاء أو إذا اقتنع»، (هكذا قلت يومها) وعندئذ حدث ما لا أنساه أبداً – وما لا تتيح لى هذه الأيام المعتمة أن أنساه – أن اجتمع حولى «زملائى» من الطلبة يتصايحون ويقولون بغضب جامح أنْ كيف أجرؤ على التطاول على الدين، وانتهاك القيم والعقائد الثابتة. واجتمعوا حولى – أنا الذى كنت مازلت ألبس الشورتْ ربما، نحيلاً صغيرَ الجسم قليل الحَوْل – بتهديدٍ صريح، يهمّون بأن يصل الغضب بهم إلى الضَرْب وتمزيق الملابس، لولا أن تصدّى لهم صديقاى چورچ، وجابر، كان كل منهما قوياً وجسيماً ومصمماً، فى قَلب الضجّة والصياح، أخذانى بعيداً عن المتهجّمين.

كان ذلك على الأرجح فى سنة ١٩٤٠، وكان من المتاح أن نقرأ عندئذٍ مقالة بعنوان «لماذا أنا ملحد» بقلم إسماعيل أحمد أدهم، وردّ محمد فريد وجدى بعنوان «لماذا هو ملحد» يتبادلان الحجة بالحجة، من غير أن ينطلق الرصاص أو ترتفع السكّين أو يُفرَّق بين المرء وزوجته بتعلّة الرِدّة والمروق.

كيف تغدينا فى هذا اليوم الأول العصيب، غداءً مطبوخاً؟

هل أخذ كل منا رغيفه وغداءه – مثلاً – مغروفاً من حلة بامية كبيرة ساخنة يتصاعد بخارها، فى طبق من الصاج، وربما طبق صينى، يُسلَّم بعد الأكل للمتعهد الذى عُهد إليه بأمر الطبيخ والتغذية، وينتحى كل

منا به ركناً، نغمّسه بالخبز، أم كانت فيه قطعة لحمة وكانت معه شوكة وسكّينة؟ لا أظن، فهل كان الغداء أرغفة خبز بلدى بالجبنة والحلاوة؟

أما الرياضة والتمشى فى الهواء الطلق فى مكان فسيح به أشجار فلعله كان استشرافاً وتنبؤاً بقدر ما كان واقعاً نراه من خلال باب العنبر العريض. كنا محبوسين وكان الحس بالقهر وبالمجهول أقسى من الحبس.

أما المشهد الذى لا ينسى فهو صباح يوم ١٥ مايو بعد ليلة الاعتقال. كانت حكومة النقراشى لم تعدّ للأمر عدّته تماماً، وكانت الحمامات فى المعسكر البريطانى القديم معطلّة لا يجرى فيها الماء.

وعلى الساعة الحادية عشرة كانت جموع المعتقلين على اختلاف مللهم ونِحَلهم تتصايح وتحتجّ وتطالب بحقها الإنسانىّ فى إفراغ الأحشاء، أىْ نعم، أيامها كانت المطالبة بالحق الإنسانىّ ممكنة بل واردة وضرورية وكان كل من جانبىْ العسف مقتنعاً بها، السجان والسجين كلاهما.

وعندما لم يعد ممكنًا، بعد، حبس المعتقلين فى العنبر من غير قضاء هذه الضرورة وسُمح لنا بالخروج اثنين اثنين، وقفنا فى طابور طويل متململ، وتقدم كبار السن والمرضى إلى الأمام، وعندما جاء دورى صحبنى عسكرى مع زميلٍ لى لم أكن أعرفه حتى اقتربنا من الغاية، ووقف العسكرى على مبعدةٍ ينتظر، كان مشهد الحمام الجافّ من غير مياه، لا يطاق، وتعفُّن الفضلات ساطع نفاذ لا يكاد يُحتمل وقد تناثرت على الأرض المبلَّطة وحتى أمام المراحيض حيث كان من الضرورى اختيار موقع القدمين بينها، وكان أداء الضرورة رياضةً بهلوانيةً فى موقع ضيّق مرصّع بكل أصناف وأشكال الفضلات الآدمية، الطرىّ والصلب منها، الأصفر اليانع والمسوّد القاتم، المكوّر المدوّر والمستطيل الحلزونىّ، وكان الهدف الأول هو الفراغ من المهمة بأسرع ما يمكن.

وليلتها تكرر المشهد الأليم تحت النور الساطع وتحت أعين الحرس.

جاء السبّاكون وأصلحت المواسير وجرت المياه في مجاريها في ثاني يوم، فلعل «الهواء الطلق».. إلى آخره.. كان فعلاً في ثاني يوم..

أبو قير ١٧/٥/١٩٤٨

والدتي العزيزة

بعد إهدائك أرق التحية والسلام.

لم يصلني شيء حتى الآن (الساعة ١٠ صباحاً يوم الاثنين) وأرجو أن تهتموا بالمسألة.

كل ما أريده الآن هو شبشب والشورتات البيض.

أما السرير فليس ضرورياً لأنه ستصلنا سراير من جهات أخرى.

أنا مرتاح طبعاً من ناحيتي فلا تقلقوا، رياضة وشمس وهواء ومعاملة حسنة جداً، وأكل طيب (!!) ولا ينقصني غير الكتب فأرجو إرسال ما طلبته منها.

ان لم يكن هناك طريقة أخرى فأرسلوا هذه الأشياء إلى «نقطة بوليس أبو قير» وستصلني إلى المعسكر بسلام.

(سطر مشطوب بالقلم الثقيل بمعرفة الرقابة)

أرجو أن تحافظوا على كتبي- كلها - بكل عناية.

إذا أمكنكم إرسال كوب ألونيوم يبقى حاجة عظيمة- وإن كان ذلك غير ضروري جداً، يمكن أيضاً الاتصال بالبنك ومعرفة الموقف هناك.

على فكرة أي تاكسي يمكن أن يصل للمعسكر ومعه أي شيء بكل حرية، فإذا كان خالي يونان أو خالي سوريال مستعداً يبقى حاجة عظيمة جداً أيضاً. في الختام سلامي للجميع، هناء وإيزيس ولويزة وقبلاتي لفوفو وسلامي لجدتي ولك يا والدتي أعطر السلام.

(إمضاء ضابط المعتقل)

ابنك المحب

(إمضاء)

ما لم يأت ذكره في الخطابات أنني وقعت مريضاً بعد الاعتقال بيومين ثلاثة، البرد في مايو والحمّى والكُحّة العنيفة طرحتني على السرير النقالي الذى وصل ووزع على العنبر ووضع صفوفاً بينها ممرات معقولة وإلى جانبها علب من الكرتون جاء بها الأهالي وفيها أطايب الأكل المعتادة في مثل هذه الحالات، وقد وُضعتْ فيها، مثلا، الغيارات والأكواب والأطباق والكتب والمجلات وما إلى ذلك من متعلقات الحياة التي تذكّرنا بأننا مازلنا آدميين لنا خصوصيات. بدا على العنبر شيء من الانتظام وانقسم ثلاثة أقسام، قسمين كبيرين: إلى اليمين اليهود والصهاينة والأجانب بالقرب من «عنبر البنات»، وإلى اليسار قسم الماركسيين واليساريين، وبين كل قسم ممر واسع. إلى الأمام، بالقرب من البوابة تركت مساحة واسعة نسبياً، حيث كنا نقف في صفوف من خمسة، ونحن نأخذ المسألة كأنها لعبة كل صباح بعد الإفطار وكل مساء قبل العشاء، فيمرّ الضابط النوبتجي ليحصينا.

ولما كان الكثير من المعتقلين لا يعرفون العربية - أو لسبب آخر يصعب عليّ تحديده - فقد كان النداء دائماً يعلو بالفرنسية سانْك سانْك، cinq cinq أى خمسة خمسة بالعربية.

سانْك سانْك هو النداء الذى يبدأ به يومنا وبه يوشك أن ينتهي.

عندما انتابتنى الحمّى العنيفة لم أكن أعرف من الذى قدّم لى كل خمس ساعات (بانتظام) حبة أسبرو مع كوب من الماء، من الذى كان يأتى إليّ بطبق الشوربة الفاتر المائع الذى فيه بالكاد نسيرة لحمة أو فراخ.

هل كان صابر هو الذى يعنى بهذا المريض؟ أم كان الشاب اليهودى الملتحى هو الذى يعطيه حبات الأسبرو، في نوعٍ من مَضَضِ التضامن في المحنة؟

كلّ ما أذكره في غيبوبة الحمّى نظرة منه تصورت أنها نظرة ازدراء أو

استهانة لضعفى وقلة حيلتى.

نظرات الاستخفاف أو الإهانة تظلّ كاوية لا تُنْسى.

ما لا يأتى ذكره فى الخطابات بعد ذلك أن العنبر الكبير له جدار واحد جانبى وأما باقى الجوانب فهى مفتوحة، الجانب الأيمن كان يفصله عن «عنبر البنات» ساحة ليست صغيرة جداً مسورة بأسلاك شائكة من ممرّ ضيّق وكان العنبر الكبير مفتوحاً على هذا الممر أما الجانب الأمامى فله مصراعان حديديّان كبيران بينهما فجوة عريضة هى بمثابة بوابة المعتقل ومن اليوم الثانى عرفنا أن «البنات» كن فى العنبر الصغير المبنىّ على طراز ثكنة لنوم الطيارين أو العاملين.

ومن وراء الأسلاك الشائكة على بعد أمتار قليلة كان بإمكاننا أن نراهنّ.

اليهوديات كن جميعاً على الفور تقريباً بالشورت القصير والبلوزة أو القميص الچابونيز دون أكمام، اتخذن مجلسهن على مقاعد قماشية أو كراسى خيرزان، أما المصريات القليلات - ومنهن زينب المشراوى، فهن - كما يُنتظر - بالفساتين حتى لو كانت موضة الأربعينيات هى الفستان على الركبة فوقها أو تحتها بقليل.

رجال متلفحون بأوشحة رمادية سابغة يحومون حولى بعيون لامعة لمعان شفرة خنجر ولحى سوداء تطول وتطول باستمرار كل ثانية حتى تكاد تصل إلى منطقة أحزمتهم الجلدية العريضة ألمح فيها غدّارات ضخمة لا أصدق أن المعتقل - أنا أعرف أننى فى المعتقل - فيه هذه الأشباح المسلحة بطبنجات شريرة الشكل، ترتفع قامات الرجال الملتحين الموشحين كأنهم يحلّقون خفافيش ضخمة لأجنحتها حفيف ولأسنانها صرير وأنا أرتجف من وقع الحمّى وأكتشف أن أسنانى تصطك برعشات متلاحقة.

مالديّ من خطابات بعد ذلك صدر عني في ٥ يونيو :

أبو قير في ٥ يونيو

والدتي العزيزة

أهديك أرق تحية وأعطر سلام وأوصيك مرة أخرى ضرورة المحافظة على صحتك وعدم الانشغال والقلق لأن هذا أولاً لا نتيجة له، ثانياً يضر الصحة وبعد ذلك يأتي الندم كما تعرفين فإن نتيجة الهم والتفكير في الماضي كانت أن صحتك ضعفت جداً وندمت ولم يكن هناك أى فائدة فأرجوك إن كنت صحيح تحبينني ألاّ تفكري كثيراً وألاّ تقلقي فأنا من ناحيتي مبسوط ولابأس هنا، ومن ناحيتكم فإن الحال ماشية على كل حال.

مسألة الزيارات : أرجو أن تبعثي لي في أقرب فرصة شوية كتب ولا يهم الأسماء فأرسلي لي بعض كتب من الرف الأوّل من المكتبة ويستحسن أن تستشيري أنطوان في هذه المسألة أو أىّ شخص يعرف ميولي.

هناك كتاب كبير مُجلد بغطاء مبيضّ سميك اسمه Plays by Maxim Gorky *أرجو أن ترسليه في أقرب فرصة وكان يوجد في الدرج الثاني (من أعلى) من مكتبي.*

كذلك أرجو إذا أمكن إرسال قبقاب وليفة حمّام. تحياتي الحارة إلى كل من يسأل عني وأعز سلامي لأختي الحبيبه هناء وقبلاتي الحارة لفوفو وسلامي لإيزيس ولويزة ولك يا والدتي المحبوبة أصدق مشاعر الوفاء والإعزاز.

والدتي العزيزة

أرجو أن تهدى أنطوان خير الله أحرّ تحياتي وهو يمكن أن يساعدك في اختيار الكتب التي ترسلينها لي هنا. وعلى الأخص روايات كبار القصصين: تولستوى، ديستويفسكي، جوركي، جوجول، تورجنيف.

كذلك إذا قابلت أحمد صبرى فأرجو أن يرسل لى بعض ما لديه من كتب كبار الكتاب الإنجليز المعاصرين: چيمس چويس، ألدس هكسلى.. الخ أو غيرهم.

فأنا بحاجة شديدة للقراءة هنا، ولك يا والدتى أرق تحياتى وشوقى.

(إمضاء)

ممكن إرسال جوابات إلىّ بالعنوان الآتى:

معتقل أبى قير - طرف محافظة الإسكندرية.

ويسرنى جداً أن أتلقى خطابات من كل الأصدقاء فبلّغى أنطوان وصبرى وغيرهم.

نظر ويرسل

إمضاء قومندان المعتقل

كان مرأى «البنات» من وراء الأسلاك الشائكة نصف عاريات تقريبا فى أصباح الصيف الحارة، يشعل خيالاتنا.

كان ذلك، أيضاً، هو الذى يُشعرنا حقا أننا أسْرَى العسف والأحلام.

حمامة بيضاء كبيرة جداً تطوف حول الأسلاك الشائكة التى تطوّق المعتقل ومن الجانب الأيمن أراها، فى وقدة جوانحى، فوق سيقان البنات المفرودة بكل جمال قدّها المخروط فى الشمس، فى بَحَران الحُمَّى لم أستطع أن أدرك العلاقة - التى وجدت أنها ضرورية وحتمية بشكل مطلق- بين تحليق «الحمامة - الصقر» الرءوم الجارحة وبين غواية الأفخاذ النسوية التى تخايل بأنها مبذولة من وراء الأسْر، ولكنها منيعة مع ذلك مَنَعة لا تُنال.

الفصل السادس عشر

كما استدركت حكومة النقراشي - أو محافظة الإسكندرية - مسألة جفاف المياه في حمامات معسكر سلاح الطيران الملكي البريطاني الذي تحوّل إلى معتقلٍ مُرْتَجَلٍ على وجه السرعة، أخذت تستدرك، تحت غطاء الأحكام العرفية، وما عُرِف بحرب فلسطين الأولى، ما فاتها من قوائم اعتقال غير المرضيّ عنهم، أو من كانوا يسمونهم «العناصر الهدّامة».

دخلت الجيوش العربية - أياً كان معنى هذه الكلمة - أرض فلسطين، وأخذت المأساة تدور فصولاً.

ودخل معتقل أبو قير أصدقاؤنا، واحداً بعد واحد.

نصطبح على الصبح بالتهليل والترحيب لمقدم الوافدين الجدد.

جاء عبد القادر وحمدى وشوارتز وسليم اندراوس الذى أسميته فريد اسكاروس.

وعلى طول توقُّعنا لم يأت قاسم إسحاق طبعاً، فلعله الآن فى الصعيد الجوّانيّ، ولكن لم نفهم لماذا لم يأت لا أحمد النمس ولا على أبو الليل.

هل كُنت أشك كثيراً فى أن فتوح القفّاص سوف يأتى؟

المدهش أننا بعد أن خرجنا جميعاً لم يكن فتوح القفّاص يشير بكلمة واحدة إلى حلقتنا الثورية البائدة، ولا إلى اجتماعات شارع العباسى، ولا أيٍ من نظرياته الفوضوية المأثورة عن باكونين وكربوتكين، كأنها - هذه - لم تكن.

ولكن ألم نكن، مُعْظمنا، قد آثرنا السكوت تماماً عن هذا الذى كنا

نحياه بكل جوارحنا، بكل حلوه ومُرّه، بكل نشوات أمجاده المتصوَّرة وكل عذابات القلب المحرقة؟

لماذا لم يأت على أبو الليل، هل أودعوه مرّة أخرى سجن الحضرة؟

أم لعلهم تركوه في حاله، وقد مالوا إلى الظن - وربما اليقين - بأنه على أية حال قد انكسرت ثوريته، يعني بطَّل شقاوة وشاف أكل عيشه؟

في العنبر العالي الفسيح العامر الآن بصفوف منتظمة من السراير، أنظر إلى السقف الحديدىّ مثلّث الجنبات الحديدية النازلة منه إلى منتصف المسافة بينه وبين الأرض، بمسافة تسع للطائرات الحربية بأن تندرج داخله إلى مأواها في العنبر، أقضى ساعات طويلة من التأمل واسترجاع أيام الكبرياء. كانت أحلام مواصلة الكفاح - على رغم كل شيء - وتنمية عناقيد الخلايا السرية والعلنية تطوف بى وتراودنى حتى فى الحَبْس.

كذلك طاف بذهنى أن على أبو الليل لم يكن مجرد صانع أحذية حريمى، بل كان فناناً وكان فى خلوصه لفنّه ما يقارب الشبق أو حتى الفيتيشيّة، هل يبرأ كل فنانٍ حقٍ من لوثة شبقية أو فيتشيّة هيّنةً كانت أم رازحة الوطأة متطلّبة؟

لا تستهن يا عزيزى بالصنعة، أياً كانت. كنتُ زمان، أيام رومانسيّتى أنظر بشيء من الاستخفاف إلى «الصنايع». علّمنى على أبو الليل غير ذلك، بمجرد رؤيته يشتغل.

قلت: ما أوهى الخطّ الدقيق الفارق بين بدائع الصنعة وبدائع الفن.

أشتاق إلى شارع صفيّة زغلول وإلى «دكّانة» على أبو الليل فى الشارع الخلفىّ، كما أشتاق إلى انطلاقات الفنّ وشطحات الشعر.

أشتاق إلى شارع الكورنيش فى ليالى الشتاء، خاوياً موحشاً وجميلاً مع وشيش البحر وتلاطم أمواجه تحت فى الظلمة، والأوتوبيس نمره ٢١ يقطع الطريق بسرعة وهو يترنح، ليس فيه إلا القلائل من العائدين إلى بيوتهم فى سيدى بشر أو المندرة أو العصافرة، ينغضون رءوسهم

يغالبون النعاس بعد شَقَا طول النهار، مازلنا في أوّل الليل ولكن البيوت مغلقة على الكورنيش، بنوافذها التي صدئ خشبها وحديدها، وطلاؤها الذي يتساقط من الرطوبة والنسيان.

أشتاق إلى الحرية الفردية لي في التنقل والصعلكة وتقرير ما أشاء من مسار قدر اشتياقي إلى حرية شعبي - إلى حرية الناس جميعاً - من القهر ومن الألم.

لأن الألم لا يُغتفر ولا يُبرر.

أشتاق إلى لفحة البرد المبلل برذاذ البحر من نافذة الأوتوبيس وأنا في الطريق إلى بدروم بيت فريد الذي اتخذه مقراً خاصاً له، غرفته الخاصة ينام ويذاكر دروسه فيها ويكتب أبحاثه لقسم الإنجليزي في كلية الآداب، ولعله يلتقي فيها أيضاً بصديقاته سواءً كنّ عابرات سبيل أو زميلاتٍ في الكلية، هجر أهله «البورجوازيين» في أعلى، وانتحى بنفسه في صومعته السُفلية.

تنزل إلى البدروم أربعة سلالم مدوّرة وأنت داخل من باب الفيلاّ الصغيرة الأنيقة بدوريها الأرضي والثاني، وتدفع الباب لأنك لن تجده موصداً أبداً، فينفتح لك عن عالم فريد اسكاروس. سريره دائماً مهوّش مشعّث ملاءته مغضّنة مرمية كيفما اتفق، تماماً مثل كتبه على المكتب الخشبي الأنيق الذي ضاعت أبّهته تحت أكوام الكتب والأسطوانات العارية أو في أغلفتها والأوراق وزجاجات الحبر المدلوق في بقع جافة كبيرة على الخشب الموجني الثمين، فوتيّ عريض عليه مخدّات وكرّاسات ومجلات، كراسي ثمينة مركونة إلى الحائط، على أحدها فونغراف نقّالي مفتوح على أسطوانة لتينوروسيّ وبجانبه رصّة أسطوانات لتشايكوفسكي، وموتسارت، وطبعاً بيتهوفن العتيد.

أطباق أكْل منسية تختّر فيها طبيخ أمس وربما أول أمس، وأطباق فيها بقايا جبنة بيضاء وبصطرمة فواحة، أعقاب السجاير، عشرات من

أعقاب السجائر، وعلى الأرض وفي منافض مرتجلة أو غالية على السواء، علب البلايرز الزرقاء أو علب الهوليوود متناثرة، بعضها مفتوح تطلّ منه أعناق السجاير بيضاء رقيقة وبعضها غير مفضوض بعد.

البدروم ليست فيه نافذة على الشارع، تهويته الوحيدة من نافذة تطل على أرضيّة منور الڤيلاّ ويدخل منها نور الشمس في زاوية غريبة منحرفة خاصة ساعة الغروب فقط، والنافذة لها مصراعان خشبيان مفتوحان باستمرار.

قلت له: فريد ألا يدخل لك فيران من المنور؟ قال: فيران؟ تدخل، وماله، تآنسني، أحياناً أقعد أراقبها تلعب وتقلّب في الأكل وتجري بمرح، لا أشبع من رؤيتها.

الكتب في كل مكان، منها كتب الشعر والروائيين ومنها كتب الثوريين والفوضويين أيضاً «الفلسفة السياسية لباكونين» من تأليف ج.ب. ماكسيموف و«عن فن وصنعة الكتابة» لماكسيم جوركي وفلاديمير ماياكوفسكي وأليكسي تولستوي وقسطنطين فيدين .

وكان عندئذٍ يتردّد بين أن يكتب رسالته للماجستير عن د.هـ لورانس وتمرده على الطابوهات الڤيكتورية، أو عن لورد بايرون واشتراكه في حرب تحرير اليونان من الربقة العثمانية، ثم استقر عزمه على لورد بايرون.

كانت رائحة البدروم خليطاً من دخان السجاير ونفحةٍ من عَرَق النوم وفَوْح الكولونيا وغبار الكتب الخاص الفريد ونفثات من بقايا الأكل، لم تكن رائحة غير طيبة بل بالعكس لها جاذبيتها.

وكما اشتقت إلى آفاق الحرية الفسيحة من على الكورنيش اشتقت إلى دفء وحميميّة بدروم الصديق الحافل بوجوده وبحضور أطياف الشعراء الثوريين.

كان فريد وسيماً، مائلاً إلى سمرة خفيفة، أنيقاً في فوضاه، نحيلاً،

عصبيّاً، دائم التوتُّر، لا تكاد تسقط السيجارة من ركن فمه.

عندما جاء للمعتقل كان همّه الأول والأساسيّ هو الحصول على تموينه المنتظم من السجاير، لم يمكث معنا طويلاً ولكنه ترك فراغاً كبيراً عند خروجه.

أمّا في سيدى بشر فقد كان أسلوبه في الحياة هو ما يلوح أنه لا مبالاة، وما هو في الواقع تورّط حتى العنق في القضايا التى كنا نعتنقها.

هل كان وراء هذا التورّط تمرد أوديبىّ من نوعٍ ما، لم يُشفَ بعد تمامًا، على سطوة الأب الموظف الكبير في بلدية الإسكندرية، عضو المجلس الملّي القبطي، ومالك الأطيان الواسعة في الصعيد؟

قد تكون هذه صيغة نمطيّة، أيقلل ذلك من حقيقتها؟

كان يقضي نهاره في المعتقل على سريره، بالشورت والقميص نصف كُمّ، يقرأ بايرون والشعراء الرومانسيين الإنجليز كما يقرأ «الريدرز دايجست» والأهرام و«الإيجبشيان ميل» ويدخّن بلا انقطاع، ثم يخرج إلى ساحة المعتقل يمشى طويلاً أمام «عنبر البنات»، ويعود للغداء وقيلولة بعد الظهر والقراءة من جديد، وكان بين الحين والحين وبشكل متقطع يعطي دروساً في الإنجليزى لمحمود شبارة وصابر محفوظ وحسين شكوكو معاً، ولكن من غير دأب ولا انتظام، فلا أظنهم قد أفادوا منه شيئاً كثيراً، لكن العبرة بالنوايا في نهاية الأمر.

في بدروم سيدى بشر كان جدلنا لا ينتهي عن معنى الالتزام والحرية في الفن ولم يكن دفاعى عن الالتزام - مع تحفظات كثيرة - حاراً جداً بل على سبيل استكشاف كنهه عَبْر الجدل، على الأسلوب السقراطيّ العريق، حوارات بينه وبينى كأنها بيني وبين نفسي، بدأتْ في بدروم سيدى بشر واستمرت في معتقل أبو قير ومازالت متصلة بعد أن رحل فريد عن عالمنا وحتى الآن، وكأنه مازال كامناً في روحي، لم يرحل قطّ ولن يغيب.

يقـول: لا وجود للحـرية إلا إذا كـانت مطلقـة، لا تحدها حـدود، كل قيد على الحرية انتقاص منها.

أقـول: هل تعنى أن الحـرية المطلقـة ليـست هـى الانفـلات والفـوضى وانعدام القانون؟

يردّ وهو يلقي بعـقب سـيـجارته الذى أوشك أن يحـرق شـفـتـيـه المتوترتين المرتعدتين بالانفعال:

- طبـعـاً، هذا بديهيّ لم يـعد يحتـاج إلى تأكـيـد، الحرية المطلقـة هى قانونها بلا افتراق.

- يعنى هذه الإطلاقـيـة فى الحريـة هى فى الوقـت نفـسـه قـانون مُضمَر وكامن؟ أهذا ما تقول؟

- أيوه.. أيوه.. سـوف أسـتَـبِـقُك، وأقـول، هى بالتـالى مـسـئـوليـة ولكنها ليست فرضاً من علٍ، ليست إلزاماً من الخارج، ليست خضـوعاً لأية سلطة أخرى غير سلطتها هى نفسها.

- لكن يا عـزيزى ألا تظن مـعى أن الحـرية تـقـوم على احـتـرام حـرية الآخر؟ وأن..

فيقاطعنى بحدّة: طبعاً يا أخى.. الحرية ضرورىّ أن تقوم على الحوار، كما نفعل الآن، حتى لو انفعلنا وشططنا، لكن تقوم على العقل.

ويواصل دون أن يدع لى فرصة للتنفس - حتّى - دَعْكَ من الحوار:

- فى الفن كمـا فى السياسة الثوريّة ليس على الخيال أى قـيد ليس له أن يمتثل لأية قيـود، تحت أيّة دعوى، مبدأ الحرية الكاملة المطلقة هو المبدأ الوحيد المقبول.

فأحاول أن أسترد شيئاً من معقوليّة الحوار:

- مـعك، مـعك تمامـاً.. ولكن شـرط الفـعل الثـورىّ هو الالتـزام بالديمقراطية، والديمقراطية هى الصيغة الوحيدة المقبولة التى تفتق العقل البشرى عنها لتسيير أموره، يعنى قيد خضوع الأقلية العددية للأغلبية

مع إعطاء الأقلية كل البَرَاح في أن تعرب عن مواقفها وآرائها وأن تروّج لها وتدعو للانحياز لها، من غير ذلك لا يمكن لأى شىء أن يحدث.

فيقول بشىء من التردد وشىء من التسليم:

– نعم، في الفعل، في العمل، ولكن هذا لا يحول دون أن أحتفظ بحريتى كاملة في رؤيتى للأمور، حريتى في الحلم.

وأعود فأنحاز إلى جانبه قليلاً:

– حقٌّ الحلم قوة إيجابية لتغيير المجتمع، علينا دون أى إلزام خارجى بالطبع أن ننصت لصوت الحلم معك تماماً.

سوف أقول مع رفقاء السيريالية:

«أن ننصت إلى الصوت الملهم الدافئ المتفجر من الينابيع الحارة الأولية، ينابيع الحياة، هى نفسها ينابيع القوة الكامنة فى طوايا هذا الكائن الحىّ الموّار الذى نسميه الشعب، أن ننصت إلى الرسالات الهامسة أو المدوّية المنبعثة من مكامن النفس، ومن الأغوار التى تخفق بها أجواء القلب وتجيش بها أشواق الناس للحرية وللعدل»

هل كان ذلك كله حواراً بينى وبين صديقى أم هو مازال حواراً بينى وبين النفس؟

لم يكن فريد اسكاروس، وهو فى أوتوبيس نمره ٣ فى طريقه للكليّة أو حينما يتصعلك قليلاً فى فناء الكلية – عندما كان فى الليسانس – يتردد فى أن يثير مناقشات حامية مع زملائه وأصدقائه من الطلبة، وخصوصاً من الطالبات، عن الحرية والاشتراكية والإيمان والإلحاد وعسف الرأسمالية وطغيان الستالينيّة.

وكانت ثمّ جماعة من شباب كلية الآداب فى مقرها الجديد على المحمودية (كان المبنى أحد اصطبلات الأمير كمال طوسون) قد بدأوا يتحلّقون حوله مفتونين بسحر آفاق التمرّد والانطلاق التى يفتحها لهم.

سوف يخرج فريد أندراوس قبلى بأكثر من سنة، وسوف نلتقى

بالأحضان، سوف أجد له عملاً مؤقتاً فى شركة التأمين الأهلية بالإسكندرية، وسوف يقع في حب بنات الشركة - وخاصة ستيفو اليونانية ذات الصدر الناهض المهول التى أطلق هو عليها لقب «البقرة» فلم تغضب بل قبلت اللقب بسماحة وفهمتْ منه معنى الإعزاز والخصوبة بل ربما التقديس قليلاً، سوف يقعن فى حبه، حتى إذا وجد مكانه فى التدريس الجامعى، تزوج تلميذة نجيبة وجميلة، وانقطعت - كما يحدث كثيراً - أواصر العلاقة، وإن لم تكن أواصر المحبة قد رثّت ولا بليت ولا انقطعت، وبعد سنين طوال سوف يهفّ على خاطرى أن أتصل به، بعد كل هذا الانقطاع، فاسأل عنه صديقةً كانت تعمل معه فى التدريس، فتقول لى:

- يا خبر.. كيف تسأل عنه؟ تسأل عنه اليوم بالذات؟ ألا تقرأ الأهرام؟

- خير.. ماذا حدث؟

- تعيشْ أنتَ.. نعيُه فى الأهرام بالأمس، الأمس فقط، مع صورة.

سوف أبكيه يومها بصمت وأظل أبكيه دائماً.

ليس بكاءً على الأطلال.

كان فريد قد أوشك أن يقع فى هوى البنت التى أطلق المعتقل كله عليها اسم «الحصان» (لى شيڤال).

ليس الفَرَس، بل الحصان.

كانت فارعة الساقين، ممتلئة باللحم العفىّ، طويلة الجذع، ناهدة الصدر، ووجهها طويل ولها خَطمْ أو ضَبّ يأتى قليلاً إلى الأمام على نحوٍ غير منفّر بل قد يكون جذّاباً، حصان أنثوىّ حقيقىّ.

وكانت تستلقى فى ساحة «عنبر البنات» الضيقة الرملية، وراء حاجزٍ من السلْك الشائك الرقيق، على شيزلونج قماش، تمد ساقيها العاريتين البيضاوين بالشورت الضيق القصير المرتفع حتى أصل

الفخذين تقريباً، في شمس صباح يونيو الإسكندرانية، تدير رءوس كل رجال المعتقل، بما فيهم عساكر الحرس، وخاصة الصاغ فؤاد الضابط المسئول بعد القومندان، وكان رقيق الجسم قصير القامة نوعاً ما، داكن السمرة، تلوح عليه سماتُ قارئ ومثقّف وله نظرة ثاقبة ذكية، مهذباً جداً، خافت الصوت لا يحب لبس الطربوش إلا فى المناسبات الرسمية، كان حازماً فى إدارة شئون المعتقل لكنه يصغى بانتباه إلى طلباتنا تقدمها له «لجنة القيادة» التى تكونت عفوياً من ثلاثة أربعة ممثلين للتيارات المختلفة فيما عدا الإخوان المسلمين الذين كانوا قد أبعدوا إلى عنبر آخر، وكان بالفعل يلبى مقترحاتنا التى تقع فى حيز المعقول، سمح بتركيب مصابيح كهربائية على كل سرير معلقة من أسلاك جئنا بها من بيوتنا، وأتاح للّجنة ومن تنتدبه أن نقوم بوزن وفحص توريدات الفول والبيض واللحم والخضار والجبنة والحلاوة وسائر الأغذية قبل أن نتسلمها من المتعهد، كما ترك لنا حرية الاشتراك الفعلى فى إعداد الطبيخ والإشراف عليه مع عمال المتعهد فى مطبخ المعتقل، ورفض بشكل باتّ كل الاتصالات بالكتابة أو الكلام بين رجال المعتقل وعنبر البنات، وإن كانت الأقاويل قد راجت وشاعت أن ثم أموراً تحدث فى أنصاف الليالى، وقيل إن ذلك بمعرفة الضابط فؤاد، إن لم يكن بتدبيره.

سرعان ما توثقت بين الضابط فؤاد وفريد اسكاروس صداقة غريبة، كانا أحياناً يقضيان وقتاً طويلاً وهما يتحادثان بهدوء كما يتحدث أصدقاء قدامى، بل كانا يلعبان الطاولة ساعات دون كلل. فريد كان يجيد اللعبة وأنا لم أكن أعرف منها حرفاً.

ومع ذلك فقد كانت «لى شيڤال» أبعد ما تكون عن شبهة ابتذال أو بذاءة. لعل جمالها الخاص القوىّ كان يضرم فى قلوبنا شهوةً لا نعرف كيف نعالجها، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تلهم المعتقل كله بروح غريب من الأنس والألفة والبساطة، لكنها روح ملتبسة ومعقّدة، فقد

كانت صهيونية، أو على الأقل متعاطفة مع ما كان يُسمَّى عندئذ إسرائيل المزعومة. وكنا نحن أهل اليسار الأيديولوجى أو الروحىّ، نمقت الصهيونية وعنصريّتها واستعلاءها وتصوّراتها عن شعب الله المختار واغتصابها أرض الوطن الفلسطينى.

كانت جاذبية «الحصان» المرأة غلاّبة، وفى الوقت نفسه كان نفورنا منها وتوجُّسنا من انتمائها، وارتيابنا فى نواياها، لا تُقاوم.

ومع ذلك كله فقد كانت تبدو بريئة الشكل، وغير معنيّة بالسياسة ولا بالأفكار والأيديولوجيّات، مجرد فتاة يهوديّة إسكندرانية من فتيات النوادى والمراقص، بما فيها النوادى التى يديرها ويوجهها الصهاينة المتصلّبون الذين هم على دراية كاملة بما يفعلون.

أما البنات الأخريات يهوديات أو أجنبيات الأصل، والمصريات القلائل ومنهن زينب المشراوى فقد وضعتهن «لى شيڤال» فى الظلّ، لا عن عمدٍ منها بل بطبيعة الأشياء.

لم نعرف قط، ربما لم نعن بأن نعرف اسمها الحقيقى، كان المعتقل كله قد وقع فى هوى «لى شيڤال».

وفى استلقائها الهادئ تصطلى شمس الإسكندرية الصباحية كانت «الحصان» تصعد بنا جميعاً على الرغم منا تقريباً إلى بحار السماوات الفيّاحة مخايلة الخيالات سابحة السحابات مترقرقة الزرقة.

كان مجرد مرآها، عَبْر ذلك الممرّ الرمليّ الضيّق بين عنبر الرجال وعنبر النساء، يحلّق بنا إلى فضاء حريةٍ فسيحة، قد تكون مجرد وَهْم، لكنها تُعلّلنا بالأمانى المستحيلة.

لم تكن بوابة العنبر تُغلق علينا بالليل، كسبنا ذلك بالتعاون الهادئ الرصين مع الضابط فؤاد وموافقة القومندان، كانت ساحة المعتقل الرملية الفسيحة مفتوحة لنا بالنهار وبالليل، نخرج وندخل دون عائق، بشرط واحد تمليه الضرورة: ألاّ نقترب كثيراً من سياج الأسلاك الشائكة.

الأشواك المعدنية المدببة تحت أضواء الكشافات هي التي تذكّرنا أننا، في نهاية الأمر، لسنا في معسكر للاستجمام والرياضة، بل في سجن مقيّد للحرية، قاهرٍ، منذرٍ بمآلٍ مجهول، أو بمصير مروّع.

تيقّظت بعد منتصف الليل في عمق السكون الهامد لا تقطعه إلا أصوات غطيط النائمين، وشخيرهم وزفيرهم البعيد، أو تنهداتهم وأنّات نومهم الحسير، وجدت سرير فريد اسكاروس خالياً، تقلّبتُ أغالب النوم القلق، قلتُ لعله خرج يتمشى قليلاً في الهواء الطلق الرحب، وأغفيت، سقطت أسير غيابة الأمواج المتلاطمة القاتمة في ذلك النوم الذى تروده مِزَقٌ مبعثرة من رؤى غائمة، وعندما عاودتنى نصف اليقظة أحسست بغموض أن فريد يعود إلى فراشه، وفي العتمة التى تدخلها انعكاسات أنوار الحراسة وإشعاعات سماء زرقاء صافية وعميقة، خُيِّل إليّ أن وجهه مبلل بندى خفيف مضرّج بوهج خاص لا أعرفه إلا عند الارتواء الشبقيّ وأن أنفاسه تتلاحق وهو ينفث دخان سيجارته الليلية بعمق وباستمتاع، ورضىً نادر عن الذات.

تمدد على سريره، بالبيجاما الخفيفة، من غير غطاء، واستغرق في النوم.

خايلتنى في نومى شمس ساطعة تسقط على ساقين مبسوطتين ممسّدتين ناعمتى البشرة وابتسامة مستسرة لا تكاد تُلحظ تفترّ عن سنتينّ أماميين ناتئتين وعاجيّتين.

لكن الرؤيا لم تؤرّقنى، ساقتنى بسلاسة وهدوء إلى سياق نعاسٍ لم أصح منه إلا على نداء الصباح:

– سانك سانك.

وكوب الشاى واللبن يقدّمه لى فريد اسكاروس وقد هبّ من النوم نشطاً على غير عادته، وهو يبتسم:

– صحّ النوم. ناموسيتك كُحلى.

فهمست له: يا عمّ صحّ بدنك.. صباحية مباركة
وضحكنا معاً فقال الزملاء حولنا: ضحّكونا معكم.
فلم نقل شيئاً.
كانت الأسلاك الشائكة في نور الصباح تبدو قريبة، شريرة الشكل.
في المعتقل ترجمتُ مسرحية ماكسيم جوركي «في الحضيض».
ومثّلناها على مسرح مرتجل أقمناه في آخر العنبر الواسع العريض.
غيّرنا نظام فرش الأسرّة وصفوفها، ليلةً واحدة لم تتكرر بالطبع.
كانت حفلة الافتتاح هي حفلة الختام. كان ضيوف الشرف هم قومندان المعتقل وضباطه، الضابط فؤاد والضابط رفقي، والصُولات على وميلاد وحسونة.

كانت مجموعة مسرحيات مكسيم جوركي التي طلبتها من أمي، بغلافها السميك المبيضّ قليلاً، قد وصلتني بسلام، وطقّ في رأسي أن أترجمها للعربية، هكذا، دون هدف، دون أن يخطر لي ببال، طبعاً، أنها يمكن أن تمثَّل في المعتقل.

فرغت من ترجمتها بالقلم الأبنوس وبحبر واترمان أسود من زجاجته المضلعة على ورق كراسة من كراريس التلاميذ بعد أسبوع تقريباً، وكان عبد القادر وفريد وحمدى هم أول من قرأوها، لم يكن شوارتز يعرف العربية، ولكنه انفعل بشكل لا يصدّق فرحاً واستثارة، وقال إنه سوف ينشرها عند خروجنا قريباً من هذا الأسْر.

وفجأة تناقل هذه الترجمة أصدقاؤنا وزملاؤنا و«خصومنا» السياسيّون أيضاً إن صحت هذه العبارة فلعلها من ناحيتنا كانت اختلافاً فكرياً جذرياً ضارباً للأصول أكثر مما كانت «خصومة» فقد كنا نعمل معاً في كل أنشطة الحياة في المعتقل. ذاع أمرها، وفجأة اتُخذ قرار - لا أدرى ممن وكيف - أن تُمثَّل المسرحية، في المعتقل.

أقيمت خشبة المسرح المرتجل من ألواح الخشب التى كانت، عند

قدومنا أول أيام المعتقل، تستخدم فى مقام الأسرّة، ثم ركنت على جنب بعد أن جاءت الأسرّة النقّالى، ومن ألواح أخرى أقيمت عمادات جانبية شدت عليها ملاءات سرير وبطانيات متسقة الألوان فصنعت جانبىْ الكواليس، أما الخلفية فقد مُدت فيها ملاءة كبيرة ضحّى بها صاحبها ورُسم عليها ديكور يوحى بشوارع روسيّة رثّة فى جانب، وبغرفة فقيرة بها ساموڤار حديدىّ متهالك. وعلى الخشبة وُضعت مائدة عرجاء بثلاثة قوائم مسنودة على رصّة من الطوب، ومقاعد خيرزان جىء بها من مكتب الضباط. وُصِّلت أسلاك الكهرباء بمصابيح كبيرة ٢٠٠ شمعة وُزِّعت على الخشبة بحيث يسقط نورها على الجانب الذى يمثّل الشارع وجدران الأكواخ الخشبية ذات المداخن التى رسم الدخان يتصاعد منها، ثابتاً، لا يحركه إلا اهتزاز نور المصباح الكهربائى.

وبهذا اكتمل الديكور والأكسسوار.

عُملت ستارة بحبال وبكرات تفتح وتغلق من على الجنبين وعُهد إلى زميلين بمهمّة فتحها وإسدالها.

استعيرت الملابس النسائية من عنبر البنات، زينب أعارتنا فستانها، ومدوَّرة زرقاء تحولت إلى إيشارب روسىّ شعبىّ حول عنق حمزة الدمياطى الذى نهض بالدور النسائىّ أساساً، وأعارتنا «لى شيڤال» أصبع الروج وعلبة البودرة وباروكة شعر، وساهمت بنات أخريات بالحذاء والشرابات الحريمى السوداء ومناديل رأس سوداء وملونة اتُّخذت منها الطُرح والمانتيلاّت الروسى. حفظ «الممثلون» أدوارهم - كل ممثل نقل دوره فى كراسة وحدها.

كنا على أهبة الافتتاح، حفلة البريميير التى هى حفلة الختام فى الوقت نفسه، البروڤة چنرال والفينال مرة واحدة.

المواهب - بل العبقريات - التى تضافرت فى إخراج حفلة واحدة لم تلبث أن تمرّ عَرَضاً دون بقاء دون ادعاءٍ للخلود، شأنها فى ذلك شأن

كلّ عمل مسرحى، كل أداء فنىّ بل كلّ أداءٍ فى فعل الحياة وفى فعل الحب وفى فعلِ الثورة، يتم تمامه مرة واحدة بالضرورة ولا يتكرر أبداً.

مُهدر مرةً واحدة وإلى الأبد، لكنه متحقق أيضاً مرةً واحدة وإلى الأبد، هذا التحقُّق الذى يحدث بلا سابقة ولا لواحق مهما تكرر حتى لو تكرر، ففى كل مرة ثمت فرادة بلا مثيلٍ متطابقٍ كل التطابُق، هى استحالة العودة، ومع ذلك لا تتوقّف غواية مناوشتها، مرة بعد مرة، ثم إنها حتى لو تمتْ مرة واحدة واندثرت، فها هى ذى باقية، بشكلٍ ما، أو هأنذا أتصورّ أنها - الآن - باقية لا تزول.

رُصّت الكراسى فى الصف الأول حيث جلس القومندان وضبّاطه وخلفهم الصولات وأعضاء «اللجنة القيادية».

ورُصّت السراير بعدها على شكل مقاعد المسرح.

أضيئت أنوار المسرح وأطفئت أنوار الصالة وخفقت القلوب.

وعندما فتحت الستارة دوّتْ الصالة بتصفيقٍ حماسىّ استمر طويلاً وانحنى «الممثّلون» للجمهور، شأن المحترفين القدامى.

ودارت المسرحية فصولاً.

كان نجاحها فى أعيننا وقلوبنا أعظم من نجاح أية مسرحية ليوسف وهبى أو زكى طليمات أو فرقة التمثيل المصرية أو حتى «الأولد ڤيك».

شدّ القومندان على أيدى اللجنة القيادية، وهنأهم بإيجاز وابتسامة عسكرية هادئة، بينما كان اللغط الفرِح وأصوات التهنئة تتصاعد فى العنبر الفسيح.

كان الممثلون هم الذين ظفروا بآيات الإعجاب وسرقوا الأضواء كالمعتاد.

أُخذ تأليف المسرحية وترجمتها مأخذ الأمور المنتهية المسلّم بها أصلاً دون حاجة لتنويه، كالمعتاد أيضاً.

لكن قلبى كان يتفطّر، بحسٍ من الحسرة وشىءٍ من التفجُّع على ما

انقضى ولن يعود قطّ، ما من شيء يعود، صحيح، ولكن ما من شيء ينقضي أيضاً.

هبّ الزملاء ينقضون ما أبرِم، يطفئون المصابيح، ينزلون القوائم والألواح الخشبية، يطوون الكواليس، يلمّون الملاءات والأكسسوار، ويخلعون الأسلاك والفيشات من البرايز المثبتة في الجدار، وأخذ الممثلون يمسحون الماكيّاج ويخلعون الفساتين والإيشاربات والبنطلونات القديمة التي رُسمت عليها رقع مخيطة بغرز كبيرة.

هل هذه كتابة ذاتية، تدور حول هموم من يجعل نفسه بؤرة للعالم؟

هل هو حقاً يظن أن الكتابة هي الخلاص وهي المطلق وهي اللغة الإلهيّة؟

هل هذه النماذج هي تصويره لأبطال النضال في سبيل المبادئ التي يقول إنه يؤمن بها؟

استخدام «الأنا» هنا ليس إلا حيلة سردية من بين حيل أخرى كلها مشروعة وكلها تندرج في النص لا في الذات، ضمير المتكلم هنا يمكن أن يحل محلّه أي ضمير آخر: أنت، هي، أنتم، هم، هنّ، إلا أنه يتيح للنصّ، ربما، أن يرود مناطق قد لا يُتاح للضمائر الأخرى أن تتغلغل فيها كما ينبغي للنص أن يفعل.

ليس ثم خلاص.

هل الخلاص في الثورة؟

ليس هؤلاء «الأبطال» هنا إلا أمشاج خيالات روائية، أليس كذلك؟

لم يكد يمر شهر في الأسر إذ نحن نحاول أن ندبر أمور حياتنا في المعتقل، ولم تكن الزيارات مسموحاً بها بعد، لم نكن بحاجة إلى تهريب الرسائل أو تلقّي ما يبعثه الأهل خفية، فقد كانت القنوات «الرسمية» مفتوحة، الرسائل والزيارات والطرود كلها تمر بسلام - تقريباً - عبر رقابة القومندان وضباطه، وكانوا من الجيش لا من مصلحة السجون، باعتبارنا أقرب ما نكون إلى الأسرى لا إلى

المساجين، تسرى علينا مواثيق چنيف بشأن معاملة المدنيين فى وقت الحرب، وتطبق بدقة.

لا أريد أن أقارن بين معتقلات فاروق ومعتقلات عبد الناصر، لا مجال للمقارنة ولا ضرورة لها.

الأسْر، أو الحَبْس، وأنواعٌ من العذاب - مقصودةٌ أو غير عمديّة - كلها هناك وكلها فى النهاية واحدة.

أبو قير فى ١٩٤٨/٦/٨

معتقل أبى قير

والدتى العزيزة

أهديك أرق تحية وأعطر سلام وأصدق شوق وأرجو أن تكونوا فى خير صحة.

انتهز هذه الفرصة لأطلب منكم علاوة على ما طلبته فى الخطاب الماضى: عدد شهر أبريل وعدد شهر مايو من مجلة The Reader's Digest، *أنطوان ربما يستطيع أن يساعدك فى العثور عليهما.*

سطران مشطوب عليهما بالقلم الأسود الغليظ

أنا فى حال طيبة ولا يشغلنى إلا التفكير فى أمركم ولكنى أرجو أن تكونوا متشددين وفى خير حال.

وأخيراً أبعث لكل الأصدقاء تحياتى وأرجو أن أتسلم منكم جوابات بالعنوان الآتى: معتقل أبى قير طرف محافظة الإسكندرية.

وفى الختام سلامى لأختى العزيزة هناء ولويزة وإيزيس وقبلاتى العديدة لفوفو ولك يا والدتى أرق تحيات ابنك المحب.

(إمضاء)

ملحوظة: هناك مسألة مهمة فى إرسال ما أطلبه من أشياء فبدلاً من مجيئك لغاية هنا يمكنك إذا أردت أن ترسلى الأشياء إلى «حاييم درّة» صاحب المصانع المشهور وهو يأتى هنا مرة كل أسبوع ويسلّم الطرود

الفصل السابع عشر

انتظمت الزيارة مرة كل أسبوعين، ومادامت فقد أصبحت كأنها نافذة - مهما كانت صغيرة - يطل منها الروح الحبيس على البراح الفسيح، تدخل داليا الصغيرة، دائماً في بدلة خفيفة مفصلة تفصيلاً جيداً - قلت: أمي لاشك فصّلتها وخيّطتها لها - إما البدلة الروز أو البدلة الزرقاء السّماوى صافية الزرقة، بخطواتها النشطة السريعة وتتعلق بعنقى فى حضن الحب الطفلىّ وتقول لى بصوت كله جدية ومسئولية: إزيّك يا خويا إزاىّ صحتك؟ مبسوط؟ عايز حاجة؟ وأربت على كتفها وأنا أسلّم على أمي بخجل - نحن الأقباط من طبقتنا لا نقبلّ أمهاتنا عادةً ولا نعرف ملاطفات الطبقات الراقية أو المتحضرة سواء الوسطى منها أو الثرية - ولا تملك أمى نفسها أحياناً فتنهمر الدموع من عينيها وأسعى بكلمات متعثرة إلى أن أخفف روعها وتدعو لى بأن يردّ غربتي سالماً غانماً ببركة يسوع والعذراء مريم، لم تكن متدينة جداً ولكن الاستنجاد بشفاعة المسيح وأمه طقس مصرىّ قبطىّ أساسًا وليس عن مجرد عقيدة مسيحية.

ومن ثَم سوف تنقطع الخطابات، إلى حين، بعد ذلك - على الأقل ما بقى لدىّ منها - فلم تعد بنا حاجة إليها.

إلا أن خطاباً قديما أعاد إلىّ بقوة، وعلى نحوٍ غير متوقّع، ما كنت قد أنسيته تماماً.

جاء عسكرى ينادينى، فى غير موعد الزيارة المعتادة، يستدعينى إلى مكتب القومندان، لم أكن أعرف ما الداعى لهذا الاستدعاء غير المسبوق.

الفصل السابع عشر

انتظمت الزيارة مرة كل أسبوعين، ومادامت فقد أصبحت كأنها نافذة – مهما كانت صغيرة – يطل منها الروح الحبيس على البراح الفسيح، تدخل داليا الصغيرة، دائماً في بدلة خفيفة مفصلة تفصيلاً جيداً – قلت : أمي لاشك فصّلتها وخيّطتها لها – إما البدلة الروز أو البدلة الزرقاء السّماوى صافية الزرقة، بخطواتها النشطة السريعة وتتعلق بعنقى فى حضن الحب الطفلىّ وتقول لى بصوت كله جدية ومسئولية : إزيّك يا خويا إزاىّ صحتك؟ مبسوط؟ عايز حاجة؟ وأربت على كتفها وأنا أسلّم على أمى بخجل – نحن الأقباط من طبقتنا لا نقبلّ أمهاتنا عادةً ولا نعرف ملاطفات الطبقات الراقية أو المتحضرة سواء الوسطى منها أو الثرية – ولا تملك أمى نفسها أحياناً فتنهمر الدموع من عينيها وأسعى بكلمات متعثرة إلى أن أخفف روعها وتدعو لى بأن يردّ غربتى سالماً غانماً ببركة يسوع والعذراء مريم، لم تكن متدينة جداً ولكن الاستنجاد بشفاعة المسيح وأمه طقس مصرىّ قبطىّ أساسًا وليس عن مجرد عقيدة مسيحية.

ومن ثَم سوف تنقطع الخطابات، إلى حين، بعد ذلك – على الأقل ما بقى لدىّ منها – فلم تعد بنا حاجة إليها.

إلا أن خطاباً قديما أعاد إلىّ بقوة، وعلى نحوٍ غير متوقَّع، ما كنت قد أنسيته تماماً.

جاء عسكرى ينادينى، فى غير موعد الزيارة المعتادة، يستدعينى إلى مكتب القومندان، لم أكن أعرف ما الداعى لهذا الاستدعاء غير المسبوق.

ذهبت معه بالشورت الأبيض والجزمة السِلْبس الكاكى نصف المطوية على شكل صندل وقميص نصف كُمّ مغضَّن وطالع من الشورت.

أحسست أن الغرفة الواسعة قد ضاقت فجأة، وجدت سيّداً شاباً على المكتب، عرفنى بنفسه على الفور: حمدى الخطيب وكيل نيابة المنشية، ومعه على جنب، سكرتير النيابة وقد فتح دفتر التحقيقات واستعد بالقلم الآبنوس، وعلى كرسى جانبى سيّد آخر لم أتردد لحظة واحدة أن أتعرف فيه على ضابط مباحث كأن سيماهم على وجوههم قد انطبعت فى ذهنى منذ أن دخلت هذه الغرفة أول مرة فى فجر ١٥ مايو، ومعهم الضابط فؤاد الذى انتحى الجانب البعيد وأخذ يقرأ «الأهرام» أو يتشاغل بقراءتها.

عندما وجدت هذا الجمع من ممثّلى القانون والسلطة لم أحس بأدنى حرج من مظهرى المُهمَل المرسل على سجيّته.

فُتح المحضر على الأسلوب التقليدى الذى تعلمناه فى الأفلام الأمريكية والعربية على السواء. وفى كرّاسة محاضرات المرافعات للدكتور سيف رمزى: اسمك عمرك عنوانك عملك.

- هل حصلت على ليسانس الحقوق من جامعة فاروق الأول؟
- نعم.
- فى أى عام؟
- ١٩٤٦.
- هل تنتمى إلى جماعة تدين بالمبادئ الشيوعية؟
- لا.
- هل أنت على دراية بالمبادئ الشيوعية الماركسية؟
- فى حدود دراستى القانونية.
- هل أنت مقتنع بها؟
- لا.

لم يكن ثم أدنى جدوى في التباهى بالثوريّة فى هذا المجال وكنت قد قررت بيني وبين نفسى على الفور أن يكون دفاعى غير سياسيّ.

كانت التقنية التى علّمتها لكثيرين استعداداً لمثل هذه المواقف تتلخص فى أنه طالما لم يكن الدفاع سياسياً مقصوداً به إثبات الهوية وتأكيد الموقف الشورىّ فى مجابهة صريحة للسلطة فإن الأسلوب الصحيح هو الإنكار فى حدود المعقول دائماً، والاكتفاء بأكثر الإجابات اختصاراً واقتصاراً على ردّ السؤال بأضيق الحدود.

سألنى وكيل النيابة: هل تعرف المدعو أحمد النمس؟

- لا.

وبالطبع كان أحمد النمس هو الاسم الحركى أو السرّى ومن ثم كان صحيحاً أنّ المفروض أن لا أعرفه.

قال: هل تعرف بخط مَنْ كُتبت هذه الرسالة؟

وسلّمنى، بحذر، خطاباً بخطىّ كنت قد أغفلته تماماً. مررت عليه بعينىّ بسرعة:

عزيزى الزميل أحمد النمس:

ليس من حقك ولا من أصول الزمالة، دعْكَ من قواعد الصداقة، أن تعتدى على اختصاص زملائك، إن الالتزام الثورىّ بقواعد الأمان وتوزيع العمل يقتضى منك أن ترعى أصول الديمقراطية المركزية التى هى عماد العمل الثورىّ وإلا انفرط عقد الأمور وتخبطت المسائل بعضها بعضاً وانتهى الأمر إلى العقم والإحباط إن لم يكن إلى أسوأ، أى إلى الإخفاق والفشل الذريع فى هذه اللحظة التاريخيّة من حياة الوطن وكفاح الشعب. إن إغفال هذه القواعد الأوليّة لا يدخل فى باب الفوضى وتشتيت الجهد فقط بل يكاد يرتقى إلى درجة الخيانة حتى إن لم تكن متعمدة أو مقصودة، لكن النتيجة متماثلة إن لم تكن متطابقة.

لذلك أرجو بل ألح في مطالبتك أن تكّف عن اللقاء بمن يقع الاتصال بهم من اختصاصي حسب ما قررته اجتماعاتنا المتتابعة وعندئذ فقط يمكن أن ننظر في أمر اغتفار الخطأ الجسيم الذى اقترفته لا في حقى فليس هذا بذى خطر في النهـــاية بل في حقّ الوطن والشـــعب والبروليتاريا عند التحليل الأخير للأمور مهما بدا أن المسألة صغيرة وقد تكون تافهة وليست بذات أهمية.

لك تحية الإخاء الثورىّ وأرجو أن تحرق هذا الخطاب فور قراءته.

المخلص يوسف

عادت الواقعة كلها بقوّة إلى ذهنى، كان أحمد النمس قد التقى بسلامة، في دكان عبد الفتاح خلف الله، منذ سنتين، ثم صادفه مرة في شارع محرم بيه، ذكّره بنفسه وطلب منه أن يحدد ميعاداً للّقاء والدردشة. جاء سلامة، حسب الأصول، يبلغنى بالأمر، فكتبت هذه الرسالة في نوبة غضب، وطلبت من سلامة بحزم ألاّ يلتقى بأحمد.

رددت ورقة الخطاب إلى وكيل النيابة، بعد لحظة، وقلت:

- لا.

- هل اسمك الحركي يوسف؟

- لا. ليس لى اسم حركي.

- هل تعرف المدعو مينا إسحاق؟

- لا أذكر.

- أليس مينا إسحاق هو أخ زوجة خالك سوريال ساويرس؟

- آه.. نعم.. افتكرت.

- هل التقيت به في سبيل أن تضمّه إلى جماعة تدين بالمبادئ الهدامة وتدعو إلى إضراب العمال وثورتهم للإستيلاء على السلطة.

- لا.

ما علاقتك بالمدعو مينا إسحاق ؟

- هو قريبي من بعيد، ربما كنت قد رأيته مع أقاربي مرة أو مرتين.

قال وكيل النيابة للسكرتير، اكتب :

«وأمرنا المتهم بكتابة العبارات الأولى من الخطاب المضبوط لمضاهاة الخطوط»

كنت أعرف أن محاولة اصطناع خطّ مغاير لخطيّ يمكن بسهولة اكتشافه على يد خبراء الخطوط لكنني لم أتردد، وكتبت عزيزي أحمد النمس وما بعدها بخط كبيرٍ متعثرٍ ومائلٍ إلى تحت بما يغاير طريقتي في الكتابة.

ابتسم وكيل النيابة ابتسامة صغيرة وهو يملي كاتبه :

«وأمرنا بعرض الورقة على خبير الخطوط وموافاتنا بتقريره»

كان من الواضح عندي أنه كان يرى القضية تافهة لا قيمة لها، بل ربما كان على شيء من التعاطف مع زميلٍ حقوقيّ أنهى دراسته في الكلية بعده ربما بسنتين أو ثلاثاً، ويعول أسرة كبيرة، في تلك الأيام كانت لتلك الاعتبارات قيمة.

بينما قال ضابط المباحث : تسمح يا حمدي بيه ؟

وأوشك أن ينتزع الورقة انتزاعاً، ألقى عليها نظرة فيها مزيج من الغيظ والتشفّي، ولكنه لم يقل شيئاً.

«ووقّع في ساعته وتاريخ..»

قال لي : اتفضل انت، متشكرين.

دهشت من دماثةٍ غير متوقعة.

ولم يحدث بعد ذلك شيء على الإطلاق، لم أُستدع مرة ثانية للتحقيق ولم تُرفع القضية للمحكمة، ولا شيء.

لكن قلقاً ظل يساورني - بطبيعة الحال - طوال سنين، حتى انقضت فترة الاعتقال، ومابعدها.

عندما عدت وجدت زملائي فريد وحمدى وعبد القادر وشوارتز مجتمعين على باب العنبر، سألوني في لهفة: ماذا حدث؟ حكيت باختصار دون أن أشير إلى أسماءٍ أو تحديدات، وكنت في حالةٍ من الإحساس المختلط بين النشوة وتحليق القلب إلى أعلى، وبين التوجّس ومجابهة الهواجس السريّة. لكنني - فيما تصورت - كنت أبدو متجلّداً بل قويّ العارضة متين الشكيمة. بهذه المفردات الفخمة شخَصت إحساسي عندئذ.

بعد قليلٍ جاءني الضابط فؤاد، وهو يمرّ على العنبر مروراً عابراً بعد إحصائنا سانْك سانْك، وقال كأنما لا يقصد أن يقول شيئاً مهماً:

-زينب تسلّم عليك، تقول قلبنا معك.

بعد قليل سوف تُنقل زينب ولي شيڤال وزميلاتهما كلهن إلى معتقل آخر أو يفرج عنهن، وسوف أشعر بقلبي يهبط إلى غورٍ سحيق.

أوشك سبتمبر أن ينقضي وبدأ الجو في العنبر الواسع تأخذه لذعات من برد الشتاء البِكْر وتهبّ فيه رياح تُلجئنا إلى أن نتدثّر بالبطانيّات - أكثر من واحدة - بالليل وأن نلبس البنطلونات والبلوفرات صباحاً وبعد الغروب.

سانْك سانْك

انتظمت صفوف الخمسات، وقد أوشكت أن تصبح روتيناً لا معنى له ونحن نثرثر ونضحك أو نسرح بالفكر، بينما الصول عطية - لابد أن يكون اسمه عطية..! - يحصينا.

صفّق الضابط فؤاد بيديه، دائماً يدهشنا أن هذا الجسم النحيف يمكن أن يصدر عنه هذا الصوت القويّ الرنان الملىء.

سكوت من فضلكم.. سيلينْس..! Silence

بعد لحظات ساد صمت متوتّر وقد شاعت في الجو شحنة ترقُّب وتوجُّس ما كان أسرع صعودها في أية لحظة.

جاءت تعليماته – يعني أوامره – واضحة وقصيرة وحاسمة.

سننتقل من العنبر الشاسع الذى ضمّ كل الناس معاً، إلى الثكنات التى كان يقطنها الطيّارون وجنود الرتب الإنجليز، كل ثكنة فيها مكان لعشرين سريراً، وعلى كلٍ منا أن يحمل سريره وحاجاته إلى الثكنة، وسيسمح بالخروج كل عشرة مرة واحدة، والمرجو ألا تتدافعوا وألا تتزاحموا، عندكم ساعة واحدة بالضبط وستبدأ عملية النقل، وكل عشرة منكم يتفقون مع بعضهم بعضاً.

إلى آخره.. إلى آخره

هبتّ عاصفة اللغط والضجيج والحركة وزحف الأقدام وانحناء المعتقلين على أسرّتهم يلمّون ملاءاتهم وبطانياتهم الخاصة ويستنقذون الأحذية والصنادل من تحتها ويرصّون الكتب والمجلات وأدوات الحلاقة والأكواب الزجاج والألومنيوم وعلب الكرتون الكبيرة التى تقوم مقام الكومودينو أو أدراج الدواليب وقد رُتّبت فيها الغيارات والقمصان وبقية الملابس.

وما هى إلا لحظة فيما خيّل إلينا حتى ارتفع النداء مرة أخرى:

سانْك سانْك cinq cinq

وكنا قد رتبنا أنفسنا، كل عشرة مع بعضهم بعضاً فى صفّين متعاقبين.

وبعد صفّين أو ثلاثة جاء دورنا.

كل منا يحمل سريره النقالى وحاجاته كيفما اتفق له أن ينهض بحملها، لم تكن ثقيلة جداً وإن كانت، على نحوٍ ما، مربكة قليلاً.

كانت الثكنات على بعد نحو خمسمائة متر من العنبر، أحسست أن المسافة طويلة جداً وكان يخفّف عنى مشقّتها أن كان معى، فى صفٍ مضطرب فريد وحمدى وعبد القادر وشوارتز.

وكان طابور من العساكر المجنّدين يقف على مبعدة، بحذاء سور

الأسلاك الشائكة، وإن كانت الساحة المسفلتة، ثم الحوش الرملي بين مباني الثكنات والعنبر قد تُركت خالية.

كان مع كل عشرة منا صول يمشي أمامنا.

أشار الصول عطية إلى باب ثكنة تأتي رابعة على التعاقب وعلى بابها من النحاس نقش عليها بالإنجليزية رقم٧ وتحته كلمة seven قلت: لعل مكتب القومندان رقم ١ ثم ثكنات ومكاتب الضباط والصولات رقم ٢ و٣ على الجانب الآخر على مبعدةٍ من عنابرنا. وكانت الثكنات الثلاثة الأولى من هذا الجانب شُغلت فالمعتقلون يدخلون ويخرجون ويطلّون منها واللغط باللغات العربى والفرنسى والأرمنى واليونانى وغيرها يأتى وينقطع فى هبّات متوالية. الأرضية والبلاط كانت نظيفة مكنوسة، قلت: لم تكن الثكنة واسعة لكنها لم تكن ضيقة خانقة، اشتغل العساكر فيها. كانت النوافذ عالية، ولها قواعد من الداخل، ومصاريعها الخشبية مدهونة حديثاً بطلاء أزرق، خطر لى أن الأزرق القوىّ هو لون سلاح الطيران الملكىّ البريطانىّ.

هل حلّ القمع «الوطنى» بجدارة محل القهر الاستعمارىّ؟

سرعان ما انتظمت الأمور فى ثكنتنا أو فى عنبرنا الصغير. بجانب الباب مباشرة اختار الروسيّان أناتولى وڤلاديمير موقعهما وتلاهما هورروڤيتش وميلوڤيتش وكلاهما يوغوسلافى هارب من حكم تيتو. ثم نحن الخمسة فريد وبعده اخترت موقعى وعلى يسارى حمدى وبعده شوارتز وقبل آخر الصف عبد القادر ثم زيدان خليفه، زميل له من كلية الطب لم أكن أعرفه وظلّ متباعداً ومنطوياً حتى أفرج عنه.

بعد قليل جاءت العشرة الأخرى:

عثمان عبد المنعم وسعد مرسى طالبان من كلية العلوم يعرفهما عبد القادر ثم شوقى نمر ولطفى مدكور ووجدى حبيب وبعدهم صابر ومحمود وحسين وزميل لهم من شركة سباهى.

وعلى الفور تكوّنت «كوميونة» منّا نحن الخمسة، فهل ثم أدنى أهمية لأنها تضمّ اثنين مسلمين واثنين قبطيين ويهودى مصرى إيطالى من أصل ألمانى؟

كان كل ما يصلنا من الخارج نتقاسمه بالتساوى: العيش الفينو، والفراخ المشوية، والمحشى باللحمة المفرومة، والمعلّبات أو ما كنا نسميه الأغذية المحفوظة فلم تكن كلمة «المعلّبات» شائعة بعد، من سردين إلى لبن ومن مربّى إلى حلاوة، وبالطبع الكتب والمجلات. ثم اتسعت «الكوميونة» وضمّت صابر ومحمود وحسين.

كان شوارتز يحتفظ لى خصيصاً بالعمود الفقرى الطرىّ للسردين المحفوظ إذ كان يعرف أننى أوثره باعتباره من أطايب الطعام، احتددت عليه مرّة إذ تصورت أنه يستخفّ بى أو يسخر منى عندما يقدّم لى هذه العظمة السمكية الهشة مسلوتة من لحمها تشرّ بالزيت الدسم والصلصة المحمرّة، فأخذ يعتذر لى يومين متتالين وأوشك أن يبكى. وكان فى ذلك كله أقرب إلى طفل كبير الجسم، دائماً مرح ومُقبل على الحياة وعلى الأمل بقلب مفتوح، فانلّته الواسعة على صدره المترهل وساقاه الضخمتان فى شورت كاكى طويل حتى الركبة، يضحك لأقل مناسبة ويعلّق على كل شىء بعفوية وفوريّة لا حجاب عليها، قال لى مرة: طبعاً لن تذكرنى عندما تصبح رئيس جمهورية مصر الاشتراكية، فانفجرت ضاحكاً فلم تخطر لى هذه الحكاية على بال، مع استحالة تصوّرها، قلت له يا شوارتز غير ممكن حتى لو تخيلنا المستحيل فأنا قبطىّ، قال منفعلاً: لا يهمّ، ألم نتعلّم أنه فى الاشتراكية لا أهمية للأصول الدينية أو العرقية؟ ألا نؤمن بذلك؟ قلت، على سبيل المفارقة وباستخدام عبارة شعبية شائعة لا تعنى شيئاً: ربنا يسمع منك..! ليس من أجلى، لا أظن، بل من أجل المبدأ. قال بحماسة بالعربية : ضرورى، لازم.

كنا نُؤْثر أن نتحدث معه بالإنجليزية إذ كانت عاميّته المصريّة لا تكاد

تفى بالتعبير عمّا يريد أن يقول.

هأنذا بعد ثلاث وخمسين سنة أذكره، على رغم كل شيء.

كان هو وحمدى أبرعنا وأقدرنا على إعداد الأكل، تسخين أو عمل شوربة أو طبق بيض مقلى بالبصطرمة، ولما كنت أقلّ الناس دراية بشئون المطبخ فقد كانت مهمّتى أساساً أن أشطف المواعين قبل الأكل وأغسلها بعد الأكل بالتناوب مع فريد وعبد القادر يوماً بعد يوم.

لم تكن بالعنبر حنفيّة ماء أو حوض، الحنفيّات تنزل من ماسورة طويلة منخفضة ممدودة على الممرّ الطويل بين الجدران الخلفية لصفّ العنابر المقابلة وبين الجدران الأمامية لعنابرنا، أما الحمّام فمشواره بعيد ونحن نكسل عادة عن الذهاب إليه - ستّ مرات يعنى فى اليوم، قبل الأكل وبعده، يكفى طابور الانتظار لغسيل الوجه والحلاقة والتواليت. كنت أقعى على ركبتيّ، تحت الحنفيّة الواطية التى انحفرت تحتها فجوة أفقية مستطيلة مبلولة فى الرمل تسقط عليها المياه من الحنفيّات، وأغسل المواعين بالصابون والماء وأجفّفها بفوطة نظيفة وأضعها على فوطة أخرى، وكان فريد اسكاروس أندراوس وهو المدخن الوحيد بيننا يكسل عن القيام بورديّته فيترجّانى أن أغسل المواعين فى يومه بدلاً منه، وعندما أجد مضضه وقلقه وتدخينه الملهوف ونظرته المتضرّعة يصعب عليّ فأقايضه مقايضة خاسرة بأن يكنس العنبر بدلاً منى فى يوم ورديّتى مرة كل أسبوعين، فقد استقرّ الأمر بقرار جماعيّ غير رسميّ أن نعفى الخواجات الروس واليوغسلاف من مهمّة كنس العنبر وتنظيفه، وبالطبع تثور الخناقات والخلافات على أيام النوبات مَنْ عليه الدور اليوم ومن كان عليه الدور أمس؟

كان هوروفيتش اليوغسلافى قد فرّ من حكم تيتو الشيوعى لكى يجد نفسه معتقلاً على نحو عبثيّ مع الشيوعيين. كان مثقفاً وميسور الحال جداً فيما يبدو، فقد كانت مائدته عامرة دائماً بما يأتيه من الخارج

من أطايب ونبيذ رفيع المستوى مع زميله ميلوفيتش، وكانا يفرشان سريريهما بمفرش غالٍ مطرز تطريزات فولكوريّة سلافيّة، ويدعواننا للأكل معهما فنشكرهما دون أن نقربهما، كانا من طبقة فكريّة واقتصاديّة أعلى بكثير من المعتاد، وكان هوروفيتش هادئ الروع دائماً وسيماً مدوّر الوجه ومحمرّ الأنف بشرايين رقيقة غير منفّرة الوقع مع ذلك،

ما أسرع ما لاحظت أنه يقرأ بالألمانية والإنجليزية وما أسرع ما استقرت بيننا صداقة وأخذنا نتبادل الكتب والمجلات، قرأت من عنده لأول مرة أعداد پنجوين التى خصصتْها لدراسة الموسيقى، وما أسرع ما استغرقتنى المفردات التكنيكية البحتة التى لم أكد أفقه لها مضمونا إذ أحدّق في النوتة المرقومة برموز كتابة الموسيقى، وما كانت ثم صلة بين ما أقرأ وما كنت أستعيده من أسطوانات دار نشر الثقافة الحديثة، لكن القراءة تبتعث أصداءً تتضافر وتتنافر فى بُنى مركّبة غنيّة الجسوم كثيفة وشفّافة معاً تعدو بى خيول جامحة محكومة في سهوب لا نهاية لشساعتها وتهبّ بى عواصف ضارية العرامة من خبط الطبول الفخام وقرقعة الصنوج تنقصف لها سيقان الدّوْح تحت أقدام الثورة بجماهيرها الغفيرة التى تدوس أحلام الطغاة الصغيرة وتسرق طحالب الفطر المسموم بما طفح من دم المنسيّين. غابات متواشجة الشجون حتى تؤوب إلى حنان الصوت المنساب على رسله مع شقشقات عزف التشيللو والفلاوت المستنيم تسلمنى إلى أحضان أنثوية مستسلمة ناعمة الاستسلام.

تترامى الموسيقى البحتة من غير مجاز أو تشبيه تقوم البُنى الصوتيّة فى تسلسلها وتزاوجها وتتاليها فى تعاقبها وتهاويها فى تشابكها وتوحُّدها فى لدونتها وصلابتها فى تقطّرها وتدفّقها فى اقتحاماتها وتراخيها ألاعيب نغمية ما أجمل صرامتها ودقّة تركيبها تتغلغل فى

دمائي وتستغرقني.

- هيه اللى واخد عقلك.

ما كان أشدّ طموحي، ما كان أعظم إقبالي على الأمل، كنت - ولعلني مازلت - أومن أن صناعة المستقبل هي شأني - مع كل الزملاء معروفين أو مجهولين من أغمار الناس أو أعلامهم سواء - ولهذا حصلت على كتب تدريس اللغة الألمانية، جاهدت في قراءة وكتابة حرفها الكلاسيكيّ القديم، وتصريف أفعالها المعقّد، وهجاء كلماتها التي لا نهاية لطولها، وسوّدت كراريس التمرينات، بتوجيه ورعاية كريمة من هوروفيتش، ساعةً كل يومين معه، وساعة، قد تمتدّ إلى أكثر بكثير، كل يومين مع أليكسي يعلّمني الروسية.

كان أليكسي قد بدأ يشتغل معي في دروس الأبجديّة الروسيّة، وكنت قد بدأت أكتب الخط الكيريلّي (أو الكيريلّوسيّ) وأحفظ كلمات سهلة ورائجة - وأستخدمها - مثل: دا، خراشو، سباسيبا، بل وأكتب جملاً وعبارات سرعان ما نسيتها بعد ذلك ولكنها نفعتني كثيراً في زياراتي الكثيرة المتعاقبة لروسيا والاتحاد السوفيتيّ عندما كنت أحس مع ثقل وطأة العسف والدولة البوليسية أصداءً رومانسية آتية من قصص تشيخوف وجوجول وروايات تورجنيف وديستويفسكي، هل كنت في معتقل أبو قير أحلم بأن أقرأها بلغتها الأصلية التي حدست عذوبة موسيقيّتها وفداحة غناها؟

العنبر فجأة ضيّق مطبق على الأنفاس غاصّ بالجسوم والأرواح الأسيرة المتمرّدة والكسيرة معاً المتحمّلة والصابرة معاً، أنهض من سريري متوفّز الجوارح وأندفع إلى باب العنبر وإلى الساحة الرملية التي تفجؤني الأسلاك الشائكة تحصرها وقليل من المعتقلين يتمشّون كأنما كانوا عندي كالأرواح الشاردة، يخرج خلفي شوارتز وحمدي كأنما ساورهما القلق لما لمساه من توتّري وضيقي بالحبس الرازح على الروح.

لم يكن المعتقل معسكراً صيفياً للرياضة والاستجمام. كنا نفاجأ بعد أن نأوى إلى نومنا المثقل بالحبس والزهق، بغارات ليليّة من جنود الجيش، تُضاء أنوار العنبر وتأتينا الأوامر الخشنة الجافّة:

- اصحَ أنت وهوّ.. اصحَ واطلعْ برّه.. زىّ ما انت..

العساكر يسدّدون إلينا مدافعهم الرّشاشة القصيرة، وهم بخوذاتهم وعتادهم، كأننا فى ساحة حرب، الأوامر خشنة والأيدى القوية تدفعنا، إذا تباطأنا، بخشونة الأوامر وتهديداتها، منذرة مهما اعتدنا عليها أو استخففنا بها، قاسية وجافية باللهجة الصعيدى أو الفلاّحى أو الإسكندرانى سواءَ.

نخرج إلى الساحة الرملية فى مختلف ملابس نومنا، بالبيجاما أو الفانلّة والشورت أو الجلابّية، كأنما نحن جمهرة هربوا من زلزال أو خرجوا من أسرّتهم بعد أن دوّت صفّارات الإنذار التى لم يكن عهدنا بها ببعيد، فى طريقنا إلى المخابئ وطائرات الألمان أو الطليان سوف تسقط على الإسكندرية القنابل الحارقة أو الطوربيدات التى دمّرت أحياءً بكاملها وقتلت المئات.

لكننا هذه المرة نُدفع إلى خارج العنابر لأن هنا حملة تفتيش.

حملة تفتيش، يقلب العساكر والمخبرون السرّيون العنبر رأساً على عقب كما يقال، تحت توجيهات ضبّاط المباحث بحثاً عن الممنوعات. ولم تكن الممنوعات إلا الكتب والأوراق الثوريّة والمناهضة، كلّ رواياتى لمؤلفين روس من نوع ديستويفسكى أو جوجول كانت تصادر ثم تأتى إلىّ بعد أسبوعين ثلاثة وقد تمزّقت أغلفتها أو تقطّعت أوراقها، لكنها كانت تعود عن طريق ضباط المعتقل وبخاصة الضابط فؤاد.

تتكرر الدراما المزعجة والعقيمة على مواعيد غير منتظمة ولكننا دائماً، والبركة فى الصولات وعساكر المعتقل الغلابة الذين توطّدت بيننا وبينهم علاقة من الصداقة والمصلحة نُشاركهم فى أطايب ما يأتينا

من الخارج والأكل الجيد والسجاير، نظرفهم بما فيه القسمة دون ضنَ ولا تقتير فيأخذونه وهم يقبّلون أيديهم ظهراً لبطن.

دائماً كنا نعرف أنها قادمة الليلة أو بعد ليلتين أو ثلاثة، ودائماً كانت الأوراق الثوريّة في مخابئ سرّية مصنوعة ببراعة ومكر، إما محفورة تحت أرضيّة العنبر ثم يُسوَّى البلاط، أو في مواقع محددة من الساحة الرملية.

لكننا لا نسكت على الترويع الليليّ ونكتب العرايض والشكاوى القانونيّة التي نشير فيها إلى مواثيق چنيف عن معاملة المدنيين المعتقلين أوقات الحرب وحقوقهم، يقدّمها مندوبون عنا إلى القومندان فيتسلّمها ويقيّدها الضابط أو الصول في سجلّ يوميات المعتقل ونتلقّى وعوداً، ولا تتوقّف الدراما السخيفة العبثية المزعجة أحياناً والمروّعة دائماً والمهينة باستمرار مهما كنّا نرفض الهوَان.

الفصل الثامن عشر

كان معنا في العنبر البعيد الذي أطلقنا عليه العنبر اليوناني نفرٌ من قدماء المحاربين الذين اشتركوا، أو كانت لهم صلة ما به ولو بعيدة، في تمرد البحرية اليونانية على الإنجليز ومعهم الرسّام العظيم أنجيلوپولو. كان وجهه الأسمر قليلاً - على غير المتوقّع من اليونانيّين - يبدو لي آسراً في رسوخ دماثته، في استقرار سكينة روحية نادرة، عيناه النافذتان كأنما تطلاّن علينا من آفاق المطلق التي لا وصول إليها، بنظرة بعيدة تدرك ما لا يمكن لإنسان أن يحيط به بل أن يلمّ به مجرد إلمام.

لم نكد نتبادل إلا تحيةً عابرة ومع ذلك فقد ترك فيّ أثراً لا تمحوه السنوات الطوال.

بعد الإفراج عنه رُحِّل عُنوةً إلى اليونان، مع أنّه كان مصريّاً إسكندرانيّاً في صميم روحه، وعرفت بعد ذلك بكثير أن لوحاته الجميلة ضاعت خلال فترة اعتقاله، وتذكّرت أنني رأيت بعضها في المعارض التي كانت تقيمها «جماعة الصداقة الفرنسية» بمقرّها في شارع فؤاد، وأنها هزّت قلبي بما تفيض به من روحٍ مصرية يونانية معاً، وبصنعتها الفائقة، ذكّرتني قليلاً بصنعة علي أبو الليل البديعة.

لماذا تثقل عليّ السنوات الطوال وتنوء عليّ بأحمالها، لا تقع من على كاهلي؟

في صباح يوم من الأيام المملة المتعاقبة كنا نثرثر دون هدف محدد ودون أن نتكلم في موضوع معين، قال عبد القادر:

- غريب أمر هؤلاء الروس البيض. أوّلاً لماذا يُعتقل معنا روسٌ

مناهضون لكلّ ما اعتُقلنا نحن بسببه؟ وهم ليسوا شباباً أو حتى كهولاً، على العكس شيوخٌ هربوا من الثورة البلشفية، كانوا قد تجاوزوا الستين على الأقل إن لم يكونوا قد أوشكوا على بلوغ السبعين؟ لماذا يُعتقلون معنا؟

كان سؤالاً راودنا جميعاً ولم ندرك له إجابة إلا أنهما مسجلان فى دفاتر البوليس القديمة، مثلاً، ولكن ذلك غير مقنع على الإطلاق.

قال لى فريد، بلثغته الخفيفة:

– عندما تأخذ مع أليكسى دروس اللغة الروسية، هل يسألك أسئلة؟

قلت: ماذا تعنى؟ أسئلة؟

قال عبد القادر، كأنهما كانا قد بحثا المسألة من قبل:

– يعنى أسئلة عنا، لماذا اعتُقلنا؟ نشاطنا فى الخارج؟

قال فريد: مَنْ يتصل بنا من الخارج مثلاً؟

أشرق فى ذهنى على الفور ماذا كانا يقصدان، عندما جاء شوارتز إلينا، وتحلّقوا حول سريرى، وسأل شوارتز بالإنجليزية:

– تتكلمون عن الروس البيض؟ أليس كذلك؟

قال عبد القادر: ألم تلاحظ أن أناتولى يقضى وقتاً طويلاً على سريره يكتب أشياءً كثيرة على ورق مسطّر، ثم يَلفّه بعناية، ويخفيه.

قلت: يخفيه؟ لا لم ألاحظ؟ يخفيه أين؟

قال فريد: انظر إلى قاعدة النافذة الأولى، فوق سريره، البرطمان المدوّر الكبير؟ ماذا فيه؟

حَددْتُ النظر، لأول مرة، إلى الوعاء الزجاجى المحشور بين الأكواب والفناجين والأطباق على قاعدة النافذة. كانت فيه أوراق ملفوفة على شكل أسطوانات محكمة التدوير.

نضجت فى أذهاننا الفكرة – المؤامرة، دون اتفاق معلن.

لابد أن نرى ما هذه الأوراق، هل هى تقارير مكتوبة للبوليس؟ أم

مجرد مذكّرات وملاحظات؟ وبأية لغة بالروسية أو بالإنجليزية التى يتقنها أو بالفرنسية؟

رسمنا الخطّة.

شوارتز كان قد بدأ يوثّق علاقته بهما، بهدف أن يعرف عنهما أكثر، كانت الشبهات تحوم حولهما دون أن أعرف، وكأن الكوميونة كلها على قلق منهما وكانت الخطّة كما يلى: سيأخذهما شوارتز معه للخارج، غداً صباحاً، بأية حجة مناسبة يرتجلها عفو اللحظة، للتمشية والرياضة مثلاً.

وكان على أحدنا أن يتطوّع لكى يقوم بمهمة الوصول إلى قاعدة النافذة العالية وفتح البرطمان ورؤية الأوراق ومصادرتها إن لَزِم الأمر.

نظروا إلىّ وفهمت على الفور أنهم كانوا قد بحثوا المسألة بحثاً جيداً.

كنت أصغرهم جسماً وأكثرهم خفة وحركة وتوثباً. وطافت بذهنى على الفور صورة الصبىّ الذى كنت منذ عشرة أو اثنتىْ عشرة سنة، يقف على كرسىّ متأرجح لكى يصل بيده إلى برطمان ملىء بحبات الكراملّة المصفرّة والحمراء الملفوفة بأغلفة ورق زبدة، موضوع فوق دولاب الملابس، فى الغرفة التى كنت أذاكر فيها دروسى ولها شرفة خشبية مقفلة مسقوفة تطل على اصطبل فى غيط العنب.

كان قلبى يخفق خفقة التلهُّف والتشوُّق والمغامرة وأنا أصل إلى البرطمان، وقف عبد القادر على باب العنبر الذى كنا قد أخليناه بحجة أننا سنقوم بعملية كنس وتنظيف شاملة، وعلى أساس ذلك خرج شوارتز مع الروسيين.

أقف متأرجحاً أمدّ يدى إلى أعلى فى توازنٍ حرج، وأنا على حافة المخدّات التى كوّمناها على حافّة سرير أناتولى، كان حمدى وحده معى، ينظر إلىّ بلهفة.

أدرتُ غطاء البرطمان بصعوبة.

شددت الورق الملفوف بحرص وفردته بحيث أعرف كيف أعيده كما كان.

كان مكتوباً بالفرنسية، على شكل سطور متفرقة غير كاملة، في أعلى أول صفحة منه عنوان «قصيدة حب» Poème d' Amour.

الرجل بعد أن تجاوز السبعين يكتب قصيدة حبّ..

لم أقتنع تماماً، بسطت بقية اللفّة، كلها شعر حبّ بالفرنسيّة، هبط قلبي بحسّ من الإثم.

أعدت لفّ الورق، بحرص، كما كان بقدر الإمكان وأرجعته مكانه وأغلقت عليه.

عندما تركت قاعدة النافذة التي كنت أتشبث بها باليد اليسرى تأرجحتُ، سقطتْ المخدّات من تحت قدميّ.

خرجنا من العنبر، كاسفين، منخزلين، ونادمين على حماقتنا.

انهمرت حبات كراملّة «نوفل» من البرطمان البلّوري العريض على رأسي الذي يرتطم بالأرض. صدمةٌ تدور بي لحظة، ثم يعتدل ميزان الأشياء، وقد اختلستُ الحلوى المحرمة، وأعدتُ كل شيءٍ بعناية.

وبالطبع لم يعد شيء إلى نصابه فقد انكسر شيءٌ ما، لا إصلاح له.

ألم أكن أستشعر في دخيلتي أن هذه الفعْله في البحث عن حلوى أو البحث عن «وثائق سرّية» ليست أخلاقية، أياً كانت مبرّراتها؟

أم لعلني كنت مقبلاً عليها بهذا الحماس - بهذا التهوّر - لأنها بالضبط غير أخلاقية؟

ألم أكن من أشدّ المؤمنين بأن الغاية لا تبرر الوسيلة؟

وأن الوسيلة إذا كانت معطوبة فلا بدّ أنها ستُعطِب الغاية مهما كانت الغاية نبيلة؟

أم طاف بذهني أن التضحية بالمواضعات الأخلاقية «البورجوازية»

الجارية إنما هي عملٌ مشروع في سبيل حقيقةٍ أعلى وأخلاقيّة أعلى؟

وهل هذه الحقيقة - أو الأخلاقية - إذا وصلنا إليها بوسيلةٍ «غير حقيقيّة» و«غير أخلاقيّة» ستظل حقيقيّة أو أخلاقيّة مع ذلك؟

أم أن الوسيلة إليها لابد أن تكون حقيقيّة، أخلاقيّة، وإلاّ وقع كل شيء في هوّة الزيف؟

التجسُّس والتلصُّص أياً كانت مبرراته أو تسويغاته عملٌ بوليسيّ. ومع ذلك أقدمت على فعلتي.

ومع ذلك فإن الحِسّ بالإثم - بل وجود الإثم - قائمٌ.

في النهاية، هكذا تصوّرت، فإن المسألة لا تستحق أن أغوص في كلّ هذه الأسئلة الصعبة التي تكاد تكون ميتافيزيقيّة، المسألة أو الحكاية أهون من ذلك بكثير.

قلت: لا.

بعد سنوات كان مدحت شعبان، قد جاء من إسكندرية، هاتفني في البيت، وتغدينا معاً ونزلنا إلى بيت القاضي في الجماليّة ليشترى الميزان الحسّاس الذى كان يحتاجه في معمله بوزارة الصحة، في أبيس، لحساب الوزارة طبعاً.

كنا قد خرجنا من معتقل أبو قير منذ سنوات قليلة، سبقني إلى الخروج ونُقلت إلى معتقل الطور، ثم أُعِدت إلى أبو قير، وبقيت فيه وحدى تقريباً مع قلة قليلةٍ لم تكن تربطني بهم إلا صلة الحبس، أما أصدقائي فكانوا جميعاً في الخارج.

تلك الأيام الأخيرة الموحشة كانت قاسية.

كل الزمن، سنتين إلا أقل قليلاً، قبل ذلك، كان الأمر يبدو - بشكل ما - بهيجاً مشرقاً بالأمل والإرادة القوية والعزم المعقود على الكفاح من أجل الحرية والعدل وسلطة الشعب التي سوف تفضي إلى ذبول وانقضاء قمع الدولة، ذلك كلّه على الرغم من السجن والحصار وغارات

عساكر الأمن الليلية «المفاجئة».

ومع أن مدحت كان من «حدتو» بينما كنت - وما زلت - مناهضاً للستالينيّة فقد توثّقت بيننا زمالة وصداقة عميقة وحميمة.

كنت أطوف معه في العصارى - أي قبل طابور سانْك سانْك، عندما يوشك ضياء النهار أن يغيب، وتسقط علينا أنوار الكشافات الساطعة الدوّارة من الأبراج العالية على أركان الأسوار المعمولة فقط من السلك الشائك - فليس هناك أسوار حجرية أو ما يشابهها - يقف في الأبراج عساكر الجيش بالمدافع الرشاشة، يهتفون بين الحين والحين بصوت عالٍ، كأنما ليطردوا عنهم، هُمْ، وحشةً ما: «مين هناك..!» في تلك اللحظة المثقلة بالحنين غير المفهوم وغير المحدّد، وبالأشواق غير المفصح عنها، كنت أطوف مع مدحت شعبان حول حوش المعتقل، يسألني عن برنارد شو مثلاً أو عن معنى الرومانسية، أو عن الشعر الجاهلي، فأفيض في الحديث عنها، من أين كانت هذه الأحاديث تتدفق؟

مخزونٌ من القراءات والذكريات والأفكار تصوّرت أنني نسيتها، يهضب فجأة، عن الفابيّين والبرناسيّين، عن ألدس هكسلي، أو الديسمبريّين، عن زينوفييف ويوخارين وكامينيف وكروپتكين، مثلاً، وكان التقارب العقليّ والجسديّ بيننا يخفّف - لحظات - من وطأة الوحشة وأوجاع الروح الدفينة.

كنا في صيف ذلك العام وحتى أواخر أكتوبر نقضي النهار بالشورت القديم القصير وقميص نصف كُمّ والصندل أو حتى الشبشب المشحتف، كأننا حُفاة، وكنا نسير ذراعاً في ذراع، وتيار كهربيّ من التفاهم الذهنيّ والجسمانيّ معاً يسري بيننا، كانت ساقه العارية الممتلئة تصطدم أحيانا بساقي، عفواً أو عن قصدٍ غير واعٍ، وأُحسّ من ذلك نوعاً من الدفء والأمن والقُربَى. ويأنس الجسمان في تماسّ حميم عابر دون كلمات، على رغم الاختلاف في الانتماء الأيديولوجيّ، كان في صداقته

لى نوع من الشجاعة من جانبه، كان فيها تحدٍ لتعليماتٍ من زعمائه - صريحة أو مضمرة لا أدرى - لكن زعماءه كانوا يعملون على أن «يكسبونى» أيضاً، فربما كان ذلك كله جزءاً من خطةٍ مدروسة، وربما لم يكن.

فى بيت القاضى بالجمالية المزدحمة الغاصة بالناس واللوريّات وعربات الكارّو تجرها أحصنة عفيّة، هاجمنا التاريخ. كان عبق التاريخ القديم والحديث معاً، يمتزج فى أذهاننا، بروائح الحاضر التى لم تكن نقية تماماً، الناس يعيشون الآن وليس فى تصوّرات التاريخ كما تتراءى لنا، ما لهم هم وهذا التاريخ؟ يعبرون تحت العقود الحجرية الضخمة، أمام الجوامع وبجانب الحيطان الشامخة، تحت المآذن السامقة والقباب القديمة، عربات الكارّو مركونة على أبوابٍ خشبية مقوّاة بحديد صدئ ومسامير غليظة «إوعَ يا فندى.. إوعى يا ست الكلّ.. اللهمّ صلِّ ع النبى» من السائقين وهم يشقّون طريقهم - حرفيّاً يشقّون السكة - بين المارّة وباعة البلح والجوافة والقهوجيّة والشغّيلة فى دكاكين البقالة والورق الدَشْت والمواعين والعصير والعرقسوس والمنجة فى البرطمانات مدوّرة البطن والسندويتشات والبُمبار والسِبَح والعطور والبخور والموازين والسِنَج والصاغة فى الدكاكين الضيّقة المظلمة والغائرة فى الحيطان، يطرقون ويعصرون وينادون ويفاصلون ويعتلون ويحطّون ويشربون القهوة على موائد معدنيّة مدوّرة صغيرة لها قوائم رفيعة غير مستقرة على أرض الرصيف، لا يعرفون إلا يومهم وشغلهم وهموم العيش ورزق العيال، ولا يتشوّفون إلا إلى حَجَرين من المعسّل وشفطات الشيشة وإذا فتحها ربنا نَفَسين الحشيش مع الصُحبة الجدعان ثم العودة إلى أجساد نسوانهم ليلاً والغوص فى عجينها الدسم أو لحمها الضاوى سواء، والانكفاء حتى طلوع الفجر، الوضوء والصلاة والتوكّل ليستعينوا على الشقا بالله، من جديد.

مـا لهم وتاريخـهم وتاريخنا ، يعـيـشـون يومـهم إذا اسـتطاعـوا أن يعيشوه.

قلت : ربما ، لكن تاريخهم وتاريخنا كـامنٌ فـيـهم سـواءً أدركوه أو لم يدركوه، هناك رصيـد ، كنز حضـاريٌ عريق فى عـمقٍ ما من وجودهم هذا الذى يقضونه يوماً بعد يوم كيفما استطاعوا.

قلت لنفسي : ألا تتخلى أبداً عن هذه المثالية الرومانسيّة ؟ خلِّك إلى جانب الواقعيّة والملاحظة التجريبيّة، الموضوعيّة.

قلت بانفعال مكتوم :

- ليس هذا شطحاً مثاليّاً بل هو واقع ، موضوعيٌ إذا شئت ، يفوق كل الوقائع التى تُوزن بالموازين الحسّاسة أو توضع فى أنابيب الاختبار فى معامل الأبحاث الكيمائيّة ، هناك واقع بالفعل يأتي وراء الفيزيقا العلميّة ، ربما ليس ميتافيزيقيّا ، ولا غبار على هذه الكلمة ، هذا المفهوم ، ولكنه أقرب حضوراً من كل فيزيقا محسوبة .

قلت : لا . . أنا فى النهاية رومانسيٌ وسنتمنتالى ابن كلب . . !

أما فى تاريخى القريب ، فقد رجعت ، بقوة ، إلى الروسيّينْ اللذين عرفتهما فى معتقل أبو قير ، وارتكبت فى حقّهما جريمة تجسُّس .

حلّت بهما تقلبات الحياة فى أرضٍ تصوّراها أبعد ما تكون عن البلشفيّة والبلاشفة ، ولكنهما بعد ثلاثين عاماً أو تزيد وقعاً فى الحبس مع شيوعيّين من كل صنف ولون ، مصريين وخواجات .

أناتولى صامت مكتنز الجسم منطوٍ فى حاله هو صاحب قصائد الحب بالفرنسيّة ، والآخر صديقى أليكسى ، عجوز ناحل صلب العود ، أشيب مازال شعره كثيفاً ، كِتّانة بيضاء ، ورفيع الصوت من العَجَز ، كنت قد بدأت أتعلم منه الأبجدية الروسى والكلمات الأولية والقواعد الأساسية ، وسوّدتُ كراسات بها ، كنت أحلم بأن أقرأ پوشكين وباكونين وديستويفسكى وتروتسكى بلغتهم الأصلية . . لم نكمل بطبيعة الحال ،

وفقدت الحلم كما فقدت أحلاماً كثيرة، مثل كل الناس، عندما نُقلت إلى معتقل الطور وأفرج عن أليكسى لست أدرى متى وإلى أين.

فى لواندا التقيتُ بأليكسى مرة أخرى.

كان من الوفد السوفييتى إلى مؤتمر التضامن الأفريقى الآسيوى مع أنجولا، بعد استقلالها عن البرتغال بعام واحد.

الخالق الناطق أليكسى.

أبيض الشعر متهضّم الوجه عظميّ القامة لا يتكلم إلا الروسيّة، ترجم له أنڤير ڤاليبكوف - أو «أنْوَر والى بك» إذا أعيد اسمه إلى أصله بالعربيّة - عندما قلتُ إننى عرفتُ منذ سنين شبيهاً له، كأنه أخٌ توأم، فى المعتقل فى إسكندرية، فقال لى إنه من مخضرمِى ثورة أكتوبر، كان صبيّاً عندما حارب فى صفوف الجيش الأحمر تحت قيادة ليون تروتسكى، قالها بصوتٍ خشنٍ غير هيّاب فيه نوع من استماتة الشيوخ الذين لم يعودوا يخافون شيئاً. أما أنور فقد ترجمها لى - بالعربيّة - هامساً، كان اسم تروتسكى - مجرد الاسم - مازال محظوراً على عامّة الكوادر فى الحزب، وعامة الناس من باب أوْلى، ولكن ڤاليبكوف كان من النخبة، وكنت أجادله أحياناً - باللغة العربيّة - وحدنا، دون شهود، عن الديمقراطيّة والمركزيّة، وعن الانشقاق التروتسكيّ الذى كنت أعتبره هو الأصل وأن المنشقّ هو ستالين، وعن محاكمات موسكو ١٩٣٦، وعن طرد كامينيف وزينوڤييف وانتحار لونا تشارسكى وماياكوفسكى وإعدام بوخارين إلى غيرها من القضايا التى عفا عليها الزمن وكنسها التاريخ، وأقول لنفسى: هذا ما يبدو الآن فقط، أما فى جوهر المسألة، فمن يدرى؟ لعل هذه القضايا مما لا ينالها الزمن..

بعد انفضاض المؤتمر، فى ٤ فبراير ١٩٧٦، وإقرار البيان العام، خرجت أمشى على الكورنيش المطلّ على الأطلنطى، فى مغارب آخر صيف لواندا، وعادت إلىّ تمشيتى مع مدحت شعبان ذراعاً فى ذراع على

مغارب الإسكندرية في ١٩٤٨ .

كان كل شيء في كورنيش لواندا هادئاً ، موحشاً ، خاوياً ، والمحيط ساجٍ غاف يترقرق موجه في دفقات خافتة أحسها أبديّة لا شأن لها بالتاريخ ولا بالزمن .

أنفاس الأطلنطي ذلك المساء على كورنيش لواندا كانت تعيد إليّ نسمات رخيّة تهبّ على وجهي المتقد بالحنين والحصار والإحباط تأتيني مثقلة أيضاً ببلل اليود وجفاف صحراء «أبو قير» معاً ، والأحاديث الطويلة بالقرب من الأسوار الشائكة ولكن من غير أن نقترب منها جداً ، مع صديق راحت به الأيام .

ومع ذلك فقد ظل مدحت على وفاء نادر ، يحدثني على الأقل بالتليفون في مناسبات يراها جديرة بأن يحدثني فيها ، كأن ثم خيطاً من الحبّ مهما دقّ وخفّ لا ينقطع ، وإن انقطعت كلّ صلة مباشِرة .

هل كنت أزور مدحت شعبان في بيتهم القديم في ڤيكتوريا ، قبل المعتقل أم بعده ؟ كان شارع أبو قير أيامها خاوياً ويبدو لي فسيحاً ، حتى أصل إلى البيت المبنيّ من دور واحد ، عمله أبوه من أيام الملك فؤاد ، حجر أبيض عريض وجنينة فيها أشجار برتقال وتوت وارف وكافور عملاق ، أثاثه تفوح من خشبه رائحة القدم ، القطيفة على الفوتيّيات والكَنَب ناصلة قليلاً ولكن ألوانها قوية .

عندما تزوج بعد ذلك خلّف بنتاً وحيدة هي بدورها خلّفت بنتاً وحيدة ، ماتت زوجته بسرطان قاسٍ ومهما انهمك في مختبراته ومحاليله الكيماوية وموازينه الحسّاسة ، ومهما شغل نفسه بها فقد حدستُ أنه ظل وحيداً ، ومفقوداً .

ثم انقطع عن الردّ عليّ كلما عيّدت عليه أو سألت عنه ، زارني مرةً يمكن أو مرتين ، وانقطع ، واكتفى بالحديث النزر النادر بالتليفون .

كأنما ظل يخامره حسّ بالإثم .

هل بعنا إيماننا؟ بكَمْ؟ باللقمة والهدْمة؟ هل خذلنا أنفسنا؟ أم انشعبت بنا الطُرق، وكان لكلٍ منا طريق؟

كانت السيارات القلائل تمرق على الكورنيش، دون صخب، دون تزاحُم، النخيل السلطاني يميس سعفه، لواندا، الأنفوشي، الجزائر، كازابلانكا، هاڤانا، البيوت الفسيحة الصامتة والغرف العالية والشبابيك العريضة المطلّة على قوارب الصيد المركونة في سِيف الماء، شِباك الصيادين مفرودة عليها، والسور المنخفض قد خفّف من صوت العالم، وشيش الأمواج الصغيرة ترتمي تحت الحجر بوداعة لا اطمئنان إليها مع ذلك، أنوار الجيران في بيوتهم المكنونة تنكشف أمام أعين المحبّين، وتظل محفوفة بالسّر.

الفصل التاسع عشر

في العنبر رقم ٧ جوّدت لغتي الفرنسية، طلبت من أمّي أن تأتي لي بكتب الأجروميّة والتمارين الفرنسية وأعداد «الريدرز دايجست» أو «السيليكسيون» بالفرنسية، والقاموس الصغير الذي اعتمدتُ عليه فأقام عمادي، هو قاموس «بيلو» الصغير المطبوع عام ١٩٣٦، مازلت محتفظاً به، بإعزاز، ومازال أثر البلل واضحاً فيه إذ غرق معي في ترعة المحمودية عندما كنت في العاشرة أو الحادية عشرة ورجعت من أول يوم لي في المدرسة العباسية الثانوية ومعي الكتب الجديدة والكراريس ومنها هذا القاموس وعندما وثبت بين المعدية وشط الترعة، سقطت بينهما في الماء، وشهقتُ ورسبت إلى القاع الضحل العكر وامتلأ صدري بالماء، ولكني ظللت متشبثاً بكتبي وكراريسي بيديّ الاثنتين لم أفلتها، وبالفعل في تلك اللحظة الهاربة عرفت ما يقال عن اللحظة الحاسمة إذ يمر شريط ذكريات العمر كله، حافلاً وكثيفاً وليس فيه فجوة، بسرعة خارقة ليس فيها زمن في الواقع، وعندما شدّوني - ببساطة - من الماء الضحل كانت ملابسي وطربوشي وكتبي تشرّ بالماء.

كنت كلّ يوم أحفظ الكلمات والقواعد بعد أن أستيقظ من النوم مبكراً صباحاً، وأراجع ما حفظته بالأمس، وأكتب كعادتي المفردات والعبارات الجديدة على شرايط طويلة من الورق لعلها إذا جمعت إلى بعضها بعضاً بلغت كيلو مترات عدة.

وإذ أراجع المفردات اللغوية لا أملك - كأنما رغماً عني - إلا أن أسترجع مفردات حياتي حتى تلك الأيام.

من مغالبة اليأس الذى تصورته نهائياً وحتمياً بعد قصة حب المراهقة المعتاد، من طرف واحد - قلت: كان بالفعل نهائياً وحتمياً، ولم يكن معتاداً - إلى موقف التحدى المستمر العنيد لما استقرّت عليه مواضعات عائلية قبطية من طبقة وسطى دُنْيا أقرب إلى طبقة الكادحين، يُخيّم عليها ظلّ النذور والنُذُر الأرثوذكسية، من معاناة وحدة لا شفاء منها إلى الاستغراق فى ومضات جماهيرية طويلة فى غمار المظاهرات الوطنية الحارة أو فى خضمّ عمل ثورىّ لا هوادة فيه، مع العمل الجاد لكسب لقمة العيش والعمل الجدىّ فى دراسة الحقوق، كلها فى وقت واحد، كيف كنت أجد هذا الوقت؟

قلت كنت أجد المعنى والقيمة - كلاهما، وهما أمران مختلفان وإن كانا متصلين - فى الوقوف أمام طغيان القهر وأنا أعمل فى قلب إحدى مواقعه، وأمام قمع السلطات وإرهاب الدولة، مع أننى أَدْرُس قانونها وإجراءاتها وشرائعها.

اشتعال شرارات الثورة الشعبية كانت هى اشتعال شرارات القلب، ومجابهة هجمات العساكر منذ كنت فى العاشرة أهتف بسقوط وعد بلفور حتى بالأمس القريب فى غاراتهم على العنبر رقم ٧، وحتى الآن.

مفردات حياة ليست سهلة - كأقلّ ما يقال - من اليأس إلى ضوء الأمل ومن الوحشة إلى حرارة الرفاقة، ومن التحوُّط والتوجُّس إلى بهجة التحدّى والمخاطرة، من الاستسلام القلق لسطوة النص المقدس ورهبة النذير وثقل الحس بالإثم والخطيئة إلى الشكّ فى غيبيات أساطير القبائل البدائية ثم دحضها ونفض أصفادها عن كاهلى، من الانطوائية إلى ازدهار الصحبة الإنسانية والمشاركة فى مغامرة صناعة المستقبل، من الصمت أو تمتمة الشعر الرومانسىّ المكبوت إلى ضرب قواعد التفعيلة وفصاحة الدعوة إلى الثورة، من تشبث مستميت بمثالية مستحيلة إلى فهم قصور الواقع ومحدوديتّه ولا أقول قبولها أو التسليم بها، ومن

كتمة الانغلاق على الذات وتعاساتها وكوابيسها إلى انفساح أفق العمل والحلم الفتىّ العفىّ القادر - أو الذى تصورته عندئذ قادراً بل فاجر القدرة - من وهم نقاء القلب إلى لوثات الجسد، من الأبيض الناصع أو الأسود الحالك إلى إدراك أن الثنائية خادعة تُخفى تعددية النقاء والالتباس والخطوط الرمادية المضطربة دائمة الحركة والتقلب بين الصفاء والعكارة، من مرارة الحس بالهزيمة والحبوط إلى قبول النكسات المؤقتة فى سياق تيار صاعد - هكذا تصورت - مضطرد الارتفاع درجة أخرى فأخرى حتى لو اعتراه الارتداد والنكوص، فالنكسات ليست منتظمة التوقيت ولا متوافقة الحدة بل هى مفاجئة، ونقيضيّة فى ذاتها، ومعقدة، بخصائص الشىء العضوى الحىّ وهى بذلك تفلت من إسار توصيف النكسة وتنتقل إلى ساحة حرية الممارسة ومجالدة العوائق ودحر العقبات.

مفردات متعاقبة وأنا أحدّق فى سقف العنبر رقم ٧ بعوارضه الخشبية بنّية اللون متينة العضل أعرف أن فوقها مثلّث القرميد الأحمر الكابى.

لم أكتف باسترجاع هذه المفردات.

بشكلٍ ما عقدت العزم على نوعٍ من تسجيل - إن لم أقل تخليد - مفردات وتطورات حركتنا أو حلقتنا الثورية.

الورق الخفيف الذى كتبت عليه مفردات اللغة الفرنسية ومعانيها اقتطعت منه شرائط أخرى، رقيقة، كتبت عليها بقلم رقيق السنّ، وبخط منمنم يكاد يكون ميكروسكوبيّاً تاريخ الحركة الثورية بالإسكندرية، أم هل كان ورق «بافرا» الذى يلّف به صابر دخانه من علبة «الغزالة» ويصنع به سجايره؟

فى نوع من الحلم الصاحى بأن الوثيقة ستظل شاهداً تاريخياً ومرجعاً ثميناً أودعت أسطوانة الأوراق الخفيفة أسطوانةً معدنيةً كانت تحتوى دواءً يتناوله فريد بانتظام لعلاج آلام المعدة التى تعتريه فجأة فيوشك أن

يصـرخ من المغص وهو يتلوى على فـراشـة حـتى نذيب له المسـحـوق الأبيض المصفرّ قليلاً فى نصف كوب من الماء.

فى هذه الأسطوانة من الصـفيح، عـهـدت إلى المسـتقبل المجهـول - ولكنه فى تصورى قادم لا ريب فيـه - بأسمـائنا وملخّصات اجتـماعاتنا وقـراراتنا وتفـصـيل غيـر مسـهب جـداً عن خـلافاتنا وتحليل سـريع لشخصيـاتنا وتصوّر لدوافعنا النفسية والاجتماعية والطبقية وأخيراً برنامج عملنا ومطالبنا الثورية وتخطيط للنسق الاجتمـاعى الجديد القائم على سلطة الشعب، سلطة فى طريقها الحتمى إلى الاضمحلال والزوال فلا يبقى للقهر أثر أياً كان وضد أيٍ كان، وتشرق لحظة الحرية التى لا نهاية لها مهما كانت المشكلات التى عليها أن تواجهها.

انتـهـزت لحظة الغـروب وبعد طابور السـانْك السـانْك مباشرة حين تخلو السـاحـة الرملية أو تكاد، ويطمئن المعـتقل إلى أن كل شىء فى نصابه وتتراخى يقظة عساكر الحرس فى أبراجهم، مشيت ببطء إلى جوار حائط الشكنة، أخترتُ بقعـة فى الركن الأيسـر على الباب تحت حجر منقور قليلاً، علامة لا تخطئها العين فى المستقبل حينما تنتصر الثـورة، ويستـعـاد تاريخ الكفـاح، وجلست على الأرض مـسـتنداً إليـه كأننى أستروح نسمة هواء قبل العشاء.

حفـرت بيدى فى الرمل إلى جانبى وأنا أحدق إلى السمـاء - كأننى أعبث بالرمل فقط فى لحظة سرحـان - حتى وصلت إلى عمق رضـيت عنه، أخرجت الأسطوانة المعدنية محكمة الإغلاق من جيب الشـورت، دفعتـهـا إلى قـاع الحـفـرة، وأخذت أهيل الرمل عليـهـا، وأسـويه ببطء، كأننى مازلت ألعب، دون عمد إلى شىء محدد بالذات.

هل كنت صبيانياً جداً؟

أم اهتديت إلى وقائع مماثلة، حقيقية أو متخيلة، مما جرى فى مسار تاريخ الحركات الثورية؟ لعل ما فعلت كان صورة كاريكاتوريّة لما يحدث

عند وضع حجر الأساس فى المنشآت الكبرى، إذ توضع صحيفة اليوم مثلاً وقطع من العملة إلى آخره حتى تظل شاهداً على التاريخ.

كاريكاتوريّة ربما، نعم. لكن ما أكثر ما تبدو الأفعال التى غيرت وجه العالم كاريكاتوريّة، وحمقاء لو أنها فقط أخفقت ونسيها التاريخ، عندئذ تبدو صبيانية وحمقاء. أمّا لو كتب لها النجاح فإنها تصبح مجيدة وبطولية.

أو هكذا عزيت نفسى بتعلات ومعاذير.

من يدرى ماذا حلّ الآن بهذه الأسطوانة المعدنيّة المدفونة فى إحدى بقاع رمل أبو قير؟ هل صدئت وتحلّلت وتهرّأ التاريخ؟ أم عثر عليها طفل أفرغها من التاريخ ولعب بها قليلاً ثم ملّها ورماها؟ أو فى النهاية، مازالت قابعة، مدفونة، متفجرة بحياة كامنة ومكبوتة فى انتظار القيامة - التى لن تجىء - والصعود المؤجَّل أبداً على سُحب المجد والضياء؟

كان إسكندر عوض قد وعدنى باللقاء فى بار الكراستة فى الرابعة والنصف بعد الظهر. كنت قد رأيته يسير إلى جانبى، ويهتف بحرارة «الموت للإنجليز».. «يسقط الاستعمار» فى مظاهرة شارع سعيد الكبيرة التى رأيت فيها صبياً يموت برصاص «التومى جَنْ» ويحمله الناس وهو ميّت على الأكتاف وقد اقتطعوا أعلاماً بيضاء من جلاليبهم وقمصانهم خضّبوها بدمائه، يلوّحون بها، فى حميّا الغضب ودفقة الدماء فى طلب الثأر، حتى أحرقوا الشكنة الصغيرة فى قلب محطة الرمل، وأحرقوا الجنديين البريطانيين فيها، أحياء.

جاء إلىّ فى القهوة الصغيرة التى جلست فيها أشهق وأشرب كوب ماء، بعد أن انحسرت موجة الأحداث، وعرّفنى بنفسه وقال إنه وطنى ويحب الوطنيين وكان يخيل إلىّ أننى أعرفه بشكلٍ ما ولكننى لم أتذكر أبداً. قال إنه يكتب شعراً ثورياً عندما قرأته وجدته ساذجاً ولغته العامية

لا حياة فيها، فيه أصداء من بيرم التونسى وحسين شفيق المصرى وأبو بثينة معاً، عن غُلْب ومَجْدعة أولاد البلد، قال إنه يشتغل عند أرمنى يملك فابريكة بصطرمة صغيرة فى كوم الناضورة.

عندما كنت أذهب للقائه فى المحل المظلم الذى تدور فيه مكنة عتيقة ذات سكين حادة ضخمة دوّارة أرى كتل البصطرمة النيئة المدورة معلقة على الحبال كالغسيل تجف وتستوى فى الهواء والشمس على التل الترابى قليل الارتفاع، فوق سقف المحل الداخل فى الربوة، والأعلام الملونة وكرة كبيرة سوداء معلقة فى أعلى كوم الناضورة. وكنت أكلمه عن الوطن ودور الطبقة العاملة وعن الحرية وقيمة العمل وفائض القيمة وعن ثورة أكتوبر وثورة سنة ١٩١٩ وعلاقة الأدب بالثورة، وأن معنى السوفييتات هو اللجان الشعبية المستقلة القادرة على تسيير العمل فى المصانع والمزارع وكل مكان، حتى فى الجيش والبوليس الشعبى. وكان فى مثل سنىّ وقال إنه لم يكمل دراسته فى مدرسة النيل الثانوية بغيط العنب لأن أباه كان عنده فابريكة صغيرة فى غيط العنب وأفلس ومات. ومع ذلك لم أتذكر أننى رأيته وهو طفل مع أبيه فى السيرجة فى آخر غيط العنب عندما كنت صغيراً تذهب بى أمى وهى فى الملاية اللف والبرقع الشبيكة إلى مخزن الزيت السيرج.

أخذت ترام الورديان، وكانت عربة الترام تتأرجح قليلاً فى اندفاعها. وكان شارع السَبَع بنات خالياً تقريباً فى حرّ الظهر، ورطوبة البحر تأتى إلىّ من نافذة الترام المفتوحة، ونزلت بعد كركون اللبان بمحطتين. وكان الشارع مرصوفاً بأحجار البازلت السوداء المحدبة قليلاً وعلى جانبيه مخازن الخشب والقطن عالية الحيطان، والورش الصغيرة، ومخازن الخيش والبصل، وعربات الكارّو الطويلة واقفة تحت الجدران المصمتة الخشنة قوية الحجر، وكانت رائحة الفحم ونفايات البحر خفيفة وجافة قليلاً، تأتى من ناحية الميناء تحملها بُلولة الهواء.

تحت البار فى منعطف داخل شارع جانبىّ، اللافتة الخشبية على بابه مازالت حروفها الإنجليزية «سمك وبطاطس» Fish & Chips مقروءة وإن كانت مطموسة تحت بقع مضطربة بالطلاء الأسود الذى لطّخها به الطلبة الوطنيون بلا شك، وقد أقلع جنود الحرب الذين كانوا يملأون هذه النواحى بعربدة اليأس والقهر والموت.

دفعتُ الباب الخشبى القصير المكون من ضلفتين متحركتين تستطيع أن تطل من فوقه على داخل البار هادئ النور، والمرايا على الحوائط مرسومة بإعلانات فيها زجاجة «كونياك أوتار» كأنها مجسّمة داخل المرآة، وخلفها كتابة بالذهبى الباهت على أرضية سوداء مشقّقة، والمرايا المقابلة تتراسل بزجاجة «الأوزو» و«براندى جناكليس» و«ويسكى الحصان الأبيض» وكان البلاط الأسود الذى يكسو أرض البار باهتاً قليلاً والموائد الخشبية المربعة مصفوفةً تحت الحائطين القريبين أحدهما من الآخر، ومنصة البار مغلقة بشبكةٍ نازلةٍ من الحديد، فى نهاية المحل، وبجانبها باب خلفىّ صغير.

كان إسكندر عوض قد قال لى إن البوليس لا يمكن أن يشتبه فى اجتماع ينعقد فى بار صغير فى باب الكراستة، وقال لى إنه سيُحضر معه ملاحظ عمال من رصيف الفحم وإنه ولد مجدع ومثقف أيضاً، وإن الحركة يجب أن تكون موجودة فى عمال الميناء، وإننى لو أحضرت معى شيئاً، بيانات مثلاً ليتها تكون جديدة وبخطىّ، أو مجلات أو كتباً، ليقرأها الزميل الجديد ويقول عما فيها للعمال الآخرين فى الميناء يكون هذا شيئاً عظيماً ويدفع الحركة إلى الأمام، وشدد علىّ فى هذا، وكنت مع ذلك أتوخى معه الحذر الكامل وقواعد الأمان ولا أتحدث معه إلا بكلامٍ عام وأحرص ألا أشير إلى اسم محدد أو مكان معروف أو أىّ ميعاد لأىّ نشاط، ولم أقل له حتى عن اسمى وكان يعرفنى باسمى المستعار: يوسف.

وعندما دخلت رأيته فى عتمة آخر البار ومعه امرأة.

كان وجهه الطويل المتهضّم لامعَ السمرة تقريباً فى نور بعد الظهر الكابى وكان الجو فى البار الخاوى منعشاً ببرودة خفيفة من البلاط والظل الرطيب بعد شمس الشارع.

قام إسكندر عوض يسلم علىّ، وقال لها: الباشمهندس يوسف اللى كلمتك عنه. وهو يومئ إليها برأسه، ثم همس إلىّ: زيزى، ما تخافش، هى عارفة، هى معانا بكل قلبها ومع الثورة وحياة المسيح.

مدت إلىّ يدها وهى جالسة، من فوق المائدة، بين زجاجتى البيرة الاستيلا وأكواب البيرة الطويلة المكتوب عليها بالإنجليزية «زوتوس» وأحسست يدها رخوة وباردة وليس فيها عصَب، كأنها سمكة بأصابع طويلة تنتهى بالمانيكير الأحمر القانى، تلبس فستاناً ناعماً بلا أكمام وفتحته الواسعة تحت الذراعين تكشف جانباً من صدرها، وتحت الزغب الأصفر الخفيف الهشّ جداً على ذراعها الممدودة إلىّ فى النور الخفيف.

قالت، مباشرة، فى هجوم جنسىّ واضح ومستقرّ وطيب القلب، من أول وهلة:

- يا أهلا بالباشمهندس الحليوة الصُغيّر بتاعنا، اتفضل اتفضل يا حبيبى..

أحسست الدم يملأ وجهى ويطنّ فى أذنى ولكنى قررت أن هذه التحية ليس فيها ما يُضير بكرامتى وأن البنت على العكس تتحبب إلىّ، فغمغمتُ بكلمات مدغمة، وانفجرت هى فجأة بضحكة صافية وبريئة وليس فيها أدنى شبهة من مهنتها.

كان هناك جزء صغير جداً بارز إلى الأمام من شفتها العليا الرقيقة، يُظلل أسنانها الصغيرة البيضاء، وشفتها السفلى مليئة، على العكس، ونازلة تعطى وجهها إيحاءً شهوياً صريحاً، لكن شفتيها كانتا بريئتين تماماً مع ذلك، وبلونهما الطبيعى ليس عليهما طلاء، وشممت عطرها

الجاف الرقيق عندما مدّت ذراعها إلىّ، وكان وجهها يقول إنها صَحَت من النوم متأخرة جداً، عيناها منتفختان قليلاً وفيهما نظرة ثقيلة، وتُوحى بأنوثة كثيفة وحنو كثيف.

قال إسكندر عوض: تشرب إيه يا باشمهندس؟

صفّق وبرز من عتمة آخر البار جرسون يونانىّ عجوز تحرّك برشاقة وخفة، يضع فوطة بيضاء على كتفه فوق الچاكت الاسموكن السوداء، وبنطلونه ضيق وطويل مخطط، ووجهه مُخَدَّد نظيف التجاعيد وعيناه مدفونتان.

كنت پيوريتانيا جداً فى تلك الأيام، لا أدخن ولا أشرب إلاّ نادراً، ولا أعرف النسوان، ولكننى على سبيل التحدّى طلبت براندى، وفى ثانية كان الجرسون اليونانىّ يضع أمامى الكأس المفلطحة وثلثها يترقرق بالسائل الأصهب ثمين الشكل.

قلت له ماذا حدث؟ ولماذا لم يأت صاحبنا؟ فقال إنه لابد سيأتى حالاً، وهل أحضرت معى الورق والأشياء؟ فلم أردّ عليه، واقتربت زيزى منى بوجهها الأبيض المثقل وحاجبيها المقوسين الرفيعين جداً وسألتنى، متودّدة، أين أشتغل؟ ومن أين أنا فى إسكندرية، ورددت عليها بكلام عامّ، وكان صدرها المحبوك المستدير مستنداً إلى المائدة متكوراً فى داخل الفستان الخفيف الذى يكشف عن قميص داخلى أسود له شرايط من الدانتيلا يلّم الصدر الوافر الذى يبدو دسماً ومتحفظاً وبِكْراً وفيه تأكيد خفيف للمرأة لا للأنثى. وكنت قلقاً وغير مستريح هى تتحدث عن الأحوال والشغل الذى أصبح خفيفاً ولا يساوى التعب والبهدلة، وأحسست ساقها من تحت المائدة تمس ساقىّ، وكان البراندى قد نزل حاراً إلى قلبى وأحسست بالصلابة والتوتّر الحميم بين ساقىّ، ثم قامت فجأة، ودارت حول المائدة ورفع إسكندر وجهه إليها مندهشاً متسائلاً، ومدت إلىّ يدها وقالت بهدوء: تعال معى.

دارت بى خواطر مفاجئة، وتجسمت فى ذهنى ثم اختفت على الفور صورٌ مخطوفة من سافو دوديه، ونانا زولا، وغادة الكاميليا، وغرفة زيزى التى تخيلّتها علويةً على سلالم من وراء الباب الخلفىّ الصغير، وستائرها خفيفة شفّافة تطلّ على البحر وعلى باب القلب المفتوح وهَوَس الجنس وعربدته، ومناعم الجسم كما رأيتها، أول مرة، فى الراقصة البلدى، عارية، وأنا فى الثانية عشرة، فى فرح بجوار بيتنا فى محرم بيه، وارتعبتُ من احتمال الإصابة بمرض سرّى، وفكرت أننى لا أحتمل أجرة العلاج، ونفيتُ ذلك كله عن نفسى ولم أكد أخطو معها أوَّل خطوة، وكأنما حَدَسَتْ ما بنفسى فابتسمت لى عن أسنانها الصغيرة بغموض وغواية، فهل كانت غرارتى وعنفُ براءتى هى ما أغواها؟

ولكننى كنت صاحياً جداً مع ذلك، وأنا أقوم معها، والتفتت هى إلى إسكندر عوض بحسم، وقالت: إيه يا سى إسكندر؟ وانت مالك؟ خليك انت هنا يا نور عينىّ.

كانت يدى فى يدها وهى تخرج من الباب الخلفى الصغير خلف البار، ونزلنا درجتين حجريتين زلقتين من البلل وعشيت عيناى قليلاً من بهرة نور بعد الظهر، ووجدت أننى معها فى طُرْقة مبلّطة بين حائطين عاليين، وصفائح الزبالة وصناديق البيرة المليئة بالزجاجات الفارغة إلى جانب الحائط، وكانت الشمس تنزل ساخنة بين الحائطين المسدودين، وباب حديدىّ أسود صغير مكتوب عليه بالأبيض GENTS بالإنجليزية، ممسوحة وفوقها صورة بيضاء لرأس عليه خوذة عسكرية مُدوَّرة.

نظرتْ إلىَّ وأنا واقف متحيراً فى الطرقة وقالت، غاضبة وحارّة بهمس خشن:

– إمشِ من هنا، يالله روَّحْ من غير ما تسأل، إمشِ يالله يا حبيبى إمشِ.

ولكننى أحسست فمها على خدى، فجأة، فى قبلة خاطفة مُلحّة، ودفعتنى بيدها، برفق، وأقفلت الباب عليها، وسطع فى ذهنى على الفور أننى نجوت من الكمين وأن زيزى أنقذتنى من الوقوع فى يد البوليس متلبساً ومعى أدلة الإدانة، ووجدت نفسى أنهج قليلاً بعد المشى الجاد السريع، فى الترام العائد إلى المنشية، وعرفت معنى الأمْنِ بين الناس الصامتين، ولم أر إسكندر عوض بعد ذلك، أبداً، وبعدها بكثير تذكرته مرة واحدة، وعرفت أن الخيانة، والنقاوة، لهما طرق خفيّة.

طاف بذهنى كثيراً أنه كان يشتغل مع البوليس فكيف عرفوا طريقى؟ وهو طريق صعب الاقتفاء وعصىّ على قصّ الأثَر.

لم يكن إسكندر عوض الله يعرفنى، لكنه كان يعرف مينا إسحاق ابن عم امرأة خالى سوريال، وقد كان عاملاً فى مصنع كرموز، كلّمته مرة فاشتعل خياله بحلم الحرية والمساواة وكرامة الشعب، ولعله قد عرف أننى عهدت بكتبى ومجلاتى الثورية إلى امرأة خالى على سبيل الأمانة لكنها أحرقتها جميعاً فى الفرن الذى يخبزون فيه على سطح بيتهم. ولعل مينا قد ثرثر أو تحدث بحماس مع زملائه فى المصنع ولعله أشار إلىّ وتكلم عن محرقة كتبى وأوراقى، الاحتمالات متعددة وخاصة أن وكيل النيابة سألنى عنه ولكنه لم يسأل عن إسكندر عوض.

كان من المفهوم أن اسمى المستعار «يوسف» لم يكن سريًّا جداً وأنه بالعكس أصبح متداولاً بين فتوح القفّاص، وسلامة، وأحمد النمس، وإسكندر عوض.

أخطأت عندما وقعت خطابى إلى أحمد النمس «يوسف»، فلم يكن هذا الاسم مأموناً بعد.

لم ألتق بأحمد النمس بعد خروجى من المعتقل إلا بعد سنوات طويلة، وكأنما كنا قد أنسينا تلك الحقبة كلها. لم أسأله قط كيف وقع

خطابى فى يد المباحث والنيابة، مع أننى كنت قد طلبت منه أن يمزّقه أو يحرقه، هل كان قد قُبض عليه وفُتشت أوراقه؟

أليس فى مجرد هذه الواقعة تبرئة له من كل الشبهات؟ فإن كانت مثل هذه الوساوس قد هجست بى، فذلك محض رَجْم بالظنون يقوم أكثر من دليل على دحضها.

قال: تخيلات وشطحات الفانتازيا، أحداث لم تقع قط، لعلها كان حقّها أن تقع، ذكريات لا مرجع لها فى الواقع، لكنها ربما أحقّ وأصدق من أية ذكريات عن وقائع.

الفصل العشرون

اعترانى أرقٌ ذات ليلةٍ فى العنبر رقم ٧ .

كانت الليلة باردة، سمعت عصف رياح الإسكندرية خارج العنبر، يأتينى مكتوماً ومكبوحاً وأنا على حافّة الأرق، يضطرب زجاج النوافذ محكمة الإغلاق، وفى العنبر زهومة النوم القلِق، دفءٌ غير صاف وملبّد، غطيط شوارتز المختنق، نوم حمدى المستغرق المستريح، وتنهّدات حُلميّة من صدور ثقلت عليها الوطأة، لا أعرف مصدرها .

كنت أسأل نفسى، بصمت ومضض : «لماذ لم يُعتقل فتحى أبو شادى، ولا أحمد النمس؟» وفى أرق الليل المضطرب تهاجمنى شكوكٌ وضروبٌ من الرجْم بالظنّ لا أملك أن أردّها، مهما تعللت بضرورة العقلانية، وبدائل الاحتمالات التى لا تُحصى .

هل ذهب أحدهما أو كلاهما إلى السجن فى قضيةٍ مدبّرة ومُحكمة؟ أم أنهما . .

لا أسمح لنفسى أن أعبرّ بكلمات محددة عن هواجس وريب ما أشد قسوتها، عما يختلج فى الذهن المرهق المشعَّث .

فريد اسكاروس هو الذى عرّفنى بفتحى أبو شادى .

كان لفتحى أخ فَتَحَ صيدلية فى البيت الذى تملكه عائلة فريد، على مرأى من الكورنيش، عند سيدى بشر أمام «نادى السيارات الملكى»، ومن خلال لقاءات فى الصيدلية بين أقراص الأدوية المعلّبة الجاهزة وزجاجات الدواء المركّب، أيامها كان بالصيدليات زجاجات داكنة

اللون فيها سوائل وعقاقير وسموم وعليها بطاقات تطل منها بشكل مهدّدٍ وجَهْمٍ صورة جمجمة وتحتها عظْمتان وكلمة «سليماني» بالثُلُث ،كانت فيها مقصورة داخلية كأنها كهف يمارس فيه الصيدليّ تركيب سحره الخاص، بمقادير محسوبة مضبوطة، وعلى المقصورة باب زجاجي محبَّب مغبّش مكتوب عليه «خاص، ممنوع الدخول»، في هذا الجوّ بدأ فريد يتحدث عن مشاكل الأدوية واستشراء الأمراض وسوء سياسات الحكومة، وهكذا بالإطلاق في مسائل العلاج والفقر والحفاء، فإذا ردّ مصطفى أبو شادى بأن حكومة الوفد تختلف عن حكومات الأقليات الموالية للإنجليز وللقصر ، اتخذ النقاش حرارةً وتعمقاً في الرجوع إلى الأصول الاجتماعية وليس فقط الظواهر السياسية، وعندئذ أحس فريد أن فتحي يتجاوب مع هذا المنحى من التفكير.

كان فتحي أبو شادى عندئذ ليس عنده إلا شهادة «الثقافة العامة» وكان يشتغل محضر معمل العلوم في المدرسة العباسية الثانوية، وبتأثير من فريد حصل فتحي على التوجيهية، من منازلهم، والتحق بكلية الآداب، قسم الفلسفة والاجتماع، وأخذت حياته العقلية والثقافية تنمو وتتطور، وما لبث أن انخرط معنا في نشاط ثوريّ محدود، وكنت ألتقي به في بدروم البيت الذى حوّله فريد إلى شقة مستقلة تتناثر فيها الكتب الجامعية والشيوعية ويتجاور الفونغراف العصريّ مع القواقع البحرية البيضاء الضخمة دهريّة الشكل التى استنقذها فريد من رمال شاطىء سيدى بشر بعد أن تنحسر عنها أمواج الشتاء العاتية.

في أثناء ذلك انتقل فتحي من معمل المدرسة العباسية الثانوية إلى معمل كلية العلوم التى احتلت الموقع نفسه على ربْوَة العباسية في محرم بيه، وأخفى في المعمل كارتونة القنابل الثلاثة والغدّاره التى استنقذتُها من عند أحمد النمس ثم نقلتها إلى غرفة شارع الزهرة، ولعلّ هذه القنابل لعبت دوراً حاسماً في إيقاف اقتحام مصفحات ودبابات الجيش

التى كانت تصعد ربوة العباسية إبان ذروة حركتنا فى ١٩٤٦ .

فى شتاء ١٩٤٨ كان أوتوبيس ٢١ الذى أستقلّه من المنشية فى أوّل الليل، يذرع الكورنيش النائم الصامت، عاصفاً، خاطف السرعة شبْه خالٍ، يحمل الراجعين إلى بيوتهم وهم بين اليقظة والنوم، حتى إذا وصل أمام محطة البنزين التى يقع وراءها تماماً بيت فريد، أُحْكِم رفع ياقة معطفى الكحلى العتيد حول رقبتى ويصدمنى هواء البحر البارد فى هبّات متقطعة وأجرى أعبر الكورنيش وأنزل الدَرَج الصغير الهابط إلى البدروم، ملاذ فريد، عندما أدق على خشب الباب المتين - ليس هناك جرس كهربائى- بلهفة يفتح لى فتحى الذى كان قريباً ويعصف ريح البحر المتقلب بأوراق متناثرة على المكتب ويردّ فتحى الباب بصعوبة فى وجه تيّار قوىّ، وتعود للغرفة الأنيسة المضيئة أنفاس دفءٍ مطلوب وعزيز المنال، يصبّ فريد الشاى من إبريق كبير موضوع على موقدة كهربائية مستديرة متوهجة الأسلاك بحمرة قانية، فى فناجين متنوعة الأشكال ويُرحّب صدرى بالسائل المُحيى، سرعان ما ترتفع حدة المناقشات، كنت قد تحيّنتُ فرصة أو فرجةً فى الأحاديث العادية عن الجوّ وأحوال السياسة لكى أدخل إلى تفصيلات تاريخ ثورة ١٩٠٥ ثم ثورة ١٩١٧ وإلى دقائق الخلافات والانشقاقات والتنظيرات وأكاد أنسى نفسى فى غمار أمجادٍ وخَيْبات حقبة لم تكن بعد «تاريخية» عفى عليها الزمن، إنجازاتها واقتحاماتها وإحباطاتها، والأسماء التى لم تكن بعد قد غابت تماماً عن ذاكرة العارفين: كامينيڤ، زينوڤييڤ، بوخارين، راديك، لوناتشارسكى، ماياكوفسكى، كروپوتكين، باكونين، بيلنسكى، بليخانوڤ، بوجدانوڤ، روزا لوكسمبرج وليبنخشت وڤيكتور سيرج وچوريس .

كان مجرد استدعاء هـذه الأسماء يبعث الدفء فى روحى، فى العنبر رقم ٧ معتقل أبو قير، فى الليل البارد الموحش المُثقل باختناقات

مكتومة وأحلام موءودة، وأنا أُحكم لفّ البطانيّتين الصوفيّتين فوق الملاءة البيضاء التى أرسلتها أمى إلى المعتقل، حول جسمى المتوفّز بالأرق والنوستالچيا.

قلت: ليس مجرد الأسماء، بل حيوية الصراعات الفكرية وحدّتها، شجاعة اعتناق الرأى والدفاع عنه باستماتة، الإصرار العقلىّ المثالىّ العنيد أو المرونة التكتيكية السياسية، التصادمات والتحالفات والمغامرات والتحوّطات، فى حقبة آخر الأربعينيات كانت تلك كلها تبدو قريبة العهد بنا - حتى لو كانت من آخر القرن التاسع عشر وفجر القرن العشرين العاصف.

أقول: لَكَمْ تبدو الآن غائرةً فى القدم، بعيدة وتاريخيّة كأنها تقارب على نحوٍ ما الصراعات الثيولوجية فى القرون الأولى للمسيحيّة، الانقسامات والانشقاقات والعنف الروحى - أو العقلى - نفسه.

سأل فتحى أبو شادى: ألم يكن عندنا ثم ما يشابه هذه الحقبة؟

حاولت أن أجيب: من بعيد، نعم، ربما فى تلك السنوات الزاهرة البائدة نفسها، أوائل القرن وربما حتى الأربعينيات.

سوف أقول: وربما حتى أُجْهِضتْ «الديمقراطية» وارتفعت هتافات غوغائية بسقوط الحرية فى تلك الأيام العصيبة الحاسمة من مارس فى العام المدمّر ١٩٥٤.

قلت: نعم، ربما ولكن فى اتجاهات مختلفة وربما عكسية، اجتهادات رفاعة رفعة الطهطاوى، الشيخ الأفغانى على الرغم من كل الالتباسات المحيطة بمسيرة حياته، الشيخ الجليل محمد عبده، أنطوان فرح المناضل بلا هوادة، شبلى شميّل، إسماعيل أحمد أدهم صاحب «لماذا أنا ملحد» والردّ المهذّب العقلانى - إلى حدٍ كبير - من محمد فريد وجدى، سلامة موسى، وعلى نحوٍ ما جبران خليل جبران وأمين الريحانى وميخائيل نعيمة.

قلت: طه حسين شيخاً ومريداً ديكارتيّاً، لم يمعن فى نهجه المتمرد

حتى نهاية الشوط وآثر العمل على الفكر، ثُمّ الجنود المجهولون الذين عَفَى التاريخ على أسمائهم بقسوته المعهودة، مئات وآلاف ومئات الآلاف منهم عبر تعثُّر الناس فى طريقٍ لا نعرف له نهاية.

سوف أسأل: هل هو حقاً طريق دائرىّ، ينتهى من حيث يبدأ، ويعود فى دوراتٍ لا نهائية؟ أم أنها حسب التبسيط الهيجلىّ المأثور، دورات تصعد إلى أعلى - أو تقطع شوطاً إلى الأمام - فى كل مرة، أياً كان معنى هذه المصطلحات الميكانيكية على أية حال؟

قلت: لم تعوزنا - تماماً - مثل تلك الحيوية الفكرية والنضالية، لكن الخلفيّة الضرورية كانت تنقصنا، خلفية عصر النهضة الغربىّ، الإصلاح الدينى، سقوط أو تحدى سطوة النصّ اللاتينى المقدس، روح التساؤل الذى يضع كل شيء موضع الاختبار والتمحيص العقلى حتى النهاية،دعك طبعاً من وطأة الاحتلال العسكرى الإنجليزى - وكأنه احتلالٌ عقلىّ من عقابيل تدمير دنلوب للتعليم، جنباً إلى جنب مع تدمير الاقتصاد القديم وصيانة بل وتعزيز القيم القديمة فى الوقت نفسه.

الآن سوف أقول: ربما أيامها لم أكن أفتقر إلى اندفاعٍ - وربما شططٍ - عقلىٍ تحدوه حرارة الحماسة ووقدة الأشواق.

اصطدام رياح النوّة بنوافذ العنبر وهزيم الهواء كأنما حمل إلىّ اصطفاق الموج الغاضب ونحن فى قهوة الصيّادين فى القبّارى، فتحى أبو شادى، والريّس نونو الذى ارتبطتُ معه بصداقة وثيقة من أيام شغلى فى مخازن البحرية البريطانية فى كفر عشرى، ونحن نجهد أن نثقف الريّس نونو بفقه الثورة.

كان الريّس نونو يعتمر طاقيّة مشغولة بيضاء - غير قويمة البياض تماماً - يلف حولها ما يشبه عمامةً صغيرة من قماش ملوّن بنقوش يشبه قماش

الأكفان، وكان دائماً يلبس اللباس الإسكندرانىّ الأبيض واسعاً متهدلاً متعدد الطوايا ينتهي بمسكة حازمة لآخر الساقين قبل أن يصل إلى القدمين إذ ينتعل خفًا جلديا غالياً مغربىّ الشكل، بنيّاً فاتحاً، دون شراب.

يومها كان يلف حول عنقه تلفيحة صوف سميكة وچاكتة السَيرْج البحّارى داكنة الزرقة، من تراث المخزن رقم ٦ للبحرية البريطانية فى كفر عشرى، كانت الرياح تضرب حيطان القهوة فى القبارى، وزخّات المطر المتلاحقة لها صوت اصطفاق منتظم على الرصيف، وعلى بازلت الشارع الذى لحناه مبلولاً لامع السواد تحت السماء المحمّلة بأثقال من السحب القاتمة.

فى طريقنا من محطة الترام إلى القهوة أغرقنا المطر ولم أكن قد أخذت معطفى العتيد الواقى من المطر فابتلّت چاكتتى الصوف وحتى عندما رفعت الياقتين الجانبيتيّن وضممتهما على الجرْس لم يَنْجُ أعلى القميص من البلل، أحسست قطرات الماء تنهمر على وجهى، وكان فتحى يهرول إلى جانبى، طويل القامة نوعاً ما، نحيلاً جداً، مثلّث الوجه تقريباً، بذقن مدبّبة حادة، أراه مهتزاً من خلال غيامة من ماء المطر ونحن نبتسم كأننا نلعب، والماء يتدفق على جبينه الواسع المدوّر ومقدمة رأسه التى بدأ الصلع يزحف إليها تلمع من المطر، وعيناه غائرتان قليلاً فى محجريهما، فيهما شأنهما دائماً، لمعة ضيّقة حادة، بينما كنت ما أزال محتفظاً بكل كدشة شعرى الخشن القوى الصاعد مباشرة غير بعيد من عظمتىْ العينين.

كانت القهوة دافئة بعد أن تركنا مقاعد القش على رصيفها وقد أغرقها المطر وتخلل القش المضفور السميك وكسا الخشب بصقال سيّال، دهمتنا غبشة البخار الدافئ فى الداخل، بعد أن رددنا الأبواب الخشبية ذات الضُلف الزجاجية السميكة، أزيز بوابير الكيروسين على النصبة يفح علينا نرحّب بحرارته ويكاد يحمش جسومنا وهدومنا

الغارقة فى الماء إذ اخترنا جلستنا بالقرب منها بل تحتها مباشرة مع الريّس نونو الذى هتف بنا بلهجة أهل بحرى الإسكندرانية العريقة: أيوّه يا فندية دانتو غرجتوا تُجُولْش جايين عُومْ طب ياللاّ بينا نجعدوا جنب النار.

فى حموة المناقشة وحكايات السياسة والتاريخ والفقه الثورىّ الذى حاولت أنا وفتحى أن نبسّطه ونقرّبه وننأى به عن المصطلحات العويصة، وبين شفطات الشاى القاتم الحلو بسكّره الثقيل وخبطات الملاعق الصفيح بالزجاج المخضرّ من مصانع ياسين، لم نحس بمرور الوقت ولا بأننا نشفنا بالفعل، جفتّ هدومنا وتطاير بخار الماء منها، لم أكد أصدّق، هل هو دفء القهوة، مع لغط الصيادين وأحاديثهم العالية وضحكاتهم الخشنة ونداءات الواد القهوجى وفحيح بوابير البريموس وقرقرة الشيشة باضطراب مياهها مع الأنفاس القوية ونفح الدخان الأبيض الرقيق، ورائحة البحر الكامنة تنفثها أكوام شباك الصيد المفتولة بخيوطها القوية والأقراص السوداء من الفلّين المعلقة بها، مرمية على الكراسىّ القش تجلب إلينا عنف البحر وعمق أغواره وزهوة اقتحامه معاً، أم هو دفء حسٍ مكين بالرفقة الطيبة وأنس الناس وحرارة القلب العامر بالحماسة والجائش بالآمال الكبار؟

هل فى تلك الأيام أم بعد الاعتقال كان فتحى أبو شادى يحاول أو يعلّمنى خطوات رقصات الڤالس والتانجو والكومبارسيتا على أنغام الجرامفون النقّالى الذى ابتاعه لى، بالتقسيط المريح، أدفع له كل شهر مبلغ نصف جنيه بالتمام والكمال؟

كنت قد استبدتْ بى نزوة أن أجيد خطوات «الرقص الأفرنجى» حتى أراقص أوديت وآرليت ذات ليالٍ متخيَّلة قادمة لم تأتِ قط، ولم «أتعلّم» قط هذه الخطوات، كأننى - حتى بعد انهيار صروح الآمال الكبار أو ربما بسببٍ من ذلك نفسه - لم أكن قد تخلّيت عن إيثارى للموسيقى الكلاسيكية السامقة المركّبة العميقة بل ولّهى غير العاقل وغير الدارس

بها، ولا عن استخفافي - غير العاقل أيضاً - بهذه الموسيقات، الخفيفة في حدّ ذاتها على أية حال.

ترجمت عن الفرنسية مع فتحي أبو شادى - يعني أمليتُه ترجمةً فورية، لكتابٍ في فلسفة الرياضيات أظنه من تأليف پوانكاريه، ولا أعرف ما مصير مخطوطة هذه الترجمة وهل نشرت قطّ أثناء ترحال فتحي إلى المغرب يعلّم الفلسفة في مدارسه الثانوية، ورحلاته إلى فرنسا التي لم أكن قد عرفت طريقي إليها، وأهداني كتاباً ضخماً بعنوان بانوراما الأدب الفرنسي الجديد، تأليف جايتان پيكون، طبعة عام ١٩٤٩ عن دار جاليمار. تقطعت بنا السُبل، واصل فتحي أبو شادى طريقه في التدريس حتى وصل إلى غايته موجِّهاً أو ناظراً، تزوج وخلف ولدين، اشتغل أحدهما في البحرية التجارية وهاجر الآخر إلى إستراليا، ولحق بهما أخوه الأكبر ثم أبوه بعد أن ماتت أمه، وفي أرض المهجر مات ودُفن.

أحسست غصّةً في حلقي، وأنا ألفّ نفسي بإحكام أكثر، في الأغطية.

في الأربعينيات المبكرة كانت تهاجمني، على نحو متواتر، التهابات الحلق وتضخم اللِوز ووعكات الإنفلونزا.

كنت أيامها أخرج إلى البحر، كأنني أهجر المدينة وأهرب إلى «المطلق» الغامض، وفي الشتاء وهذه رياح الإسكندرية الهوجاء تضرب وجهي، وأنا لا أضع كرافته بل دائماً قميصي مفتوح العنق، حتى تحت الشِيرْز والچاكتة، أواجه البحر وأنزل تحت الكورنيش لأسير مع الشطّ الذي كان صخرياً في مواقع ورملياً في مواقع أخرى، برّيا يكاد يكون وحشياً في أماكن، ومدجّناً مُروَّضاً منسقاً في مواقع أخرى، قدماى تخطوان على صخور زلقة حيناً بالطحالب الخضر، وصلبة متحدية حينا، مزبدة برغوة الأمواج التي تأتي باستمرار تغازل وتراود وتقتحم الرمال والصَخَر وكأنما تريد أن تغزو الشاطئ وتتغلغل إلى قلب الجفاف المعادى.

النتيجة طبعاً، أن أسقط فريسة لنوبات متعاقبة من البرد والرشح

والإنفلونزا واحتقان الحلق.

في غرفتي في شارع ابن زهر، وأنا ملفّف بالملاءة تحت اللحاف والبطانيّة، أرتعد من رعشة الإنفلونزا على سريري العريض الذي يقع إلى جانب الباب الزجاجي الفاصل بين غرفتي وغرفة نوم أبي، أجالد التهاب اللوز الذي كان يعالَج عندئذ بأن توضع صبغة اليود المحرقة على قُطنة تُولج إلى غَور الفم وتكسو اللوزتين الملتهبتين فتثير ألماً لاذعاً لا يكاد يطاق ورائحة صبغة اليود تفغم الأنف وتصعد إلى الدماغ برحيق حريّف نفاذ.

وهو ما كان يشعرني بأن جسمي يُنتهك.

فوجئت وأنا أغالب الوَجَع وهدّة الجسم بالفتاتين الجميلتين المونقتين تزورانني – لأول مرة – في بيتنا الرثّ في راغب باشا.

لم تكن أوديت وآرليت وأنطوان وهنرى خير الله من طبقة أرستقراطية أو راقية ولا حاجة، كانوا طبقة وسطى، لكن ثقافتهم تنتمي بشكلٍ ما إلى شوام مصر المتفرنسين الذين أخذوا بجانبٍ من حضارة أوربا وساروا على منوالها، على عكس أهلي وناسي الذين أنا منهم قلباً وقالباً.

كانت أمي بجلابية البيت الكستور والمدوّرة تلّف رأسها، فتحت لهما الباب بنظرة متسائلة، لم تكن تعرفهما، قالا لها إنهما أخوات أنطوان خير الله فقالت: يا أهلا وسهلاً بالحبايب إخوات الحبايب.

كان مرآهما في غرفتي غريباً وخارق الأناقة بالقرب من مكتبي العُمُولة المتهافت الذي صنعه لي خالي سوريال من خشب الصناديق ودَهَنه بصبغة الاستورْجِي الماكر، وتحت الإطار الثلاثيّ الذي يضمّ صور ديستيوفسكي وألبير قصيري وتروتسكي، وعندما جلست أوديت وآرليت على الكنبة الأسطمبولي العتيدة، وأنا في شبه بَحَران حُمّى الإنفلونزا، كانتا تلوحان لي كأنهما حوريّتان آتيتان من عالم آخر، رشاقة القد وحَبكة التاييرات ورهافة الكوافيرات للشعر المقصوص ببراعة ألا جارسون عند أوديت واسترسال الغدائر الناعمة الطويلة

المسدلة على الظهر المنسرح عند آرليت، كانت كلها خارج السياق، خارج عالم راغب باشا.

هل كانت الغصّة التي تكاد تسدّ النَفَس عليّ، من التفجّع أم من حنينٍ نوستالچيا لا جدوى فيها ولا معنى لها الآن، ولا عندئذ؟

قلت: ألا تكفّ عن سؤال المعنى؟

كان على المكتب - جنب كُتُب الأدب وتدريس القانون ومجموعات الشعر الإنجليزى والعربى، طبق واسع غير غويط به ماء بارد تسبح فيه قطع من الثلج الأبيض، كانت أمّى قد كسرتها بالشاكوش من نصف لوح ثلج شفّاف زجاجىّ الشكل يخرّ نقطاً متسلسلة من الماء، وكانت تضع فى الطبق كمّادات من قماش أبيض نظيف ممزقةً من ملاءات السرير القديمة، تضع الكمّادة على جبهتى المشتعلة ومقدمة رأسى وما هى إلا دقائق حتى تسخن الكمّادة فتغيّرها بانتظام متواتر.

أغمضت عينى إذ أحسست لسعة الكمّادة الباردة على جبهتى وتقاطر بضع نقاط من الماء المثلوج على وجهى ولكننى نشقتُ نفثة پارفان باريسىّ مُرهَف عذب وعندما فتحت عينى شعرت بيدين ناعمتين تضع الكمّادة على رأسى، ووجدت أوديت منحنية علىّ، صدرها اليانع المحكم قريب جداً ومغوٍ جداً، وهى تبتسم لى.

ثم استدارت وعادت وفى يدها ملعقتى الخاصة الفضيّة الطويلة - عليها اسم «غالى غالى وشركاه» بارزاً جداً بالخط النسخ الدقيق - وفى طرفها قطنة كبيرة مغموسة بالسائل البُنّىّ ذى الرائحة الخارقة. همست لى:

- افتح بُقّك .. من فضلك .. أيوه كده ..

وفى عينيها نظرة حنان لم أعرف قط إن كان عفوياً نابعاً من فطرة رقيقة، أم كان متدبَّراً، مدروساً، أم فيه شىء من الحنوّ والقصدية معاً.

أدخلتْ الملعقة حتى آخر زورى ومسحت بها الزَبَد الأبيض الذى كان قد تكون على الكُرَتيْن المتضخمتيْن اللتين كنت أحسهما تسدّان علىّ

النَفَس، الآن وجدت مع لذعة حَرْق صبغة اليود رَوْحاً وراحة كأنني اقتربت من الشفاء، واستطعت - في الألم وعرفان الجميل - أن أبتسم لها. كانت آرليت تجلس على آخر الكنبة الاسطمبولي بالقرب من البلكونة التي كانت ضلفتها الزجاجية مردودة، فقالت لأمي.

- تانت.. ممكن افتح الڤراندة شوية.

ردّت أمي بطيبة قلب الأمهات:

- افتحي يا حبيبتي، شوية كده يا ضنايا برضو الهوا النضيف حلو بس ما تعّوقيش.

وهكذا كان.

لكنني لم أتعلّم قطّ خطوات الرقص المضبوطة - في نهاية الأمر - ولم أراقص أوديت وآرليت، حتى لو غامرت برقصات مرتجلة وحارّة وحُرّة الإيقاع مع فتاة الجيشا اليابانية في فندق فخم تحت جبل فوچي ياما أو مع يونانيّات ساحرات في تسالونيكي أو مع نعمتي في حُميّا الحُبّ.

لم أرقص مع رامة قطّ، مع كلّ اشتهائي أن ترقص هي لي، ولم تفعل. فهل سوف تأتي ببهجة الرقص وثمل الحب؟ وهل سترقص لي؟

سمعت من صديقنا حمدي يوسف، بعد ذلك بسنين، أن فتحي أبو شادي قبل أن يسافر إلى سِيْدني، كان يؤذّن الفجر في سيدي بشر. عندئذ، كان فريد اسكاروس قد رحل عن هذا العالم الرديء الذي نعرفه الآن، وكانت كلّ أحداث حلقتنا الثورية مجرد أضغاث ذكريات.

لكنني في تلك الليلة الباردة العاصفة المؤرّقة في العنبر رقم ٧ لم يكن ليخطر لي ببال صروف تقلّب الحياة بنا، بل كان ثَمّ سؤال ساذج هل هو سيئ النية أم طيّب القلب، يعني أمْيَل إلى نوعٍ من البلاهة أو العبط «لماذا لم يُعتقل فتحي أبو شادي؟».

كم يلوح ذلك كله الآن بلا معنى، لكن السؤال الملحّ الذي ليس فيه أدنى قدر من السذاجة يظلّ: أكان ذلك كلّه- أيضاً - بلا قيمة؟ جسد

الوطن منتهك مستباح، مازال.

رائحة ياسمين تعبق فى ليلةٍ صيفٍ إسكندرانية، من شجيرات كثيفة وارفة تظلّل سور أرض خرابٍ تصعد منها نخلات رشيقة سامقة تصبو إلى سماءٍ رائقة، ما أنقى صفاءها، وما أسطع إبَرَ نجومها الدقيقة المغروزة تتألق فى قطيفة نسيجها.

نعم. كل ذلك له قيمة ثمينة جداً.

ومن ثَمَّ، كيف يمكن أنْ ننكر أنَّ لها معنى؟

ما كنت لأستبدلها بحياة أخرى، أشواق هذا الوطن والآمال الكبار التى لا تريد أن تذوى مازالت تسفع الروح بحرارتها غير المنطفئة، غير قابلة للانطفاء.

حتى فى وجه كل التردّى وكل الفساد وكل الظلام.

يا ناس.. يا هووه.. يا أهل بلدى.. هذه مصر.

من غير بلاغة ولا مجاز ولا دعاوى.

حتى فى وجه كل الشكوك والريب والهواجس والأسئلة.

بعد هدوء زقزقة العصافير الجنونيّة بنغمات ثاقبة متعددة الطبقات حينما يحل الظلام، وتخرج الخفافيش من كِنّ مخابئها ووكناتها، مازالت السماء نقية الزرقة تظلّل بحر مصر وصحاريها الشاسعة وعمق واديها الخصيب.

«نُوتْ» مازالت ترعى أرضها، وتظل ترعاها، إلى أبد الآبدين.

لم يستطع فتحى أبو شادى أن يكسب الريّس نونو، أو لم يُرِد، واضطررنا، إلى إسقاط «عنصر» ثمين كنا نريد أن نعوّل عليه فى وجودنا عند عمّال الميناء وعتّالى مخازن كفر عشرى.

ولكنى لم أُسقط يدى عنه.

اصطحبته معى إلى موعد مع زميل سودانىّ فى كلية الحقوق، وأيضاً لم يكسبه فتحى أبو شادى.

كان إدريس ذَهَب صديقي، نحيلاً عميق السواد لامع البشرة المشدودة على وجه عظميّ وجنتاه غائرتان، وكان في هذا الربيع مبكّر الحرارة يرتدي بدلة حريرية بيضاء يسقط نسيجها على منكبيه المستقيمين العريضين، كأنهما خشبيتان، ساقاه طويلتان جداً تبدوان رفيعتان من بنطلون البدلة الهفهاف.

توطدت صداقة من نوعٍ ما بيني وبينه عندما عرف - لا أدرى كيف - أنني أكتب قصائد وقصصاً وطلب مني بقدرٍ من الاعتزاز بالنفس أعجبني واستفزني، أن يقرأ ما أكتب إذا سمحت له، وبالفعل جاءني بعد انتهاء محاضرات الخميس واقترح أن نلتقي حتى يفضي إليّ بما رآه، يعني بما أَحَسَّه وما انطبع في ذهنه - كما قال - على أثر قراءة قصائد مثل «أيتها الغريبة عني» وقصص مثل «الأحدب» و«الأوثان»، وضربت له موعداً في اليوم التالي، يوم الجمعة، على الساعة السادسة، في قهوة الأكتع أمام محطة مصر.

الساعة السادسة بالضبط جاء شامخاً مشدود القامة. كنت واقفاً تحت سلّم القهوة المرتفعة إذ لم أجد مقعداً خالياً في القهوة التي كانت تشغل رصيفاً عالياً مبلّطاً ببلاطات سوداء وبيضاء متناوبة تصعد إليه عبر أربع خمس درجات، وكانت أمام القهوة ساحة أرض خلاء مفروشة بالرمل وُضعت عليها الترابيزات والكراسي، في الهواء الطلق، إذ لاحت تباشير الربيع الدافئ، تحت الأنوار الكهربائية الخافتة البعيدة من القهوة ومن مصابيح الشارع.

اخترنا ترابيزة منتحية جانباً كانت رُخامتها المدوّرة رمادية اللون منقورة بحبيبات دقيقة، مكسورة الحافة ولكن راكزة على الأرض الرملية الصلبة.

طلبنا الشاي بالنعناع الذي اشتهرت به قهوة الأكتع (أصررت على أن أدفع الحساب، في الآخر) وتطرّق بنا الحديث ذو الشجون. قال إدريس إنه أحب ما كتبت لكنه يرى فيه عاطفية ورومانسية ربما لا تتفق

مع العصر (كان ذلك في العام ١٩٤٦) وقال إن الإغراق في الوصف والتأمل قد لا يكون من أصول القصة القصيرة التي من المفروض أن تكون قاطعة وسريعة الإيقاع، فقلت له بالضبط هذا ما وجدت أنني مسوق إلى كتابته - كأنما رغماً عني - بالخروج عن المواضعات التقليدية السائدة لأنني - كما قلت - أرفض المواضعات السائدة سواءً في الفن أو في النظام الاجتماعي والسياسي، نظر إليّ إدريس بعينين عميقتي السواد المتألقتين كأنهما إبرتان حادتان.

عرفت أننا قد أصبحنا صديقين عندما قلت إن الحرية عندي أغلى ألف ألف مرة من اتّباع القواعد، وإنني أريد التحرّر من أسْر القوانين المفروضة من علٍ ومن خارج ما يوحي به العقل وإلهامات الروح، فما كان منه إلا أن أخذ يدي، بصمت، وشدّ عليها بإيماءة اتفاق أقوى من كلّ كلام، ثم أسقط يدي على الفور كأنما رأى في ذلك اقتحاماً.

عندئذ تكلم إدريس دهب وأفضى بما في ذات نفسه مما كان لا يعرفه أحد من زملائنا في الكلية.

قال إنه مَلِك دارفور.

وعندما نظرت إليه في دهشة المفاجأة حكى لي أن عشائر دارفور غرب السودان، قد بايعته على المَلَكيّة بعد وفاة والده فجأة بعد أن تجاوز الثمانين من عمره، وكان مع ذلك في كامل صحته وقوّته، لم يرتد الملابس الأفرنجية قطّ في حياته كلها بل احتفظ طول عمره بالزيّ التقليدي الأبيض الفضفاض والعمامة الكبيرة، وكان يقود الرقصات الثقيلة، عارياً تقريباً في كل مهابته، على دقات الطبول، وإن ظل مسلماً حسن الإسلام. وقد كان هو المَلِك المعترف به من كل قبائل دارفور، قال إن ممثّلي العشائر أجمعوا على إيفاده، هو، إلى مصر حتى يُتقن فنّ سياسة البلاد ورعاية مصالح شعبه بعد وفاة والده.

توقف إدريس دهب عن الكلام لحظة، كان يتأمل الشارع كأنه ينظر

إلى بعيد، لا يرى الصعايدة الذين يمرّون بجلاليبهم الطويلة، حُفاةً شداداً، جِساماً وقليلي الجسوم، ولكن مشدودين بكبرياءٍ وشموخٍ، ينادون على آخر طرح الموسم من البرتقال.

ثم قال إن الملكية في دارفور نظام قبليّ قديم قائم على الانتخاب الديمقراطيّ من ممثّلي العشائر والبطون، وإنه شخصياً مع أنه الملك المنتخَب إلا أنه يؤمن بالديمقراطيّة وإنه ينوى عندما يعود إلى بلاده إن يوسّع قاعدة الديمقراطيّة، ثم صَرّح بما قد يُعتبر سراً من أسرار خططه في المستقبل من أنه سوف يعمل على أن تتحرر بلاده من ديكتاتورية الخرطوم - كما قال - وإنه ينوى أن يضع ميثاقاً فيدرالياً تحتفظ فيه دارفور بالحكم الذاتيّ وتسيير شئونها الداخلية بالاستقلال عن المَرْكَز، وإن كانت ستظل مرتبطة بالحكم المركزى في شئون الدفاع والتمثيل الديبلوماسيّ، عندما يستقل السودان عن السيطرة الاستعمارية الإنجليزية المصرية.

هَبّت علينا في جلستنا أمام قهوة الأكتع رائحة مقلاة اللبّ الأسمر والسوداني من الشارع، وتحت الستات البلدى بالملايات اللف يتختّرْن أمامنا بأجسام لدنة أو جافة، الشكربينه تطرقع على الأسفلت بإيقاع أنثوىّ.

كنا في حلقتنا الثورية الصغيرة قد درسنا مسألة السودان، وقد كانت موضوعاً ساخناً ومَثَاراً للجدل الحامى والحماسة المتوقدة. كانت دعاوى وحدة مصر والسودان مطروحة بقوّة، وكان فاروق الأول يسمى نفسه في الوثائق والخطب الرسمية كلها «ملك مصر والسودان». انقسمت لجنتنا إلى ثلاثة أقسام متساوية تقريباً، أحمد النمس يرى أن وادى النيل وحدة لا تنفصل، كامل الصاوى يؤيد حق السودان في تقرير مصيره والاستقلال- وهو ما يكاد يكون عندئذ نوعاً من الكُفر والمروق - أما القسم الثالث ومنه أنا وقاسم اسحاق فيقترح فيدرالية مرنة يتمتع فيها السودان بحكم ذاتيّ يقارب الاستقلال، بما في ذلك

شئون الجيش والدفاع، بل يتيح إمكانية الاستقلال الفيدرالى - هكذا كانت الصيغة التى وصلنا إليها - لأقاليم الجنوب بما لها من خصوصية فى المعتقد الوثنىّ أو المسيحىّ واللغة والتقاليد القبلية والخصائص التى تكوّن «قومية» مستقلة.

استمع إلىّ إدريس دهب بشغفٍ وتوتّرٍ وهو ينغض رأسه بشعره المفلفل الحليق، ولم يتكلم.

وتواعدنا على لقاءٍ يوم الجمعة القادم وسألته إن كان لديه مانع أن يحضر معنا صديقٌ يشاركنا الرأى اسمه فتحى أبو شادى فلم يمانع صراحة ولم يوافق كذلك.

يوم الجمعة التالي - حسب الخُطّة الموضوعة، كما يقال - جاء فتحى وحده واعتذر بأننى شُغلت بأعباء عائلية مفاجئة عن المجىء، ولكن اللقاء لم ينجح، قال لى فتحى: «البربرى» الذى التقيت به لم يكن متعاوناً بل كان متكبراً عاملنى باستعلاء وغطرسة وقلت له إنه لا يصح أن نطلق على الرجل صفة البربرى لأنه ربما أكثر تحضراً وثقافة من الكثيرين جداً، فلم يعلّق فتحى وانتهى الأمر كلّه عند هذا الحدّ.

ساءلت نفسى، وأنا ألتمس الدفء الصعب تحت أغطية العنبر رقم ٧:

- هل فشل فتحى أبو شادى فى الحالتين، الريّس نونو، وملك دارفور، عن إخفاق أم عن قصد؟ هل تعمّد أن يفشل؟ هل كان قصده أن ينفّرهما ويبعدهما عن الاشتراك فى عملنا؟

وحتى بعد أن أفرج عنى، واستأنفتُ صداقةً، مشوبةً، مع فتحى، فى غمار خضمّ اليأس المحيق الذى أغرقنى بفقدان إيمانى، فإننى لم أجد إجابة.

هل وجدت إجابة قط عن أى سؤال؟

الفصل الحادى والعشرون

كان «عنبر البنات» بعيداً عن عنابرنا، فى الجناح الغربى من المعتقل، بينما كان عنبر الإخوان فى الجناح الجنوبى، وبين كل جناح وآخر ممرٌ واسع وحواجز كثيفة من الأسلاك الشائكة ملتّفة على بعضها بعضاً فى دوائر وحلقات منذرة.

وفى أيام الخريف المتأخر، عندما بدأ الجوّ يميل إلى البرودة، وأخذت النَوّات الإسكندرانية تهبّ بأمطارها ورياحها العاصفة، وبدأت السماء تَثقُل بحملها من السحب الداكنة، كنا نفتقد بشدة شمس الصيف الذى ولىّ، كما كنا نفتقد ذلك الأُنس الغامض المشوب الذى كان يتسلل إلى قلوبنا عندما كان العنبر الواسع العريض قريباً من «عنبر البنات»، وكنا نلمحهن رائحات غاديات، ولا نشبع من تملّى «لى شيڤال» عارية الساقين المليئتين حتى أعلى الفخذين عارية الذراعين، وأحياناً فى بلوزة مكشوفة بحّمالات، تتهدل على صدرها الوثير الناهد، مستلقية براحتها على الشيزلونج القماش المخطط بألوان بهيجة.

وصلتنا شائعات وأخبار غير واضحة، من خلال الصُولات والأومباشيّة الذين بدأنا نعقد معهم صداقات، ونُجرى صفقات، ولا نبخل عليهم ببعض أطايب المأكولات والسجائر الفاخرة، كرافن إيه وپول مول وبحارى إنجليزى زرقاء، مما يأتى به الأهل فى زياراتهم.

ترددت فى العنابر، من عنابر اليساريين فى أول الشكنات الشمالية إلى عنابر اليهود والصهاينة فى آخرها، عن صِدامات «البنات» فى

عنبـرهن، إذ لم يكن لهن إلا عنبـر واحـد - جـمع بين كـل الاتجـاهات السياسية والأيديولوجية.

كنّا قد قطعنا - من ناحيتنا - اتصالاتنا بعنابر اليهود والصهاينة، كنا نسمعهم يتسقطون الأنباء عن طريق أجهزة راديو مرتجلة صنّعوها بأنفسهم، من مواد خام مهرّبة، وينصتون إلى إذاعة برازاڤيل الفرنسية التي تخصصت في ذلك، على ما يبدو، يتبادلون أخبار حرب فلسطين، الهدنة وحصار الفالوجا وتهجير ومجازر الفلسطينيين بترويعٍ منظّم تصلنا تفاصيله مضطربة غير محدّدة، واتفقنا على أن ننظم اتصالاتنا بهم ونقصرها فقط على چونى فريدمان، طالب بكالوريوس الطب، يعنى زميل عبد القادر خلف الله وإن كان يسبقه بأربعة سنوات، كان عبد القادر هو المنوط به القيام بهذه الاتصالات وحده، وإبلاغنا بما يتيحه له فريدمان من أخبار.

طبعاً كانت نسخ نادرة وعزيزة من «الأهرام» أو «الأخبار» أو حتى «الوفد المصرى» - أو «صوت الأمة» - تتسلل إلينا، كاملة أو مجتزأة، متأخرة يوماً أو يومين، ولكنها دائماً موضع تلهُّف وترحيب، نتبادلها فى الخفاء مغضّنة مطبّقة وأحياناً ممزّقة الأطراف أو ناقصة الصفحات، أما الراديو فقد كان مستحيلاً إذ لم يكن عندنا من المهارات أو من الرغبة المُلحّة فى تسقُّط الأنباء ما عند عنابر اليهود.

فى مساءٍ بارد، وبعد تمام السانْك سانْك الذى استمر، حتى آخر لحظة، فى الفسحة الرملية أمام عنابرنا، دعونا «الضابط فؤاد» كما كنا نسميه إلى العنبر رقم ٧ على فنجان شاى فاخر، مع كأس من كونياك كورڤوازييه الذى وصل إلى شوارتز، خفيةً، فى زجاجة كوكاكولا محكمة الإغلاق، بسدادتها، على السائل الأصهب الرقراق، (كانت زجاجة الكوكاكولا أيامها باثنى عشر مليماً بالتمام والكمال).

ومع علمه بأن دخول الكحوليات إلى المعتقل ممنوع بأمر القومندان،

إلا أن الضابط فؤاد كان يتسامح، ولعله كان يتعاطف في سريرته، معنا.

قبل الدعوة، وأعددنا مزّة نادرة من علبة فواجرا فرنسية، وزيتون يوناني، وترمس بلدى، وجبنة موزاريللا إيطالي. كانت الحرب قد وضعت أوزارها - كما يقال - من سنتين، وتدفقت الواردات على أهل اليسار، ومنهم بطبيعة الحال، أهل شوارتز، ولم نكن من الطهرانية بحيث نرفض قبول هذا النعيم، بل كنا نشارك أصدقاءنا، وخاصة أعضاء الكوميونة صابر ومحمود وحسين، وجماعة لطفي ووجدى وفكرى.

ومع الكأس الثانية، في دفء العنبر الحسيم، على جَنْب، حكى لنا الضابط فؤاد ما حدث في عنبر البنات:

- من أول يوم كان الجو في عنبر البنات متوتراً بين المصريات بنات البلد واليهوديات المصريات فيما عدا مارسيل ديلسْبوُنه اليهودية الشيوعية الوحيدة التى تحالفت من أول لحظة مع زينب المشراوى وزميلاتها ضد لى شيڤال وزميلاتها، انقسم العنبر قسمين منفصلين، ووضع بينهما حاجز من البطاطين يفصل الجناحين فصلاً تاماً، وبدأت النزاعات عندما أصرت زينب المشراوى على أن يُترك ممرٌ محايد مفصول بالبطاطين أو الملاءات، أرضٌ حرام، للعبور من جناحهن الخلفى إلى الباب، بينما قالت لى شيڤال إن ذلك اعتداء على الجناح الخاص بهنَّ، واقتطاع من مساحته لا مبرر له وإن عليهن المرور عَبْر الجناح الأمامى ومن أمام سراير اليهوديات وتحت أنظارهن، إذا أردن أن يخرجن من الباب للوصول إلى الحمام الخاص بهن ولاستلام اليَمَك أو للتمام صباحاً ومساءً.

قال: أنتم تعرفون بلا شك أنهن كلهن لا يتعدى عددهن عشرين أو أقل، هن بالضبط تسع عشرة، ومع ذلك فقد كنا نحن المسئولين عن المعتقل نحس أنهن أكثر منكم، وأعنف مشاكل، وأعلى صوتاً.

قال فريد: دائماً البنات هكذا، اسألني أنا.

ضحكنا، ونحن نعزم على الضابط بشريحة ممسدة بالفواجرا فوّاح الرائحة والكأس الثالثة.

كان الروسيّان قد أويا إلى فراشهما، مقذوفًا بهما في غربة مضاعفة، لم يكونا يفهمان ما يدور به الحديث الخافت بالعربية، ولكن بقية أصدقائنا في العنبر كانت قد تحلقت حولنا ولم نضنّ عليهم باللذائذ المتاحة أمامنا على صندوق خشبى عليه مفرش بيتيّ مطرز الحواف، أما الباقى فقد ألقوا بالأسماع إلى الحكاية، وهم جالسون على الفراش، غير بعيد من حلقتنا.

قال الضابط فؤاد:

- من ثلاث أربع أيام كانت زينب المشراوى فى طريقها للباب، على أول الصبح، عندما هبّت لى شيڤال من رقدتها على السرير، وقالت بصوت مسموع ومستفزّ: إفّ .. إفّ موش حانخلص بقى م المصايب دى.. وم الست الكوماندة زينب وبنات العرب الوسخين..

طبعاً استدارت إليها زينب، ولم تقل شيئاً، بل صفعتها على وجهها بحركة مفاجئة وحاسمة، وطبعاً وقعت الواقعة، اشتبكن جميعاً على وشّ الصبح بالأيادى وشدّ الشعور والتلطيش والتوقيع على الأرض وشكّ المقلب على أصله والصراخ والشتائم بالفرنسية والعبرية والعربى الإسكندرانى الفصيح، واضح أن زينب المشراوى كانت تربية حوارى، مقاتلة، ولم تكن لى شيڤال نداً لها بأية حال.

ثم سكت لحظة، واستطرد:

- الغريب.. أبداً مش غريب ولا حاجة، أن مارسيل كانت أعنفهن فى الاشتباك مع اليهوديات.

قال فريد: يا خبر.. وعملتوا إيه؟

قال الضابط فؤاد: ولا حاجة.. نادينا الست الأومباشية النوبتجية، ولكنها عندما وصلت العنبر كانت العركة قد استنفدت قوى البنات،

كانت لي شيڤال تبكي، وزينب قد خرجت إلى الحمام، واستتبّ الهدوء، ولم تجد الأومباشية شيئاً تأخذهن به أو تحاسبهن عليه.

قال عبد القادر: أنت تعرف طبعاً أن السبب ليس نزاعاً بين بنات، بل هو في الأساس صراع بين اتجاهات سياسية وفكرية.

لم يجب الضابط فؤاد، أومأ برأسه بحركةٍ غير محددّة وغير واضحة، وأنهى كأسه الثالثة، وقام فجأة:

- متشكرين يا جماعة .. تصبحوا على خير.

ومضى إلى الخارج بخطوات عسكرية منتظمة.

لكن ذلك لم يمنع أنه في تلك الليلة نفسها استيقظنا على روتين هجمة التفتيش الليلية، على الساعة الواحدة صباحاً، جاء العساكر بقيادة الضابط فؤاد وفتحوا الباب بعنف وهتفوا:

- إصحَ انتَ وهوّه، تفتيش، كل واحد يطلع برة ويسيب كل حاجة زي ما هيَّ .. يالّلا اطلع برّه..

وكالمعتاد اختطف كلٌّ منا ما يدفئه، معطف، چاكته، بطانية، ولففنا حول الرءوس فوطة أو تلفيحة، أو حتى قميص، ولم يمانع الضابط فؤاد، وخرجنا إلى الساحة الرملية، ووقفنا طوابير من خمسة، ونادى الصول: سانْك سانْك، بينما كانت ضجة الحَمْلة قد هدأت قليلاً بعد ارتفاع اللغط وأصوات الاحتجاج، تتخللها الضحكات، وارتفعت فجأة أنغام نشيدنا الباندیرا روسّا، من ناحية ومن ناحية أخرى نشيد الصهاينة بالعبري، واختلطت الأصوات.

بينما كان الضابط فؤاد ومعه الأومباشي يمرّ على العنبر في تفتيش صوريّ سريع لم ينتهِ، طبعاً، إلى ضبط شيء من الممنوعات.

في الساحة الرملية الحرام تحت الأنوار القوية من كشك الحراسة العلويّ الذي يقبع فيه العسكري يحتضن مدفعه الرشاش الصغير، رأيت تلك القطة ملكة الليل، تمشي بثقة وبطء، تتمطى بجسد يطول ويطول

بين الصحراء والصحراء.

وبعد نصف ساعة أو أكثر قليلاً كنا قد عدنا إلى العنابر، وأوينا إلى نومٍ قلق مضطرب أو عميق مستغرِق، وساد الهدوء معتقل أبو قير.

بعدها بأيام وصل المعتقل مصوِّرٌ من وزارة الداخلية، أو من المحافظة أو القلم السياسيّ، ومعه الكاميرا الضخمة التقليدية العتيقة المنصوبة على حامل حديدىّ، وأخذ لكل منا بالدور، صورتين، مواجهةً ومن الجنب، على خلفية حائط العنبر رقم ١.

كنت أيامها، في إحدى نزواتي، أطلقت ذقني على شكل سكسوكة مدببة. كنت أحلق صفحتيْ الوجه وأترك الذقن والشارب، ومع النظارة ذات الإطار الرفيع المذهّب التي انكسرت إحدى ذراعيها، لم يكن شكلي - فيما أظن - بعيداً عن الإنتلّيچِنْسِيا في أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين.

هل هذه الصورة مازالت محفوظة في أرشيفهم؟

بعد أسابيع قليلة زهقت، مللت حَنْتَفَة جانبي الوجه وتشذيب السكسوكة وتخفيف الشارب، وعدت إلى الأسلوب القديم في حلاقة الذقن نظيفة لا تشوبها شائبة.

قال لطفي، بلهجته المعتادة التي توحي - شاء ذلك أم لم يشأ - بأنها ساخرة:

- رجعت لعقلك يا بطل،، وبقيت زيّنا تاني

فلم أجب، ولكني لم أحس غضباً، ولا حتى استياءً.

كنت - على نحو ما - قد بدأت أكِنّ للطفي إعزازاً وتقديراً.

لطفي مدكور الذي كان أميل إلى القِصَر، مليء الجسم ومليء العينين بذكاء حذر وتأمُّل متوجِّس دائم، كتوماً لا يحب الكلام الكثير، دعك من الثرثرة، أدين له بالكثير، فقد كان سبباً غير مباشر ربما في أن حياتي كلها اتخذت مسارها.

بعد أن خرجنا من المعتقل مررت بفترة وعرة حقاً فلم يكن في البيت مليم، وتلطمت، كما كان معتاداً، بين دروس خصوصية في العربي والإنجليزي والحساب لأطفال أصدقائي، وبين ترجمات لبراءات الاختراع كلها مصطلحات ميكانيكية وكيميائية في مكتب ماجْري أوفرند المالطي اليهودي الإسكندراني الذي كان فتوح القفّاص يشتغل فيه، حتى التقيت بلطفي مذكور صدفة.

قال إنه اشتغل عدة أشهر في شركة التأمين الأهلية ولكنه الآن يتركها لعمل أنسب وأجزى في بلدية الإسكندرية، لم يكن لطفي خريج جامعة، بل كان قد حصل على دبلوم الخدمة الاجتماعية، بعد التوجيهية، وكان قد علّم نفسه شيئاً من الإنجليزية والفرنسية.

قال إن الشركة بحاجة إلى موظف، غير جامعيّ، بمرتب بسيط ولكنه معقول، يجيد الكتابة على الآلة العربية والفرنسية، ويعرف من اللغة الفرنسية ما يتيح له أن يترجم أو يلخّص بالفرنسية محاضر حوادث السيارات المؤمّن عليها، نقلاً عن الأصل العربي، قال لماذا لا تقدّم في هذه الوظيفة؟ وزاد بأن زوّدني بنوتة فيها كل المصطلحات اللازمة في هذا السياق بالعربي والفرنسي، قال إنه سيترك الشركة بعد شهرين، أليس هذا كافياً لأن تتعلم الضرب على الآلة العربية والفرنسية؟ قلت كاف ويزيد، والتحقت بمدارس برليتز في شارع سعد زغلول أربع ساعات كل أسبوع دفعت فيها الشيء الفلاني لكني بعد المدة المضروبة كنت أستطيع أن أرقم عليهما المطلوب على نحو معقول، وعندما ذهبت إلى مقر الشركة في العمارة الجميلة ذات الأعمدة الرخامية السوداء والأناقة الكوزموپوليتيّة الإسكندرانية، في تقاطع شارعي النبي دانيال وفؤاد، لأقابل المسيو فارس، نائب رئيس قسم حوادث السيارات، نجحت في المقابلة، أخفيت عنه أنني ليسانس في الحقوق، وقلت إنني كنت أشتغل بالترجمة الحرة منذ حصولي على

التوجيهية من ثماني سنوات، ولم يُعن المسيو فارس ولا الخواجا رزق الله رئيس القسم بالتدقيق لأن الشركة كانت بحاجة إلى من يسدّ فراغ هذه الوظيفة بأى شكل، ويبدو أننى لم أخفق فى أن أكسب الثقة.

ولكن أهمّ ما في ذلك كله أنني فى طريقى إلى المقصورة الزجاجية التى كان يقبع فيها الخواجا رزق الله والمسيو فارس، فى الدور العلوىّ من عمارة الشركة، وقع بصرى على تلك الفتاة صغيرة القدّ، مرحة العينين، نضرة الجسد، يانعة الوجه، متوهجة ومتألقة بحيوية وشباب متفجر ومحكوم.

كنت فى الرابعة والعشرين، مرير القلب، ويائساً ومحبطاً وفاقد الإيمان.

نزلت علىّ صاعقة الحب من أول نظرة.

لعلنى كنت بحاجة مدمّرة إلى هذا الحب، أو إلى هذا اليأس.

لم تغادرنى نعمتى بعد ذلك قط، فى الخيالات وآلام الحب المضطرب وفى نعماء ومكابدات الواقع الصلب على السواء.

ودارت الحياة فصولاً فى مسارها المتقلّب، ولكن تلك قصة أخرى.

ألم يكن لطفى على نحوٍ ما مسئولاً، بين أمور أخرى كثيرة بطبيعة الحالة عن هذا المسار؟

وكما تجرى صروف الحياة - مما هو مبتذلٌ قولُه رائجٌ معروف - انقطعت بنا السبل مرة أخرى، لم أكد ألتقى به مرة أو مرتين فى الشارع، نتبادل تحيةً عابرة سريعة، كم يندم المرء على أنها لم تعد لقاءات حميمة ومليئة، أننا نترك فرصاً ثمينة تفلت من أيدينا إلى غير رجعة، هذا أيضاً كلام لا طائل من ورائه.

عندما بلغنى خبر موته، بعد أن بارح هذا العالم الردىء بعدة شهور، كانت الطعنة عميقة ومكتومة، ذلك معتاد أيضاً، وغير مُهمّ.

بعد أكثر من خمسين عاماً، تذكّرنا لطفى مذكور، أنا وفكرى النمر،

بشكلٍ ما كما لعل الأجداد يتذكّرون ابناً عزيزاً طواه الموت مبكراً. حمدى يوسف دبّر لقاءً، هو الأول بعد عام ١٩٥٠، مع فكرى فى مقهى إيليت.

ها نحن نوشك أن نطوى الصفحات الأخيرة، وقد أصبح الثورىّ اليسارى العتيد رئيس مجلس إدارة مؤسسة حكومية كبرى، لا أذكر ما هى، وكدت لا أتعرف على الفتى صعيدىّ الوجه، صلب العينين، قوىّ الفكّ، ناشف العود، الذى كان يعمر العنبر رقم ٧ بقوة إرادته وبنوع من الأبوّة وصمود الموقف، الآن بعد أن خرج على المعاش لم يبق من هذا الميراث إلا القليل، مازال السخط والغضب كامناً ومفصحاً عنه باحتراز أولاً ثم بصراحة الذكريات المشتركة، لكن الإحباط وما يقارب اليأس من كل شىء هو النغمة القاتمة التى تسود اللقاء وتكاد تغلب الروح على أمرها.

سألته عن وجدى حبيب. كان ضلع الثالوث الذى مازلت أراه فتىً نحيلاً رقيق الجسم متوقد الذكاء يتهته قليلاً وفى روحه براءة تكاد تكون قدسيّة، وحتى فى محنة المعتقل كان وجدى يُشعّ بهذه البراءة، الطفولية لكن الناضجة، على نحوٍ فيه ما يبعث على الراحة وعلى الأمل.

فى هذا اللقاء الذى جمع بيننا، وقد تجاوزنا السبعين من العمر، عبد القادر وعبد الفتاح، حمدى، وفكرى، وفى قلب لغط الذكريات ومناوشاتها التى لم نُلقِ إليها بالاً، دبّت حرارةٌ قديمة فى قلوبنا، أو هكذا تصوْرت.

قلت: دموع الرومانسية لا داعى لها.

عرفت أن وجدى حبيب الذى كان قد وصل إلى مناصب مرموقة فى ساحات العمل القانونى، قد هاجر إلى الدانمرك مع عائلته وزوجته سويدية الأصل، بعد أن اختتم عمله فى منظمة الأغذية والزراعة، فاو،

فى منظومـة الأمم المتـحـدة، طلبتُ من فكرى أن يعطينى عنوانه فى كوبنهاجن أو رقم تليفونه، فأمهلنى قليلاً، ثم كتب إلىّ بعد عدة أسابيع بالعنوان، تساءلت : هل مازالت قواعد الأمان مغروزة فى آليّات سلوكنا ؟ كتبت إلى وجدى فى كوبنهاجن، ولم يردّ علىّ، ومازلت أحتفظ له بصورة الفتى ناحل الجسم ذكىّ الفؤاد لامع العينين الذى فيه طفولة منعشة وحصيفة، فمن يعرف إلام قد آل شكله الآن - مثلنا جميعاً، نحن فتية الأربعينيات الثورية البائدة؟ -وهل صار أكرش متهدل الجسم والروح، صامت العينين مثلاً، أم ظل فيه هذا النقاء القديم ؟

أمازال النقاء القديم فينا، أم اندثر ؟

وعلى ذكر النقاء والتمرّد، لماذا طافت بخيالاتى أطياف پولا العلايلى التى لم ألتقِ بها قط، وكأنما عرفتها معرفة حميمية مع ذلك؟

مجنونة، صاخبة الصوت، صاخبة المكيّاج، تضع نصف كيلو كُحْل على عينيها فتبدوان صاعقتين فى عمقهما ونفاذهما، تدخل المكان المزدحم باللغط والحركة فيصمت الجميع وينصتون، كادت تُحدث فتنةً عند زواجها بچورچ حنين، تظهر نصف عارية على موضة الأربعينيات، دون أن تعبأ بالنظرات المتلصصة أو المتطفلة أو النهمة، التمرد وعنف الحب وضربات الثورة على التقاليد، ألم تكن تلك رسالةً لنا، بشكل ما ؟

البقرة السماوية مسكن حور الثملة من نبيذ الأمانى المستحيلة، زينب المنحوتة داكنة البشرة رقصتك بين النجوم الثاقبة تبعث الرفات فى جبّانة طيبة ومدافن الشاطبى فإذا الموتى يطوّحون بالأذرع المتشابكة على ترجيعات مزمار «مين» الخِصْب والشبق وسيقان السُكْر متواشجة فى موسيقى «جلوك» الأطياف التى أُسبِغت عليها نعمةٌ لا تبيد على جيتار أورفيوس وهارْپ هاتور فى طيبة وسيناء البنات سمراوات النهود

مسترسلات غدائر الشعر الكثيف ليس عليهن إلا حزام رقيق بين الساقين يحيط بالخصر وتنسدل منه تفاويف الكتان الشفّاف، عايدة حورية من نيمفيّات النيل تتأرجح على أمواجه دفّتها قد أفلتت تترنّح على قصف مدافع كرونشتادت في فجر أكتوبر الذى انحسر وذابت سحاباته كما تذوب الشموع الجنائزية. ما أروع كمال محيّاك أنت الوحيدة بلا مثال أجمل من كل الجميلات عيناك مزججتان بالكحل العميق الثقيل ترميان بالحمم مثل بركان حَنُون. كيميت ذراعاك ذهب منثور جُمع في حصاد إلهيّ مدملج مفتول، رامة ما أسعد منْ يعانقك مَنْ تلثمين على جبل بيبلوس اللوتس المزدهر فيه قلبي وجسدى ودمائى الدفّاقة ترفض أن تنساك هل أنت پولا عادت إلينا تتيه بعنق تلعاء يتراقص على جانبيها قرط لازورديّ الصفاء؟ أم أنت النعمى التى جاءت إليّ فرأيت فيها الكمال؟ فتحتُ بابها بعد طول صدود. هأنذا أوشك أن أضيع على الموسيقى التى تأتى في آخر الزمان. ما أقواكِ لم تضلّلك هتافات «كلنا واحد»، فنحن كثيرون ولم تظلّلك وصاية الذى اتخذ لنفسه قناع رَعْ أبيك الجليل فسقط القناع. يا مليكة دندرة يفوح من ردنك عبقُ بلاد پونت وفي بطنك لدونة الطمي الخصيب. هلاوس عشقي لكِ يا وطني التى على فخذيها العريضتين بين الصحراء والصحراء أجد ملاذى من هواجس الاغتراب، وأنسَ المنفى السحيق إلى أغوارى.

أَمَا ثَمَّ برءٌ مِنْ هذا الهيام؟

الفصل الثانى والعشرون

بعد منتصف الليل وبعد أن آوينا إلى النوم العميق أو المؤرِّق وقد خيَّمت على العنبر روحٌ ثقيلةٌ أُضيئت الأنوار فجأة على وقع دبيب أحذية عسكرية غليظة وهتفات مبحوحة.

- اصحَ انت وهوَّه.. اصحَ قوم يا مسجون ياللاَّ.. اصحَ

العساكر قد ملأوا الممر الفاصل بين صفَّىْ الأسرّة، على رؤوسهم الخوذات المعدنية وهم فى كامل عتادهم، وبأيديهم البنادق مشرعة مصوّبة نحونا، كأنهم يشنّون حملة حربية والضابط الغريب على باب العنبر يكرر أوامره بعنف: اصح يا مسجون أنت وهوَّه.

صيحات احتجاج وغضب إحنا مش مسجونين، إحنا معتقلين، لنا حقوق يجب أن تُحترم ..انت مالكش حق فى اللى انت بتعمله.

لكنها هذه المرة لم تكن مجرد حملة تفتيش.

قال الضابط بخشونة وحسم:

- كل واحد يلبس على طول وياخد لوازمه فى إيده، ويطلع برّه بسرعة، ياللاَّ.

صيحات وتساؤلات ملهوفة.

- إيه.. فيه إيه، نلبس هدومنا ليه؟

- اسمع يا مسجون إنتَ وهوّه.. حاقول مرّة واحدة بس، عندكو نصّ ساعة بالضبط.. انتو منقولين لمعتقل تانى أدينى بقولها مرة تانية: كل واحد يلبس هدومه ويأخذ لوازمه وشنطته ويطلع برّه، طابور برّه بعد نص ساعة بالضبط ياللا همْ إنت وهوّه..

كلّ الهواجس تهاجمنا مع هجوم العساكر : إلى أين نذهب ؟
يسأل أحدنا العسكرى الذى بجانبه ،
- والنبى يا دُفعة .. احنا رايحين فين؟
فيردّ على الفور كأنما يردد ما لُقِّن من قبل أن يقول :
- ما اعرفش . ما اعرفش .. يالّلا يا فندى ..

فى لهوجة الترويع وتحت ضغط إرهابٍ نُقاوِمه بكل ما أوتينا من شجاعة أو تظاهر بالشجاعة ، نأخذ فى أن نلمّ أشياءنا ونرمى بها فى الحقائب التى كانت تحت السرير أو فى الصندوق الذى يقوم مقام الكومودينو ، كلّ منا يرمى فى حقيبته المفتوحة بملابسه وعدّة الحلاقة والأدوية وربما كوب الألومنيوم أو الشبشب ، كلّ منا لا يكاد يرى صاحبه فى عنف نصف الساعة المتاح الذى يخطف كالبرق وإذا بالضابط يدخل مرة أخرى ومعه جنديان على كل جانب يصوّبان إلينا مباشرة مدافعهم، وهو يصفق بيده وينادى :

- خلاص ، اطلع برّه يا مسجون انت وهوه .. برّه .. برّه .

العساكر تدفعنا بخشونة بيد ، والمدافع الرشاشة باليد الأخرى ، الذى نام بالشورت والذى نام بالفانلة والذى بالبيجاما ، والذى بالجلابية ، منّا الذى لحق أن يرتدى ملابس «الخروج» ومنّا الذى مازال يحاول أن يلبسها بسرعةٍ ولهوجة ، على برّه ، يالّلا ، اطلع .

لذعة هواء الليل بعد دفء العنبر والأنوار فى المعتقل كلها مضاءة وساطعة والكشّافات تدور من أبراج الحراسة على أركان المعتقل الأربعة وعساكر الحرس قد وقفوا انتباه وسددوا مدافعهم الرشاشة إلى الساحة التى امتلأت فجأة بجمهرة من المستيقظين عنوة فى ملابسهم المهوّشة ، التوتُّر فى المعتقل كله قد بلغ مداه ، عندما أنظر إلى وجوه أصدقائى وزملائى أعرف صورة وجهى : نظرة متحيرة ولكن مصممة على أن تبدو غير متخاذلة ولا ينتابها ضعف أو خَوَر ، وجوه فى الأنوار الكاشفة تلوح

بيضاء شاحبة مشدودة، كلٌ منا يحمل في يده حقيبة كبيرة أو متوسطة وأشياء أخرى غير واضحة المعالم لم تدخل في الحقيبة.

نداء الضباط فينا وفي عساكرهم معا:

– انتباه.. انتباه، المعتقلين يقفوا طابور، كل اتنين في طابور، بسرعة.. بسرعة..

يأتي القومندان الصارم القويّ كأنما فيه نبرة أبوّه:

– يا إخواني النظام.. النظام.. دا إجراء بسيط. نَقْل لمعتقل تاني.

هتف الضابط فؤاد في الصمت الذي سقط فجأة على ساحة المعتقل: اللي حنادي اسمهم ياخدوا عشر خطوات يمين ويعملوا طابور لوحدهم.. ياللاّ.

أخذ ينادي الأسماء.

في سكونٍ مطبقٍ لا تشوبه إلا خشخشة الأحذية على الرمل وهي تنتقل فجأة من عالم إلى عالم.

انتهت مهمة الضابط فؤاد. وانتهى، استلمنا ضباطٌ غرباء لا نعرفهم.

لم نستطع أن نسلّم على الأصدقاء الذين لم يرتفع النداء بأسمائهم، وظلوا واقفين في طابور متخلخل كله فجوات، ينظرون إلينا من بعيد.

وفجأة ترتفع الأغنية الشعبية الشائعة بالفرنسية، من صفّ الباقين في أبو قير:

Ce n'est qu'un au-revoir amis
Ce n'est qu'un au-revoir

إنما هذا «إلى اللقاء» يا أصدقاء
إلى اللقاء.. ليس إلاّ «إلى اللقاء»

وفي الشجن العاطفي السهل والحقيقيّ أيضا تترقرق الدموع ولا تنسكب.

انحسرت الأضواء الكشّافة عن صفوفهم، سادهم ظلام الإعفاء من مصيرٍ لا أحد يعرفه.

بينما الأضواء مسلّطة على طابور المُبعَدين الذاهبين إلى هذا المصير، ومن الثكنات الخلفيّة التي كان يسكنها الإخوان تصاعد لغط وطنين وصوت صرخاتُ ألمٍ وهبدات ضرب الهراوات المكتوم على الأجسام ودوّت فجأة زخة رصاص في الهواء من مدفع رشاش صغير وسمعنا صوت لوريات الجيش تتدافع في زئير مفاجئ من السرعة والانطلاق.

ظللنا واقفين مدة طويلة خيل إلينا أنها لن تنتهي وقد أخذت هبّات هواء الفجر الباردة تضربنا بهدوء.

استرخى التوتر قليلاً، نهمس إلى بعضنا لبعض بأيّ كلام على سبيل شدّ الأزْر، بالسؤال عن أن كلّه تمام؟ كلّه كويس؟ تعبْان ولاّ حاجة؟ مش مهمّ يا أخي.. دلوقتي نشوف.. حيكون إيه يعني.. وهكذا، ولكن الهواجس الخفيّة تدور في دخيلتنا، كلاً على حدة، لا نكاد ننظر إلى أحدنا الآخر نظرة متأنّية حتى لا نرى على وجوه زملائنا ما نعرف أنه مرسوم على وجوهنا: ترقُّب مصير مجهول مشحون بكل الاحتمالات.

– اطلع العربية يافندى.. واحد واحد من فضلكم، ياللاّ.

تغيرت النبرة تماماً، كان الضابط الذى يشرف على صعودنا سيارة نقل مكشوفة واقفًا من داخل باب المعتقل، ونحن نصعد على درجتيْ السلّم الخلفيّ الحديديّ فنجد أنفسنا واقفين غير متزاحمين جداً يُحيطنا سياج سيارة النقل ومعنا أربعة من عساكر الجيش كل واحد في ركن من سطح السيارة بملابسه الكاكي وخوذته ومدفعه الرشاش الصغير، لم نكن مصفّدين ولا مربوطين بسلاسل أو حبال، كان ثَمَّ بقية من الكرامة تُراعَى في عملية نقلٍ بدأت عند أول تباشير الصباح وسوف تستغرق سحابة النهار، لم نكن نعرف إلى أين سوف تمضى بنا سيارة النقل المكشوفة التي وقفت طويلاً عند الباب ريثما ينتهى الضباط والصولات

من تسجيل أسماء وإحصاء أعداد وتتميم إجراءات.

أخيراً وثب الضابط الشاب بخفة ونشاط، بما يكاد يقترب من المرح، إلى المقعد الأمامي بجانب العسكري السائق، فلعله كان يمنّي نفسه بالعودة إلى بيته الدافئ، إلى زوجته أو أمه أو حبيبته بعد أن يسلّمنا.

يسلّمنا إلى من؟ إلى ماذا؟

تحركت السيارة العسكرية الكبيرة ونحن فيها واقفين واجفي القلوب. الغريب أننا تنفسنا - لحظاتٍ قصاراً ربما - أنفاس ما يشبه الهواء الطلق، وسط غيطان خضراء يانعة في أوائل فبراير الذي لم يكن بارداً، عبر الطريق الترابيّ ثم المسفلت من أبو قير إلى المعمورة، لم تتوقف السيارة فانزاح قلقٌ مساور دفين بأنه ربما يأخذوننا إلى أوردى المعمورة الرهيب سيئ السمعة، لاستصلاح الأرض الرملية الحجرية في أبعدية فاروق وأخواته.

- لا، عدّت السيارة أرض المعمورة وشارفنا القصر الغامض المنيف بأحجارة الحمراء الكابية

لم أستطع مقاومة المجاز - «كأنما معجونة بدماء الناس»، وأبراجه قبيحة المعمار.

ثم انحرفت السيارة إلى شارع أبو قير الخاوي في هذا الصبح الباكر، البيوت العالية مغلقة الشبابيك والدكاكين موصدة الأبواب، وسيارات قليلة تعبر بنا دون أن يعيرنا ركّابها أدنى اهتمام.

لم يكن في شكلنا ما يشبه عمال التراحيل، مازلنا أفندية رغم شَعَث الهندام ومع كلٍ منا شنطة كبيرة أو متوسطة ولفّة فيها أدوات وأشياء.

في فراغ الصبح الساكن انطلق هتاف مفاجئ:

«تحيا مصر»

وعلى الفور رددنا الهتاف وكأنما كان هو الشيء الذي ننتظره دون أن نعرف:

«تحيا مصر»

نظر إلينا جنود الحرس الأربعة، دون فهم فيما يبدو، ولكن دون أن يحركوا ساكنا، اقتربت السيارة من محطة سيدى جابر وفوجئنا بأن ساحة المحطة تبدو كأنها ساحة حرب.

جنود الجيش ضربوا حصاراً محكماً حول ساحة المحطة التى خلت من كل شيء ومن كل أحد، وأقاموا كوردونات على منافذ الشوارع المفضية إليها وقد تجمع عدد قليل من المسافرين والباعة والمارة على مبعدة، يرقبون ما يجرى بفضول.

«يسقط الاستعمار»

«يسقط الاستغلال»

«تحيا مصر حرة اشتراكية»

«تحيا الاشتراكية»

فى خواء الساحة وفراغ الصبح، تحت شساعة سماءٍ مازالت تحجبها سحب الفجر البيضاء الخفيفة تبدو أصواتنا صغيرة كأنها عقيمة لا معنى لها.

الناس من بعيد ينظرون إلى هذه الجماعة الغريبة من الأفندية والعمّال يلوّحون بأيديهم ويصيحون بأعلى عقيرة أصواتهم هتافات بلا سياق وبلا مناسبة.

دارت سيارة النقل العسكرية ودخلت رصيف المحطة الذى بدا أيضاً تحت الحكم العسكرى، خالياً إلا من طابور جنود مصطفٍ أمام قطار واقف مغلق النوافذ تماماً يبدو خالياً من الواضح أنه ينتظرنا.

أعواد الهيش والبوص من ناحية سموحة تحفّ بالمحطة التى ترددت فيها أصداء سقوط السياج الخلفى الحديدى من السيارة العسكرية، ودبدبة نزول العساكر بأحذيتهم الثقيلة على الرصيف ثم نزولنا بين صفين صغيرين من الجنود أمام الباب الوحيد المفتوح من القطار.

صعدنا إلى عربة الدرجة الثالثة بمقاعدها الخشبية وصدمتنا رائحة الكتمة وهبوة غبار طفيف وعتمة خفيفة من وراء النوافذ محكمة الإغلاق.

إلى أين يسير بنا القطار؟

مِزَقٌ من صور ترحيلات ضحايا النازى تخطف بأرواحنا، هل يقف القطار فى أرض صحراوية خلاء، يأمروننا بالهبوط، ويطلقون علينا الرصاص، ويقولون محاولة هرب المعتقلين من أصحاب الأفكار الهدامة، وإعادة الأمن والنظام إلى نصابه؟

أم يسوقوننا إلى معتقل ناءٍ على شط الملاّحات ويسخّروننا فى تجفيف ماء المستنقعات واستخراج الملح الكاوى؟

أم نحن فى طريقنا إلى سجنٍ من سجون الريف أو الصعيد، طنطا أو قنا، حيث نودَع فيه إلى أجلٍ غير مسمًّى، حتى ينسانا الجميع وتمرّ بنا سنوات بعد سنوات من القهر والإهمال أو التعذيب والموت المفاجئ أو البطىء؟

كلّ الاحتمالات مفتوحة، وقد اتخذنا مقاعدنا على المقاعد الخشبية، ومعنا فى العربة عساكر الجيش المسلّحون فى كامل عتادهم الحربى، يمنعونا بالأمر من فتح النوافذ.

النوافذ لم تُفتح قط طول الساعات العشرة التى استغرقتها رحلتنا على خطوطٍ فرعية ووقوفنا بالساعات على محطات جانبية حتى تمر بنا القطارات المنتظمة خطفاً بهديرها وقرقعتها ونحن فى داخل القفص المغلق المتحرك، نعبر بالمحطات الرئيسية بسرعة ونتوقف على خطوط جانبية بعد أكشاك التحويلات.

عندما وصلنا على المغارب إلى محطة هاكستيب كان الجوع والرهَق والملل قد نال منا، وعلى المحطة الصحراوية الموحشة وجدنا سيارة النقل العسكرية - مغطاةً هذه المرّة - تنتظرنا لتوصّلنا إلى معتقل هاكستيب.

كيف تناقلنا الخبر، وكيف تسرب إلينا أصلاً؟

سنقضى الليلة فى هاكستيب، ومن الغد سنُنقل مع دفعة جديدة من معتقل هاكستيب إلى الطور.

الطور عندئذ منفى ناءٍ مقطوع مرهوب الجانب.

كل ما نعرفه عنه أنه الحجْر الصحى الذى يُحجز فيه الحجاج عند عودتهم من الحجاز توقّياً لتسلل الكوليرا إلى البلاد.

كانت سيناء كلها مقطوعة عن جسم البلد بل هى خارج الحدود بالفعل، كان دخولها يحتاج إلى تصريح من السلطات البريطانية، وما من وسيلةٍ للوصول إليها أو الخروج منها إلا عن طريق البحر أو الصحراء الشاسعة.

يعنى كما يقول المثل الداخل مفقود والخارج مولود.

أكلنا وجبة عشاء مرتجلة، عيش وجبنة وحلاوة مع زملاء هاكستيب، وتناولنا شيئاً ساخناً مع أصدقائنا مما أتى به الأهل فى الزيارات.

هل نمنا على الإطلاق ليلتها؟

لم يكن ثم فرش معدّ لنا، تكوّمنا وتمدّدنا كيفما اتفق على بطانيّات مستعارة من الأصدقاء، ولعل الذى أنقذنا أن الجو لم يكن قارس البرد بل على الأصح أميل إلى الدفء والاعتدال فى المعتقل المزدحم المعقّد بل الغاصّ.

كانت أسلاك الكهرباء ممدودة من السقف على نحو متشابك ومضطرب تنتهى بمصابيح صغيرة أو كبيرة فوق مقاصير مرتجلة تفصل بينها ملاءات وبطانيات ومفارش معلقة على حبال، كان المعتقل أشبه بالعنبر العريض الفسيح فى أبو قير ولكنه يختلف عنه فى ازدحامه وتراكم الأشياء والناس فيه وما يبدو أنه فوضى ضاربة ولكنه فى الواقع تقسيمات صارمة للتنظيمات والتشكيلات السياسية، تفصل بين المقاصير المعمولة من البطاطين والملاءات ممراتٌ ضيقة ومتعرّجة، كيف

يتسنى لهم أن يسلكوا طريقهم فيها؟ مواقد الجاز وأوانى الطبيخ وموائد خشبية منشورة ومصنوعة من عوارض السراير أو طوايل النوم، مكدسة بما عليها من كتب وأوراق وعدد وأوانٍ وأباريق شاى وكنكات قهوة وفناجين وأجهزة راديو صغيرة متشابكة الأسلاك مبقورة البطون ولها عيون صغيرة مشعة لفّقها المهندسون والصنايعية من المعتقلين أنفسهم وأطباق وأكواب ومرايا ومحابر وما كان يبدو فى الظلمة الخايلة بين سقوط أنوار المصابيح الكهربية أنه عتاد سحرىّ غامض.

كان المعتقل يسير على أساس شفرات من المعانى تفوق إدراكنا نحن القرويّين الآتين من الاسكندرية، شفرات تحالف وصداقة وزمالة ومعاداة ومقاطعة وخصومات ونزاعات قديمة جاءت معهم من حياتهم فى التنظيمات السرية فى الخارج، ونَمَتْ وتفشّتْ وتغيّرتْ وتشكلتْ من جديد على صيغ أخرى فى اختناق الحبس وتفلُّت الأعصاب واعتناقات أو ارتطامات الأفكار والأجسام أو مفاداتها بعضها بعضاً.

وفى ساعات الليل القليلة عرفتُ لأول مرة - خطفاً من بعيد - أعلام العالم السرىّ الشورىْ ومنهم شوارتز القاهرى (لم يكن شوارتز السكندرىّ من المنقولين إلى الطور، لم أره قط بعد تلك النظرة البعيدة التى رمقنا أحدنا الآخر بها من طابورين متنافرى المآل فى ساحة أبو قير الرملية)، وهنرى كورييل الذى رأيته يتحرك طول الليل كالشبح المؤرق المقلق متوقّداً بحيوية غير مألوفة يهمس إلى هذا ويتأبط ذلك ليمشيا قليلاً وهما يتحدثان بحرارة بالفرنسية غالبا وبالعربية أحياناً، نحيلاً ضاوى الجسم فى شورت كاكى وقميص متهدل مفتوح الرقبة وصندل خفيف يحك بأسفلت الممرات الضيقة، يخفت صوته إذ يمر على البطاطين أو الأكلمة المتربة المتهرئة تقريبا المبسوطة على الأرض، وقادة العمال والنقابيين الذين سوف أعرف أسماءهم من الصور، وعم عمران الشيخ المخضرم الذى عاصر أولى الأحزاب الشيوعية المصرية فى

العشرينيات وَعَبَر بكل السجون قديماً وحديثاً، مكتنز الجسم أشيب الشارب واللحية مشتعل العينين عالى الصوت، لعله كان قد تجاوز الثمانين.

اتخذت مرقدى فى مقصورة أصدقائنا عطا الله وإسماعيل عامر وأمجد كامل، وقد كانوا جميعاً من الباقين فى الهايكستب، فقد عرف المعتقلون هنا مسبقاً أسماء المرحَّلين إلى الطور بوسائلهم الخاصة ومصادرهم العليمة ببواطن الأمور.

كان عطا الله نحيلاً عصبيّ الجسم صافى العينين شعلة دائمة التوقُّد وكان من خصائص حديثه بذاءة الشتائم التى تنثال منه دون اهتمام وكأنما دون قصد وعندما لقيته أول مرة صدمتنى ألفاظ الشتيمة البذيئة - بالأمّ والأبَ - وخَدَشتْ عندى طلاءً پيوريتانياً لم يكن قد سقط عن بنيتى - لعله لم يسقط قطّ حتى الآن - وفهمت أن ذلك ليس إلا إثباتاً لنوع من المروق والتمرد على نفاق المواضعات «الأخلاقية» البورجوازية.

عندما نزلت القاهرة، فى الأوّل، أعطانى عنوان بيته، شارع الشيخ يوسف فى جاردن سيتي.

قضيت الليلة عنده، فى شقة رأيتها فاخرة، فسيحة، أنيقة، حسنة الرياش، ما أبعدها عن بيوت المناضلين الثوريين فى تصوراتى الساذجة لابن أحياء الإسكندرية الفقيرة فى غيط العنب وراغب باشا ومحرم بيه.

نمت على ستوديو عريض فى غرفة مكتبه الحافلة بالكتب الغالية إنجليزية وفرنسية فى الغالب وعربية فى القليل النادر، مرصوصة بعناية فى مكتبة عالية متعددة الأرفف من شجر الأرو الفاتح، وبها أباچورة رأسية تُشتِّت الإضاءة إلى أعلى، وأباچورة على المكتب ينعكس نورها على البلّور الثمين المختفى تحت أكوام المجلاّت الأجنبية المصقولة الملونة ناعمة الورق. لم أقاوم رغبتى فى تقليبها وأن أجوس فى محتوياتها، وأن

أنظر إلى عناوين الكتب وأتمنى لو كانت عندى أقرأها أو أقتنيها، وخفت أن أمسّ أزرار الأباچورة العالية فنمت وضوؤها الخافت الجميل يتشعع عن السقف ناصع البياض الذى فيه إفريز دقيق النحت بلون رمادىّ أو رصاصىّ فاتح جداً.

كان الأستوديو الذى رقدت عليه بعد أن لبست البيچاما الكستور، مريحاً رقيق المضطجع غَاصَ بى قليلاً فلابد أن حشوه كان من القطن الرهيف قلت: ربما ريش نعام.

وفى الصبح عندما استيقظت مبكراً جداً وأنا فى طريقى للحمام مرّت بى سيدة شقراء مكتنزة قليلاً بيضاء الوجه فى قميص نوم هفهاف تحت روب شكله مخملىّ دمث ومنساب وإن كان ناصل الوَبَرة، وقالت لى بعد نظرة دهشة قصيرة، بلهجة مهذَّبة «بونچور» فقلت بصوت خافت «بونچور» وحدست أنها أخت عطا الله أو لعلها كانت چانيت زوجته وعلى أية حال فقد كانت تشبهه جداً، كان عطا الله من أصل شامىّ قديم، وُلد أجداده فى مصر – ربما من أيام الاضطهاد العثمانى فى القرن التاسع عشر– لم أسأل ولم يكن يهمنى أن أعرف، وعلى مائدة الإفطار الحافلة بما لم أكن أدرى من صنوف الجبنة الفرنساوى والزيتون الرومى والكورن فليكس وسلاطة الفواكه وأنواع المرّبات مع طبق الفول المدمس – طبعاً – بزيت الزيتون، كانوا يتكلمون فرنسية أهل الشام بلكنتها الممدودة فى آخر الكلمات التى كنت أميّزها عن فرنسية أهل فرنسا على قلة معرفتى باللغة ولكن المسييه فيشتر السويسرى الذى لقّننى أصول الفرنسية فى التوجيهية علمنى بمجرد إلقائه الموسيقىّ الرخيم أن أفرّق بين اللهجة الأصيلة واللهجات الهجينة.

تولدت وتوطدت صداقتى بعطا الله – أكثر من مجرد الزمالة بكثير – وعندما التقيته فى هايكستب استضافنى فى مقصورته الضيقة التى تحجبها ملاءات وبطاطين معلقة على حبال ممدودة التى كانت تضم أيضاً

أمجد كامل وإسماعيل عامر، ولم تكن عنده أسرّة بل مجرد مراتب على الأرض، مكسوة بملاءات وبطاطين ثمينة واضح أنها ليست «ميرى» بل من البيوت.

كنت الوحيد الذى رُحّل إلى الطور من حلقتنا الثورية ومن كل زملائنا الإسكندرانيين والقاهريين أيا كانت درجة أو وثاقة زمالتهم. وكان الثلاثة الذين قضيت الليل فى ضيافتهم هم آخر «الزملاء» الذين أراهم قبل ترحيلى فى الصباح الباكر، الروتين أصبح غير غريب: الانتقال بسيارات النقل العسكرية إلى محطة السكة الحديد الصغيرة فى هايكستب والقطار المترب موصد النوافذ والأبواب، ولكن هواجس الترقُّب ومخاوف المصير أصبحت أعنف وأكثر ضراوة وأعصى على التظاهر باللامبالاة التى كنا قد اتخذناها قناعاً ودرعاً.

الطور صحراء نائية شاسعة لا طريق إليها ولا عودة منها.

هل سوف يأمروننا بالوقوف صفاً ويعصبون أعيننا ويطلقون علينا الرصاص؟

أم يسمحون لنا بالجرى فى الصحراء ويضربون علينا بالمدافع الرشاشة الصغيرة بحجة أننا حاولنا الهرب؟

أو يتركوننا نموت جوعاً وقهراً فى الصحراء اليباب؟

هل سنحفر خنادق عبثيّة فى الرمل لكى نردمها ثم نحفرها من جديد بلا انتهاء؟

هل سنحفر قبورنا بأيدينا ونقف على حافّتها وعندما يرتطم الرصاص بصدورنا نسقط فيها لنوفّر عليهم عناء الحفر والدفن؟

أفلام هوليوود عن فظائع النازى واليابانيين لا تقل رعباً عن وقائع ليست سينمائية ولا دعائية بل - للأسف الممضّ - أرضيّة، توشك أن تصبح عاديّة مأخوذة مأخذ الأمر المسلم به؟

أكان فى نظرة عطا الله وزملائنا إلينا ما يحمل كلّ هذه النُذُر، وما

يشى بكلّ هذه الإمكانيات؟

كان النقراشي قد اغتاله الإخوان المسلمون وجاء عبد الهادى، وتواترت أنباء فلسطين بما فيها من فجائع وهزائم، الأسلحة التى تنفجر فى وجوه جنود الجيش الملكى، وحصار القوات الإسرائيلية لفصائل مصرية مقاتلة وباسلة، واغتيال حسن البنّا انتقاماً لمقتل النقراشى، كان العنف المستتر المقنّن المنظّم قد أسفر عن وجهٍ قبيح، فلم لا؟

بعدما انزاحت كوابيس الطور وأبو قير، بسنوات، وتقلّبتْ بى الصروف والمحن وأنواء الحبّ، ثم نزحتُ إلى القاهرة فى العام السادس والخمسين كان عطا الله قد أنشأ داراً ومكتبة للنشر والتوزيع، فى شارع ثروت باشا.

فى هذه المكتبة التقيت بجانيت، زوجته. تذكّرت أننى رأيتها فى الزمن القديم، لم تكن تتكلم لغة المثقفين بالعربية، كانت شخصاً مرهف القوام، تشعّ بساطة وصدقاً وما أراه نادراً كلّ الندرة حقاً: إخلاص الحب، أو خلوصه من كل شوْب. كان وجهها الأبيض رقيقاً دقيق العظام، متهضّماً فى غير نحول، مشدود البشرة فى غير توتّر، وكانت أناقتها من النوع الذى لا يعلن عن نفسه، ليس فيها أدنى بهرج أو سفسطة، منسرحة منسابة وجذابة.

وكان عطا الله سيّداً مضيافاً ومبسوط اليدين فى المكتبة، لم يكن يتردد فى أن يُعير أحداً ما يطلبه من كتب، عارفاً أن سيخسرها وأنه لن يستردها، وعندما تأتى الساعة الثامنة مساءً كان يغلق أبواب المكتبة، ويدعو المثقفين التى تزدحم بهم إلى الخروج، وعلى الرغم مما يبدو من فوضى حياته كان يحافظ بدقة على هذا الميعاد.

كان يقول لىّ: الآن أذهب آخذ ذقنى وإلا فإن جانيت لن تقبّلنى ولن تنام معى.

ويضحك ضحكة خافتة مستمتعة بالإقبال على الحياة وباستشراف نشوات الحب.

وفى مكتبته التقيت بأعلام الأدب والصحافة فى ذلك الحين، وسمعتهم يقولون بلا تورُّع ولا حياء عكس ما يكتبون بالضبط، وكان هذا الخداع وهذه الازدواجية الفاضحة وهذا النفاق السافر تدفعنى - بالرغم عنى - إلى أن أعود محبطاً خائب الأمل خائر القلب إلى الشقّة التى أقطنها مع صديقى الفونس رزق الكاتب المسرحيّ المرموق الذى ذاع صيته بعد ذلك بسنين بعد أن سُجِن فى الواحات وعُذِّب بالفعل - كما كنا نتوقع أن نعذَّب فى الطور - ثم أصبح من أعمدة الحياة الثقافية فى البلد ومن كتّاب المقالات المنتظمة فى أهم صحف المؤسسة أو السلطة أو سمّها ما شئت، الإسكندرانىّ الأصل. أعود إلى شقته التى كنت أقيم فيها معه فى الدور السابع أو الدور الحادى عشر فى المبتديان، كان يوسف إدريس يقيم فى الشقة الأرضية ثم انتقل بعد زواجه إلى شقة علوية.

أجد نفسى أتقيأ. أطرد فيزيقيّاً وطأة القرف والاشمئزاز التى تقبض على معدتى وتخنقها فعلياً من أثر نفاق وازدواجية أعلام المثقفين والصحفيين.

فهل كنت حقاً ساذجاً، فيزيقياً وعضوياً، إلى هذه الدرجة؟

ولكنى بالطبع لم أعدم أن ألتقى فى مكتبة عطا الله بمثقفين ثوريين حملوا عبء مسئوليتهم وحريتهم كاملاً، سجنوا وعذبوا وشرّدوا ولم تغوهم - أو تجرفهم كثيراً عن إيمانهم - مواقع السلطة إذا عرفوها أو مواقع النسيان والإهمال والإخفاق والإحباط فى حالة الأغلب من شرفائهم. يعنى .. المهمّ..

ولكن عطا الله مع ذلك لم يستطع أن يخاطر بنشر مجموعة قصصى البِكْر، وجد فيها من المروق على المألوف ما قد يجرّ عليه خسارةً

مؤكدة، فأوصى أصحاب دارٍ يسارية أخرى، وعندما قرأوا المخطوط وافقوا بحماسة على نشرها.

لم يتعين لها النشر لا عندها ولا عند أية دارٍ أخرى، فقد جاءت ليلة ٣١ ديسمبر ١٩٥٨ واعتقل الجميع.

لم أفهم لماذا لم أُعتقَل معهم، إلا أننى كنت فى موقعٍ من مواقع العمل الوطنى التحررى الذى كانت السلطة الناصرية تبسط عليه رعايتها وتوجُّهاتها التقدمية من غير أن تسيّره تسييراً فعلياً مباشراً.

سمعت أنه عندما جاء بن بيللا إلى السلطة طلب عطا الله بالاسم مستشاراً له ولسلطته الجديدة فأُفرج عنه وسافر إلى الجزائر.

فى مطار بومدين بالجزائر كنت فى صفّ القادمين إلى العاصمة، تسير ببطء نحو باب الدخول، وفى مقابلنا من الناحية الأخرى صف المغادرين يتجهون إلى الخروج، والصفّان يتحركان فى عكس اتجاه أحدهما الآخر، وإذا بى أجد عطا الله فى الصفّ المقابل. خرجنا من الصفّين، تعانقنا بكلّ حرارة اللقاء المفاجئ وبكل الحيوية والحميّا المكبوتة طوال سنوات ثم افترقنا كلٌّ منا فى طريق.

والطريق طويل وصعب تقلُّبه.

قبل أن يموت بسنة أو سنتين رأيته فى شقّته الباريسية التى قطعتُ إليها ساعات من البحث والنزول فى أنفاق المترو الباريسىّ والطلوع منها، بشقّ الأنفس.

استقبلنى وهو يجّر ساقه اليمنى يزحف بها زحفاً بطيئاً، كان قد اعترته جلطة شُفى منها، تركت فيه هذا الأثر لكنها لم تخفّف من حيوية مازالت دافقة ومن حماسةٍ مازالت متقدة، كان قد كتب كتاباً فريداً عن فلسطين، وقد اعتنق قضيتها فى مواجهة خضمّ المعترك الأوربىّ الصهيونىّ عارم السطوة، وكان قد سمع ببعض ما كتبت من روايات وقصص وهنأنى بذوقٍ وكياسة ولكن دون كبير حماسة.

جاءت چانيت زوجته التى عاشت معه كل محن النفى والتشريد، سيدةً أصبح أثر السنين والمشاركة فى المتاعب واضحاً على محيّاها الجميل، خطوط الغضون الرقيقة في البشرة البيضاء، والترهُّل الخفيف تحت عظْمة الفك الرقيقة، وما يشبه الغيام فى العينين العسليتين.

لم أرهما بعد ذلك.

كانت خطواتي ثقيلة وكنت حزيناً وأنا أخرج من العمارة الشاهقة الهادئة وأعبر حديقتها الصغيرة اليانعة.

منّيت نفسى بلقاءات كثيرة نتكلم فيها أكثر على سجيّتنا فى كل شيء، من الثورة إلى الحب ومن السياسة إلى الفن.

لم يحدث.

الفصل الثالث والعشرون

القطار الموصد المترب أصبح كالفرن، الصهد يثقل على المقاعد الخشبية في عربة الدرجة الثالثة التي يشق القطار بها الصحراء الشرقية. من خلال خصاص نوافذ القطار نسترق النظر حيناً بعد حين إلى رمال قاحلة منبسطة، تبدو بلا نهاية.

يقف القطار - كالمعتاد - في قلب الخلاء، على خطوط جانبية بعد أكشاك المحولجية، ويبدو أن وقفته لن تنتهي، حتى يمر قطار يخطف ويمرق في هدير القوقعة والانطلاق العفيّ، وفي الوقفة التالية ننتظر مرور القشّاش الذى ترتطم عجلاته الحديدية بالقضبان بإيقاع رتيب، ويأتي بعده قطار البضاعة الذى نسمع خبطاته المتعاقبة المتلاحقة في هدير متصل متراوح يستغرق أمداً طويلاً، طويلاً جداً.

فما من غرابة أننا كنا نستشرف الوصول إلى السويس بأى ثمن وأننا سعدنا - بمعنى ما - عندما حطّ القطار في وقفته الأخيرة، نزلنا متلهفين بسرعة لنجد أنفسنا في قلب رصيف الميناء، وقد وقف القطار على قضبانه قريباً جداً من آخر الرصيف، والمياه العكرة التي تطفو عليها بقع لامعة متقلّبة الألوان من الزيت فيها عكارات كثيرة ترتطم بحجر الرصيف في كسل، وعلى الرصيف الباخرة عايدة، ليست كبيرة، تبدو في شمس آخر الصبح كأنها لعبة قوية.

وما من غرابة أن نجد صفّيْ عساكر الجيش على الجانبين، يحدّدان ممراً ضيقاً علينا أن نعبره حتى نصل إلى السلّم الخشبي المتأرجح الممدود بين الرصيف وسطح الباخرة.

انتشر الخبر بسرعة البرق، كأنما تناقلنا، على الفور، أن الإخوان المسلمين قد سبقونا، وأنهم كانوا فى العربة الأخيرة من القطار وأنزلوا بالضرب إلى بطن الباخرة حيث رُدّت عليهم الأبواب الحديدية العلوية والجانبية معاً.

نزلنا رافعى الرءوس، مشدودى الصدور، ومن غير اتفاقٍ معلّن كنا على أهبة تلقّى أى شيء بكلّ الكرامة والعزة كما يليق بالمناضلين الثوريّين أو المعتقلين السياسيين.

ولكن الضابط الذى رافقنا من الهايكستب كان جاداً ومترفّعاً وصموتاً، أشار إلينا فقط، وقطعنا الممر على رصيف الميناء بين صفّىْ العساكر دون هرولة ودون تباطؤ.

نسائم البحر الدافئة الملحية كانت عذبة رحبت بها صدورنا المختنقة بعد رحلة القفص السخن المغبرّ من محطة الهايكستب وعلى حفافى الغيطان وعبر الصحراء.

وقف ضابط ومعه عساكر قلائل على سياج الباخرة من الجانبين، وتركونا فى حالنا، كأنهم معنا فى رحلة بحرية أو كأننا لم نعد نمثّل خطراً، فماذا يمكن أن نفعل الآن بين البحر والجبل؟ ومن الذى يهمّه أمرنا؟

الغريب حقاً بعد ذلك أننا كنا نستشعر بالفعل أننا فى نزهة جميلة. كان البحر هادئاً والبواخر الضخمة تحفّ المشهد تطلق صفّاراتها المدوية التى يتردد صداها قوياً حاشداً فى السماء بين الحين والحين، وعليها وحولها قامات تبدو صغيرة وبطيئة الحركة من البحّارة والبمبوطية فى قواربهم الصغيرة المتأرجحة، ومبانى الميناء تبدو على ضخامتها بعيدة وإن كانت كل تفاصيلها المعمارية واضحة فى الشمس كأننا نراها من خلال تيلسكوب مقرّب.

ارتفعت فجأة صفّارة الباخرة عايدة واهتزّ جسدها بذبذبات المحرّك

التى بدأت ضعيفة واهنة كأنها مترددة ثم استجمعت طاقتها شيئاً فشيئاً وبدأت عـايدة تترنّح بأهون حركة لا تكاد تُحس يمينا ويساراً، وكان السلّم الخشبى قد رفع من وقت، بعد أن حط آخر زملائنا على سطح الباخرة.

اخترت موقعاً فى مقدمة السطح، من ورائى، على مبعدة، نتوءٌ معدنىّ لبعض أجزاء الباخرة، وضعت حقيبتى الجلد الصناعى أى المعمولة من ورق كرتون مقوى مصبوغ بلون الجلد، تحت رأسى، كانت طريّة بما فيها من ملابس قليلة وكتب وأدوات كأنها مخدّة من نوعٍ ما، وكانت أشعة الشمس تدفئ القلب وقد بدأت الباخرة تتحرك تشقّ طريقها، ثم تخرج إلى عرض البحر تمخر أمواجه بشقة دون اهتزاز ملحوظ، بل بإيقاع مهدهد للروح.

كأنما انفساح الأفق قد أنسانى سور الأسلاك الشائكة الذى طالما ارتطمت به عيناى حتى أوشك أن يصبح الإطار الطبيعىّ لكل ما يقع عليه بصرى.

هنا انزاح السور، والشوك، والقيد.

ولو لبرهة قصيرة.

ماذا يهمّ ما الذى تخبئه لنا الأيام القادمة، الحسُّ بنشوة الإبحار فى الشمس والهواء الطلق - وياللغرابة - هو الذى استأثر بالروح، وسكب فيها رحيقاً عذباً طالما افتقدتُه.

وكأنما عاد إلىّ - من غير نوستالجيا ولا افتقاد - إحساسى وأنا على الكوتر فى طريقى إلى الرأس السـودا فى الميناء، ورحـلات المرح وموسيقى الرقص على سطح المركب الخشبى الشراعى العريض الذى تصطدم أمواج إسكندرية الزرقاء عميقة الزرقة بأخشابه فى صوت رقرقة طفيفة ولكن مسموعة.

رقرقة أحلام ملحية ترتطم بجسدى الذى استرخى عارياً يتشرب

الشمس وهواء السماء المفتوحة التى لا نهاية لعمق صفائها.

أقول «نحن.. كنا».. وأعنى ما كنت أعرفه فى نفسى وأحدس أنه قائم ومتحقق عندهم، أى عندنا جميعاً.

كان حسين شكوكو قد بدأ يتغنى بموّال إسكندرانى، بصوت خفيض ومستمتع:

يا ريِّس البحر خدنى معاك أحسنْ لى
أتعلِّم الكار يوسِّع البال أحسن لى
ما تخدنى نوتى أشدّ البَانْ أحسن لى
أنا من مِيلة البخت وَسَقْت مركبى جِبْس مع مونه
وطلعت أُروض البحر ما بين غروب وعصارى
باشبل بعينى لقيت العويل أطول من الصارى
طبّقت المدارى وقلت البرّ أحسن لى

يا حسين، أين البحر؟ أين المراسى؟ شطّت بنا شقة الرحلة إلى أشواقنا الحرّى، شقّت المسيرة علينا.

قلت، يا معت، إلاهة العدالة صاحبة الريشة العالية والميزان الذى لا يخطئ شَعْرَة.. هأنذا أذكرك بعد غربةٍ طويلة، فهل ذلك لأننا قطعنا مرحلةً من الغربة وها نحن نوشك على مرحلة أغمض وأعتى وأضْرى؟

هذه الرحلة إلى المجهول، تحنو علينا فيها شمس الشتاء الطيبة ونسائم البحر وطِيب رفقة صحاب جاءوا معنا من معتقل صحراوىّ آخر قد نكون لا نعرفهم بالاسم ولكن ما أوثق معرفتنا بهم وعرفاننا لهم، لحظة ما أغرب أن أسميها لحظة سعادة، ولكن..

سعادة؟

نعم، سعادة، حتى لو كانت ملتبسة تحفّ بها، من بعيد جداً وساوسُ المجهول، لكنها بالفعل سعادة الحواس المستمتعة بأشياء بسيطة جداً كالشمس والهواء وانفساح الأفق واسترخاء الجسم ونوع من الاستعداد

الداخلى الكامن لكلّ ما سوف تتمخض عنه الساعات أو الأسابيع أو حتى السنوات القادمة .. «سعادة» فيزيقية بحتة لكنها أيضا نابعة من شجاعة القلب.

بدت لنا مخايل الشاطئ من بعيد، وقفنا وأسرعنا إلى سياج الباخرة، ننظر إلى المرسى بلهفة.

كان كل شيء هادئاً صامتاً، خاوياً.

ليس هناك أحد ولا شيء.

الرصيف الذى وقفت عليه الباخرة لم يكن إلا رصيفاً خشبياً يطفو ويتأرجح على أعمدته الحديدية الصدئة المضروبة فى القاع.

هتف محمود وانضم إليه كثيرون: هناك على اليمين انظروا..

كانت على مَرْمَى البصر سمكة كبيرة تشق سطح البحر الساجى عميق الزرقة، سمعتُ: قرش.. قرش.

ردّتْ عليه صيحة أخرى: لا، لا ياشيخ هذا دلفين.

كان ذلك سرباً منها، تقطع الموج الساكن فى سرعة وتصميم، بعيداً عنا.

نزلتُ مع قافلة المعتقلين على سقالة خشبية ومنها إلى رصيف حجرى ثم الرمل.

شاهدنا على الرصيف الحجرىّ بناءً تقليدياً على الطراز الإنجليزىّ الاستعمارىّ، السقف المثلث عليه القرميد الأحمر، ومن الباب لمحنا ثلاثة أربعة موظفين بالزىّ الرسمى وراء واجهات زجاجية، وعلى الباب يافطة بالإنجليزية فقط Post - Telegraph.

كانت أبنية محجر الطور الصحى قريبة، قطعنا المسافة إليها، على مدقّ رملىّ فى خمس دقائق أو نحوها.

اكتشفت أن حذائى قد انفتحت فوّهتُه، وبانت منه أصابعى فى الشراب الذى سرعان ما غطاه رمل خفيف، وفى الوقت نفسه وأنا فى

لهوجة النزول شددت حقيبتي فانكسر قفلها الصغير، وأوشكت أن ينـدلق منهـا كل شيء لولا أنني أمسكت بهـا بشـدة أضم جـانبيـهـا المفتوقين، وأكافح في المشي بالحذاء منفرج الفم الذي يشرب الرمل.

دخلنا من باب واسع مفتوح إلى ساحة المحجر الصحيّ الذي تحول إلى معتقل.

كانت أبنيته متجاورة بسيطة بل ساذجة التصميم: صفّان طويلان من الأبنية بينهما ممرات أو فُسَح، والمكان كله يبدو واسعاً وخاوياً وليس فيـه إيماءة إلى أنه سجن بل هو أقرب إلى مباني المعسكرات المهجورة التي تتدرب فيها فرق كرة القدم مثلاً.

كان سوره المنخفض من السلك البسيط المشبّك، أقرب إلى سياج رمزي منه إلى سور حقيقيّ.

إلى يمين البـاب مكتب قومندان المعتقل والضـابط النوبتجي، الذي طلب منا بأسلوب جادّ ومهذب في الوقت نفسه أن نقف على شكل صفّ من اثنين حتى يتمم على الأسماء.

لم يكن يعرف سانْك سانْك.

لم أسمعها مرة أخرى، ولكنها تتردد في مسامعي بقوة ووضوح طيلة أكثر من خمسين عاماً، حتى الآن.

سانْك سانْك.

معتقل الطور في ١٣ فبراير ١٩٤٩

والدتي المحبوبة : أهديك أرق تحيتي وأخلص شوقي

نقلت من معتقل أبي قير إلى معتقل الطور وصحتي جيدة والحال هنا لابأس بها، فالمكان على شاطئ البحر وصحي، وكل ما أرجوه ألا تستسلمي للحزن أو للهموم، فأنا حالتي طيبة ولا جدوى هناك من الحزن أو الهمّ.

أرجو إرسال الأشياء الآتية فى طرد بطريق البريد حسب معلوماتكم من المحافظة :

أولاً : الملابس: ١- ملابسى كلها وعلى الأخص الشورتات

٢- جزمة أو سلبس أو صندل نمرة ٤٠

ثانيا : التموين: ١- مأكولات محفوظة مربة وجبنة وسردين. .إلخ

٢- أقتين ثلاثة أرز ٣- ليمون ٤- علبة أمواس للحلاقة ومعجون للأسنان ٥- بعض من الصابون ٦- علبة أقراص أسبرو ٧- معدات الشاى (وقد تركتها فى أبو قير)

ثالثا : الكتب : مهمة جداً وأرجو الاهتمام بها خصوصاً :

١- زجاجة حبر «واترمان» للقلم الحبر ٢- نصف دستة أقلام رصاص ٣- نصف دستة كراسات (١٠٠ صفحة للكراسة) ٤- مجموعة كتب من المكتبة ويمكن الإستعانة بأحد أصدقائى لاختيارها، وعلى الأخص الكتب التالية أو غيرها حسب الظروف :

1-Letters from the Underground.. Destoevsky
2-Creative Evolution.. Bergson
3-House of the Dead.. Destoevsky
4-Through Russia.. M. Gorky
5-Virgin Soil.. Turgenev

وإذا حضر أحد أصدقائى فى البيت فأرجو الاستعانة به فى اختيار هذه الكتب وغيرها وإذا أمكن أن ترسلوا لى كتباً أساسية (text books) فى العلوم الآتية :

1-Economics 2- Sociology 3-Psychology

والدتى العزيزة

أرجو وأكرر الرجاء ألا تضرى نفسك وصحتك بأى حزن أو قلق، كذلك أرجو أن تكتبوا لى على حالتكم بالتفصيل وهل قبضتم الإعانة؟ وكذلك إذا كانت طلباتى ترهقكم من الناحية المالية فلا تتعبوا أنفسكم ويمكنكم إرسالها على دفعات أو عدم إرسالها إذا كان

فى ذلك إرهاق لكم ولكن أرجو إرسال الكتب وأدوات الكتابة فى أقرب فرصة.

وأخيراً أهدى لك يا والدتى أرق سلامى، وتحياتى الأخوية الحارة إلى هناء وقبلاتى لإيزيس ولويزة وفوفو وأرجو أن أعرف كل أخباركم بالتفصيل على عنوانى الآتى: معتقل الطور

ومازلت يا والدتى ابنك الوفى،،

(إمضاء)

ملحوظة: سطر مشطوب عليه وغير مقروء

ياريت كتاب Hugo، و غيره من الكتب الأولية لتعليم اللغة الألمانية (تركت هذا الكتاب وغيره فى معتقل أبو قير فأرجو إرسالها).

نظر، صالح، ٢/١٤

أول مارس ١٩٤٩

ولدى العزيز، دمت

أهديك سلاماً عدد النجوم فى سمائها والطيور على أفنانها، وبعد أعرفك بأننا طيبين وبخير ولا يكون عندك أى شاغل من جهتنا، وطلباتك من عنينا كل ما تطلبه سيرسل لك فى أقرب وقت واللى أنت عايزه عرّفنا به.

سمعت أنك أرسلت خطاباً لخالك يونان وهو أنت عارف بأنه دخل علينا البيت من يوم اعتقالك حتى أنك تكاتبه؟ وأنت يجب إنك تشد حيلك وتتحمل التجارب التى يرسلها الله لأن الرب يسوع لا يجرب إلا عبيده الصالحين. ونعرفك بأن الإعانة صرفت عن شهر يناير وللآن لم تصرف إعانة فبراير.

ونعرفك بأننا أرسلنا لك بتاريخ ٢٤ فبراير ما يأتى:

٢ دستة أمواس حلاقة، ٤ أقلام رصاص، ٤ كراريس، ٥ باكوات أسبرو، غيارين، بيجامة، وسلبس، وجوز شراب، وشورت، معجون

أسنان ، أقة مكرونة ، أقة أرز ، أقة جزر ، أقة تين ، نصف أقة بلح ، أقتين بقسماط ، ٣ علب سردين ، علبة مربى ، ٨ ليمونات .
وكن مطمئنا من جهتنا للآخر ولا يكون عندك أى فكر بل فكر فى نفسك ، واحنا بصحة جيدة وضرورى من مكاتبتنا دائماً لأن المكاتبة نصف المشاهدة ، لأننا مالناش غيرك الله يراعينا فوق وأنت تراعينا تحت وربنا ما يحرمنا منك ويطول فى عمرك ويحافظ عليك ويردكم جميعاً لأمهاتكم سالمين.
مرسل طيّة مائة قرش و٥ ورقات بوسته ربما لا يمكنكم شراؤها وأخيراً سلامى وقبلاتى الحارة لك يا ولدى الوحيد ودمت لأمك .

والدتك

أخى العزيز أدامه الله لنا
قبلاتى لشخصك المحبوب وأرجو لك صحة طيبة وصبراً على هذا الفراق الذى حكم به الله ردّك الله إلينا سالمًا ومتعنا برجوعك إلينا سالماً غانماً .
أختك فوفو تقبلك وتطلب من الله رجوعك إليها سالماً ، كذا أختاك لويزه وإيزيس يهديانك شوقهما وقبلاتهما لا حرمهما الله منك .

أختك هناء

تحريراً فى أول مارس ١٩٤٩

ملحوظة : عرّفنا أنت أخذت الشنطة معك أو تركتها (شنطة صبحى) وعرفنا ماذا أخذته بالضبط وماذا تركته لأجل أن نسأل عنه ونتسلمه ، هل أخذت البالطو أو تركته . ضرورى تعرفنا بخطاب حالاً حالاً

نظر ، صالح ، (إمضاء) ٣/٦

وجدت نفسى هنا الوحيد من جماعتنا فى الإسكندرية ، أما من القاهرة فقد كان الوحيد الذى أعرفه هو حسن رشدى ، ووجدت أنه قد

نأى بنفسه بعيداً وأولانى لا مبالاةً ظاهرة، وكانت له من أول لحظة مواقف غريبة في الانعزال مع طائفة من «شذاذ» الشيوعين أو أشباههم أطلق عليهم المعتقل كله وصف «الشراذم».

كنت في واقع الأمر «شرذمة» تتكون من واحد فقط.

لكننى دون تردد اتخذت قراراً شأن معظم قراراتى الحقيقية ليس بإملاء من العقل والتفكير والموازنة بين الصالح والطالح، ذلك يفضى عندى إلى بلبلة وخطل في الرأى والسلوك معاً - ولكنه قرار منبثق مباشرة من الجسد كله، حسّاً وعقلانياً وكياناً، دون لحظة حسابات.

أن أنخرط في العمل متضامناً مع أغلب المعتقلين حتى النهاية، وجميعاً ينتمون إلى تنظيمات لا علاقة لى بها بل لا أكاد أتبين الفروق بينها من قبيل: ش م، ن ح س، ح د ت و وغيرها وغيرها.

وجدت أننى دون تفكير ودون تخطيط أختار أن أضع نفسى مع جماعة الإسكندرانية القلائل الذين عشت معهم في أبو قير في العنبر ٧: صابر ومحمود وحسين، شوقى ولطفى ووجدى.

أخذنا مواقعنا في غرفة ٣٦ من الحزا رقم ١.

لم يكن في الأمر شيء من الصعوبة، ألواح خشبية مثل طوايل الفرانين وعليها مرتبة من القش ومخدة مثلها وبطانية ميرى، هذا كل شيء.

كان موقعى بين محمود السفروت المتهور الانفعالى الذى أحببته كثيراً ولطفى مدكور العقلانى الصموت الذى يبطئ في الكلام حتى يزن كل كلمة قبل أن تفلت منه ولا تُحمد عقابيلها، ولكنه مع ذلك أبيض القلب.

وعندما ننتقل بعد حملات تفتيش ضارية إلى الحزا رقم ٧ ثم رقم ٤ ثم رقم ١ مرة أخرى سنختار غرفة لنا نحن معاً، جماعة إسكندرية.

وكما يقال - وكما حدث بالفعل - انخرطتُ تماماً في الأنشطة اليومية، عهدت إلىّ لجنة الشئون العامة بالاشتراك في تنقية ما يورّده

المتعهد للمعتقل من فول ورزّ وعدس، وتقشير بطاطس وبصل، اشتغلت مع لطفي ومحمود في إصدار صحيفة حائط للمعتقل ثم للحزاء، وفي إنشاء وترتيب إجراءات مكتبة يستعير منها المعتقلون الكتب والمجلات ويردّونها وفق سجل محكم ومواعيد دقيقة.

الشيء الوحيد الذي أدركت أن ثَمّ تعليمات قيادية قد جاءت به هو الصمت عن مناقشاتي في تاريخ الثورة، وانشقاق الحزب اللينيني ومرامي الثورة الدائمة وتحليل الأوضاع الطبقية المصرية وارتباطاتها الأممية، ذلك كله وجدت نفسي مضطراً أن أكفّ عنه تماماً، كانت الصورة بالتقريب أنهم يسمعونني، بأدب، بنصف أذن، ثم لا يردّون بشيء على الإطلاق، لا يجيبون، أو يتظاهرون أنهم قد نسوا شيئاً لابدّ أن يفعلوه الآن وينصرفون عني بكياسة وذوق.

وجدت نفسي وحيداً تماماً في غمرة انشغالٍ متصل بأعمال المطبخ والنظافة والثقافة والصحافة (في حدودها) إلاّ أنّ تؤنسني أفراس الشعر الجوامح مكتوفة كامنة لا تريد أن تكفّ عن صهيلٍ غير مسموع وإيقاعات موسيقى داخلية تمور وتتشعع وتخبّ خبباً في سحاباتٍ سبعٍ تدقّ عليها في سماوات جبل أخميم أرجُلُ الإله «مين» إله أجدادي الوثنيّين، إيمانهم العنيد بالحياة مازال يضرب في روحي - هأنذا قد عدت إلى أخميم من صحراء جبل الطور - أطياف فاطمة المغدورة المذبوحة وعينيها المحدّقتين إليّ بصمت وسؤال لا إجابة عنه من رأسها المنمنم المفصول عن جسد باذخ السموق، ونوريس شعرها الذهبي تهز رأسها بحركة نزقٍ أنثوي تبرق عليه أشعة شمس الظهر الشتوية في مدرّج كلية الحقوق منذ سبع سنواتٍ لسن عجافاً بل حبلى مثقلات، أوديت الأنيقة صغيرة الجسم مستدقة الذقن حاملة أعباء محبة لا ارتواء لها يأتيني صوتها تقول بأشعار راسين ولامارتين في لغتها الأصلية فلا أكاد أصيخ سمعاً لما تقول.

وهتافات جموع حاشدة تطلب العدل والحرية بكل اللغات من «الانترناسيالى» العريق، طال عهد النوم فيكم والأعادى ساهرين أنعيمٌ وبَنُوكم فى المنافى تائهين، الهارْب الفرعونى يسيل بمقامات اللوعة والحنان مع ترقيصات شهر زاد العربية ورفرفة بانديرا روسا على جماهير متلاحمة الصفوف تقتحم قصر الشتاء وسراى عابدين ورأس التين فى انتصار لن يجىء أبداً، بل سيجىء سيجىء.. وها هى ذى صفوف الناس الذين بلا اسم ولا تصنيف تتدفق أطيافهم أمامى تحت الراية الحمراء المرفرفة المرفوعة أبداً.

المساحة الرملية الخاوية.

طعنة ثاقبة مفاجئة من ضربة الصنوج جنبى ينزّ بعدها الدمّ والخلّ بنداء الباصّ الأجش الصاعد إلى القمر يستنجد به من أوجاع القلب المقروح التى لا اعتراف بها بل لا إدراك لها.

رأس المفكر القائد الشامخ الذى أنقذ ثورة أكتوبر قد فصلته ضربة البلطة المكتومة، دقّة الطبل الضخم المدوّى فى مغاور غير مسبورة الأعماق. لن أبرأ أبداً من تروتسكى ولامن المسيح.

ينسكب القمر الفضى المدوّر ويذوب فى خفقات الروح العميقة التى لا يستجيب لها أحد.

الفصل الرابع والعشرون

هل اندثرت كل هذه الأشواق؟
أعزّى أو أعلّل النفس بأن تاريخ مسيرة، الإنسان، كلّ إنسان، على طول الحِقَب وآماد الدهور هو تاريخ أشواقه الغامضة.

في يوم ١٦ مارس ١٩٤٩ حدثت عدة أمور:
كنت بالأمس قد تلقيت من مكتب الضابط برقية من أميّ، عليها ختم دائرى «الطور» والتاريخ بالحروف اللاتينية، إلى الأستاذ «.......» المعتقل بجبل الطور.
«أعلمني تلغرافياً بصحتك بالتفصيل هل الجنيه وصلك».

وكتبت في صباح ذلك اليوم، خطابًا:
معتقل الطور فى ١٦ مارس ١٩٤٩، معتقل الطور السياسيّ، حزاء ٤
والدتى العزيزة
أرق تحياتي وقبلاتى البنوية الخالصة مع شوقى الحارّ، وأرجو أن تكونوا فى خير صحة وأحسن حال.
كتبت لكم خطاباً بتاريخ ٧ مارس الماضى ويظهر أنه لم يسافر من هنا حتى الآن، وعلى كل حال فقد ذكرت لكم فيه أننى استلمت الطرود والجنيه.
تلقيت تلغرافكم أمس بعد الظهر وأرسلت لكم اليوم (١٦) مارس تلغرافاً. وكل ما أرجوه منكم ألاّ تنشغلوا بغير داع - كما هو المألوف - وألاّ تظلوا تفكرّوا بدون ضرورة، فأنا هنا بصحة جيدة جداً.

والأحوال على العموم طيّبة (مرة أخرى الأكاذيب البيضاء..!) ولا لزوم مطلقاً أن تبعثوا أية تلغرافات من هذا النوع في المستقبل.
أرجو إرسال الشورت الأبيض الثاني في الطرد الآتي ولا أذكر إن كنت نسيته في أبو قير أو أنه في البيت. كذلك أرجو إرسال كوستيم بحر في الطرد الآتي كما أرجو إرسال بعض الكتب.
مرة أخرى أؤكد لك يا والدتي المحبوبة أنني في خير صحة وأرجو أن لا تستسلمي للتفكير أو الهموم.
أرجو إفادتي هل استلمتم إعانة شهر فبراير؟ بلغني أن الإعانة خفضت إلى ثلاثة جنيهات فهل هذا صحيح؟ إذا كان هذا صحيحاً فاكتبو تظلّماً إلى الحاكم العسكرى العام وإلى الحاكم العسكرى لمدينة الإسكندرية تذكرون فيه كل الظروف السيئة إلى آخره.
أعطر سلامي لأختي المحبوبة هناء وتحياتي إلى لويزة وإيزيس وما هي أخبارهما في المدرسة وألف قبلة للصغيرة الحبيبة فوفو وهل هي تذهب إلى المدرسة الآن أم لا؟ وإلى أية مدرسة؟ أرجو إفادتي بالتفصيل عن كل أخباركم وعن أخبار فوفو بالذات، وهل هي مطاوعة مهاودة أم لا تزال شقية ثرثارة؟
وأخيراً يا والدتي العزيزة أهديك أخلص تحياتي

ابنك المخلص
نظر، صالح، (إمضاء) ٦/٧
(إمضاء)

ولكن متى وكيف احتفلت «جماعة إسكندرية» بيوم ميلادى؟ كيف عرفوه؟ وكيف رتّبوا كل شيء؟

كنا قد قضينا أكثر من أربعة أسابيع في جبل الطور، توثقت علاقة غريبة بيننا - وخاصةً اللجنة القيادية. «لجنة الشئون العامة» وبين ضباط وحرس المعتقل.

علاقة احترام وتبادل - على نحوٍ ما - وتفهّم وأكاد أقول تعاطف لولا أن سطوة الجهاز البوليسي القمعيّ بالضرورة هنا أقوى من غلبة المشاعر الفرديّة.

ومع ذلك فلعل سلوكنا بما يتسم به من احترام للنفس واعتزاز بالكرامة وبأننا مناضلون سياسيّون ومثقفون إلى آخره إلى آخره...، كان دافعاً - ربما من بين دوافع تمليها سياسة الحكومة أو الاعتبارات الدولية الخارجية أو تردّى أحوال حرب فلسطين - لأن يترك لنا ضباط المعتقل هامشاً واسعاً من حرية الحركة. كنا نخرج وندخل بحرية من باب المحجر - المعتقل المفتوح، وعليه عسكرى حرس متكاسل وسأمان ببندقيته العتيقة.

كان جبل الطور موحشاً ومرهوباً.

الصحراء ممتدة شاسعة قاحلة ليس فيها أثر للحياة من أى نوع، والبحر هناك ماثل لا عبور له، كانت «عايدة» تأتى مرة كل أسبوع وتقف على مبعدة من الرصيف ويخرج إليها عمال البريد والعسكر فى قارب صغير يتلقون منها البريد والطرود والتموين العسكرى.

قال لنا الضابط النوبتجى، على سبيل نوع من التحذير الضمنى وإسداء المعلومات معاً:

- بالعقل، مَنْ يفكر في الهرب؟ يتفضل إذا أراد، ليس أمامه إلا الرمال القاحلة بلا نهاية، لا قطرة ماء فى هذه الصحراء ولا ينمو فيها نبات برّى حتى، لا شيء. مَنْ يخرج من المعتقل سوف يهلك حتماً جوعاً وعطشاً قبل أن يصل إلى أى مكان، حتى مضارب العرب بعيدة عنا فى الشمال لا وصول إليها إلا بعد أسابيع من المشى إذا استطاع أحد أن يمشيها والعرب هنا معنا على كل حال. والبحر طبعاً مستحيل، عندما نترككم تخرجون فنحن نعرف ماذا نفعل وليس هذا فقط من طيبة قلوبنا.

فى الصباح الباكر بعد ليلة النوم القلق وكوابيسه الخفية أستيقظ، فظهْرى يؤلمنى من صلابة اللوحة الخشبية تحت المرتبة القش، أصبّح على من أجده مستيقظاً، صباح الخير يا محمود.. صابر لطفى.. شوقى.. حسين.. وأذهب إلى الحمام - أعبر الساحة الرملية التى تفصل بين «الحِزاءات»، وأملأ إبريق الشاى وأغسل الأكواب فى حنفية الحمام، وأعود لأوقد السبرتاية، وأضع عليها الإبريق، بينما يكون محمود قد سبقنى إلى الحمام وقد أوقد وابور البريموس وعليه إبريقهم الكبير. أستلف منهم تلقيمة شاى، يستلفون منى ملعقة لَبَن مركز كثيف يتقطّر لزجاً متماسكاً من علبة نستلة المدوّرة التى صنعتُ فى غطائها ثقباً صغيراً، أستلف منهم عود كبريت، يستلفون منى كوب ألومنيوم، روتين صباحى بين اليقظة والنوم، ثم نذهب إلى كانتين المعتقل أو المطبخ الذى يشرف عليه يوما بعد يوم أحد أعضاء «لجنة الشئون العامة» بدران أو عبد المنعم أو الرفاعى، ونأخذ إفطارنا فول مدمس (ظل ينضج ببطء فى قدرته النحاسية على موقد المتعهّد طول الليل) على ٥٠ جراماً جبنة بيضاء (بالميزان) وقطعة حلاوة طحينية بنفس المقدار، ونعود لنزوّد على الإفطار الميرى بعض أطايب الأكل التى جاءت فى الطرود، نتقاسمها دون ادعاءات ودون تحرّج أو آداب النفاق، ودون أن نسمى هذا كوميونة أو غير ذلك، نصنع الشاى الثقيل السادة بعد ذلك نشربه ونحن نتشارك فى تقشير الفاصوليا أو البسلّة أو الرزّ، فإذا خرجنا لنسلّم «الإيراد» لم نترك الفرصة لنتمشى إما فى ساحة المعتقل الطويلة ذهاباً ومجيئاً، وإما حتى شاطئ البحر الصخرى المزبد بأمواجه والمنفسح أمامنا حتى مدى البصر بغواية الحرية المفقودة ثم نعود، أفرد صحيفة الورق المقوىّ وأخطّ عليها خطوطاً أفقية ورأسية وبخطّ كبير بالقلم الحبر املأ فراغ الكلمات الثُلُث المفرغة «صحيفة الحائط» - وبخط أصغر قليلاً وبالحبر الأحمر - معتقل الطور السياسى - ويكتب لطفى

مدكور بخطه الجميل الواضح أخبار المعتقل، ممن تكونت «لجنة الشئون العامة» هذا الأسبوع، وصول طرد إلى فلان، شفاء فلان بعد وعكة ألمت به، وفلان قرأ هذا الأسبوع كتاب «الحرب والسلام» بالإنجليزية، ثم هناك المقال الذى شاركنا جميعاً فى كتابته - هيئة محررى صحيفة الحائط فى الحزاء ٤، وتلخيص لأحد الكتب بقلمى أو بقلم صابر محفوظ، وهكذا.

كانت هناك عدة صحف حائط، كل حزاء تقريباً فيه صحيفة.

ثم يجيء موعد الاستعارة من المكتبة، من الساعة ١٢ حتى الساعة ٢ بعد الظهر، فهذه مهمتي وأنا أمسك السجل، وقد تكونت لديّ مكتبة لا بأس بها من الروايات والمجلات الإنجليزية والعربية، ليس فيها - بطبيعة الحال - كتب ممنوعة، هذه لها مكانها المخبوء وإجراءاتها الخاصة الأخرى، وهى ليست مشاعاً بالكامل، بل لكل جماعة - وكلّ تنظيم - مكتبته الخاصة، يحرص عليها ويودعها مواقع أمينة تتغير باستمرار طلباً للأمان.

وتمضى ساعات اليوم بين الغداء والقيلولة وشاى بعد الظهر وسهرات الأحاديث كإلقاء الأغاني والمواويل التي يجيدها على الأخص حسين شكوكو إذ يقيم لنا - نحن فقط أحياناً ولطائفة كبيرة من أصحابنا كذلك أحياناً أخرى - حفلات سمر يقلد فيها محمود شكوكو تقليداً بارعاً لا يكاد يختلف عن الأصل.

الساعة كام.. الساعة كام

اللى بحبه وَعَد ولا جاشى

أو مواويل وأغانى البحر الإسكندرانية بصوتٍ شجيٍ وعذب وفيه شجن بقدر ما فيه من معابثة ودعابة:

قالوا أنا عينى رأت مركب واسِق تِبْر رَبّانى

فاردْ قلوعه ومتّكل بِرَبّانى

قبطان يقول للبحرية بِرْمنتُم برباني
ورُبَّ نعسّل ننام ينطلق حالنا
دا بحر غدار لا فيه شفاقة ولا حِنيّة
وأنا سَهرَ الليالي والغُلُب رُباني

وراء كل الأنشطة والمهمات حس خشنٌ قاسٍ أننا في الحبس وراء كل صلصة الأجراس البهيجة وقرقرة النحاس الطنانة صوت أجش عميق غائر أننا في قبضة القهر.

عندما نذرع الساحة الرملية الطويلة بين صفّيْ الحزاءات إنما نقطع أرض السجن، وحتى إذا كانت الأسوار هي سشاعة الصحراء وغدر أمواج البحر فهي من غير شفقة ولا حنيّة، أسوار أعصى وأقسى من كل الأسلاك الشائكة.

فرغت من كتابة خطابي، كنا نكتب باستمرار على «طاولة السرير» أسند الورق على أطلس جغرافي كبير مما جاء لأحد المعتقلين (دونت اسمه في سجل المكتبة) لاحظت أن كل «جماعة إسكندرية» في الغرفة قد تركوني، قلت في سرّي: سبقوني للحفلة، كنت أعرف أنهم سيحتفلون بعيد ميلادي، لكن لم أكن أعرف أنه أجمل احتفال بعيد ميلادي في حياتي كلها، وأوقع أثراً وأكثر هزاً للقلب، وعندما دخلت مكتب الضابط أسلّمه الخطاب قال لي بابتسامة:

- كل سنة وأنت طيب..!

كيف عرف؟

قال: تفضّل أنت..

وأشار إلى باب الخروج.

لم أشر في خطابي لأمي يومها أنه عيد ميلادي، أولاً حتى لا أزيد ألَمها تفاقُماً لغيابي في هذا اليوم، ولكن الأهمّ لأننا في أوساطنا القبطية من الأصول الصعيدية والريفيّة وعلى المستوى الذي يشارف

أدنى درجات الطبقة الوسطى الصغيرة بل الطبقة الكادحة، لم نكن نعرف أو نحتفل أو حتى نهتمّ بأعياد الميلاد.

ما الذى جعلنى أتذكّره فى جبل الطور؟

نوعٌ من النوستالچيا إلى الفرح الضنين، ربما.

مشيت على شاطئ البحر الصخرىّ الذى ترتطم به أمواج عميقة الزرقة وتترك عليه زبداً أبيض سرعان ما يتحلّل.

كنت وحدى مع البحر، ولكنى كنت فى الحبس..

وصلت إلى بقعةٍ كنا قد اخترناها من قبل.

اقتربت من مدخل فتحة فى الصخور تشبه كهفاً صغيراً أو مغارة داخلة فى الشاطئ ولكنها مفتوحة على البحر، وفيها تكوينات صخرية تصعد لكى تتصل بسقف المغارة على شكل أعمدة رقيقة ومتعرجة نحتتها أمواج ورياح أحقاب متطاولة، سمعت موسيقى شهر زاد رمسكى كورساكوف من داخل المغارة الصغيرة، وصعدتْ إلىّ رائحة لها نكهة خاصة جداً.

كانوا فى داخل المأوى، وابور البريموس عليه حلّة كبيرة مكشوفة تظهر منها ستاكوزا كبيرة تحمرّ رويداً رويداً وهى التى يفوح عبقها الشذىّ الخاص.

صفقوا لى جميعاً بمجرد أن ظهرت: هيه ـ هيه..!

كان فكرى غر بجسمه المدكوك القوى وسمرة وجهه وعينيه القويتين الصلبتين واقفاً يرتّب على مفرش أبيض ما لدينا من سكاكين وشوك وملاعق، وكانوا قد أتوا بملاءة بيضاء نظيفة طويت وأصبحت مفرشاً على صخر المغارة رُصّت عليها الأطباق: سَلَطة خضراء من الجَزَر والخيار والبصل بزيت الزيتون، ما أندرها وما أطعمها فى جبل الطور..! طبق من البسلّة: الحبوب الصغيرة الخضراء مدورة وطريّة الشكل دون أن تتهرّأ غارقة فى صلصة الطماطم المسبكّة ثخينة القوام وفيها وريقات من

نبات الغار، الوجبة الميرى وقد تناولتها يدٌ صَناعٌ بالتسبيك وإضافة المذاق الخاص، شُغْل محمود بيده الساحرة فى الطبيخ، وبجانبها طبق زيتون أخضر: الثمرات الكبيرة اللحمية لامعة ومجعّدة الجلد قليلاً بندى زيتها الطفيف. ومع حلّة البسلّة هناك كسرولّة شممت منها رائحة الرزّ ورأيت حباته البيضاء وقد نضجت، فيها نفحة لبن، فقد وضع فيها محمود لبن نستلة بدلاً من الزبد أو السمن ففاح منها شذى لذيذ، كل حبّة من الرز وحدها، متماسكة ليست معجّنة ولا هى محموشة بل مضبوطة قد استوت على سبرتاية بطيئة النار فُرِشت فتيلتها بمكر على شكل وردة متفتحة فأعطت ناراً واسعة وهادئة.

أما وجدى حبيب فقد كان راكعاً أمام الجرامفون يرقب دوران الإبرة على الأسطوانة ويحرص ألا تصله ذرّة رمل أو رشاش ماء من الموج الذى يضرب بتكراره الرتيب صخرة الشاطئ المنقورة المكسورة متعددة الفتحات فيزاوج إيقاعه كأنه طبلة صغيرة دقيقة مع تسايل موسيقى كورساكوف.

أذهلنى أننى وجدت صينية ورق عليها هريسة إسكندرانى محموشة القشرة ولدنة الجسد معاً وبقلاوة على شكل مثلثات بأوراقها الهشّة الرقيقة مغروز فيها بندقها ولوزها المقشّر وصنوبرها الأبيض.

ياالله كيف ومتى وإلى مَنْ؟ وصلت هذه النعم؟

سألت لطفى: كيف حدث؟ كيف رتّبتم كل هذا وحصلتم على كلّ هذا؟ فابتسم ابتسامته البطيئة واتسع فمه الكبير وانفرجت شفتاه اللحيمتان لكنه لم يتكلم.

لم يرضَ واحد منهم أن يبوح بما كانوا يدبّرونه منذ أسابيع ربما، كيف اتفقوا مع الصيادين وكيف حصلوا على الاستاكوزا التى استوت الآن، وعندما كسرنا صَدَفتها الهشّة المحمرّة بان لحمها الأبيض اللين المتماسك معاً، طعامته تفوق كل التوقعات، ولكن عروس الحفل كانت

زجاجة نبيذ أصهب من چناكليس صببنا منها فى كل أنواع الأكواب الصغيرة: مضلّع الزجاج، الكبير الصافى، زجاج ياسين، وكوب أو اثنين ألومنيوم، لم أنعم فى حياتى ولن أستمتع بمثل هذه اللذائذ.

هل نسينا - أو تعمدنا أن ننسى - أننا كُنّا مقهورين، محبوسين، لا ندرى ما مصيرنا، لا نعرف متى نخرج من هنا، إذا كنا سنخرج على الإطلاق؟

صابر كان هو الذى هتف فجأة: «انظروا». كان هناك قريبا جداً منّا قرش ضخم، يطفو وينزل، متجهٌ نحونا.. «حاسبوا يا جماعة». السمكة الهائلة جداً اقتربت من الشاطئ، كان البحر بعد أمتار قليلة غائراً عميقاً نرى زرقته الصافية حالكة تقريباً وكان الكائن الخرافى منذراً، يحمل فى طياته إيماءات غامضة لم نجرؤ على تقصيها. ثم ابتعد، كما ظهر، دفعة واحدة، رأينا ظهره المقوس يحيط به زبد أبيض قليل وهو يغوص على البعد، يكاديشارف حافّة الأفق.

سرعان ما نحّيناه عن اهتمامنا، وعدنا نأكل على موسيقى كورساكوف من الجرامفون الذى أتى به للمعتقل رمزى حِبيش، وكنا نسمع أسطواناته مع ضباط المعتقل في الليالى أمام مكتب القومندان.

مازلت بعد أكثر من خمسين عاماً أسمع موسيقى «السوق الفارسية» فتعود إلىّ أشجان الطور وبهجاته الملتبسة، حتى الآن تمتزج فى روحى بصورة ماريّا مونتيز وهى ترقص رقصتها الشرقية فى فيلم هوليوود «على بابا»، كما تمتزج بصورة الرمال القاحلة الشاسعة والرُعْب المكتوم.

شهر زاد الموسيقى والجسد النسوى تتأود وتميل علىّ مع صلصلة الصنوج وترامى الكمان وانسياب الفلاوت مسرّات تتشابك عذوبتها الخادعة لكى تنسينا برهة قصيرة أسْر الحبس وتوتّر الصدر بصبوات محبطة كظيمة أمام سعة السهول الصحراوية الماحلة الجدباء بلا شفقة.

لم يكن الأكل، على بذخه غير المألوف هنا، هو الذى أعطى هذا اليوم الفريد طعمه وروعته، بل الأنس بالصحبة والحدب والعمل الدءوب على الإتيان بالبهجة فى قلب وحشة الحبس، حسّ بالحب غلاب على رغم اختلاف الإنتماءات السياسية والأيديولوجية والطبقية، محبة تتجاوز كل المواضعات هى التى أسعدتنى - أسعدتنا كلنا.

بعد انتهاء موسيقى كورساكوف هتف حسين:

- انتظر يا دكتور وجدى..

توقف وجدى عن أن يقلّب وجه الأسطوانة متسائلاً.

قام حسين على بقعة رملية منبسطة بعد الصخور التى تترقرق بينها مياه البحر بأمواجها المتحركة ولها وشيش خفيف.

تغنى حسين بأغنيات شكوكو الشهيرة وهو يرقص، على خفيف، ويتمايل:

حموده فايت يا بنت الجيران..

إدّينى بوسة وحياة أبوكِ..

مع المفاجئة ضحكنا، صفقنا معه على إيقاعه.

قال فكرى نمر:

- هوّ فيه أحسن من البلدى..!

فرد عليه حسين على الفور وهو يصفّق بيديه:

- البلدى يؤكل.. أموت فى البلدى.

كيف أمكن لى أن تمر السنوات دون أن أرى أحداً من ثلاثىّ شركة الغزل، قرأت فى «الأهالى» نبذة عن وفاة صابر، وانقطعت أخبار محمود وحسين.

ألم يكونوا من أعزّ الناس إلى القلب؟

عندما عدنا إلى الحزا رقم ٤ بعد الغداء والشراب والموسيقى، الآن كل منا يحمل شيئاً فى يده، فقد انقضى العرس وانفضّت الأفراح،

ارتمينا كل منا على المرتبة القش، ورحنا في نومٍ كالخدر العميق، فعْل الاستاكوزا التي أنامتنا ثم هيّجت فينا بعد اليقظة شبقاً لا سبيل إلى ارتوائه، شبقاً لا إلى المرأة وحدها، بل إلى الحياة، إلى الحرية

الإسكندرية ١٠ أبريل ١٩٤٩

ولدى العزيز

أقبلك قبلات أم حائرة ولْهَى لا تدرى ماذا تفعل فى هذا الغياب الذى طال أمده كقرون طويلة خصوصاً ارتحالك البعيد عنا وزادنا عدم إرسالك أى خطاب يطمئننا مع أن زملاءك فى المعتقل أرسلوا لأهاليهم خطابات فاطمأنوا من جهتهم أما أنا فلا زلت يا ولدى الوحيد ويا أعز أعزائى فى شدة الانشغال والارتباك لعدم اطمئنانى من جهتك ، أحادث نفسى يا ترى أمريض هو؟ أم تشاغل عنى بأحداثه؟ أم لا هذا ولا ذاك على رأى المثل العامىّ (قلبى على ولدى انفطر وقلب ولدى علىّ حجر) والاّ إيه؟

وأما من جهتنا فنحن عال العال ولا ينقصنا إلا مشاهدتك وطلباتك من أعيننا بس عرفنا كل ما تريد؟

أرسلنا لك يوم ٢٤ فبراير طردين ملابس ومأكولات وعرفناك ترسل لنا خطاباً بوصولهما فلم تعرفنا؟ الرجا إفادتنا بخطاب تعرفنا بأحوالك بوصول الطرود وكذا الجنيه أرسلنا لك اليوم تلغرافاً خالص الرد ونعرفك بأن المحافظة صرفت لنا هذا الشهر ٣٠٠ قرش ثلاثمائة قرشا لا غير.

الرجا ألا تقطع عنا المراسلة بآخر ما يمكنك حتى إذا أمكنك إرسال خطاب كل أربعة أيام فلا مانع، مرسل لك ٤ طوابع بريد. شقيقاتك يهدونك قبلاتهم وتحياتهم أما أنا فبخير وأهديك قبلاتى.

ملحوظة: أعرفك بأن هذا الخطاب كتب من يوم ورود تلغرافك ولما

علمنا بأنك سترسل لنا بالتفصيل بالبريد تركناه حتى نعرف طلباتك ولكن للأسف لم يصلنا للآن أى خطاب فما السبب ونحن فى انتظاره من مدة وأنت وحيدنا وليس لنا غيرك حتى نكون فى ارتياح؟ الرجا إرسال خطاب حتى كل أسبوع لعدم الانشغال؟ والرجا ألا ترسل لأى أحد من أخوالك خطابات لأنك بالعربى ليس لك أى أحد غيرنا كما أننا ليس لنا غيرك فالرجا ألا تراسلهم بالمرة لأننا لم نعرف بوصول خطابك إلا من الناس الغُرب وأعرفك بأننا فى نار ليلاً ونهاراً لعدم مكاتبتك لنا فالرجا الرجا ألا تنسانا أبداً وبقدر ما تستطيع ترسل كل أسبوع خطاباً وشدّ حيلك وعَرّفنا عما تريده نرسله لك فى أقرب وقت.

مرسل مع هذا شيك بجنيه واحد.

أمك

حتى فى هذا الوضع لاتزول الحكايات الصغيرة بين العائلات..

سأعود فأقول إن الوجود - حراً أو محبوساً - يظلّ كالموسيقى. الوجود يتحدى الحَبْس.

لن يكون الوجود أبداً - مثله فى ذلك مثل الموسيقى - مجرد اندفاق يتراوح بين الأنين وهتفة الفرح، لن يكون الوجود - كالموسيقى - هذا الانسكاب الانفعالى، مهما كان صادقاً وحاراً، لأنه، فى مستوى آخر، لابدّ أن يكون صياغة محكمة عامدة، خفيفةً أو مجهورة، مهما بدت عفويّة، مهما بدا فيها من الفوضى والتشعُّث، ظافرةً على عمايات التيْه والعبثيّة، بريئة من التخليط وفساد الشكل، بعيدةً عن طفُوُ رغوات سهلة من تسايُل العذوبة الخادعة أو شجىَ الأحزان السهلة.

قلت: هل هذا صحيح؟

قلت: هل الوجود أيضاً - كالموسيقى - يشقّ طريقاً صعباً عفوياً

وعشوائياً، على الأرض وفى السماوات؟ أهذا طريق النسر؟ يحكمه ما يشبه الصُدفة وليس بها؟

كأن الهامش الذى تلعب فيه الصُدفة فسيح، حتى ليخيِّل أنه تسيُّره مقادير معصوبة العينين، أطريق النسر المحلّق بكل حرية الجناحين الشاسعين إنما هو طريق محكوم بقوانينه الداخلية والخارجيّة معاً فى ذات الوقت؟

مسرّات موسيقاى الداخلية وبهجتها العريقة منصهرة مع حِسّ الحبس المُحدِق المُحيق مازال يُكبّلنى مهما غادرت ورائى أسوارَ المعتقلات منذ سنواتٍ طوال.

ومعه نزعةٌ لا غالب لها نحو التمرد وكسر الحيطان، نحو صيحة الحريّة التى سوف تملأ السماء والأرضين.

دقّات الإلهة هاتور على السستروم بين المقبض والناقوس.

هل أنتِ طاردة الشياطين أم أنتِ جسدها؟

هو ذّا اسمها المحبوب سوف يأتى اسمها الواحد المتعدد.

رأس فاطمة المجزوز، رأس يوحنا المعمدان المبتور يدور فى قرص الشمس المتوهّج، رأس رامة المحدّق إلىّ، وانفساح السهول الخُضر فى عينيها اللا نهائيتين الضاربتيْن بصبواتٍ سوف تأتى، أم أنها انقضت؟ لا نهاية لها ولا تفارقنى؟

تتقلّب موسيقى الأيّام حتى لتكاد تصبح رتيبة فى تعاقبها، واحدة وحيدة وجديدة فى كلّ لحظة.

الفصل الخامس والعشرون

ضربات طبل ضخم تأتى من آخر «الحِزا» تلطم جانبىْ رأسى، نُذُر مشوبة غير مفهومة، البوق الكبير يدوِّى كأنما هو ساعة النفخ فى الصُور وقيامة أشباح كل الأموات وقد تضرّجت السماء بأمواج حمراء لها هدير تدفعها رياح الخماسين السخنة مع قشعريرة انهيار الرمال الدقيقة على مسامّ الجسم.

عندما تيقّظت مفزوعاً كان المشهد التقليدىّ لحملة التفتيش قد أصبح مروّعاً وكأنما الحِزا تحوّل إلى ساحة قتال (روتين حملات التفتيش كان قد أصبح مملاً). العساكر - على الصبح - بخوذاتهم الحديدية الصفراء والحزام العريض على الوسط، فيه احتياطى الطلقات فى طيّاتها المتتابعة المليئة فى صفّ واحد منضبط يواجهوننا - كنا نائمين- وهم يطلقون صيحة الحرب هِهْ.. هِهْ ويدقّون بأرجلهم على أرض «الحِزا» دقّات لها دوّى فى الحيّز الضيق والباب مفتوح على مصراعيه.

كان الضابط جديداً - موفداً من القاهرة حديثاً - ومعه واحد أفندى محَنْتف أنيق بالملابس المدنية، واضحٌ أيضا أنه من قلم البوليس السياسى، ولَكنه لم يتكلم ولم يفعل شيئاً إلا أن يراقب ما يحدث بعناية.

قلت فى نفسى:

- عليه أن يدبّج التقرير.. ترى ما الذى يكتب فيه؟

صاح الضابط الذى يرتدى زيّه الرسمى كالمعتاد:

- انتباه يا مسجون إنت وهوّه.. قُمْ اصحَى فِزّ على حيلك.. تفتيش..!

كان المتفق عليه فى المعتقل كله ألا نرّد على الاستفزازات الطفيفة من

هذا النوع ولكن أن نجيب بقوة على أى اعتداء.

نهضنا متثاقلين - طبعاً - من غير هرولة ومن غير نظام، مِنّا مَنْ يفرك عينيه ومِنّا مَنْ يتمطّى بكلّ انبساط ذراعيه وتصدر عنه آهة التمطى الطويلة المستمتعة، قلّب الضابط كتب المكتبة، دون اهتمام حقيقى، فى نوع من إبراء الذمة، ولم يتكلم، وشدّ صحيفة حائط الحزاء رقم ٤ المثبتة بدبابيس رَسْم على الحائط فنزلت فى يده وألقى عليها نظرة لا مبالية. كان واضحاً أنه على معرفة تامة بكل شىء.

اقترب الضابط الشاب الجديد مشدود القامة مفتوناً بنفسه وسلطته من فراش محمود.

مدّ يده إلى صور فوتغرافية ملوّنة ألصقها محمود بالحائط فوق رأسه، وانتزع صورة ملوّنة لنجمة من نجوم هوليوود التى كنا نحبها كلنا، وسأل بلهجة مستفِزّة:

- فَرْشة مين دى؟

قال محمود بصوت قوىٍ ثابت وهو رافع الرأس: أنا.

نظر إليه بسرعة، وعرف بخبرةٍ معيّنة أنه ليس من هؤلاء «المثقفين» المشاكسين الذين يعرفون «حقوقهم» ويتكلمون عن مواثيق چنيف.

فقال على الفور:

- ودى صورة مين؟ صورة أمّك؟

قال محمود بكبرياء وهدوء:

- لأ.. صورة سوزان هايوارد.

كان الضابط قد استدار على عقبيه، تعليماته ألا يتجاوز الحدود - واضح - مرّ الضابطان على الحِزاء ثم قال ضابط الجيش.

- طيب اخرجوا برّه.. اتفضلوا.

استخدم بالفعل كلمة «اتفضلوا».

وعلى الريق كانت الساحة الرملية قد ابتدأت تمتلئ بالمعتقلين،

الصاغ شكرى ضابط المعتقل كان هو الذى طلب منا أن نصطف اثنين اثنين، لزوم التتميم.

وبالطبع انفضّت الحملة عن لا شيء، فقد كانت «الممنوعات» وهى ليست أكثر من الكتب والمطبوعات والمخطوطات والبيانات والتحليلات والنداءات، كلها قد أودِعت مخابئها السرية من الأمس، وهى تستخدم عند التنظيمات لساعات محدودة معينة وتخبأ، ولم تكن حملات التفتيش إلا للترويع وربما لإبراء الذمة واستكمال الملفّات.

طابور التمام لا ينتهى، يمر الوقت بطيئاً، بطيئاً ونحن على أقدامنا وقد أخذت شمس يونيو تحمى فوق رؤوسنا وبدأ كبار السن نوعاً ما يتصبّبون عرقاً وبدأت النظرات تزيغ قليلاً وغاضت الدماء المتبقية من وجوهنا.

صيحات العساكر تتردد بخشونة، بين الحين والآخر:

- الكلام ممنوع .. هُسّ.. اسكت ياللّى هناك.. ممنوع الكلام

لم يُوزّع علينا الإفطار يومها إلا فى نحو العاشرة قبل الظهر، وعلى الغداء وحتى هبوط الليل كانت الكلمة السحرية قد شاعت: إضراب.. إضراب عن الطعام..

اجتمعت لجان صياغة، وكُتبت بيانات احتجاج ومطالبة قوية بالإفراج، وتحليل للمواقف الوطنية وقُرئت مشروعات البيانات فى الحِزاءات وفى الممرات، وأُدخلت تعديلات وحُذفت عبارات وأُضيفت فقرات..

«الشراذم» وحدهم، فى عنبرهم البعيد الأخير من الحِزاءات، رفضوا مبدئياً الاشتراك فى صياغة البيانات وفى الإعداد للإضراب، كما كانوا قد رفضوا منذ البداية الإسهام فى أى نشاط للشئون العامة، كانوا يتلقون غداءهم، أياً كان، من عمال المتعهد مباشرة، كانت المقاطعة الكاملة هى ببساطة عنوان التعامل مع «الشراذم»، حتى مجرد توجيه الحديث إليهم كان محظوراً من «التنظيمات».

وبالطبع لم ألتزم بقرار المقاطعة، لم أُبلغ به على أية حال، ولم يُعلن جهرة، كان سارياً بفعل توافُق «التنظيمات»، أما أنا فلم أكن منتمياً إلى «تنظيم» ولكنني كنت بلا تردّد أشارك فى كل مبادرة وكل نشاط عام للمعتقلين بما فى ذلك صياغة البيانات واقتراح التعديلات، هو الموقف نفسه الذى استمرّ فى أبو قير، وهايكستب.

وكان مما أحرص على أن يكون واضحاً وعلنيّاً وسافراً أن أذهب إلى حِزا الشراذم - بكل توليفاته وتناقضاته - لأتكلم عن تاريخ الانشقاق أو الانحراف الستالينى فى الحزب اللينينى، بكل التفصيلات التى استوعبتْها ذاكرةٌ يقظة تحفزها حماسة وسذاجة الصبا والأمل، وكنت أحرص على أن أتمشى على العصارى مع حسن رشدى - ولعله كان من أعلام الشراذم - عبر الساحة الرملية الطُولِيّة بين صفَّىْ الحِزاءات الشرقية والغربية، جيئة وذهاباً ونحن نتحدث فى كل شىء ولا شىء، فى الأدب والسياسة وتصريفات الأجرومية الألمانية والمترادفات الفرنسية وكلمات الأضداد العربية التى تعنى الشىء ونقيضه من أمثال جَوْن وبيْن وأسَرّ. حسن رشدى فارع الطول نحيل أرستقراطىّ المظهر والأصل قضى سنوات باريس دون أن يعنى بالحصول على شهادة بل اكتفى بالصعلكة العاطفيّة والفنية والثقافية، يميل إلى الشقرة وعيناه زرقاوان فاتحتان، لا يغيّر الصندل المفتوح فى قدميه ولا الشورت الكاكى منذ أن وصلنا وحتى غادرنا الطور، يتحدّى الأنظمة والتنظيمات وينتهك التعليمات، يذكّرنى بفتوح القفّاص إلى حدٍ ما وفى أكثر من جانب، على تباين المظهر واختلاف المرجع الثقافى والطبقى.

أُخذت الاستعدادات للإضراب، وكُتبت العريضة احتجاجاً فى المدى القصير على حملات الترويع باسم التفتيش وفى المدى البعيد على استمرار الاعتقال من غير مبرر موضوعىّ «لجماعة من أعظم أبناء الوطن إخلاصاً وحرصاً على سيادته واستقلاله وحريته وهم أصدق الناس سعياً

من أجل صيانة حقوق المواطنين ومن أجل الحرية والعدالة والكرامة»، إلى آخر الصياغات التى تسير على شفا جرف هارٍ بين الالتزام المبدئى بأصول النظرية من ناحية واستنفار الحمية الوطنية من ناحية ثانية.

قدم أعضاء «لجنة الشئون العامة» العلنية مع لجنة «القيادة السياسيّة» السرية العريضة إلى القومندان، على هيئة وفد منتدب من المعتقلين، تلقاهم بدماثة وجدّيّة، وسأل دون سخرية:

– ومعكم الشراذم؟

كان عبد المعبود البديرى فى العادة صموتاً مغلق الوجه على ما يدور فى داخل روحه، مطبق الشفتين لا يكاد يبين منهما إلا خطٌّ واحد رفيع.

بادر بالردّ على القومندان حتى يزيل شبهة إمكان أن يوقع الفُرقة بين المعتقلين، بين «الشراذم» و«المُنظّمين».

– سنرى. هذا موضوع داخلىّ بيننا، وسنبلّغكم حال وصولنا إلى قرار.

كانت نظرته، من عينيه الغائرتين إلى حدٍ ما فى محجريهما، قويةً وصارمة. استطاع – فيما بعد – أن يمسك، بمقدرة عالية، بناصية ما يُعرف حتى ذلك الحين من علوم وممارسات الذرّة، عهدت إليه السلطة الناصرية بمقاليد مشروعها النووى، أرسى قواعد كان من شأنها أن تتحمل بناءً راسخاً فى هذا الميدان، لكن السلطة الساداتية أهملت عن عمدٍ هذا المجال كلّه. وفى ظنى أن عبد المعبود مات من عقابيل إحباط هذا المشروع.

ولكن بدران كان أكثر أعضاء اللجنتين القيادية والشئون العامة احتكاكاً بسلطات المعتقل، بحكم إشرافه على شئونه اليومية، ومن ثم كان أعرفهم بما يمكن أن تتذرع بها هذه السلطات من حجج ومعاذير فأسرع يقول:

– العريضة تحدد خمسة عشر يوماً للاستجابة لمطالب المعتقلين وتحديد موعدٍ نهائىّ تلتزم به السلطات للإفراج عنهم. ثم بعدها يبدأ الإضراب عن الطعام حتى الموت، على مرحلتين، أقول سيادتك هذا

للتأكيد والتوضيح لا غير.

فقال القومندان من بين أسنانه:

- نعم، مفهوم.. مفهوم. وهو ينظر إلى العريضة بسرعة، ثم رفع بصره إلى بدران، متأملاً ومتدبراً.

بدران تتدفق الحيويّة والتوتُّر، باستمرار، من عظام جسمه المشدود، أسمر داكن السمرة، من أصلٍ صعيدىّ، وكنت قد عرفته وعايشته وأعجبت به، من معتقل أبو قير.

القومندان يعرف أنه مدرّس بالجامعة.

كان بدران يعرف الريّاضيات وأحدث نظرياتها معرفة عميقة وهو في الوقت نفسه ابن بلد، وابن سوق، قرارى، قادر على أن يكشف ألاعيب وحِيل التجار والمتعهدين وأن يُحبطها.

كنت أدرك أنه يوقن بأنه عميق المعرفة على إطلاقها وأن قد ملك «الحقيقة» دون أن يسمّيها «الحقيقة» ولا «البراڤدا» بل لها عنده أسماء أخرى من قبيل «المادية الجدلية» و«المادية التاريخية» و«النظرية» من غير حاجة لتحديد.

ألم يكن معظمنا يساوره أو يستأثر به يقينُ تملُّك المطلق في صورةِ تنكّره النسبي؟

وهل كنتُ أسائله، هذا المطلق، كما لعلّنى لم أكفّ عن مساءلته ومناوشته، ومهاجمته، الاستسلام له حيناً، والتمرُّد عليه دائماً؟

أما ثالث أعضاء الوفد فقد كان الرفاعي.

كان طه الرفاعي صديقي على نحوٍ ما، فارع الطول، ممشوق الجسم، له نظرة طَلْقة رحيبة وصحو متفتحة ومرحة، كان من قوة سلاح الطيران الملكي المصرى، ومن ثم أدركت السلطة الملكية خطر بقائه في السلاح، أنزلته من التحليق بحرية وانطلاق في عَنان أجواء البلد، أبعدته إلى العمل على الأرض، ثم رمت به إلى هايكستب والطور، لكنه ظل يحلّق

في سماءٍ خاصة به، تتعلق بتغيير العالم، وتقدُّم الوطن، وكرامة الناس.

ألم نكن جميعاً نحلم بالتحلّيق في مثل هذه السماء؟ أو نوقن أننا نمخر عباب أجوائها المشرقة بالأمل؟

بقية أعضاء اللجنتين العلنية والسرية الذين وقفوا على شكل حلقة صغيرة خارج المكتب، هم هؤلاء الأغمار الذين لا اسم ولا وصف لهم، الكومبارس الذين بدونهم لا تقوم لعملٍ قائمة ولا يستقيم له عمود، ناس الظلّ الذين هم جمهرة مغمورة ومِنْ غيرهم لا قيمة ولا وجود للأَعْلام أو للقادة والزعماء، أفراد الأوركسترا العاكفين جماعياً على أحلام آلاتهم دون أن يكون لأيٍ منهم صوت متفرد، لكن من غيرهم لا قيمة ولا وجود للسوليست ولا للمايسترو، ومنهم عرفنا بالحديث الذى دار فى المكتب، ومعهم استغرقنا طيلة الأسبوعين التاليين فى التكّهنات والرجم بالنبوءات وتفصيص المواقف والتحليلات السياسية التى قد تشير إلى جانب استمرار القمع والإبعاد والترويع الذى نعانيه، أو إلى جانب التراخي ومراعاة الظروف الخارجية والدولية وخاصة بعد تراجع الجيوش العربية وما وصلنا من أخبار من مآسي وفواجع الفلسطينيين.

فى خلال الخمسة عشر يوماً التالية كانت ثَمَّ هدنة بيننا وسلطات المعتقل بل استمرت سهرات موسيقى رمسكى كورساكوف وتشايكوفسكى على جرامفون رمزى حبيش النقالى المربّع الأسود، الذى يتصاعد سحره الخاص فى جلستنا مع الضابط النوبتجى أمام المكتب، على كراسى المكتب أو القرفصاء على طوايل سحبناها من عنابرنا، حريصين على أن نتجاهل - ولو للحظة - أوضاع الحبس والإبعاد فى هذا المنفى النائى، والقمر ينسكب فوقنا - على السواء - ويغمرنا بفيض فضيّ عميق النقاء، عبد المعبود وعبد العظيم، رمزى وبدران، طه وصابر، لطفى وفكرى، على اختلاف منازعنا ومشاربنا، وتباين أهوائنا وهواجسنا، نحن وهذا الضابط الذى ألقت به مقادير

العسف نفسها فنقلته مغضوباً عليه بلا شك من وزارة عبد الهادى إلى هذا المنفى معنا، ولو لفترة محددة سلفاً لكنها متواترة، ومن ثم أبعد أثراً في ترسيخ حسه بالاغتراب عن ذويه وربما الاقتراب من هؤلاء الناس الذين رضوا عن طيب خاطر بقبول كل المخاطر في سبيل ما يؤمنون به.

كنا حريصين على أن نحافظ على الجرامفون الثمين، وأن نبعد عنه شوْب الرمل الدقيق الذى قد يعطبه بنفس القدر الذى كنا حريصين معه على حياطة الصلة بيننا وبين سلطات المعتقل وأن نُبقيها دون اختلاق صدامات لا مبرر لها، من غير تفريط - بداهةً - في المطالبة بحقوقنا.

كان الإخوان المسلمون قد نقلوا إلى معتقل مجاور، على مقربة منا، فيه صفوفٌ من الخِزاءات كما هو الشأن عندنا، يحوطه سور أقوى بكثير مما هو عندنا من السلك الشائك الذى أقامه الجنود عقب وصول دفعة الإخوان الأولى، وما أثاروه من شغب، وما رفعوه من شعارات ونداءات مستفزّة.

عندما وصلتهم أنباء اعتزامنا الإضراب عن الطعام انعقدت لهم جمهرة صاخبة تهتف بأن القرآن دستورنا والرسول زعيمنا ولا إله الا الله ويسقط الكفرة، حلفاء اليهود، وهم يقذفون حائط المكتب عندهم بالحجارة والزلط الذى انتزعوه وجمعوه من أرض الساحة الرملية.

رأينا يومها هجمة العساكر عليهم بالهراوات وتفريق جموعهم، ثم جمعهم في صفوف وأمْرهم بأن يجلسوا القرفصاء بالطريقة المألوفة في السجون: أن يقعى الواحد على قدميه دون أن تلمس ركبتاه أو مقعدته الأرض، ويمر العساكر بينهم بالعصى للمحافظة على هذا الوضع الذى يخلّف آلاما مبرحة في أسفل الظهر وعلى طول الجنبين.

كنا من حيث المبدأ ضد هذا الأسلوب في التعذيب، وضد ضربهم على باطن القدمين بالهراوة الضخمة ثم أمرهم أن يجروا على الرمل - بعد الضرب الأليم - ربع ساعة على الأقل حتى يجرى الدم في القدمين

ويزول التورم ولا يترك التعذيب أثراً.

وقّعنا على عريضة بمنع تعذيب المعتقلين على أى نحو: لا لحملات الترويع باسم التفتيش، لا لامتهان كرامة الإنسان بأى شكل من الأشكال، لا لمعاملة المعتقلين السياسيين معاملة المجرمين مع مراعاة أن المجرمين المحكوم عليهم لهم حقوقهم الإنسانية التي لا يجب أن يعتدى عليها أحد.

حتى جاء اليوم المرتقب الموعود.

مرت خمسة عشر يوماً ولم تأت إجابة بأى شكل من سلطات القاهرة ولا من سلطات المعتقل. تجاهلٌ تامٌ.

ومن ثم كان لابدّ من إنفاذ الإضراب.

في الصبح امتنع نصف المعتقلين عن تناول منابهم من الإفطار وهم الذين كانوا قد أخطروا بأنهم هم الذين سوف يبدأون بالمرحلة الأولى.

أعلنت «لجنة الشئون العامة» عن أنها قد توقفت عن مباشرة الإشراف اليومى على توزيع الوجبات الثلاثة، وكان مشهد الشراذم مؤسياً وخائباً. جاءوا متفرقين ومتجمعين وهم يتلقون إفطارهم في غير انتظام من عمال المتعهد، والعساكر قد انتشروا في المعتقل على شكل صفيّن متوازيين أمام الحِزاءات المتقابلة.

لم أكن من معتقلى المرحلة الأولى. وقد أنشأنا لجنة مؤقته لمباشرة توزيع الأكل علينا في صفوف هادئة وصامتة. ولم أكن حتى أعرف هل سأنضم إلى الإضراب في المرحلة الثانية، لم يفاتحنى أحد في الموضوع، ولم أفاتح أحداً.

كنت قد أعلنت رأيى مع «جماعة إسكندرية» في الحِزاء ٤ عن أن الإضراب عن الطعام هو مظاهرة سياسية لا تؤتى أثرها إلا بأن يكون هناك اتصال قوى وفعال بين المضربين وجماهير الناس، وأن انقطاع أخبارنا عن الخارج هو نفسه عامل إحباط وتثبيط للإضراب، لم أكن معترضاً على المظاهرة أو المبادرة قلت إن المهم هو أن تصل أخبارها إلى الناس.

وكالمعتاد الآن وطاعةً منهم لتعليمات صادرة من القيادة - فيما أُرجّح - لم يناقشوني ولم يدخلوا في حوار، بل سمعوا بذوق وأدب ولم يردّوا.

كان صابر ومحمود وحسين ثلاثتهم في المرحلة الأولى من الإضراب بينما كان لطفي وحده هو الذي وقعت عليه القرعة - أو الاختيار بالتعيين - لينضمّ للإضراب في مرحلته الأولى، من بين أعضاء الثلاثي الإسكندراني المثقّفين. ولم يكن فكرى نمر في هذه المرحلة.

كنا نأخذ طعامنا - من غير نِفْس، من غير شهيّة - أنا وبقية الثلاثي الإسكندراني فكرى نِمْر ووجدى حبيب، ونتناوله واقفين بحسٍ من المرارة والغصص أمام المطبخ.

مرّت أيام ثقيلة محمّلة بالنذر ولكن مليئة بالشجاعة والقوّة، كان عباس الدرمالي قد تخرج من كلية القصر العيني منذ سنتين، وأنهى فترة امتيازه فيه، عرفته عن كثب في تلك الأيام الصعبة، كان يمر على عنبرنا صباحاً ومساءً، يجس نبض المضربين ويفحصهم فحصاً سريعاً في الأول ثم يقدم بيده حسوةً من الماء فيه قطرة ليمون وهَبْوة سكّر، حسب المتفق عليه طبيّاً وسياسيّاً معاً.

ومنذ اليوم الرابع كنت أشتم رائحة «الأسيتون» النفّاذة من أجسام أصدقائي في العنبر، وألحظ جفاف بشرتهم وشحوبها، تحت عينيْ محمود تغوصان إلى الداخل أكثر، وكانت يد حسين وأنا أسقيه حسوة الماء المقنّنة، ندية بعرق بارد، وهو ينهج قليلاً، ويجد صعوبة في البلْع، أما صابر فقد كان أقواهم احتمالاً، وأضوأهم نظرة، وأثبتهم صوتاً، لطفي كان قد لزم الفراش ولزم الصمت أيضاً من اليوم الثالث، الإرهاق قد بدا واضحاً على ملامحه.

في تلك الأيام كنت أفتقد بشكل أخص رفقة فريد اسكاروس أو حمدى يوسف وعبد القادر خلف الله الذين لم أكن أعرف ماذا يحدث لهم؟ أمازالوا في أبو قير ؟ هل أفرج عنهم؟ وأفتقد أكثر من أي يوم

مضى مدحت شعبان، مشيتنا الطويلة المتأنية حول ساحة معتقل أبو قير، ذراعاً في ذراع، نتحدث في فابيّة برناردشو وموسوعيّة سلامة موسى، عنفه أحياناً وتردّده أحياناً، أو أفيض في الحديث عن بايرون ووردورث، أو أسترجع سرد أو حكاية الإخوة كارامازوف ويتعهد لي مدحت أن يقرأها بالإنجليزية إذا استطاع أو على الأقل في ترجمتها العربية بمجرد أن تقع يده عليها.

عندما أخرج من العنبر أتمشى وحدى كاسفاً مطرقاً تطوف بذهنى أفكار من قبيل أن الإضراب عن الطعام ربما كان نوعاً من التضحية بالذات، أو ذبح الذات رمزيّاً، كما تقضى به أساطير البدائيين، على هيكل إلهٍ نهْمٍ إلى الدماء لا تقر عيناه إلا بمحرقة ذبائح بشرية، يتصاعد دخان شوائها إلى الأفق العلوى الشرِه حتى يرضى القلب القاسى.

ألتقى فجأة بحسن رشدى في آخر الساحة الطولية بين صفّى الجِزاءات فيقول لى بلهجته الكلبيّة الساخرة:

- شفْ يا سيدى- مُضربون عن الأكل حتى تستمع إليهم نفس السلطات التى يدينونها ليل نهار، ومن يعرف؟ هل هم صائمون بالفعل.. يا سيدى قل يا باسط..

وأحتدّ عليه: نعم يا حسن .. نعم.. صائمون فعلاً محمود وحسين وصابر ولطفى على الأقل، ويموتون بالتدريج، لا أعرف إلى متى ستحتمل أجسامهم التى ليس فيها نَفَس من الأصل.

يهز كتفيه بلا مبالاة، غير مصدّق أو غير راغب في أن يصدّق، فأتركه دون تحية وأعود أدراجى بمشية موحشة وعتمة المغارب تَحُطّ على الطور، وتهب رياح متربة تحمل رملاً دقيقاً ولها صفير، أحس فجأة أننى أفتقد اللون الأخضر، أفتقد الخضرة اليانعة الطرية. ليس في المحجر المعتقل شجرة واحدة، ولا نخلة واحدة حتى، أحس عينىّ توجعاننى من صفرةِ ورماديةِ كل شىء حولى.

ومع ذلك فليس أمامي خيار إلا أن أذهب إلى عنبر الشراذم في آخر الجزاءات أشرب معهم الشاي الساخن، على مضض، كأني أقترف خيانة ما، وأكتب خطاباً لأمي فيه كل ازدواجيّة الموقف الذي أتخذه منها باستمرار: إدّعاء أن كل شيء لا بأس به، في الوقت الذي أختنق فيه ضيقاً وتثقل عليّ وطأة الجبس.

الطور في ٢٠ أبريل ١٩٤٩، معتقل الطور السياسي، جزاء ٤

والدتي المحبوبة

أقبل يديك الكريمتين أحر قبلات ابن مخلص وفيّ.

تأثرت جداً لأنك قلقة إذ لا تصلك مني خطابات، وأؤكد لك يا والدتي العزيزة أنه لا يد لي في ذلك فقد أرسلت لك خطاباً بعد استلامي الطرود بتاريخ ٥ مارس وخطاباً آخر بعد استلامي التلغراف بتاريخ ١٧ مارس وثقي يا والدتي أنني أفكر فيكم ليل نهار وأقدر مسئوليتي نحوكم كل التقدير وكل ما أرجوه أن تتاح لي الفرصة حتى أفي بهذه المسئولية خير الوفاء.

وصلني المبلغ في الخطاب الأخير وأشكر لك يا والدتي هذه العناية وخاصة أنني أعرف أن كلّ مبلغ ترسلونه إنما تقتطعونه من لحمكم الحيّ، أرجو ألاّ ترسلوا بعد الآن مبالغ أخرى حتى أطلب ذلك منكم فيما بعد. أما أنا فصحتي على خير حال.

وأنتهز هذه الفرصة لأهنئكم بعيد القيامة وأرجو لكن جميعاً عيداً سعيداً، وكل أملي أن نقضي العيد القادم معاً في هدوء وسعادة.

سأواظب على الكتابة إليكم كما تطلبين.

(إلى آخره إلى آخره....)

(إمضاء)

الفصل السادس والعشرون

في اليوم الخامس أشار إليّ لطفي إشارة واهنة ولكن بإلحاح غير معتاد أن تعالَ.

اقتربت منه، صدمتني رائحة الأسيتون النفّاذة التي تفوح منه ورائحة عرق آسن، قال بصوت ضعيف وخافت وهو يومئ إلى ما تحت المرتبة القشّ:

– طلّع ما تجده هنا، تحت.

دسست يدي بين خشب الطاولة والمرتبة القشّ فاصطدمت بشيءٍ ما قليل الصلابة.

أغمض لطفي برأسه علامة الإيجاب.

شددت ما اصطدمتْ به يدي: أوراق كثيرة مطويّة أربع طيات، واضح أنها مكتوبة بالحبر الأزرق الذي كان لطفي يكتب به «صحيفة حائط حِزا ٤»

بصوته المبحوح المصمم:

– لا تفتحها أرجوك.. لا تقرأها خذها وأخْفِها في مكان أمين خارج الحِزا.

على الرغم من اختلاف انتماءاتنا الأيديولوجية كانت تلك علامة ثقة أحسست قلبي يهتز لها.

أطرقت برأسي حتى لا يرى انفعالي.

أخفيت الورق تحت قميصي ملفوفاً في قطعة من قماش مزقتها من بيجامتي الكستور القديمة وخرجت في عتمة الغروب أتمشى ببطء في

الساحة الخلفية للحزاءات، من ناحية السور السلك الخفيف الذى تهزه رياح ساخنة. كان ذلك الجانب من المعتقل مهجوراً فى العادة وخاوياً.

أقعيت كأننى أبحث عن شىء - عاد إلىّ بقوة موقفى المماثل فى أبو قير - وحفرت بيدىّ بجانب حائط الحزا وعندما قدّرت أننى وصلت إلى عمق مناسب أودعت الحفرة لفة الورق الثمين، وإذ أسحب يدى ترتطم للمرة الثانية هذا اليوم بشىء صلب وحاد على جنب.

لم أستطع مقاومة الفضول بالطبع، تلفتّ حولى. كان الممر الخلفىّ الضيق، لى وحدى، خالياً ومعتماً، حفرت بسرعة حول هذا الشىء الذى لم أتبين ما هو حتى نزعت عنه الرمل والتراب، وشددته إلى فوق.

كان جمجمة بشرية.

جافّة تماماً، فاغرة العينين، الأسنان القوية مازالت مطبقة، والقحفة ملساء مدوّرة.

لم أملك إلا أن وجدت نفسى أسقطها من يدى على الفور، على الرغم منى، كأنما لسعتنى صدمة كهربائية، ولم أحاول أن أبحث عن أجزاء أخرى من هيكلٍ عظمىٍ بائد. هممت بإعادتها إلى الحفرة، لكى أغمرها بالرمل والتراب من جديد.

ولكن ذهنى كان قد بدأ يعمل بقوة وسرعة.

قلت إننى فى مأزق، فلست وحدى هنا ولا يجوز أن أسكت وأن أكفى الماجور التقليدى على الخبر.

وفى الوقت نفسه لو أننى أشعت عن هذه الحكاية، فالسؤال الذى لابد أن أجيب عليه: ولماذا كنت تحفر هناك؟

ولا أستطيع أن أخذل ثقة لطفى فأقول عن السبب.

ردمت الحفرة على ورق لطفى مذكور كيفما استطعت وسوّيت الأرض.

رفعت الجمجمة مرة أخرى، وفى يدى حسٌ بالنفور الفيزيقى البحت

يكاد يدفعني إلى أن ألقي بها جانباً في كل لحظة. ثم قمت بما كنت أتصور أن لا طاقة لي عليه، حفرت من جديد على بعد حِزاءين ودفنت الجمجمة من جديد وسوّيت الأرض من جديد، في وقتٍ تصورت أنه طويل جداً، وكنت أعرف مع ذلك أنه قياسيّ وخاطف.

رجعت إلى ممرّ الساحة الوَسْطانيّة الفسيحة، بعض الشراذم يهيمون كأشباح شاردة، ولا شيء آخر.

وقفت أسترد أنفاساً كانت قد انقطعت.

ثم قررت.

خبطت على حِزا رقم ٥، عنبر اللجنة القيادية.

فتح الباب موارباً في البداية، ثم انفتح على مصراعيه.

كانوا هناك: القيادة كلها، مَنْ أعرفه منهم ومن لا أعرفه.

حكيت الحكاية بوضوح وإيجاز قلت سبب الحفر كان أن أخفي أوراقاً خاصة بي.

استمعوا إليّ بانتباه، وبعد صمت قصير تبادلوا فيه النظرات قالوا لي: شكراً على كل حال لأنك أطلعتنا على الموضوع. هذه روح زمالة حقيقية. دعنا نفكر وسنخطرك بما يستقر عليه الرأي، شكراً مع السلامة.

لكن صدمة أخرى خطيرة، مزلزلة، كانت قد وقعت لي وتمّ تمامها.

لاحظت بوضوحٍ لا يحتاج إلى تفكير كثير أنهم غير صائمين وهم قادة الإضراب عن الطعام حتى الموت وأول من أعلنوه وأعلنوا أنهم ينفذونه منذ خمسة أيام.

لا رائحة أسيتون ولا جفاف في البشرة ولا أدنى علامة من علامات الإرهاق.

كان العنبر معتماً تقريباً بإضاءةٍ خفيفة موزَّعة بحذق على الأركان، وكانت طوايل الفرش متقاربة، من الجانبين، وبينها فسحة فيها مائدة طويلة مرتجلة من إحدى طوايل الفَرْش ممدودة ومثبتة بمسامير على قوائم

خشبية، عليها مجموعة أوراق وطبق من الصينى به بقايا طعام، كانت رائحة فاكهة نفّاذة - هل هى جوافة؟ - تفوح فى العنبر.

قرّرت اللجنة القيادية إنهاء الإضراب ثانى يوم، بعد ستة أيام من بدئه، والعدول عن المرحلة الثانية، وبرّرت القرار بأن سلطات المعتقل قطعت على نفسها التزاماً بإيقاف حملات التفتيش نهائياً، وأن سلطات القاهرة تبحث إمكانية الإفراج عن معتقلى الطور والمعتقلات الأخرى بحثاً جاداً.

ناقشت المسألة بعد ذلك، بعدة أسابيع، مع لطفى وقد كان أقربهم إلىّ، راح يسوق لى الحجة التقليدية المأثورة: أنه لا يصحّ ولا يجوز فى العمل السياسىّ والثورىّ على الأخصّ أن نخاطر بحياة القادة، لأنهم هم الذين يتحملون المسئولية كاملة وهم الذين تتوقف عليهم مصائر الأمور، ومن ثم فإنهم غير ملزمين - منطقيّاً وثوريّاً - بأن يعرّضوا صحتهم أو حياتهم للتلف إذ إنهم بذلك يرتكبون خطأ جسيماً إذ يعرّضون العمل الثورى نفسه للفشل، ومن ثم فإن الغاية النبيلة تبرر الوسيلة التى قد تلوح لأول وهلة غير أخلاقية، ولكنها فى نهاية التحليل هى وحدها التى تتسق مع طبائع الأمور، انتهى التسويغ المأثور.

تلك كانت ومازالت بؤرة خلافٍ يستعصى على الحلّ.

الغاية عندى لا تبرر الواسطة.

الوسيلة الفاسدة لا بد سوف تعطب الغاية إن لم تحبطها تماماً، قلت: أهذه مثاليّة وطوباويّة غير مبرّرة؟ قلت: بل هى فى النهاية الواقعيّة الوحيدة الممكنة.

قلت: وماذا عن ازدواجيّة خطاباتى إلى أمىّ وعائلتى؟ أليست هذه أيضاً كذبة بيضاء تبرّرها غاية شريفة؟

أم أن العطب قد بدأ يسرى، خفيّاً، غير محسوس، ومثل كل فساد سوف يستشرى؟

قلت : ليس عندى إجابة إلا إجابتى الأولى، ما من غاية تبرر وسيلة فاسدة.

الإثم قائم لا يزول.

بعد انتهاء الإضراب قررت إدارة المعتقل بالاتفاق مع لجنة الشئون العامة تعديل مواقع المعتقلين.

ظل الشراذم فى حزائهم الأخير رقم ٨ ونقلت مجموعتنا إلى حزاء رقم ١ وهو الأقرب للمكتب من الحزاء رقم ٤، أوسع وأضوأ وأهْوَى، وخصصنا فيه ركنا للمكتبة العامة التى زُوِّدت بعدد أكبر من الروايات والمراجع، وخُصص ركنٌ آخر هذه المرة لصحيفة حائط المعتقل كله، وأفسح لها مكان ظاهر وتقرر أن تصدر مرة كل أسبوعين بانتظام، وعُهد إلى أحد القيادين من الحِزا رقم ٥ بالاشتراك فى تحريرها، وكما عهد إلى على عزّت - وهو رسّام صحفىّ - أن يضع لها رسوماً تجميلية وأن يصنع لها كاريكاتير جديداً فى كل إصدار.

لكن حس يدى بالقشعريرة من مَس الجمجمة العظميّة الملساء حادّة الحوافّ لم يفارقنى أسابيع طويلة، وربما حتى نهاية المطاف.

لم يأت ذكرها فيما بعد، وفيما أقدّر كان القرار الذى لم أُعلَن به هو تناسى الأمر كله، تجنّباً لأى إحراج للإدارة ولأيّة تحقيقات لا ضرورة لها فى النهاية، فلعلها من بقايا وباء قديم، أو جريمة عفى عليها الزمن.

ما معنى إثارة ذلك كله الآن؟

الإسكندرية فى ١٩ مايو ١٩٤٨

ولدى المحبوب

أقبلك قبلات أم مشتاقة إليك كاشتياق الظمآن للماء العذب وبعد أعرفك بأننا فى غاية السرور لورود خطابين منك فى عشرة أيام هذا يُطمئننا من جهتك وعسى أن تراسلنا هكذا بانتظام حتى نكون فى أتم سرور.

أما طلباتك فضرورى جداً تعرفنا بها حتى يمكننا أن نرسلها لك فى أقرب فرصة ومن غير المعقول أنك للآن لا تريد شيئًا، وعرفنا حالتكم بالتفصيل، هل أنتم فى حالة طيبة أم لا والحالة كأبو قير؟ الجو حار أم رطب أم بين بين؟

نعرفك بأن هناء تعمل بالخياطة عند أم روزا باليومية ولذلك فحالتنا المالية لا بأس بها.

ولا تفكر فينا أبداً ولكن فكّر فى نفسك لأننا نريدك بعد انتهاء هذه الرحلة بصحة جيدة وهذه تجارب من الله والله معنا وهو يساعدنا ويقوينا على ما أعطانا.

والرجا ألاّ تراسل خالك أبداً لأنه حصل بيننا وبينهم مشادّة بخصوص إرسالك خطابات لهم.. وعرفنا بصراحة أنك أرسلت لخالك كم خطاب ولو كنت تقدر تعرفنا ما كتبته فيه فذلك يكون أفضل، حتى نقدر نعرف، لأنهم قاطعونا وخاصمونا بخصوص هذه الخطابات بعد ما كان بيننا وبينهم بعض الود.

أعرفك بأن لويزة وإيزيس مع بعض فى مدرسة تيتو باشا بباكوس كما أن فوفو بالمنزل.

ولا تقلق من جهتنا فنحن فى صحة جيدة وننتظر انتهاء هذه المحنة بفروغ صبر حتى يجمعنا الله.

وضرورى تعرّفنا ماذا أخذت من أبو قير وماذا تركت لأننا لم نأخذ سوى بطانية واحدة، فهل أخذت شنطتك وكتبك وأدوات الشاى أم تركتها؟

أما أنا فصحتى جيدة ولا ينقصنى إلا مشاهدتك.. التى أرجو من الله أن تكون قريبة.

هناء تهديك أزكى سلامها وأحر تحياتها كذا الصغيرات أما فوفو فتقبلك كثيراً.

أمك

نظر، إمضاء، ٥/٣٠

الطورفي ١٦ يونيو ١٩٤٩
معتقل الطور حزاء ١
والدتي المحبوبة
أهديك تحياتي وأصدق قبلاتي البنوية الحارة ولك ياوالدتي شوقي العطِر الذي لا تزيده الأيام إلا حرارة، وأملي أن تكونوا جميعاً في أتم الصحة.
لم يصلني منكم خطابات بعد خطابكم المؤرخ ١٩ مايو - وقد وصلني في ٣٠ مايو - وأرجو أن تذكروا دائماً في إجاباتكم تواريخ الخطابات المرسلة مني لكم.
طلبت منكم بعض أشياء في خطابي الماضي المؤرخ أول يونيو وهي على ما أذكر:
١- البيجاما ٢- الشورت الأبيض ٣- السبرتاية وبكرج الشاي من أبو قير ٤- زجاجة حبر
وأرجو إرسالها مع الأشياء التالية أيضاً في طرد محكم الغلق جيد التعبئة حتى لا يتكسر ما بداخله أو ينسكب من الرفع والخفض والحمل والرمي في القطارات والباخرة..!
١- علبة كاكاو ٢- معجون الأسنان ٣- علبة بودرة حلاقة وزجاجة كولونيا
كذلك يسرني جداً أن ترسلوا صورة عائلية تجمع بينك وبين أخواتي جميعاً أو على الأقل هناء وفوفو - فإنه يشوقني جداً أن أحتفظ بصورة لكم إلى جانبي - تقوم بعض الشيء مقام الأصل..!
والدتي المحبوبة
صحتي جيدة وحالتي طيبة على العموم - وإن كان هذا الكلام بالطبع بالنسبة للمعتقل والبعد عنكم- وقد أخذت حقنة ضد التيفود أحدثت أثرها من صداع وغيره بالطبع لمدة يومين ثم مرّت بسلام.

وقد ذكرت لك أنني أمضي الوقت مطالعاً أو متريّضاً في الهواء الطلق، وقد تعوّدت الآن على الهواء الطلق - وأنا إذ تتمثل لي صوركم المحبوبة أنتِ وأخواتي جميعاً أتمنى أن نعود سريعاً إلى أحضان بعضنا البعض وأتمنى أن تتاح لي الفرصة حتى أعمل كل ما في وسعي لإسعادكم وتوفير ما تتطلبون وأملي أن تعتنوا بنفسكم وأن ترعوا صحتكم حتى ينقضي هذا البُعد ونلتقي ثانية.

الطور في ٢٣ يونيو ١٩٤٩

... تلقيت المبلغ المرفق بالخطاب، ووصلني الطرد سليماً كاملاً على أحسن حال، وكانت زجاجة الحبر معبأة بشكل عظيم جداً فوصلت لم يمسها سوء، وكم كان سروري عظيماً بوصول خطابك وبوصول هذه الأشياء التي تحمل إلي نفحة من ذكرى البيت والحياة العائلية معاً التي أتمنى أن تعود سريعاً. وقد أغرقتني يا والدتي بهذا الفيض من الكرم ولكن لا داعي لكل هذا الإسراف في إرسال الهدايا.

وكل ما أريد في الطرد القادم هو السبرتاية وأدوات الحلاقة التي طلبتها في خطابي الماضي (علبة بودرة للذقن وزجاجة كولونيا فقط) كذلك أرجو إرسال حذاء لأن أحذيتي كلها بليت ولم تعد تصلح لشيء وأرجو أن تهتمي يا والدتي بإرسال الصور صورتك وصورة أخواتي وخصوصاً فوفو.

إذا أمكنك إرسال بعض الكتب الإنجليزية التي لديّ في مكتبتي فهذا حسن جداً، ولكن لا داعي لشراء شيء من الكتب كما تقترحين.

ملحوظة: وصلني الشورت الأبيض، أما الشورت الأبيض الآخر فهو عندي هنا.

لا داعي لإرسال سبرتو أو أية مأكولات كما أنني لا أريد نقوداً حتى أطلب ذلك.

هل فوفو متقدمة فى دروسها؟ وهل فكرت فى مدرسة مناسبة لها؟ وأفضّل أنا أن تكون روضة أطفال جيّدة تمهيداً لإرسالها إلى مدرسة ابتدائية منتظمة وطيبة، وعلى أى حال يهمنى أن تكون مقبلة على درسها ولاحظى أن لا ترغميها على الدرس إرغاماً بالإكراه، بل حبّبيها فى الدرس - بالجوائز مثلاً (باكو شكولاته مخصوص على حسابى أنا..!) وكذلك لا تحرمى الطفلة من مُتع الطفولة ولعبها ونزهها فإن سنوات الطفولة هى أجمل وأثمن ما فى الحياة ولها أكبر أثر فى الحياة كلها بعد ذلك - وليس ذنب البنت أننى معتقل فلا داعى لإشعارها بالحزن والألم قبل الأوان. وما أخبار إيزيس هل أصبحت تعرف فرنساوى أحسن من لويزة الآن؟ وهل هناء متضجرة أم سعيدة؟ قبلاتى وسلامى الأخوى وقبلاتى الحارة.

إسكندرية فى ٢٦ يونيو ١٩٤٩

ولدى الحبيب

وصلنى خطابك العزيز أمس فتلقيته بكثير من الفرح والحنان لشدة اشتياقى إليك.

وأعرفك بأننى أرسلت لك طى خطابى هذا الجنيه كالمعتاد بواسطة شيك لأننى وجدت أن الحوالة التلغرافية تتكلف على الأقل ٢٠ قرشاً فاستكثرت ذلك، الأشياء التى تركتها بأبو قير لم يصلنى منها سوى البطانيّة وجميع حاجتك لم نعرف لها أى طريق ولذلك فسنجدد لك أدوات شاى غيرها حالاً بالطرد القادم.

أما العزيزة فوفو فتقبّلك كثيراً وأملى أن تكون بيننا فى ابتداء العام الدراسى القادم لتدخلها أنت بيدك فى أية روضة للأطفال جيدة حسب إرادتك بإذن الله وختاماً لك يا أعز أعزائى قبلاتى الحارة وتسليماتى العاطرة ودمت لوالدتك المشتاقة.

ملحوظة: نرجو انتباهك لصحتك بآخر ما يمكن والله الحافظ ومرسل

لك طيه ٥ ورقات بريد حتى يمكنك أن تراسلنا أسبوعياً ، وبإذن الله في الطرد القادم سأرسل لك كمية خطابات وظروف وعشمي ألا تتأخر عن مراسلتنا كل أسبوع على الأقل.

معه إذن بوسته بمبلغ جنيه رقم ٢٩٤٤٨١٨

نظير صايغ، (إمضاء)،

١٩٤٩/٦/٢٩

هأنذا قد انتقلت، عبر المعاناة ،من اختناق الحبس إلى نشوة قبول التضحية بالذات وبكل شيء من أجل شيء لا يتحقق إلا في طريق النسر عَبْر سماوات مفتوحة بلا نهاية ، انتقلت من اليأس الكونيّ إلى ضوء الأمل، ومن الوحدة الموحشة وعويل الرومانسية الخائبة أو السنتمنتاليّة المتسايلة إلى صلابة الزمالة وحرارتها ، من التوجُّس والقلق الميتافيزيقي والشكوك التي تضرب أسس عقيدة قديمة تتوعد بعذابات غير مفهومة إلى بهجة التحدي - تحدى سطوة القمع المتجدد أبداً وسلطة النصّ المكرس العتيق وقبول المخاطر مهما كانت عواقبها.

قلت: قد يبدو ذلك كله ساذجاً وبدائياً حتى.

لكن لا.

فيه صدق لا يريم مهما تقلبت صروف الأحداث.

في خلال مسيرة ليست بالطويلة كانت روحي قد أُثريت ثراءً لا مثيل له من رفقتها لهذه القامات التي تظل صاحية في الروح: عبد القادر الذى أظل أُكنّ له محبة خفيّة وإعجاباً خاصاً، وعبد الفتاح الذى قال إننى أقوم منه مقام النفس وأقول الآن: وهو عندى بمقام الروح، شاكر المريوطي الذى يحتضر من السلّ ويصارع الموت الأكيد وسلطات القهر بعزم لا يناله وهَن مازلت أحس أنه زميل باق حياته لا تندثر،

الرحمة العميقة فى قلبى له ليس فيها أدنى خور أو عاطفيّة مبذولة بل هى صلبة صلابة إرادته التى لا تبيد، سلامة البشلاوى الفلاح الطيب فى وجه آلات المسخ والتشويه وهو فى قبضة حبٍ لامرأة كأنها قبضة تعتصر قلبى وكأنما أتبناه وهو الأكبر سناً والأعرض خبرة وحنكة وهو صاحب الإيمان الذى لا يتزعزع فى بساطته ورسوخه، صورة منه أجدها موزَّعة ومنوَّعة عند صابر ومحمود وحسين.

أحمد النمس الذى سقط فى الطريق، شجرة وارفة تظللنى بدفء الحميميّة حتى بعد أن عريت أوراقها وجف نسغها الذى أحسه لا يغيض، على أبو الليل الذى أجدنى زميلاً له فى حب الصنعة التى أتصورها ترقى إلى مرتبة الإبداع والخلق الجديد.

قاسم إسحاق الذى عرفته باسم مصطفى وحفرت اسمه على يدى بالدم فى طقسٍ صبيانيٍ، لعله دون كيشوتيّ لكنه يظل عندى فارساً مهما شَطَّتْ به خيول شاردة وحطّت به الأنواء والمحن الجسام، رفاقته لى محبة صافية مازلت أنهل من ينبوعها الذى يترقرق فى جنبات نفسى بلا انتهاء.

أهذه كلها مجرد عاطفيّة أم خبرة غِنًى للروح؟

الإسكندرية فى ٣١ أغسطس ١٩٤٩

ولدى العزيز

أعرفك بأننا ننتظر منك خطاباً بفارغ الصبر ونحن فى أشد الاضطراب لعدم إرسالك لنا أى خطاب فلعل المانع خير؟ وكنت كتبت لك خطاب من مدة ١٧ يومًا وعندما أردنا إرساله كانت هناء عند واحدة وقالت لها إن المعتقلين كلهم فى مصر، فلم نرسل الخطاب وانتظرنا منك خطاباً يعرفنا بذلك فلم يصلنا أى خطاب فحصل لنا انزعاج شديد.

أما الحالة المالية فلله الحمد متوسطة الآن وتحسنت عن ذى قبل.

عرّفنا ضرورى عن صحتك نحن فى غاية الارتباك من صمتك، وفى غاية الشوق إلى رؤيتك.

الإسكندرية فى ٧ سبتمبر ١٩٤٩
ولدى العزيز الحبيب
أقبلك قبلات أم والهة حيْرَى لا تدرى ماذا يأتى به الغد عسى يكون خيراً.
ولدى.. أعرفك بأننى فى شدة الشوق إلى رؤيا وجهك الحبيب... متى أراك وتكون بيننا كعادتك إننى أفكر فى هذا ليلى ونهارى.
كل إخوانك يكتبون لأهاليهم وأنا ليل ونهار وأنا أروح عندهم وأعرف ذلك، وأنت ماذا يمنعك عن مراسلتنا؟ أنت زعلان أو فيه حاجة مزعلاك من جهتنا؟ حالتنا تحسنت ولله الحمد.. عرفنا طلباتك بأسرع وقت لنرسلها لك على جناح السرعة ونحن فى انتظار خطاب منك يطمئننا بفارغ الصبر وضرورى جداً تطمئننا عن صحتك لأننا فى أشد انشغال من جهتك، ولا فيش نوم لا ليل ولا نهار، وأنت تعرف إنك واحدنا وليس لنا رجاء إلا فى الله وفيك كيف تصبر على عدم مكاتبتنا ٤٠ يوماً؟ أتعرف ماذا يراودنا من الأفكار فى هذه المدة الطويلة؟ ضرورى جداً من إرسال خطاب تعرفنا فيه عن أحوالك وصحتك بالضبط وماذا كان السبب فى عدم إرسالك خطابات حتى نطمئن عليك.
نعرفك بأن القضية التى أخبرناك عنها سابقاً.. صاحب المنزل كان رافع قضية يريد أن يخرجنا من المنزل، رُفضت والحمد لله.. ضرورى تعرفنا عن طلباتك لنرسلها لك فى أسرع وقت.. إحنا عايزين نرسل لك تلغراف ولكن خايفين من تأخيره كالسابق.. فإن أمكنك إرسال تلغراف لنا يطمئننا عنك فيكون أحسن.

والدتك

ملاحظة:

أرسلنا لك خطاباً بتاريخ ٣١ أغسطس فهل وصلك؟ فضرورى من إرسال خطاب بأسرع وقت.

لم يكن ثم ضرورة لإرسال خطاب.

سرت في المعتقل روح استبشارٍ وتفاؤل غير معهود، ربما لأول مرة منذ وصلنا.

الأيام القليلة القادمة ستحمل مفاجأة سارة..

استعرت وابور البريموس وصفيحة فارغة كالمعتاد من جماعة صابر وذهبت إلى الحمّام، فى صف الحزاءات المقابل، بجانب المطبخ.

كان سبتمبر مازال دافئاً.

هل كان ثم أمل، أو استشراف، أن الغد هو اليوم المرتجى؟

حلقت ذقنى فى المساء ربما لأول مرة، اعتدت أن أحلقها كل صباح، أعلّق المرآة على ماسورة الحنفية، وتحت المصباح الكهربائى الموقد الآن، وأرغّى معجون الحلاقة على وجهى بالفرشاة الكبيرة،

أحس مرور الموسى فى العِدّة التى على شكل مثلث ينفتح جناحاه العلويان ثم تُدس الشفرة على النتوءات الدقيقة فى جسم العدّة تنزلق فيها الشفرة بنعومة ثم ينغلق الجناحان، أستمتع باحتكاك الشفرة ببشرة الوجه التى نبتت فيها شعيرات قصيرة جداً تزيلها الموسى بنعومة مع رغوة المعجون الأبيض العبِق بشذى الليمون.

غرفة الحمّام فى المحجر نظيفة لامعة جدرانها حتى السقف من القيشانى الأصفر المحمرّ. إذ أجفف يدى المبلولة وأشعل وابور البريموس بعود ثم آخر من علبة الكبريت وأملأ الصفيحة بالماء الذى يتدفّق من حنفيّة الحمّام بقوة وأرفعها بجهد قليل وأثبتها على الوابور المتقد الذى يفح الآن فحيحاً بهيجاً.

أخلع ملابسي القليلة وأعلّق الغيار النظيف على المسمار الذي في ظهر الباب، وقد أحكمت إغلاقه، وأخذ الدفء وبخار الماء يشيع في الحمّام بحس من تشوّف متعة العري والتصبين بالليفة المعمولة من إسفنج البحر المجفّف، والشطف، وإغراق الجسم العاري الساخن بالماء الدافئ المأخوذ من الصفيحة بالكوز المعدني المخصوص الذي حملته معي طول الوقت من أبو قير.

امتلأ جو الحمام ببخار خفيف ووشيش رتيب من الوابور.

أجساد نسوة عرفتهن أو طافوا بالخيال الشبق، فاطمة وأوديت ودولت وزينب وعايدة قد انصهرت كلها في جسد واحد حارّ مشتعل بشهوة شباب تشقّ شعاب الصحراء الشاسعة.

أحيط الجسد الناعم بذراعيّ العاريتين أريد أن أحيط عنان السماوات العالية في أحضاني، اللدونة المطاوعة تخدعني عن بُعد الأهواء السحيق.

نزق النقرزان الإسكندراني تتلاحق دقاته في دمائي، يتردد صداها في سكون قاعة مسرح محمد علي في شارع فؤاد والأميرة شهر زاد تنزل من سيارتها الباكار وألمح عتمةً خفية مغوية ومراوِغةً في انفراج الساقين الطويلتين تحت الجيبة المنسدلة عليهما بانسجام.

رقصة قوائم خيول عربيّة الخنطور المنطلقة على صفحة الكورنيش الملساء في اتجاه الأنفوشي وقلعة قايتباي الشامخة البعيدة التي لا تنال، بينما أمواج الميناء الشرقية تهدهد قوارب الصيادين الصغيرة المتراقصة هي أيضا بالنغمة نفسها على صفحة المياه الساجية الدافئة مع عبق عطر ياسمين مصدره سرّي هل هو عقد مستدير بالعنق التلعاء السمراء التي سوف تجتزها سكين العسف الغشوم؟

انفساحٌ لأشجان الڤيولينة من أرض لامعة منداة ممسدة فوق رمال عريقة تحدق منها عينان فاغرتان في محجريهما المظلمين وذبذبة

الوتريات قشعريرة تهز الجسم المفتوح للغوايات وهجمات أشواق غير مسمّاة.

إيقاع أنفاسى الآن متواتر متسارع تقطعه قعقعة النحاس المدوية بين جنبات الجسد المتوتر المشدود فى عربدة وثنيّة.

الطبول الضخمة تضرب. أجساد البنات دائرةٌ من التلويّات الأنثوية وتقلّصات الجوارح وصرخات الشبق فى جماح ترنان الصخب الحسىّ قرينات الهوى تتصاعد لهن نشوات ضجيج أبواق الصور ثم تأتى هسهسات الاسترخاء وهمسات الاستنامة إلى رؤى تعلو صروحاً من أطياف قلوب عائدة إلى مقام خفيض.

أفى ذلك سعىٌ إلى نسيان أصفاد الجنس العميق واستشرافٌ لأفق الحرية الوشيك؟

الفصل السابع والعشرون

كانت النقلة من معتقل إلى معتقل ، فقط ، وليست إلى الحرية.

كان الجو بارداً وعاصفاً وذرّات الرمل الدقيق تتطاير وتتسلّل إلى عيوننا وآذاننا وملابسنا تدخل في ثنايا البنطلون الرمادىّ المتهدل والشيْرز الصوف على القميص، وأنا مع قافلة المنقولين مرة أخرى، أحمل حقيبتى المربوطة بدوبارة مازلت أجرّ حذائى الواسع مفتوح الفوّهة ، فلم يصلنى حذاء جديد من اسكندرية ، قطعنا المسافة الصغيرة بين الحزاء رقم ١ ورصيف المرسى فى عشر دقائق خلتها طويلة ، كاد الهواء العتيف المترب يدفعنى إلى البحر وأنا آخذ طريقى بين الأصدقاء والزملاء ، مَنْ عرفتهم ومن ظللت لا أعرفهم إلا بالشكل فقط، والباخرة عايدة تهتز فى مرساها على الأمواج المتدافعة التى تلطمها وتثير الزبد على جسمها.

اتخذت لنفسى موقعاً على السطح ، جنب سياج الباخرة، فى حِمَى نتوء كوبرى «القيادة» ومنّيت النفس برحلة بحرية أخرى ،وإن لم أكن مطمئناً.

ما كادت الباخرة تتحرك، ولغط المنقولين يرتفع ، يخطف الهواءُ الصوتَ ويختفى ثم يعود الطنين، حتى كان اهتزاز عايدة متواتراً ومنذِراً، راحت ترتفع إلى أعلى كثيراً على قمة أمواج غاضبةٍ وتغور إلى أسفل، وما تكاد تصل إلى القاع فيما يخيل إلىّ حتى يختطفها الموج تعلو وتعلو ثم تنخسف.

انقلبت معدتى، وجاءنى تشنُّج الغثيان فنهضت جريا إلى السياج وانحنيت بوجهى وقذفت بما فى جوفى ونزلت الباخرة وغارت معها

أحشائي ثم صعدت وصعدتْ نفسي معها إلى أعلى، بما فيها، وقذفت ما تبقى فيها مرة أخرى، ولطمني على وجهي مع الهواء رذاذ ما رميتُ به من معدتي، وهاجمتْني رائحته الحمضية النفاذة.

وما من رحمة.

لا يكفّ ولا يتوقّف تشنُّج الأحشاء وتقلُّصها وهي تطوّح بما بقي فيها من عصارات ثقيلة لزجة.

ترنّحتُ نازلاً إلى بطن الباخرة. فتحت مقصورة، أي مقصورة، وارتميت على السرير المثبت بجدار المقصورة ولكن الهبوط والانخساف إلى الغور يقفوه على الفور صعودٌ يشدّ نياط القلب إلى أعلى فأقذف القيء الذي ليس فيه إلا خيط نَزْر لزج.

لا رحمة.

ذُقتُ ما هو أقرب بالفعل إلى سكرات الموت.

نزل إليّ لطفي بالغداء في طبق ألومنيوم ما كدت أراه وأشمّ من على الباب رائحة الطبيخ حتى تهوّعت نفسي بقوة، وتشنّجت أعضائي بعنف، وقذفت إلى الخارج بلا شيء إلاّ هذا التقلّص المتصل في دورة لا تكفّ ولا ترحم.

كيف انتقلت إلى قطار السويس ومتى هبط منه نزلاء هايكستب؟ كنت بحالٍ لا تتيح لي حتى أن أفتح عيني، ارتميت على الكرسي الخشبي في نوع من الموت البطيء المتحشرج. كيف دارت المسيرة دورتها العكسية من محطة سيدي جابر في سيارة نقل عسكرية مفتوحة لنعود مرة أخرى إلى أبو قير؟ هل كان ذلك بالليل؟

لا أذكر من ذلك كله شيئاً.

كانت الرحلة قد استنفدت مني كلّ عصارات الحياة، وأظنني كنت مغمض العينين منخزل الجوانح طيلة المسيرة لا أدري بالضبط ماذا يحدث لي.

رقدت على سرير لأول مرة منذ شهور، وأظنني نمت نوماً عميقاً، بلا أى نوع من طعام أو شراب. كانت حاجة جسمي الأولى والأساسية هي الغياب عن الوعي بنفسه وبوجعه المُمضّ الأكّال في قلب أحشائه.

قال لى لطفي بعد أن أفقت:

- كدت تضيع منا يا عمّ.

قلت: ماذا حدث؟

قال: كنا نسندك ونجرّك تقريباً معنا في كل خطوة، وحتى حقيبتك نصف المفتوحة حملناها وإلا كنت تركتها على الباخرة أو في القطار.

لم أقل شيئاً، عرفاني بالجميل ليس بحاجة إلى كلمات.

خيّل إلى أن العنبر رقم ٧ أكثر عتمة وأضيق مما كان، على أنه كان في الواقع نصف خالٍ. لم يعد هناك حمدى ولا عبد القادر ولا فريد ولا شوارتز، أماكنهم فارغة، سرعان ما احتلّها قلائل لا أعرفهم لم يمكثوا طويلاً، فقد كانت قرارات الإفراج تترى تباعا، خرج الإخوان المسلمون والوفديون اليساريون والماركسيون واحداً بعد الآخر، جماعة بعد جماعة، ولم يأت يوم إطلاق سراحي.

بعد أيام قلائل خرج شوقي ولطفي ووجدى، احتضنتهم والدموع ملء عينيّ بلا خجل، وتركوني مع الثلاثيّ العتيد الذى ظل معي أياماً أخرى: صابر وحسين ومحمود، ثم خرجوا هم أيضاً.

احتضنتهم وبكيت.

لم أرهم بعد ذلك قط.

كنت وحدى.

كنت في العنبر الخاوى مع ثلاثة أربعة لا أعرفهم وكان في العنبر ثمّ جوٌ من التوتر - يكاد يشبه العداء والحنق المكتوم. الوحشة كل صباح تثقل عليّ فلا يمكن أن أحتمل.

أشدُّ البطانيّة على وجهي، أكاتم بصوت النشيج حتى لا يسمعني

أحد، الدموع تنفجر وتتدفق على الرغم منى، لا لشىء إلا لأننى وحيد. القهر ليس من الحَبْس، بل من الوحدة.

مازلت على حافّة النوم حافّة الموت عندما اجتاحنى رعب أن الحياة قد انقضت، من غير جدوى، ومن غير معنى. تنوء بى وطأة الوحشة، ها قد مضى الجهاد الحسن والاستبسال أيّاً كانت حماقته - أو نبالته ربما؟ - والرمى بالنفس فى وجه الاستعداد للاستشهاد من أجل أشياء أيّاً كانت تفاهتها وسخفها - أو سُمُوُّها ربما، وسحرها على كل حال - والخيبات، والجبانات، والخذلان، والصمت، والتقاعس، والقسوات، والكدح المتصل من أجل الحبّ، والرزق، وشهوات الروح. كلها انقضت، ولّت، وانحسرت.

أقوم منتفضاً، أوقظ الموسيقى الكامنة فى روحى، بلا جدوى وأتلهّى بطقوس الصباح، دون تلهية، يا فتّاح يا عليم، اصطبحنا واصطبح المُلْك لله..!

مازلت فى الروح بقية من صلابة.

أجد نفسى فى العنبر وحدى.. تركنى كل الناس. إلى جانبى بدلتى معلقة بمسمار على الحائط، تهتزّ، وعلى صندوق خشبى مقلوب أشيائى اليومية فقط: فرشاة الأسنان والمعجون، عدّة الحلاقة وكتبى التى استنقذتها عبر الترحال الطويل، العنبر واسع وخاوٍ، ليس فيه إلا سريرى الحديدىّ الضيق وعليه المرتبة القش الهابطة فى منتصفها. اصطدام قدمى بالبلاط له صدى.

أفهم، بشكل ما، أن زملائى - من بقى منهم فى المعتقل - مازالوا هنا، فى مكانٍ ما، ولكنى أحس مع ذلك أنهم ليسوا هناك.

كنت بالليل - فى الحلم ربما؟ - قد أحسست أننى وحدى الآن، تماماً. وأعرف مع ذلك أن هناك حضوراً أخر، هل هى ذئاب، ضباع، كلاب الصحراء؟ أسمع صوت خطاهم المسترقة، أشم رائحة الحيوانات البرّية.

باب المعتقل مفتوح أمامى. لا أحد يعترض طريقى. أصل إلى الطريق الممتد بين غيطان الذرة والبطيخ وعلى حفافيه النخل السامق. والعمّال يشتغلون فى نصف الطريق بالطول، النصف الثانى شكله سخن وطرىّ، والأسفلت فيه لامع السواد، ومعدات الرصف واقفة، ضخمة الهياكل، حديديّة الأذرع والبطون.

أراهم مشغولين عنى، كلهم، لا أحد يرانى.

أحس أننى هارب كأننى خرجت، هكذا، دون تصريح، دون أمر إفراج، مع أن كل الإجراءات قد تمت بسلام، مازلت سجيناً وليس حولى إلا امتدادات الغيطان بلا نهاية على الجانبين.

أحلام الوصال خاوية، فكم بالحرى بِيدُ البِعاد.

جاء الأتوبيس، على نصف الطريق المسفلت القديم، هل مكتوب عليه بخط ردىء لا يكاد يقرأ: أبو قير – المنشية؟، لونه الأخضر الباهت صدئ تساقط طلاؤه فى بقع غير منتظمة بَان فيها الصفيح المغضّن المتقبّض. الأوتوبيس متهالك ولكنه شغّال، والمحرك له أزيز قوى عنيد.

عبءٌ على كتفى أنا وحدى، حريتى، فرحتها المكبوتة فى قلبى لا يعرفها أحد.

لا مبالاة الناس، والأشياء، والعالم.

هل نزلت من أتوبيس أبو قير فى المنشية وأخذت الترام إلى راغب باشا؟

صعدت السلالم التى نزلت منها بالليل منذ ما يقرب من عامين مع ضابط البوليس الشاب والمخبريْن، خيّل إلىّ أنها معتمة أكثر بكثير مما أذكر.

السلم يعلو بين الحائط والسياج، درجاته المتعاقبة، لا تكاد قدماى

تلمسانها ولا أرى نهايته، وأنا أصعد ببطء. ولا شيء يوجد بعد في العالم كله إلا درجاته الصامتة مازالت عليها مخلّفات اليوم الفائت، نفايات مختلفة من قشور الخضر والفاكهة القديمة وأعواد الملوخية وقصاصات الورق المتقطع وعفرة التراب، ضوء الظهر ينزل عليها كلّها من السقف العالي، فيفضح عريها النيّئ الذي ناله عفن قليل، أصعد أكاد ألا أكون منتظراً نهاية، درجة بعد درجة، بدون ملل، بدون دهشة، لا أكاد أستند في سرعتي إلى السياج المدوّر المكتنز بجسده الخشبي الناعم من طول مسّ الأيدي الطالعة النازلة، كعاهرة قديمة شبعت من حس الأصابع المبلولة.

الحائط يصعد إلى جانبي، بلا نهاية، معلّقاً في تجربة متصلة لا يوجد فيها معنى الزمن. مازالت في البيت الذي خُيّل إليّ أنني تركته بالأمس فقط، حتى في هذا الظهر العالي، أنفاس ثقيلة من النوم، خامدة فيها حرارة الفراش والأجساد المتقاربة الملففة في أغطيتها وملاءاتها المتراخية المهدلة، ومازال بالسلم ريح بطيء ينفذ إليّ، من تحت الأبواب المسدودة، عن تقلّبات الغرف المغلقة وهوس اللحم والأحشاء والليل اللزج. وهذا الريح يتشتت قليلاً مختلطاً بعرى النفايات نيّئاً، وصفائح الزبالة على أركان السلم تتخثّر وتصعّد نَفَسها المعجون، لكنني أصعد لغاية هذه الدرجات التي لا تنتهي أبداً، على هذا السلم المتمطّي في نومة الظُهْر.

شد ما كنت مستمتعاً بهذا الضيق المأنوس الحارّ، أحس هذا السياج البيتي، السور الأليف، وهذا الحائط الذي طالما حلمت في وحشتي بأن أمسّه، هو غير الأسوار الأخرى، أسوار الحَبْس والقَهْر الذي زال.

هل زال؟

انفتح بابها فجأة، كما حدث في الزمن القديم تماماً، مازالت كما هي، دولت التي قالت إنه، هو، غرامها الوحيد، خرجت إليّ، وهي ترتدي نفس فستان النوم، قصيراً أحمر قانياً، لا يصل إلى سمّانتي

ساقيها البيضاوين، ينفتح، في سعة، عن كنز ثدييها الحافلين باللحم المستدير العريان، إذ يتلامسان في تكوّر متجسد من العجين الأبيض الذى مازال يحتفظ بدفء الفراش، صبغت شفتيها - في عزّ الظهر - بأحمرها الفاتح، وفي شعرها الكثيف القصير لمعة سوداء متماسكة متألقة، نظرت إليّ - مثل زمان - بعين الأنثى التى لا تشبع، ذراعاها العاريتان تفلتان من ثوبها الأحمر كأنهما فخذان، في طيّة اللحم المنكشف المزنوق تحت الإبط وعدٌ بلذة مشبعة دفيئة ريانة.

هي نفسها، دولت التي طالما راودت أخيلتي المتطايرة زمان، كانت تنتظر نزولي عادةً، حتى تلقاني أول الصبح، كل يوم، وهي تتظاهر أنها وقد كنست البيت، مبكرة، تُخرج الزبالة إلى السلم، في هذا الميعاد بالضبط، حتى لا تثير - جداً - شبهة حماتها، وسلفتها وأولادها الكثيرين، وكنت أسمع عندئذ - إذ أمُرّ بالباب وأتأنّى قليلاً - زياط الأولاد في داخل الشقة المزدحمة وأصوات الاستعداد للنزول إلى المدارس، وابور الجاز وغسيل الوجوه، وإعداد الفطار، لكنها كانت، أيامها لا تكاد تفوتها مرة واحدة، تقريباً، بل تخرج إليّ كل صباح، في ميعاد نزولي، ينفتح عنها باب الشقة الخشبي المسوّد القذر، وتطلع منه، محشوة برغبتها الدسمة.

قالت لي، بلهفة حارة صادقة وفرح حقيقي:

- جئت؟ الحمد لله على السلامة يا ميت أهلاً وسهلاً، نفسي أزغرد والله.

ولم تتورع، وجدت نفسي بين ذراعيها، أحتضنُها بكلّ الشوق المكبوت طويلاً إلى الجسد الأنثوي، وكلّ الحس الآن - الآن فقط - بأنني حرّ، حرّ.

رمقتني بنظرتها الثقيلة، من تحت جفنين مسودّين قليلاً ينزلان على عينين عميقتين والباب مفتوح، وفي الجو كله خطر. كأن الأخطار لا

تبارحنى، حتى فى الحرية.

قالت: أصعد الآن أسلّم عليك.

وأقفلت الباب وراءها.

عندما فتحت لى هناء باب الشقة، شهقت وصاحت: - ماما - ماما.. أخوىَ جَه..

واحتضنتنى وهى تقول بهمس، كأنما لنفسها:

- يا حبيبى يا خويا.

كانت أمّى هى التى سارعت إلىّ، هى التى أخذتنى فى حضنها الطيب الحنون، أنشق منها رائحة ثوبها الأسود وعرقها الخفيف:

- يا ضنايا حمد الله على السلامة.. تعال يا خويا.. جَعَان؟ أعمل لك حاجة تاكلها؟

ابتسمت لنفسى ابتسامة سرّية صغيرة، الأم المصريّة القبطيّة لا تعرف تعبيراً عن الحب إلا بالطعام. ولكننى - بالطبع - سعدتُ بهذا كله.

فما كانت أمّى وأختى تحتضناننى حتى فى زيارات المعتقل، ذلك ما كانت تجرى عليه الأمور فى تلك الفئة الوسطى الدنيا من عائلات الأقباط. ثَمّ حياءٌ أو تحفظٌ أو لعله تحوّط على نفيسٍ لا يُبتذل بالإفصاح عنه، بل يبقى مكنوناً كاملاً، غير منتهك.

لم أسمع منهما ولا من أحد كلمة «حبيبى» إلا بعد ذلك بسنوات طوال، لأول مرة، مفاجئة، من نعمتى - بالطبع - وفى الزمن الأخير. فى كلّ مرة لم تكن عندى كلمة شائعة مبذولة، بل طعنة مبرئة فى القلب العطشان.

عندما دخلت غرفتى وجدتُها صغيرة مزدحمة وضيقة.

رأيت لأول مرة ربما أن الحيطان بها مواضع ناصلة تقشر طلاؤها الأبيض المغبرّ القديم، ورأيت طبقة من التراب على خشب مكتبى وعلى

أغلفة كتب وروايات كأنني تركتها بالأمس.

وللمرة الأولى أحسست الدموع تترقرق في عينيّ، ولم أحبسها.

كأنما كنت أرى نفسي من الخارج، وكأنما حسي الحرية يعني أنه يمكن أن أنفصل عن ذاتي، وأن أرقبها، بينما كنت في الحبس وثيق الصلة بها بل غارقاً فيها، كأنما خشيةً أن أفقدها.

الآن لا خوف - ولو للحظة - من فقدان الحب أو فقدان النفس.

أم أن هذا الخوف - في العُمْق - دائماً هناك؟

سوف ينفتح أمامي طريق آخر، سوف أغرق نفسي في الصعلكة حتّى منتصف الليل وما بعده في الشوارع والسينمات والمقاهي. هل هو سقوط الإيمان، للمرة الثانية، ترك في الحياة خواءً وفي الفم مرارة؟

أم هو سقوط رموز، وسحابات من الريب ظلّلت قاماتِ أصدقاء ورفقاء و لم تنقشع عنهم ولم تحطّ عليهم الإدانة، بل تركت كل شيء في مخايلة الظلال؟

أم هو آلام وحشة الأيام الأخيرة؟

كأنما ضربتُ بكل شيء عرض الحائط، تخلّيت عن كل يقين، وغمرتني أمواج حبٍ يائس وميئوس منه، من غير بارقة أمل؟ إلا الفنّ يا مولاي، أو كما قال..!

سوف أبدأ شرب السجاير من قبيل الدلع، يعزم عليّ فتوح القفّاص بالكرافن إيه أو البول مول، ثم أشتريها، ثم أدخنها بنهمٍ لا يشبع، سوف أعبّ الويسكي البلاك ليبل والوايت هورس دون ورع، وسوف أصل ما انقطع مع أوديت وآخذها إلى سكارابيه والفريسكادور والرومانس، وإلى سينما فؤاد مرة أخرى كما كان يحدث زمان، وآخذ يدها إليّ في عتمة رومانسية أفلام الفرنسية، تحت سماء باريس، وميديا، وچان كوكتو.

ولكني لن أعدها قط بشيء، على أنها بالتأكيد كانت بانتظار حدث

جلل من نوع أن أخطبها.

لم يكن قربى منها حباً.

سوف يكون حبى فى موقع آخر ولن أشغل هذا الموقع إلا بعد سنوات.

أما أوديت فقد انقطعت عنها.

وبعد مرور سنوات حافلة وعديدة، سوف ألقاها، فجأة بالصدفة فى سوق الطويلة، بين ضجيج بيروت ونداءاتها، فجأة أجد نفسى أمام هذه السيّدة التى تجعَّد وجهها، ضربته الأيام، انحنت القامة الممشوقة، الرشاقة أصبحت جفافاً، لم يعد من أثر فى ملابسها لصناعة الأناقة التى كانت - ولعلّها مازالت - تكسب منها عيشها، حروف كتابةٍ لم تكتمل قطّ، بالإبرة والخيط ومَكنة سنجر التى طالما سمعت وشيشها الرتيب فى بيت المنشيّة الصُغَيّرة، وأنا أزور أنطوان، وأتحدث مع عم شكرى.

عيناها مسدَّدتان إلىّ، بلا صوت، بلا كلمة.

أقف، جامداً غير قادر على حركة أو على صوت، فى زحمة الناس، صريع نظرةٍ متّهِمة خرساء. مطوَّحٌ بى فى بيداء موحشة، من ألم الخذلان. وجدت العرق يتفصَّد بارداً، وقلبى ينطبق.

هل ارتكبت إثم الخيانة الذى لايُغتفر؟

بعد سنوات كثيرة أخرى سوف تزورنى بنت أنطوان، وأعرف أن اسمها ولهلمينا، وأعرف أن أنطوان قد مات فى نوبة اكتئاب عميق لم يكن فيه يأكل شيئاً أو يكلم أحداً.

وسوف أستخرج من بين أوراقى القديمة الكثيرة صورة لأنطوان وأوديت وصديقى بدوى، وصورة بورتريه لأوديت فى عزّ ازدهار شبابها، رقيقة أنيقة ساهمة النظرة إلى أفقٍ لم تكن تعرف أنه موحش

إلى ذلك الحدّ.

وسوف أعرف عنوان أوديت من بنت أخيها، وأجرؤ فأكتب لها بطاقة تهنئة على الكريسماس - يا عينك يا جبايرك يا أخي - كأن لم يحدث شيء. ولن أتلقى إجابة بالطبع.

إثم الخيانة قائم.

كان النهار الصيفيّ قد بدأ ينحسر، هبّات رقيقة من هواء إسكندرية تتسلل إليّ، تهبط من الحديقة التى امتلأت فجأة بزقزقة العصافير الملهوفة.

كنت في مرسم صديقي أحمد قنديلٍ، في أتيلييه إسكندرية القديم في شارع فؤاد، عندما استرعاني شيءٌ ما فنظرت إلى أعلى، وعبر النافذة التى تطلّ على الممرّ، رأيت، من تحت، ساقيْن أنثويّتيْن رشيقتين في حذاءٍ جلديٍ صغير ورقيق وواضح أنه غال.

خفق قلبي فقد عرفت أوديت، وإذا بها تنحني - من فوق - وتهبط بوجهها وصدرها المحبوك الململوم في التايير الصيفي الأنيق، وتبتسم لي من وراء القضبان الحديدية المستقيمة وتشوّر بيديها.

دقائق وإذا بها تطرق باب المرسم، وعندما فتحت وجدتها قد هبطت السلّمتين الأرضيتين المؤديّتين إلى المرسم، قبّلتها على الخدّ قبلة صداقة، لم أكد أمنع نفسي من أن ينزاح فمي قليلاً حتى يلامس - مجرد ملامسة - طرف شفتيها الرفيعتين اللتين لا يكاد الروج الغامق الخفيف يلوّن بشرتهما ولا يتجاوز حدودهما القاطعة .

دخلتْ المرسم وحذاؤها يدقّ الأرض بكعبه العالي- لماذا تذكرتُ فجأة على أبو الليل ولماذا نسيتُه على الفور؟ - وألقت نظرةً سريعة على اللوحات الزيتية التى تركها أحمد قنديل نصف مرسومة، ورصّات كتب الفنّ والشعر والمسرح باللغتين الإنجليزية والفرنسية، ثم هتفت كأنما هي اعترتها صدمة خفيفة من المفاجأة:

– اللهَ.. دنْتَ رامى على الكرسى البنطلون القطيفة الأسود المضلّع والقميص الأزرق الملوّن المشجر اللى اشتريتهم من أوريكو؟ ما غيّرتش ليه؟

قلت: لسه داخل، ماحقتش..

قالت: همّه دول اللى جبْتهم بالتقسيط؟ كام القسط كلّ شهر؟

قلت: جنيه ونُصّ.. غاليين، بيتخصموا م المرتّب من خزنة الشركة، قبل ما يوصلوا، أهم بيخسفوا المرتب، صحيح، لكن يستاهلوا، نزوة ما قدرتش أقاومها..

نظرت إلىّ بمعابثة وعيناها السوداوان تلمعان لمعة تنمّ عن أن فكرة شقاوة قد ساورتها.

قالت: تسمح لى..!

دارت، وقفت خلف حامل اللوحات فاختفى جسمها، والتايير الصيفى، ولم يكن ظاهراً من ورائه إلا وجهها المبتسم وأعلى كتفيها المدوّرتين فى بضاضةٍ مضبوطة لا هى ممتلئة مدملجة ولا نحيفة ناتئة العظام، وبحركة سريعة مدرّبة نفضت عنها جاكتة التايير، وظهرت لى حمّالات الكومبين والسوتيان فوق الصدر الذى أخفاه حامل اللوحات، وإذ رأيتها تتململ بخفّة عرفت أنها تنضو عنها الجيبة، ومدّت ذراعها، أشرقت بشرة الذراع فى ضوء المغرب المائل إلى لون ذهبىّ خافت، واختطفت من على الكرسى قميصى المشجر وبنطلونى القطيفة، وانحنت ثم اعتدلت، أعطتنى ظهرها وهى تولج ذراعيها فى أكمام القميص، وخرجت من وراء الحاجز فإذا هى أخرى، وهىَ هىَ فى الوقت نفسه.

كان ردفاها على صغرهما يملآن البنطلون القطيفة الذى بدا محبوكاً عليها وكان نسيج القميص الحريرى الأزرق المشجّر بزهوره الحمراء والصفراء الصغيرة المتناثرة بمكر يبدو هفهافاً، واسعاً على الخصر ولكن يمسك بصدرها الناهد غير الكبير مسكة وثيقة ومغوية.

قالت بشيء من الدلال والغنج: أنفع؟ حلْوينْ عليّ؟

قلت: يا خبر.. المهم الحشوة اللي جوّه مش اللي برّه، طب بقولّك إيه، خلّيك لابساهم على طول، هديّة منيّ لأجمل واحدة حتلبسهم..

قالت بامتنان: مِرْسي مِرْسي.. أنا بس حاقعد بيهم معاك شويّة كده..

وعندما جلست أمامي، في ضوء المغرب الذي بدأ الآن يحمرّ ويتوهج في آخر فتوّته، لم نشأ - باتفاق مضمَر بيننا - أن نضيء المصباح الكهربائي القويّ، وكان الصمت الوجيز الذي ساد بيننا عامراً بموسيقى تترقرق في الروح، دون صوتٍ خارجيّ، ولكن بسطوةٍ غلاّبة ومريحة.

فيم تكلمنا؟

هل قرأت لها شيئاً من ترجمتي لأشعار پول إيلوار التي لم أكد أفرغ منها عن نسخة فاخرة مطبوعة في سنة ١٩٤٤ على ورق سمنيّ خشن وجميل، في چنيف:

«كان السجن معلّقاً يدعو للرثاء
كان السجن ينام
كمغامرة في زورقٍ لا يكاد يستقيم
السجن غابةٌ صغيرة من الجُزُر
على حدود الملاءات الرطيبة
من العَرَق من الخوف
وتحت القُبّة ذاب القلب المعتم

أشواق مكبوحة سوف ترد جماحَ عنانها، قبضةُ تعقُّلٍ محسوب.
ضربات أيامٍ وليالٍ لن تنقضي، نبحث عن معناها.

وهانذا أردد ما أقول باستمرار:

«هل ذهبت بلا رجعة، أشواق العدل والحرية وموسيقى الصبا

الجياشة بالأمل والقوة؟»

لا

هى - فيما أظنّ - هنا. أبداً

هل انقطع هنا طريقُ النسر، أم لعله مازال ممتداً بلا نهاية؟

مهما كانت الخيانات والخذلان والنّكوص، منّي ومن الآخرين، كلّها موجعة الصمْت، لكنها كلّها مدحوضة بلألاء الصمود.

فإذا كانت الأشباح والأطياف، وكلها مناط حب لا يريم، تحيط بى، حيّة، فعّالة، فلماذا أردّها؟

وشوشتُها وغمغمتُها تصعد حولى وتهبط، تجلجل وتستنيم، لكنّها لا تذوب.

نُويّات حصىّ صلب مغروزة فى لحم طَرِىٍّ ينزّ بدم قليل.

طعناتها مُبرئة.

ومهما ابتعد الأفق، فهأنذا أمدّ إليه يدى، أقبض على حافّته الجارحة.

الزمالك

١٠ سبتمبر ٢٠٠٠

٥ نسى آخر أيام العام ١٧١٦

إدوار الخرّاط

* إدوار الخرّاط (إدوار قلتة فلتس يوسف).
* روائي، وقصّاص، وشاعر. اشتغل بالنقد الأدبي والتشكيلي، وعمل بالترجمة، وكتب للإذاعة، وقام بتحرير عدة مطبوعات.
* ولد في ١٦ مارس ١٩٢٦ في الأسكندرية لأبٍ من أخميم في صعيد مصر وأمٍّ من الطَّرّانة غرب دلتا النيل، وحصل على ليسانس الحقوق في ١٩٤٦ من جامعة الاسكندرية.
* ٤٥ ش أحمد حشمت - الزمالك - القاهرة ١١٢١١.

- عمل أثناء الدراسة، عقب وفاة والده في ١٩٤٣، في مخازن البحرية البريطانية في القباري بالأسكندرية، ثم مترجماً ومحرراً بجريدة "البصير" في الأسكندرية، ثم موظفاً في البنك الأهلي بالأسكندرية حتى ١٩٤٨.
- شارك في الحركة الوطنية الثورية في الإسكندرية في ١٩٤٦.
- اعتُقل في ١٥ مايو ١٩٤٨، سنتين، في معتقلات "أبو قير" و"الطور".
- ثم عمل في شركة التأمين الأهلية المصرية بالأسكندرية حتى ١٩٥٥، ثم مترجماً في السفارة الرومانية بالقاهرة حتى ١٩٥٩.
- تزوج في ١٩٥٧ وله ولدان وأربعة أحفاد.
- في ١٩٥٩ عمل بمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ثم في اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين حتى ١٩٨٣ وأشرف على تحرير عدة مطبوعات سياسية وثقافية لهما أبرزها «الشعر الأفريقي الآسيوي وقصص أفريقية آسيوية» بالعربية والإنجليزية والفرنسية، واستقال منهما بعد وصوله إلى منصب السكرتير العام المساعد في كلتا المنظمتين، وعمل بعض الوقت مستشاراً لرئيس منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية وللأمانة العامة لاتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين، وهو الآن متفرغ للكتابة.
- سافر إلى معظم بلاد أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا، في رحلات عمل.
- شارك في إصدار وتحرير مجلة "لوتس" للأدب الأفريقي الآسيوي، ومجلة "جاليري ٦٨" الطليعية، وعدة مطبوعات لكلٍ من منظمة التضامن الأفريقي الآسيوي واتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين.

- قام بتحرير العدد الخاص بالأدب المصرى الحداثى (العدد ١٤) من مجلة «الكرمل» فى ١٩٨٤.
- ترجم إلى العربية عن الإنلجيزية والفرنسية سبعة عشر كتاباً منشوراً فى القصة القصيرة والرواية والفلسفة والسياسة وعلم الاجتماع، كما ترجم للبرنامج الثانى فى الإذاعة المصرية عشر مسرحيات طويلة واثنتى عشرة مسرحية قصيرة وكتب له تسعة وعشرين برنامجاً إذاعياً طويلاً، وشارك فى برامج وندوات ثقافية متعددة فيه. ونُشر له عدد كبير من الدراسات والمقالات والترجمات والأحاديث فى المجلات الأدبية المصرية والعربية والأوربية.
- دُعى أستاذاً زائراً فى كلية سانت أنطونى بأوكسفورد خلال فصل الربيع عام ١٩٧٩ وألقى عدة محاضرات بالإنجليزية عن الأدب المصرى الحديث فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) جامعة لندن، ومركز الشرق الأوسط فى أوكسفورد، وكلية القديس أنطونى، جامعة أوكسفورد فى عامى ١٩٧٩ و١٩٨٧، وفى نادى الأمم المتحدة فى نيويورك، ١٩٨٨، وفى ندونة دولينة عن السيرة الذاتية، فى كلية القديس يوحنا، جامعة أوكسفورد ١٩٩٨ و وفى الملتقى الدولى للكتّاب فى لندن ١٩٩٩.
- شارك فى ملتقى القصة القصيرة، فاس، المغرب عام ١٩٧٩، وفى ملتقى الرواية العربية، مكناس، عام ١٩٨٣، وفى مهرجان أصيلة، ١٩٩٨ فى المغرب، وفى ندوة جامعة لندن عن آداب الشرق الأوسط فى أبريل ١٩٨٧، وفى لقاء الروائيين الفرنسيين والعرب، باريس ١٩٨٨، وفى عدة مؤتمرات أدبية فى رونده، والمريّة، ومولينا، وغرناطة، وطليطلة (أسبانيا) وبودابست (المجر)، وهايدلبرج وفرانكفورت وفرايبورج وبرلين (ألمانيا)، وتورنتو (كندا)، وفى كوبنهاجن (الدانمرك)، وقام بجولة أدبية واسعة فى سويسرا وألمانيا فى ١٩٩١، وقام بجولة أدبية فى جامعات ييل، وبنسلفانيا، وبرنستون، وكولومبيا (نيويورك) فى الولايات المتحدة الأمريكية، فى ١٩٩٢. حاضَر فى ١٩٩٥ فى البرتغال وايطاليا وانجلترا فى ١٩٩٨، ١٩٩٩ وشارك فى ندوات عقدت فى باريس، وفى إكس إنْ پروفاس واجْد،ن،نپليبه وسانت إتيين فى فرنسا، وآمستردام فى هولنده. مثّل مصر ضيفاً على المؤتمر التذكارى الخامس والستين لنادى القلم الدولى فى هامبورج ١٩٨٦.
- شارك فى ملتقى قابس (تونس) للرواية العربية فى ١٩٩٢ حيث تقرر أن يكون

"ضيف شرف" للمتلقى، وكان موضع تكريم الملتقى في ديسمبر ١٩٩٣ .
- شارك في ملتقى القصة القصيرة في عَمّان (الأردن) عام ١٩٩٣ وفي مهرجان المحبة باللاذقية (سوريا) في ١٩٩٦ ، وفي ندوة عن «المتخيَّل والبحر الأبيض المتوسط» في بيروت عام ١٩٩٨ .
- وفي مارس ١٩٩٤ قام بجولة في خمس مدن إيطالية (تورينو، فلورنسه، ميلانو، روما، باري) وألقى فيها محاضرة عن «اسكندريتي، ملتقى الثقافات».
- في أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٦ ألقى سلسلة من المحاضرات في معهد العالم العربي بباريس عن "الاتجاهات الحداثية في فن القص العربي" . صدرت في كتاب عن دار الآداب، بيروت، ١٩٩٩ ، بعنوان «أصوات الحداثة».
- في نوفمبر ١٩٩٦ ألقى في شيكاغو محاضرة عن "طقوس تحدى الموت عند المصريين" ، وفي نيويورك محاضرة بعنوان "تنويعات على موضوعات السيرة الذاتية" .
- في نوفمبر ١٩٩٨ رأس لجنة التحكيم الدولية في مهرجان باستيا لأفلام ثقافة البحر الأبيض المتوسط في كورسيكا .
- قُرِّرت روايته "رامة والتنّين" في جامعة باريس.
- تُرجمت بعض قصصه القصيرة إلى اللغات الأجنبية، وترجمت روايته "ترابها زعفران" للإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والأسبانية والسويدية واختارتها الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج "كتاب العام" عن ١٩٩٠ .
- تُرجمت روايته "حجارة بوبيللو" للفرنسية والإيطالية والقطالونية الإسبانية والألمانية والبولندية والإنجليزية في برنامج «ذاكرة البحر الأبيض المتوسط».
- تُرجمت روايته "يابنات اسكندرية" إلى الإيطالية والإنجليزية والفرنسية.
- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «رقصة الأشواق» مترجمة للفرنسية عام ١٩٩٧ .
- في عيد ميلاده السبعين أقام له المجلس الأعلى للثقافة في مصر احتفالية حافلة في الفترة من ١٩ إلى ٢٢ مارس ١٩٩٦ ، شارك فيها نحو أربعين مبدعاً وناقداً وباحثاً. صدر عنها «مغامر حتى النهاية» عن مركز الحضارة العربية، في ١٩٩٩ .
- حصل على جائزة الدولة للقصة عام ١٩٧٣ وعلى جائزة الصداقة الفرنسية العربية من فرنسا عام ١٩٩١ ، وعلى جائزة سلطان العويس في مجال القصة والرواية عام ١٩٩٤ / ١٩٩٥ ، وعلى جائزة كافافيس للدراسات اليونانية عام ١٩٩٨ ، وعلى جائزة نجيب محفوظ للرواية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٩٩ .
- حصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ٢٠٠٠ .

قصص وروايات

١- حيطان عالية : مجموعة قصص	القاهرة : الخراط ١٩٥٩
	ط٢ (كاملة) بيروت :دار الآداب ١٩٩٠
	ط٣ (كاملة مع مقدمة ودراسات) الاسكندرية : دار المستقبل ١٩٩٥ .
٢- ساعات الكبرياء : مجموعة قصص	بيروت : دار الآداب ١٩٧٢
	ط ٢ بيروت : دار الآداب ١٩٩٠
	ط ٣ - القاهرة : مختارات فصول ١٩٩٤
٣- رامة والتنين : رواية	القاهرة : الخراط، ١٩٧٩- طبعة محدودة
	بيروت :المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠
	ط ٢ - بيروت : دار الآداب ١٩٩٢
	ط ٣ - الإسكندرية : المستقبل ١٩٩٣ القاهرة :
٤- اختناقات العشق والصباح : قصص	دار المستقبل العربى ١٩٨٣
	ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
٥- الزمن الآخر : رواية	القاهرة : دار شهدى ١٩٨٥
	ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
٦- محطة السكة الحديد : رواية	القاهرة :الهيئة العامة للكتاب، (مختارات فصول) ١٩٨٥
	ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
٧- ترابها زعفران : نصوص اسكندرانية	القاهرة : دار المستقبل العربى ١٩٨٦
	ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩١
٨- أضلاع الصحراء : رواية	القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧
٩- يابنات اسكندرية : رواية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
	ط٢- القاهرة :دار الياس العصرية ١٩٩١
١٠- مخلوقات الأشواق الطائرة : رواية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
	ط٢-القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢
	ط٣، القاهرة: مركز الحضارة العربية ١٩٩٦
١١- أمواج الليالى : متتالية قصصية	القاهرة : دار شرقيات ١٩٩١
	ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
١٢- حجارة بوبيللو : رواية	القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٣
	ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣
١٣- اختراقات الهوى والتهلكة: نزوات روائية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣
١٤- رقرقة الأحلام الملحية : رواية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٤
١٥- أبنية متطايرة : رواية	بيروت ،دار الآداب ١٩٩٥

١٦- حريق الأخيلة : رواية — الإسكندرية ، دار المستقبل ١٩٩٤
١٧- اسكندريتي : كولاج قصصي — الإسكندرية ، دار المستقبل ١٩٩٤
١٨- يقين العطش : رواية — القاهرة ، دار شرقيات ١٩٩٧
١٩- تباريح الوقائع والجنون : تنويعات روائية — القاهرة ، مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
٢٠- عمل نبيل (مختارات) — القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٩
٢١- رقصة الأشواق (مختارات) — وكالة الصحافة العربية ٢٠٠١
٢٢- صخور السماء : رواية — القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠١
٢٣- طريق النسر ، رواية — القاهرة، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٢
٢٤- مضارب الأهواء (قصص قصيرة) — تحت الطبع
٢٥- الغجرية والمخزنجي — تحت الطبع

شعر

٢٦- تأويلات : سبع قصائد إلى عدلي رزق الله — القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦
٢٧- لماذا؟:مقاطع من قصيدة حب (١٩٥٥-١٩٩٥) — القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٦
٢٨- ضربتني أجنحة طائرك (قصائد إلى أحمد مرسي) — القاهرة : دار حور ١٩٩٦
٢٩- طغيان سطوة الطوايا (قصائد الإصاتة وقصائد أخرى) — القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة (أصوات أدبية) ١٩٩٦
٣٠- صيحة وحيد القرن (قصائد إلى سامي علي) — القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٨
٣١- سبع سحابات ، دانتيللا السماء — القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠

دراسات

٣٢- مختارات من القصة القصيرة في السبعينات :مع دراسة — القاهرة : مطبوعات القاهرة ١٩٨٢
٣٣- عدلي رزق الله : مائيات ٨٦ : دراسة — القاهرة : عدلي رزق الله ١٩٨٦
٣٤- مائيات صغيرة : دراسة — القاهرة ١٩٨٩
٣٥- .أحمد مرسي : دراسة ومختارات شعرية — القاهرة ١٩٩٠
٣٦- من الصمت إلى التمرد :دراسات في الأدب العالمي — القاهرة : كتابات نقدية ١٩٩٤
٣٧- "الحساسية الجديدة" :مقالات في الظاهرة القصصية — بيروت : دار الآداب ١٩٩٣
٣٨- "الكتابة عبْر النوعية" : دراسة — القاهرة : دار شرقيّات ١٩٩٤
٣٩- "عصيان الحلم" :مختارات ودراسات في الشعر — أبو ظبي : المجمع الثقافي ١٩٩٥
٤٠- "أنشودة للكثافة " : في الفن والثقافة — القاهرة ، المستقبل العربي ١٩٩٥
٤١- مهاجمة المستحيل : سيرة ذاتية للكتابة — دمشق ، دار المدى ١٩٩٦
٤٢- مراودة المستحيل : حوار مع الذات والآخرين — عمّان ، دار أزمنة ١٩٩٧
٤٣- أحمد مرسي شاعرٌ تشكيليّ — القاهرة،الهيئة العامة لقصور الثقافة (نقوش)١٩٩٧

٤٤- ما وراء الواقع : في الظاهرة اللاواقعية — القاهرة :الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية)١٩٩٨
٤٥- أصوات الحداثة: اتجاهات حداثية في القص العربي — بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٩
٤٦- شعر الحداثة في مصر : دراسات وتأويلات — القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٠
٤٧- المشهد القصصي في مصر — القاهرة ، مركز الحضارة العربية ، ٢٠٠١
٤٨- القصة والحداثة — القاهرة ، مركز الحضارة العربية ، ٢٠٠١
٤٩- المسرح والأسطورة ، أساطير مسرحيّة — تحت الطبع
٥٠- رمسيس يونان — تحت الطبع

دراسات معدة للنشر:

٥١- "الحلم وزهرة المقاومة" : في الشعر
٥٢- "من العبث إلى الالتزام" في الأدب الوجوديّ
٥٣- عن قصيدة النثر
٥٤- مواجهة المستحيل :مقاطع أخرى من سيرة ذاتيّة
٥٥- إيماءات عن الفن التشكيلي
٥٦- أضواء أخرى على الحساسية الجديدة
٥٧- في الواقعية وما بعد الواقعية
٥٨- فجر المسرح
٥٩- في التراجيديا اليونانية

كتب مترجمة:

٦٠- الخطاب المفقود : مسرحية أ.ل. كارجيالي — القاهرة : الدار المصرية للكتاب ١٩٥٨ (نفد)
٦١- الحرب والسلام : ليو تولستوي — القاهرة : الدار المصرية للكتاب ١٩٥٨ (نفد)
٦٢- الغجرية والفارس : قصص رومانية — القاهرة :الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٨ (نفد)
٦٣- شهر العسل المر : قصص إيطالية — القاهرة :الهيئة العامة للكتاب ،(كتب ثقافية)١٩٥٩ (نفد)
ط٢ القاهرة :الهيئة العامة لقصور الثقافة(آفاق الترجمة)١٩٩٩
٦٤- فارالاكو : رواية غينية ،إميل سيسيه — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب(الألف كتاب)١٩٦٢ (نفد)
٦٥- أنتيجون :مسرحية جان آنويّ بالاشتراك مع ألفريد فرج — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب(الألف كتاب)١٩٦٣ (نفد)
٦٦- مشروع الحياة . دراسة فرانسيس جانسون — بيروت : دار الآداب ١٩٦٧ (نفد)
٦٧- ميديا : مسرحية جان آنوي — القاهرة: الهيئة العامة للكتاب(مجلة المسرح)١٩٦٨ (نفد)
٦٨- الوجه الآخر لأمريكا : دراسة ميكائيل هارنجتون — بيروت : دار الآداب ١٩٦٨ (نفد)
٦٩- تشريح جثة الاستعمار : دراسة جي دي بوشير — بيروت : دار الآداب ١٩٦٨ (نفد)
٧٠- الشوارع العارية : رواية فاسكوبراتوليني — بيروت : دار الآداب ١٩٦٩ (نفد)
ط٢- القاهرة: دار الياس العصرية ١٩٩١
٧١- نحو التحرر : دراسة هربرت ماركوز — بيروت : دار الآداب ١٩٧٢ (نفد)

٧٢- حوريات البحر : قصص أمريكية — القاهرة : دار الهلال ١٩٧٩ (نفد)
ط٢ - القاهرة : شرقيات ١٩٩٥

٧٣- الإسلام والاستعمار : دراسة . — القاهرة : دار شهدى ١٩٨٥

٧٤- الرؤى والأقنعة : قصص مترجمة — أبو ظبى : المجمع الثقافى ١٩٩٥

٧٥- السرير المائدة : شعر پول إيلوار — القاهرة :الهيئة العامة لقصور الثقافة(آفاق الترجمة)١٩٩٧

٧٦- ثلاث زنبقات ووردة : قصص مترجمة — القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.

مسرحيات مترجمة للبرنامج الثانى ، الإذاعة المصرية

٧٧- النورس	أنطون تشيكوف
٧٨- سوء التفاهم	ألبير كامى
٧٩- الحصار	ألبير كامى
٨٠- المجانين	ألبير كامى
٨١- مسافر بلا متاع	جان آنوى
٨٢- بيكيت	جان آنوى
٨٣- عنقاء كثيرة الظهور	كريستوفر فراى
٨٤- سوناتا الشبح	أوجست ستريندبرج
٨٥- انتهت الحرب	ماكس فريش
٨٦- السلام	أريستوفانيس
٨٧- الخرب	سول بيلو
٨٨- فى قلب السنين	إريك بيركوفيتشى
٨٩- الأسلاف يتميّزون غضباً	كاتب ياسين (مسرح الجيب)
٩٠- الهولندى	ليروا چونز
٩١- الأقزام	هارولد پينتر
٩٢- الطريق البنفسجى إلى حقل الخشخاش	موريس ميلدون
٩٣- الولد الحالم	يوچين أونيل
٩٤- بعد يوم واحد	چوزيف كونراد
٩٥- كلمات على زجاج النافذة	وليام بتلريتس
٩٦- البروفيسور تاران	أرتير آداموف
٩٧- الملك والمتسولة	جوفيند داس
٩٨- العذاب	جوفيند داس

كتب عن المؤلف

١ - يقين الكتابة (حسني حسن) القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦
٢ - جماليات التشظي (السيد فاروق) القاهرة ، دار شرقيات ١٩٩٦
٣ - ثنائيات إدوار الخراط النصية (أحمد خريس) عمان ، دار أزمنة ١٩٩٨
٤ - صوت صارخ في الشوارع (عدة مؤلفين) القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨
٥ - مغامر حتى النهاية (عدة مؤلفين) القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠
٦- شعرية المكان فى الرواية الجديدة: الخطاب الروائى لإدوار الخراط نموذجًا الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، كتاب الرياض، ٢٠٠١

رسائل جامعية :

1. Thesis for M.A.
- Temporality and the Ontological Experience in the work of Virginia Wolf, "To the Lighthouse" and Edwar Al-Kharrat's "Saffron City" : By Maggle H, Awadalla-May 1989 - American University of Cairo.
2. Mémoire pour maitrise
- Rama wa-t-Tennin, du myth à la mystique, avec traduction de "Mikhil et la Cygne" 1er chapiter de Rama wa-t-Tennin, par Catherine Farhi, Juin 1989, Université de Aix-en-Provence, sous la direction du Pr. Charles Vlal, France.

٣ - السنة الجامعية ١٩٨٩ - ١٩٩٠ ، بحث لنيل شهادة استكمال الدروس الجامعية ، الجوهري أحمد ، الرباط - والحكي الشعري في رواية رامة والتنين" جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تحت إشراف د. أحمد اليابوري .

٤ - السنة الجامعية ١٩٩٠ - ١٩٩١ ، بحث لنيل شهادة الدراسات التكميلية ، عبدالرحمن الناصر - الوصف في رواية يا بنات اسكندرية، الرباط ، جامعة الخامس، كلية العلوم الإنسانية - تحت إشراف د. أحمد اليابورى .

٥ - ملسنة الجامعية ١٩٩١ - ١٩٩٢ ، جزء من رسالة دكتوراه نالت مرتبة الشرف الأولى، محمد مهدي غالي - «صور الشكل السيريالي (توظيف معطيات الحلم والأسطورة وتيار الوعى)» . كلية الآداب ، جامعة بنها . (مقتطف من «تطور الشكل الفنى فى القصة المصرية القصيرة .

6 - Thesis for B.A.
- Real and Dream-likein edward Al-Kharrat's Alexendria, By Magda- Lia Bloos, June 1992. Bucharest University, Romania, under Dr. Mioara Roman supeivision.
7 - Thesis for M.A.
- The stream of consciousness ;lechniques in the modern novel: A compar-

ative study of james Joyce's Ulysses and Edwar Al-Kharrat's The Other Time, By NaglaaRoshdy Al- Hawary, 1992. Supervision Prof. Amin Al-Ayouti & Dr. al-Sayed Al-Bahrawi, The English Department.

٨ - السنة الجامعية ١٩٩٢ - ١٩٩٣، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة :

شدّاق بو شعيب - «تشخيص الخطاب الروائي من خلال الزمن الآخر ورامة والتنين» .
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الإمام محمد الخامس، الرباط - تحت إشراف الدكتور محمد برادة .

٩ - السنة الجامعية ١٩٩٢ - ١٩٩٣، شهادة الكفاءة في البحث :

الصادق القاسمي «فن القص في رامة والتنين» - كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الجنوب - صفاقس تحت إشراف د. محمد الباردى.

10Thesis for M.A.

- The Aesthetic Faith in the Self, An Inquiry into James Joyce "A Portrait" , J. P. Sartre"Les Mots" and Edwar al Kharrat "City of Saffron" , by Nashwa Al-kAssry, 1994 Supervision Dr. Ferial Gayonl, A.U.C.

١١ . السنة الجامعية ١٩٩٦، رسالة ما جستير في الأدب العربي:

أحمد خريس - "ثنائيات إدوار الخراط النصيّة ، دراسة في السردية وتحولات المعنى - « كلية الآداب - جامعة اليرموك إربد الفيوم)
(إربد - الأردن) تحت إشراف د. خليل الشيخ . (صدرت في كتاب عن دار «أزمنة» عمان الأردن ١٩٩٨) .

12. Thesis for M.A.

- Alexandria and Forms of the Chronotope : A study of Justine, Miramar and Ciy of Salffron, by Ghada El-Koussy, 1997, Superision Prof. Radwa Ashour, Cairon University. The English Departmet.

١٣ - السنة الجامعية ١٩٩٨ - ١٩٩٩ بحث لنيل شهادة الماجستير :

سمية الحسيني - «لغة القصّ في رامة والتنين» ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، تحت إشراف الدكتور صلاح فضل .

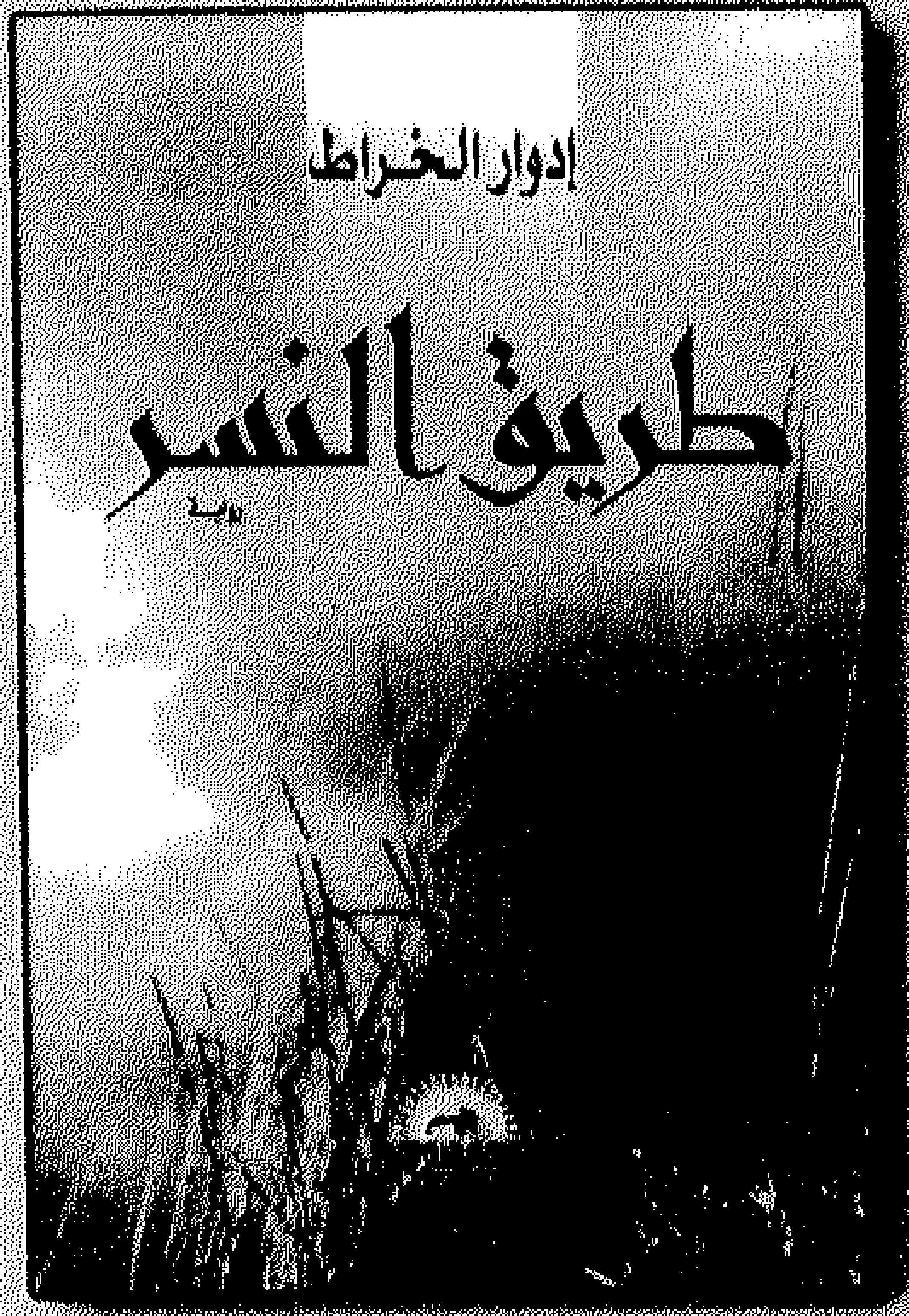
من قائمة الإصدارات الأدبية

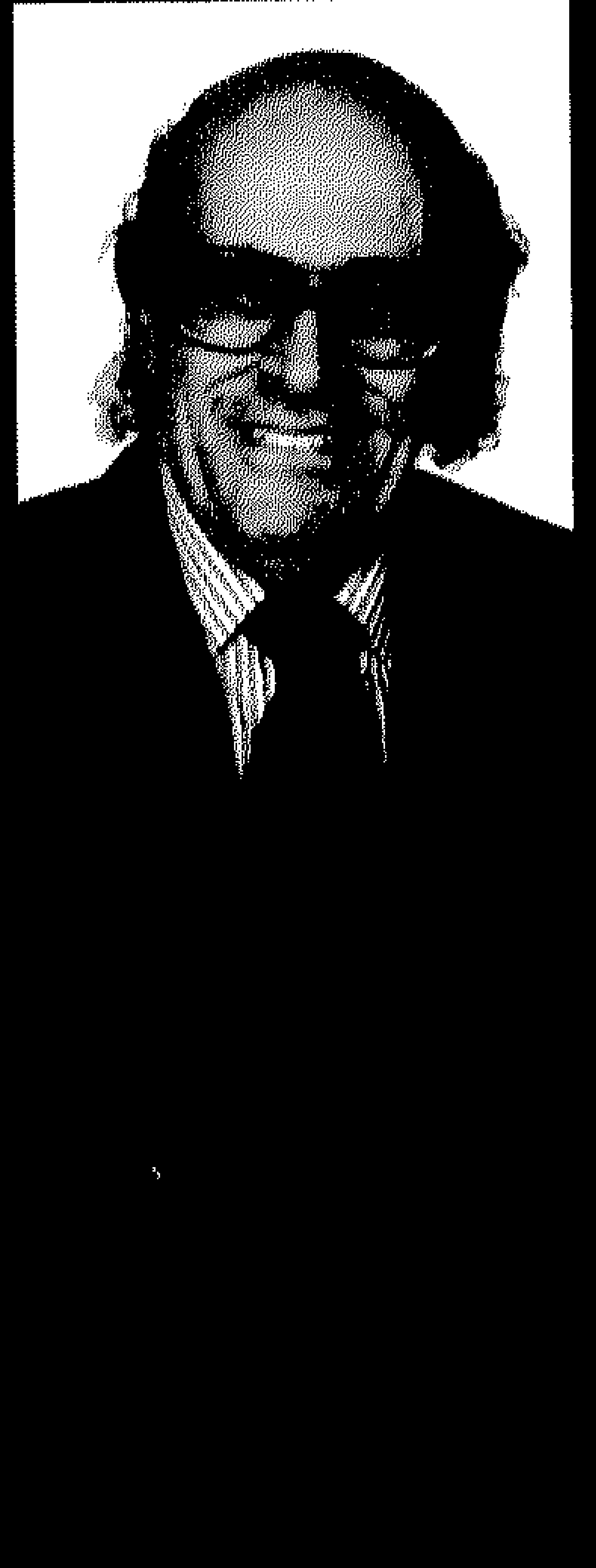
رواية - قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	سراديب	عفاف السيد
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين	إينارو	د. على فهمى خشيم
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	حكاية شمردل	عمار على حسن
سريب	أحمد الفيتورى	جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدا)	د. فاروق أوهان
وقائع غرق السفينة	إدريس على	البحر يغرق	د. فاروق أوهان
صخور السماء	إدوار الخراط	وجهها وطن	فاطمة يوسف العلى
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	لبلاد طلبت أهلها	فيصل سليم التلاوى
همس العاشقين	أمين بكير	يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى	خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
مطربة الغروب	جمال الغيطانى	ترانزيت	ليلى الشربينى
تكوينات الدم والتراب/الخروج من النص	د. جمال التلاوي	الفتيت المبعثر	محسن الرملى
المتعبون	جمعة محمد جمعة	الميناء الشرقية	محمد جبريل
دموع إيزيس	حسنى لبيب	مد الموج	محمد جبريل
يومية هروب	خيرى عبد الجواد	حريم .. (أعزكم الله)	محمد الغربى عمران
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد	الخروج إلى النبع	محمد قطب
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن	يا عم يا جمّال	محمد الناصر
شجرة الخلد	سعد القرش	الحياة الذروة	د. محمد نعيم شريف
شهقة	سعيد بكر	الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
أيام هند	سيد الوكيل	فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد	اختزال في المسافة والسفر	محمود الورواري
أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد	الحنين إلى النسيان	ممدوح القديرى
دردانين	عاشور الطويبى	الضياع وجبل الأوهام	ممدوح القديرى
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق	الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
الخرابة	د.عبد الرحيم صديق	دم الأبنوس	ناجي الشكري
ليس هناك ما يبهج	عبده خال	ويصدأ ماء النهر	ناصر الهلابي
لا أحد	عبده خال	حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسوانى	قمر أخضر	نهلة السوسو
صعيدي صح	د. عزة عزت	خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز





أحداث الحركة الوطنية الثورية فى إسكندرية الأربعينيات وما يدور حولها من تأملات عن أقدار الوطن والتساؤلات عن معنى العدالة والحقيقة وقيمة الثورة وسقوط الشهداء ودلالات الاستشهاد عبر الأجيال وحتى الآن. هل هناك معنى ميتافيزيقى، مقدس، يتجاوز الإنسان فى العمل الثورى؟

اندلاع المظاهرات الحاشدة وتشكيلات اللجان والحلقات الثورية سواء كانت علنية أو سرية وتحالف أو تضارب التيارات السياسية والفكر ... بة وحافلة بالأمجاد والآمال والتضحي ...

مصائر الشخصيات وعلاقات ... ت الفانتازيا فى غمار الكفاح الث ... ار معتقلات أبو قير وهاكستيب وال ... ق الحلم بالحرية : طريق النسر.

